



(رواية)

حديث القريتين

المؤلف في سطور:

- ولد في فلسطين في الثالث من أيار / مايو عام ١٩٣٣م.
- درس في مخيم القرية في مسجد الشيخ محمد وفي مدارسها، وأنه حراسته الابتدائية في مدرسة لفتا - القدس عام ١٩٤٧م.
- انتقل إلى مصر وواصل دراسته الثانوية فيها أيام النظام الملكي وثورة ٢٣ يوليو الباسية سنة ١٩٥٢م.
- حصل على دبلوم المعلمين والمعلمات الخاص / قسم اللغة الإنجليزية / القاهرة سنة ١٩٥٦م.
- حصل على بكالوريوس الآداب / قسم الفلسفة والاجتماع - بيروت سنة ١٩٧٠م.
- اشتغل في تعليم اللغة الإنجليزية في مدارس الأردن الثانوية، وفي مدارس الخليج معلماً ومرشداً تدريبياً للمعلمين والمعلمات اللغة الإنجليزية وذلك زمان أربعة وثلاثين عاماً.
- اشتغل معاصراً لدروس اللغة الإنجليزية وآدابها في قطاعات المجتمع في الأردن.
- شتبه العديد من المقالات السياسية والاجتماعية والحديثة في صحف الأردن اليومية عدة خمس سنوات متتالية.

• ومن مؤلفاته :-

- ١- فلسطين في قصة قرية - فريتي فلسطين - الأرض والبطور ١٩٩٣م.
- ٢- أشواق في العيون - ٢٠٠٢م.
- ٣- القصة الطامعة للفتنة الحزبية المصوحبة، والإعلامية، والعربية - ٢٠٠٥م.

للغائب والروائي
عالم محمد سميرين

(رواية)

حديث القريتين



للكاتب والروائي

عالم محمد سميرين



غالب محمد سميرين

«حديث القريتين»

رواية

تقديم

يخيل إليك وأنت تقرأ رواية (حديث القريتين) أن فلسطين لم يبق لها إلا البكاء، فالرواية في المحصلة مأساة دامعة ترتحل معها منذ البداية حتى النهاية والأحاسيس الصغيرة والكبيرة تعتصر قلبك وهي تلقي الضوء على تفاصيل المأساة.

ففي الرواية الكثير من العمق، ويكفي من العمق هنا أن يكون الكاتب قد انحدر إلى أعماق قضية الفلسطينيين، من إحساس الفرد الجزئي بوضعه إلى الإحساس العام بهذا التبدل الكبير الذي طرأ على فلسطين في النواحي الإنسانية والحياتية والاقتصادية. فإذا بالفلسطيني ملقى بين تناقضات ضخمة، ضائع بين التيارات المختلفة، ولا يجد آخر الأمر إلا السَّوط يلسع ظهره والسجن ينتظره، وكذلك العذاب والجوع والعري. أليس العمق في هذه البساطة المتناهية في نقل صورة كاملة عن تلك النفسيات البسيطة والشخصيات المسكينة التي تواجه قدرها في بساطة عجيبة؟ إنها نفسية الفلسطيني يعمرها الحب لكل ما هو إنسان أو الحياة، وتعمرها الطيبة لكل ما هو جميل وطيب. ومع ذلك فمن قلب هذه النفسية المسكينة يتحرك نشئ هادر يجتاح الآلاف في عمق يبلغ الجذور. إنه اليقظة، إنه الثورة، نماذج حية لهذه الثورة، نماذج أطلت بوجهها وأشار إليها الآخرون وعرفوها. ولكن خطى هذه الثورة لم يكتب لها أن تحدث وقعها النهائي في آذان الجماهير. بعد أن حاولت حفر كلماتها دروباً

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (آية ١١٢)

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (آية ١١٣)

قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (آية ١١٤)

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ (آية ١١٥)

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (آية ١١٦)

سورة المؤمنون

ولكنها لم تتعبّد. فالطبقة الإقطاعية تتحاز دفاعاً عن مصالحها إلى جانب الأعداء، والقيادات التقليدية والزعامات العربية قامت بدورها في التآمر على تلك الثورة وإجهاضها.

الرواية هي قصة كل فلسطين، وهي قصة الجيل الجديد الضائع التائه بين شتى النزاعات.. الذي يتعلم الصدق كما يتعلم الدجل، يتعلم الحب كما يتقن الكُره. هي بعد كل هذا قصة الرغبة في النهضة التي تكبلها مطامع الخونة وجشع وتسليط اللامنتمين.

(حديث القريتين) هي سيرة شعب في أحلك فترات حياته لما حَفَلَتْ به من عوامل البقاء والفناء. والرواية توحى بأن سبب كتابتها نبع من المعاناة التي أحسها الكاتب. لاسيما وإن حالة الشعب المشرّد وقضيته ومحنته مازالت ماثلة واضحة للعيان دون أن تحرك في المجتمع الدولي الظالم أي مشاعر إنسانية أو تعاطف اجتماعي رقيق.

تمثل الرواية نظرة ارتدادٍ نحو الماضي استحضره الكاتب وجعلنا نقرؤه، مُدمجاً مع حاضر يزهد الأرواح ومستقبلٍ ستقرأ صورته القائمة من وجهة نظر يتحكم فيها مفهومه وموقفه من مجتمعه. كل هذا في صيغةٍ تكتسب جمالياتها لتشد القارئ إلى النص الروائي ليصبح شريكا فيه.

إن للرواية في استجلائها للوقائع التاريخية وللنضال الوطني ضد الظلم والطغيان الذي مارسه الحكم التركي ومن بعده الاحتلال البريطاني

والإستييطان اليهودي قد استندت على الميراث الشفوي ومعه كل السبل المتاحة للمعرفة.

وقد انفتحت الرواية منذ البدء على التاريخ والمجتمع والسياسة لتشكّل المادة التي يُراد التعبير عنها. وهي الصورة لما يصطّرع في الحياة المعيشية في قضايا وصراعات تعبر عن الجماعة من خلال الفرد، وواقع الفرد من خلال الجماعة. وقد استكملت الرواية صورتها بتوفر المادة المستندة إلى المقروء والمرئي وهو ثقافة الكاتب الذاتية والمحكمي على لسان شهود العيان.

لقد قدم لنا الكاتب روايةً يعرف معظمنا أكثر خلفياتها، لكنها جاءت مختلفةً. لما تمثله في الذهن من معاني الصراحة والصدق والجرأة في المواجهة وتحدي كل ما يسئ إلى القيم. أضف إلى ذلك تلك اللمسات الإنسانية التي نلقاها في الحوار والمواقف والأحاسيس، وكذلك التحليل الموضوعي والحقائق المجردة وتسمية الأشياء بأسمائها، والرأي الصريح الذي بقي في ضمير الغيب حتى أتى الكاتب فخطف هذا الضمير المستتر وحوّله إلى ضمير معلنٍ علّ ذلك يوقظ من أثقل النعاس جفونهم أملاً ألاّ يبقى النيام نياماً.

الرواية بلا تردد تبهرك باستوائها وبينائها وتجعلك على الفور تتلمس المعنى والرسالة والمغزى الذي وراءها. فكلمات الرواية كلها تحمل في مضامينها شحنات إيجابية مؤثرة هدفها الأسمى محاكمة الجميع من

خلال تعرية الجميع وإنذار كل فرد فلسطيني وعربي لفهم كشف ذنوبهم وتعرية حقيقتهم. أن استنبات الماضي بما لا طاقة للحاضر عليه يجعل هدف الكاتب أن يستفز حَمِيَّة إن بقي هناك حمية ويوقظ من سبات، ذلك انه يرى أن حاضرننا ومستقبلنا المنظور يثيران الشفقة أكثر من الحسد، ويرى أن الأماني هي كل رصيدنا في الحياة. لذا وضع ذلك موضع الاعتبار. صحيح أن الكاتب مشدود إلى الواقع بما فيه من أحداث وأشياء وأشكال وإنسان وإحساس وغيرها، لكنه معنيٌ أيضاً بمعنى ذلك الواقع. انه لا يريد أن يرى الواقع مجرد مظاهر يمكن أن تعرض عرضاً، بل يريد أن يعطيها معناها على المدى الإنساني الشامل.

الرواية دون موارد مرآة صادقة عكست روح كل الفترات الزمنية دون استثناء وتعقيداتها وتآزماتها وشكوكها، وخلطت المواقف السياسية والاجتماعية وبيّنت كيف تختفي الحقيقة تحت أغطية التظاهر والخداع والزيف والإيهام والادعاء والصاق التهم بالآخرين. وتمضي الرواية مع القارئ في اطراد منطقي. لا يهمل الكاتب صغيرة حتى لاتضل الحقيقة في الكبيرة. يستدل من هذه لتلك ومن تلك لهذه معللاً مفسراً دون أن يُخلّ بالمتعة الروائية أو يسيء إلى منطق التاريخ. إن جلاء الحقائق التاريخية ليُعِيد لأي شعب بعض ثقته وينير فكره وينقذه من الأوهام ويضع إصبعه على مكامن العلاقات بين الأحداث، فيستمد منها العبرة والوعي.

إن الكاتب قد رأى التاريخ بأساليب جديدة، ووجد أهمية عميقة في معاني الحياة حوله. إن ما يعنيه هو علاقة ذلك الماضي بعملية التطور التاريخي الذي أسلمنا إلى حاضرننا البائس. فالرواية تعج بالعديد العديد من الشخوص وعشرات المئات من الأحداث والوقائع والتفاصيل التي لا أظن الاستغناء عن احدها ممكناً. والكاتب ينقلنا بين تلك الأحداث والوقائع والتفاصيل في ذلك الزمان وهذا الحاضر المؤلم. وينجح أيما نجاح في مدى إظهار جوهر الموضوع عن طريق اختياره لتلك الوقائع والتفاصيل وعرضها للقارئ. كما ويجعل المشاهدات المحكية على لسان الشخوص تقوم بدور الشاهد على صدقه ودقته وتقنعنا بأن الرواية ليست من صنع الخيال على الرغم من وجود بعض الخيال فيها والمتتبع لوقائع الرواية يتبين أن الكاتب يدرس شخصياته بكل ظروفهم ويتتبعهم أحياناً منذ الولادة حتى نهاية حياتهم كما هو الحال مع (نضرة) وغيرها - واعياً كل ما يطور نفسياتهم و نظرتهم و أفعالهم. وهو في الوقت ذاته يدرس البيئة وعواملها والظروف ومسبباتها ونتائجها. وهنا تتجلى صفة المدقق الباحث عن الحقيقة. فهو ينقب في كل خبر وتستعريه كل حادثة، فيحلل ويربط الأمور فيما بينها ويستنتج الآراء من الأحداث ذاتها بأسلوب صقيل و نهج أخذ مريح للنفس. ونراه يستند إلى ما يدعم الرواية ويشدها إلى الحقيقة التي التبتت طويلاً. فالرواية تزدهم بالعديد من الشخصيات، ويحس القارئ من الكلمات بكل المشاعر التي تملأ صدورهم و الأفكار التي تضح بها رؤوسهم.

وليس من السهل على القارئ أن يقع على كلمة أو نبأٍ ليس لها مداها البعيد في تطور الأحداث والشخصيات، وفي تحقيق الهدف الذي وضعت من أجله. وهو الذي يُحسُّ بحضور الكاتب في كل صفحات الرواية يوزع الأصوات واللهجات ويميز بين شخصيات الرواية ويحدد أبعادها. هذه الشخصيات بمظاهرها نجح الكاتب في رسمها رموزاً تُجسّد الأدوار التي رسمت لها.

إن الرواية حافلة بالمعاني الإنسانية والشخصيات المتفردة. لكن هذا لا يمنع أن تبقى الشخصيات الأخرى ماثلة للذهن. ومهما يكن القول فإنه رغم تراكم الأحداث فإن الشخصيات واضحة متفاعلة تتحرك وتتكلم بدوافع المشاعر الغريزية والجمالية دون تكلف، وهم صورة واقعية عن الحياة و المجتمع تراها أمامك تتابع فيها أنفاسهم و لهائهم، ترقب حركاتهم وتندس في عقولهم وقلوبهم حتى تبدو لك هذه الرواية نوعاً من المسرح الذهني تتحرك فيه الأفكار والعواطف بموازاة حركة الأشخاص وتحركاتهم. إن كل ما في الرواية من استفاضات ضروري للشخصيات وللرواية. أضف إلى ذلك أن التحليل النفسي عنصر أساسي في الرواية. وعلى الرغم من قناعتي بأن هذه الرواية قد كتبت بمنهجية مدروسة، إلا أن الانطباع ب تلقائيتها يفرض نفسه. الأمر الذي إن دل على شيء فإنما يدل على دقة رسم الشخصيات وتداول الأدوار بينهم كأنك تقابلهم وتراهم ولا تقرأهم. إن العلاقة الوثيقة التي نشعر أنها تتعرّز بين الكاتب وشخصياته

تجعلنا نشعر بأن الشخصيات قد سبق لها أن قرأت الرواية التي توجد هي في ثناياها.

إن الكاتب بواقعيته يقدم الشخصيات كما هي بالحياة لدرجة أنه نجح إلى حد كبير في تصويرها إلى المستوى الذي يجعل القارئ لا ينساها. فهو يستعرضها فيصفها وصفاً تصويرياً ربما ليقول بأن قيمتها تكمن في مقدرتها على نقل الأفكار إلى حيز الوجود. وعلياً ألا نفعل عن أن الكاتب رسم الشخصيات ليس على أنها إنسان ضعيف، بل على أنها الإنسان الذي هضم حقه وعليه أن ينتزعه، وعلى أنها الثائر المتمرد الذي يسعى إلى حقه و حريته بكل ما يملك من قوة. وهناك مفارقة فعلى الرغم من أن الشخصيات قد احتدمت بالمصائب والتكبات إلا أن الكاتب قد دفع ببعضها إلى أن تُهرع لإنقاذ أطفال اليهود من بين أيدي الثوار الفلسطينيين. أليقول أن الفلسطينيين بحبهم الكبير ما يزالون يأملون في تغير اليهود أم ليحفز اليهود على التخلص من نظرتهم العرقية وإحلال فكرة التعاون المثمر بين الطرفين الفلسطيني واليهودي..

لا يختلف اثنان على أن الكاتب استطاع أن يمسك بناصية أسلوب أدبي متين يجعلك تلتحم بأحداث الرواية و تراها بوضوح، وتكاد تجزم وأنت تقرأ الرواية أنها كلٌ متماسك سريع الحركة حاد التصويب. والكاتب ببعده عن الاصطناع يعرف كيف يستثير القارئ ويستحوذ على أفكاره وأحاسيسه وكيف يجعله أسير كلماته. فالمادة الروائية مؤطرة

في حوار أو في وصف أو سرد أو على لسان أحد الشخصيات. والمذهب الواقعي الذي نراه في الرواية ليس أسلوباً كتابياً راكداً، بل هو المكان الذي تلتقي فيه الهموم الشخصية والعالم الاجتماعي. فالاستعمال المكثف للأقوال الماثورة التقليدية والأمثال السائدة الجارية: (الثمرة ما بتبعد عن الشجرة، من هالنومة ما منها قومة) لدليل على انتماء شخصيات الرواية إلى بيئاتها ودعوة القراء لمشاركة الشخصيات بتداول الثقافة الشعبية لتقريب معاني الحوار والجمل المسهية التي لجأ إليها الكاتب على غرار الكاتب الأمريكي (فوكنر) بهدف أن يتم استيعاب الشيء المراد فهمه أثناء تطور السرد القصصي، بالإضافة إلى استعمال العديد من الألفاظ العامية مثل: (محرزة، خوابي) بهدف إعطاء الدلالة الدقيقة للمعنى.

ورغم أن الكاتب لا يلتزم بالترتيب الزمني للأحداث، ورغم أنه ينتقل من موضوع إلى آخر فإن الترابط قائم بقوة ولا تشعر بالنقلة. وهو في سرده للماضي قريب الذاكره حي الصورة مفيض في رسم الشاعر مما يجعل الرواية شيقة ممتعة. فكثيراً ما تشعر أن كل شيء معلق في الرواية ينتظر حدثاً أو حلاً. فتثور في نفسك انفعالات، كما تحدثم الانفعالات في شخصيات الرواية ثم تتقارب الأبعاد وتلتحم لتضفر على وجود إنساني عميق، فيه أسئلة تتوالى في اندفاع عصبي يجري وراءها القارئ ليدرك النهاية.

ويغلب على الرواية السرد و الوصف وسيطر عليها جو من الاسترسال والتلقائية في التعبير يمتاز بها الكاتب على الرغم من انه بدأ أسلوبه بما فيه من التصعيب في البناء اللفظي ومن التلاعب بالتركيب والإكثار من الجمل المعترضة، كما ويغلب عليها العاطفة بما فيها من حنين و آسى و ذكريات على الرغم من جدية الموضوع. إن لغة الكاتب ذات طبيعة مضمونية يركز فيها على الاسترجاع والتمهيد والتكرار، وكذلك على التشخيص الذي يتضح بالصّور والأخيلة ويعتمد على المحكي وعلى الأوصاف والمشاهد الاشتمالية. ولم يغفل الكاتب عن تضمين روايته شتى أساليب البلاغة كالتورية كما في "حديث القريتين" ف "حديث" لفظ مفرد له معنيان قريب ظاهر غير مراد وهو "تواصل" وبعيد خفي هو المراد وهو "جديد"، وكما هو في مثال آخر (رشدان وما هو برشدان) ف "رشدان" لفظ مفرد له معنيان قريب ظاهر غير مراد وهو "اسم الشخص" وبعيد خفي هو المراد وهو "الواعي"، و الجناس كما في (السهول والحقول) والطباق كما في (نجاستها وطهرها) و(نسيته ولم أنس)، والاقتراس القرآني كما في (حتى يطهرن) والاقتراس اللهجي Dialect Borrowing كما في (ترى أبوك وعمك حُونُهُم ما مثلها) و(كان عمك رشدان ترميه بأخر الطعش) الخ من لهجة "حبوس" البدوية وهي تسرد قصة العم رشدان، والتي ألقى الكاتب الضوء عليها كما لو كانت درسا في علم اللغة والصوتيات. والتشبيه كما في (غرف كالأكواخ) و(ساقونا كالدواب) و(فيكون مصيري مصير أولاد مصلح الحميد)،

والكناية كما في (الرحيل مع الطيور) و(حتى استوت شمسك كبد السماء)، والسخرية كما في (إذ رفض جهينة إعلامهم) وكذلك التكرار الذي يعتبر إحدى ركائز تأكيد المعنى والجمل الخبرية التي تعمل على تقرير الفكرة وتثبيت المعنى. وأساليب البلاغة هذه - كونها الأخف على السمع والأكثر اتصالاً بالموضوع والأقوى أثراً في نفوس القراء - لكفيلة بإيقاظ وعي القارئ واستنفاره بشكل يحقق فيه اتصالاً مع النص الروائي. كما ولجأ الكاتب إلى استعمال الاستبطان ليتيح الفرصة للقارئ إلى قراءة أفكار شخصه أو بعضهم كما هو الحال مع "حجر الصخري" وهو يتوعد بقتل رشدان، و كما هو الحال مع "ماجد الغريايوي" وهو يتهدد بأخذ الثأر من "حجر الصخري". أضف إلى كل ما تقدم الوصف الرائع بشموليته - سواء أكان وصف المنظر الطبيعي الأخضر أو الخاصية الرعوية أو غير ذلك - يكسر من امتدادات السرد بالتوقف وتأمل المشاهد الحياتية.

بهذا وبسواه من المحسنات اللفظية والمعنوية جعل الكاتب روايته تزخر بالمعاني بأسلوب متدفق ولغة رصينة فيها فصاحة وفي الجمل متانة، وفي الخيال قوة، والصور الحية بطريقة فنية مبدعة.

إن الرواية بعد كل هذا لم تُنْتَهَ بنصر.. أي نصر. بل انتهت بالهزائم المتوالية والمتلاحقة. صار النصر بالنسبة للعرب القبول بالأمر الواقع والحفاظ عليه. إن هذا يولد لدى القارئ بمأساوية المستقبل، كما تصيب

طبيعة الواقع الاجتماعي المزدوجة القارئ بالذهول، إذ دفع صدق الواقع هذا الشعب إلى المزيد من التشرد وإخلاء الساحة لمزيد من العملاء والخونة.

إن رواية "حديث القريتين" غنية باللقطات الجميلة التي ركزت على الزاوية التي يريد الكاتب إظهارها. وكذلك الحبكة القصصية والجو النفسي الذي ينقلنا إلى جو حياة الناس رجالهم ونسائهم، وأسلوب العيش الذي لا جديد فيه. كل ذلك يؤكد أن نسق الرواية الفني لم يقصد به إلا أن يكون نابعا من الفكرة ذاتها ومن الشخصية. وأكاد أجزم أن الرواية وحدها تقف على رجليها، ولعلها ستعلق في ذهن قارئها بكل كلمة فيها لأنها جزء من الثقافة المطلوبة واجبا وعملا وليس تسلية أو هروبا.

بقي أن أقول أنه حريٌّ بكل فلسطيني وبكل عربي أن يقرأ هذه الرواية مهما كانت اتجاهاته وميوله. ففيها من الحقائق ما ليس في حسابنا. وإنك يا عزيزي القارئ إذا أضفتها إلى مطالعاتك شعرت أنك اغتيت وامتلكت جديداً رائعاً يترك في نفسك أثراً بعيد العمق. وقليل من الناس على ما اعتقد من يستطيع مقاومة الرغبة في اقتناء هذه الرواية.

أمين عبد اللطيف أحمد عبد الله

ناقد ومترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

لعبت الذاكرة والتراث الثقافي الشفاهي دوراً كبيراً في كتابتي لهذه الرواية: "حديث القريتين"، وذلك تقديرًا لأهمية ما سمعته مباشرة أو منقولاً من الأجداد والأعمام والأخوال ومن معارفهم في محاورات شفاهية دارت بينهم في المضافات.. في السهرات العائلية.. في الدواوين.. وفي التواصل اليومي مع المواقف والأحداث. في ثنايا هذا الموروث الشفاهي قصص حافلة كانت بالأمس سلوكاً وحياة يومية عاشها آباؤنا وأهلونا ومعارفنا.. في صراع متسارع مع الحياة حول أحداث فلسطين التاريخية، والمجتمع الفلسطيني.. والعربي، والأماكن المقدسة، والصراع الطويل المريع مع العدو اللدود.. "يهود.. ومن والاهم"..

التاريخ، وما جرى من تواصل بين الناس، وأحداث الأدب.. والعلم كان يروى شفاهياً أولاً، ثم بعد التوثيق والمراجعة والتجريب يصبح تدوينه ضرورياً ومطلوباً، حفظاً لدور الذاكرة الوطنية والإنسان والأرض في إبراز الهوية والشخصية الوطنية.

دول كثيرة سبقتنا في جمع وحفظ تراثها غير المادي، وفي أرشفة الأحداث في مسيرتها، خوفاً على الذاكرة - وخاصة في أيام الفضائيات والإنترنت - من أن يطويها النسيان.. فتضيع..!

كتبت الرواية لنفسى كما هي - كتبت عن هموم ذاتية خاصة وعامة في أمكنة كثيرة، أمكنة حميمية تسكن الذات والكيان! كتبت عن الذكريات وما جرى فيها.. أسمى الأسماء بأسمائها، لا يهمني في الأسلوب أولاً إلا مقتضى الحال وتناسب المقال للمقام! أصف الحياة في زمانها ومكانها من غير تقييد ولا تحفظ ولا مداورة، أذكر السوءات قبل الحسنات، والعورات قبل الفضائل.. أميل إلى الإيجاز حيناً، وإلى الإطناب كثيراً، في صراحة تسلي القارئ وترفه عنه.

كتبت في سيرة شخصيات، منها ما هو حقيقي ومنها ما هو من إبداع الخيال في الجزء الأول من الرواية بالذات، مما خلق تبايناً شاسعاً بينها، هذا التباين في الأشخاص وفي قصصهم جعل منهم أبطالاً بل عظماء لأنهم ببساطة حققوا لهم وجوداً ممتلاً عاشوه بالإنارة وبمواقف الانتصار.. والهزيمة والألم، والانحراف.. والجنون..!! شخصيات رحلت بعد أن تركت بصماتها على حياة أحفادهم.. وأجيالهم..

غالب محمد سمرين

٢٠٠٩/٢/٢٨

قبل الدخول إلى الصميم

أكتب في هذه الرواية عن معاناة الجدود والآباء والأحفاد في مجتمعاتهم، وتحضرني هنا قصة قرأتها حول أمير فارسي كان اسمه "زمير Zemire"، وقد روى تلك القصة أناتول فرانس في كتابه "آراء جيروم" Opinion of Jerome Coignard^(١).

طلب أمير فارسي من علماء عصره - بل أمرهم - أن يكتبوا له تاريخ بني الإنسان، لكي يستتير به عندما يتولى الملك، ويستفيد من عبر الماضي وعظائمه، فيكون حكمه مثالياً. وبعد عشرين سنة، وكان قد أصبح ملكاً، جاء العلماء بقافلة مكونة من إثني عشر جمللاً، كل منها محملة بخمسمائة جزء من كتاب تاريخ بني الإنسان. ولما رأى الملك ذلك، أمرهم باختصار هذا الكتاب الموسوعة. فعادوا له بعد فترة بحمل ثلاثة جمال. ومرة أخرى طلب منهم مزيداً من الاختصار. وبعد عشر سنوات جاء العلماء بحمل جمل واحد، ولكن ذلك أيضاً لم يُعجب الملك وطلب اختصاراً أشد. وأخيراً جاء العالم الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من المجموعة، بكتاب واحد ضخّم مُحمّل على حمار، ولكن الملك كان عندها على فراش الموت، فقال والحسرة تملأ فؤاده:

"سأموت قبل أن أعرف تاريخ بني الإنسان"

قال له العالم: "سيدي! سأوجز لك تاريخهم بكلمات ثلاث"

"ولدوا"

وعانوا

وماتوا."

الجزء الأول

"حديث القريتين"

١ - قرأت هذه القصة في كتاب "بنو الإنسان" من سلسلة عالم المعرفة، تأليف بيتر فارب وترجمة زهير الكرمي.

(١)

الفلسطينية

في الشرفة الأمامية لعلية بيتنا في بلدتنا واسمها "الفلسطينية"، والتي هي سطح لسقف غرفتنا التحتا، أجلس أستمع إلى أبي. لتلك الشرفة سلالم تقودنا إلى عالم ما حول بيتنا في قريتنا وفي خارجها. وللشرفة أيضاً سور على ارتفاع معقول يحمي الأطفال، ويريح الكبار وهم وقوف بإزائه ينظرون إلى الحقول والبساتين والدور والناس في ذهابهم وعند أوبتهم صباح كل يوم وعشية.

من وراء السور نلمح السيارات قادمة من قدس الأقداس مختربة حرساً لمستوطنين غزاة ذاهبة أو عائدة.. فوق شارع يقسم البلاد.. إلى شمال وجنوب بين نقطتين.. الأولى في الأغوار شرقاً.. والثانية على الشاطئ الزيتوني^(١).. غرباً.. من وراء السور.. وهو غير السور الأول سور حجري يحيط بأرض وحوش البيت. ونرى ونسمع أجساماً وأصواتاً تأتي من عالم آخر، أصواتاً قوية ترج الإنسان وخاصة في الليل.. أو تريحه فتسكته.. وتهز المشاعر أو تهدئها.

أبي قال أن منزلنا لطيف وجميل. أصدق كل ما يقوله أبي وأحفظ كلامه عن ظهر قلب، أستمع إلى رواياته وأتمثلها، وإلى حكاياته وأصدقها.. أنظر إلى أبي في جسمه المربع.. لا يميل إلى قصر.. ولا يبلغ إلى طول. أنا ابن هذا الرجل القوي الذي يثق في نفسه في كل وقت، ويعطيها حق قدرها، ولا يقبل أن تُبَحَسَ على أية حال..

أنا ابن هذا الرجل العظيم، الذي كان ينتصر دائماً في معاركه مع الزمن، مع الخوف، مع الفقر مع الرعاية الأجلال المعتمدين، مع الأتراك.. ومع أقاربه ممن استحوذ على أرضه وأنعامه، مع العملاء والسماصرة، ومع يهود وحراسهم وخدمهم من جنود "الإمبراطورية الإنجليزية"..

أجلس وأستمع إلى أبي وهو يحدثني عن هجرته الأولى عام ١٩١١م إلى جبل الدروز، أيام كان ذلك الجبل إمارة مستقلة بذاتها عن سوريا. يحكمها الأمير الدرزي "يحيى الأطرش" شقيق والد المطرية "أسمهان"؛ الأمير فهد فرحان الأطرش. حدثني والدي وأنا أصدق ما يحدثني به، كل ما يقوله لي حقيقة: في خريف ذلك العام وقد أُصْفِرَتْ أوراق الشجر فيه صُفْرَةُ الموت.. وانتشرت في الهواء تولول ناعية الأزهار التي قضت حزناً وكمداً على فراق الصيف.. وشاركتها حداداً عليها جداول المياه وعيونها التي ضلحت مياؤها فتباطأت في سيرها..

١- كلن يطلق على البحر الأبيض المتوسط اسم بحر بلاد الزيتون حيث تبت أشجار الزيتون بكثرة في البلاد التي تقع على شواطئه.

والطلول وهي الخضراء دائماً بدت جُرُزاً خلعت ثيابها.. وكل شيء في الطبيعة قد بات نعساناً قد ودّع اليقظة إلى السبات عن الجمال والحركة والنشاط والإنتاج.

"في مساء يوم من أيام ذلك الخريف أخبرتُ أمك بأننا قد قررنا الهجرة والرحيل، الرحيل مع الطيور.. هي تتجه نحو الساحل ونحن ناحية الجبل.. إلى جبل "الدروز" ..

كانت أمك في سن السابعة عشرة من عمرها وقد مضى على زواجنا حينذاك ست سنوات، وهي لم تبلغ سن الرشاد..! تزوجنا وهي في العاشرة أو زد قليلاً.. لم تكن قد أدركت الأبعاد القريبة لمعاني الحلال والحرام.. وإن نسيت.. فلن أنس ما حييت - وقد رأت أمك أول مرة ما يسمونه "الحيض": رأت ثوبها ملطخاً بالدم - لا أنسى تلك الليلة وهي تبكي متسائلة عما حدث لها.. هل قطع شيء في داخلها، هل هو عفريت من الجن أو شيطان من الشياطين قطع أو مَرَّق شيئاً.. من جسمها..! كانت تبكي.. وكنت قد طمأننتها قبل أن أستدعي أمها القريبة منا.. وأخبرتها حينذاك أنها بلغت مرتبة المرأة المتزوجة حقاً، سيدة مكتملة الأنوثة تحمل رَحماً نشيطاً أميناً يحفظ البذور ويُنمِّيها فيُخرجها خِلْقَةً فالحة مأمولة من البنين.. كأرض الحنطة الطيبة المعطاء.

ويستمر والدي في الحديث وأنا أحب حديثه فيقول: كنت قد سمعت من الرجال قبل زواجي أن هذا "الحيض" ضرب من ضروب الأذى، وأن

على الرجال أن يعتزلوا النساء وهن في هذا الأذى حتى يطهرن.. علمت ذلك من الشبان المتزوجين وسمعته من الرجال المسنين، وكان المسنون من الرجال يمعنون في التهويل ويتطرفون في الترهيب من النساء.. ومن "نجاستهن" ١٩.. وهن على تلك الحال! فيقولون بوجوب اعتبار المرأة "نجسة" طيلة مدة "أيام الحيض السبعة" والتي قد تطول وقد تقصر! فلا يؤاكلها.. ولا يُجالسها.. ولا تمس القرآن.. ولا تقرأه جهراً أو نجوى إن كانت تعرف فك الحروف وتهجئتها.. تظل كذاك حتى تكمل أيام طهرها.. ولا تتم - عندهم - نطاقتها من دم النفاس إلا بعد ثلاث وثلاثين يوماً ٢٠ وإن ولدت أنثى فلا تطهر من دمها إلا بعد ست وستين يوماً. بعضهم كان يقول بوجوب تقديم فدية.. يقدم أهلها خروفاً أو تيساً أو حتى جدياً ذبيحةً لله وعبادةً له تُكفّر عن نجاستها" ٢١

الكواكب

ويستمر أبي في الحديث، وفي حديثه رنة ونغمة يستهويانك لأن تنصت له وتحسن الاستماع.

"قرية الكواكب" قرية أملك: كانت البيوت فيها ضئيلة بالنسبة لمساحة الأرض الوفيرة، غرف كالأكواخ، صغيرة لا شرفات لها ولا أسوار، مبعثرة هنا وهناك، مبنية بالطوب الترابي الممزوج بالقسول والتبن، والمجفف تحت أشعة الشمس وحرارتها.. زريبة الحيوانات من الأنعام والبهاائم جزء هام من أجزاء البيت.. أرض الغرفة ترابية. محرومة من الأثاث إلا من حصيرة من القش أو قطعة من قماش الخيش الغليظ.. زير للماء يستند إلى حائط أو جرة في ركن من أركان البيت.. الغرفة.. صندوق خشبي متواضع تتراوح زركشته وزخرفته أو عدمها مراوحة المستوى الاقتصادي أو المعاشي لصاحب الدار.

داخل ذلك الصندوق ملابس أشد تواضعاً من أثاث الدار ومن أدواتها.. لم يكن الرجال ولا السيدات يتعاملون مع السراويل، جلابب طويل سادة أو مشجر حسب المقام والأطوال..

من بين تلك البيوت بيت متميز صاحبه جدك لأملك: "مصلح ولد افليح الحميد".. كان عنده من الأراضي مساحات كبيرة وأجزاء كثر..

يسكن داراً كبيرة: بيت من دورين له حوش واسع في الداخل بين زريبة الأنعام والدار.. فوق سطح الزريبة أكوام من الحطب وأشكال من روث البهاائم المجفف تحت الشمس كمصدر أول من مصادر الطاقة في الدار. في الساحة السماوية، تستريح الأنعام فيها ليلاً أيام الصيف، وتلجأ داخل الزريبة للدفع أيام الشتاء.. يحيط بالساحة السماوية من جهتيها سور تكلله الأشواك تمنع الذئب من الاقتراب من الأنعام ويعيق اللصوص من الوصول إليها حتى تتبع الكلاب تستدعي أصجاب الدار والجيران..!

امتلك جدك لأملك كل أصناف المواشي وأنواع الأنعام من الأفراس والخيول ومن البغال والحمير. ومن الغنم: تيوسها وجديانها، ومن الخراف: نعاجها وكباشها. ومن البقر: ثيرانها وعجولها، ومن البعير جمالها ونياقها وأبكارها وصلوصها.. يطل جدك على الحوش خلال شرفات من الخشب المزخرف.. كالمشربيات.. الباب الخارجي كبير يمسه دفتيه المتعانقتين مزلاج خشبي متين.

(٣)

ذبح البارد

ويستطرد الوالد فيقول: لم يكن الذئب والفهد العدوين الوحيدين للرعاة، بل كان هناك أيضاً اللصوص من البدو، كانوا يغزون البيوت أو الرعاة فيسلبون الماشية والأنعام وينهبون البيوت والصيريات فوق المرتفعات أيام الصيف. ويروي هنا الوالد قصة أحد الرعاة، والوالد يقدمه لي: ندأ له في الشجاعة والإقدام، والنخوة والإلتزام بشدة قلب ورياسة جأش، كان قد تعرض لسطوة مجموعة من اللصوص البدو.. فبدلاً من أن يهرب قاوم ذلك الراعي اللصوص وتصدى لهم كيفما كان ذاك التصدي حتى أوقع فيهم جراحاً بليغة مما جعلهم يسارعون بالفرار من تكتيكاته ومن خداعه.. هرب جميع اللصوص أمامه إلا واحد منعه من الهروب جراح أثخنه وأوهنته. فانفرد ذلك الراعي بذلك اللص البدوي التعيس.. كنتُ - والحديث للوالد - قد اقتربت منهما كثيراً: فقد تسلقت صخرة ضخمة وكأنها القلعة، وانبطحت فوق قممها العالية والمنبسطة كفاية حيث أشارفهما: الأسير البارد^(١) المشرف على الموت والراعي يسدحه ويسجيه على هيئة خاصة تخدمه فيما هو مقدم عليه معه عند قاع الصخرة أمام غار تعلوه صخرتنا القلعة.. لم يشعر الراعي بوجودي ذاك وهو في قمة

١ - هو الأعزل من السلاح ومن كل حول أو قوة، وذبح أو قتل الأعزل من السلاح وهو تحت سيطرتك هو قمة الغدر والندالة والعار.

انفعاله وأقصى اضطرابه وشدة توتره وهو يُسجي أسيره المقهور.. سحب شبريته فطفق مسحاً بالأعضاء وتقطيعاً للأجزاء، فبدأ بأنف لص المعيز أو الشياه فقطعه من مقاديمه إلى أقصاه وكأنه لم يكن.. ثم شق الودجين على جانبي حلقه وقطعهما. ولم ينس العروق التي تحيط بالعنق حتى تركها تشخب دمًا، وشتر أطراف الجفنين التي تلتقي عند التغميض، وصلّم الأذنين من أصلهما وشفّ الشفة وكأنه يداعبها.

ثم تدنى وتسفل فانترع الخصيتين بعد أن جبّ حليّة الفحولة وشاهدها عنده. فأسلم الغازي المعتدي روحه عند ذلك.. وبدا لي أن الراعي في هذا.. وفي ذاك كان يبدو كمتلذذ يجزّ ما طاب له من ذبيحة أمامه يتلهف على شيها ومن ثم التهامها!

يستمر الوالد وقد تغير صوته حتى بدا لي كصوت واعية تصرخ على ميّت لها وتندبه في توجع وألم.. كان صوته وهو يتم حديثه يغشاه أحاح شديد ينب عن غيظ وحزن ومرارة وحقد..! تردّ كلها في حلقه في تنحنح واختناق..!

يستمر في وصف الموقف فيقول: تماكنت نفسي في البداية عن الصياح في موقف يتطلب فيه الصراخ.. تماكنت نفسي عن ذلك اختياراً.. ولما حاولت كانت محاولتي بلا جدوى.. صوتي ضاع..! وقدرتي على النطق تلاشت.. أحسست حينها أنه قد تجمدت في كل خلايا الحياة حتى صرت جزءاً من الصخرة جليماً أصماً مثلها.. وشاركني الكون برمته في توقف

الحياة فيه كما توقفت داخلي وخارجي.. وعندما عاودتني الأحاسيس أدركت أن نفسي - في تلك اللحظات التي عشتها أرقب الحادثة - وأحاسيسي ومزاجي وأفكاري وكل ما دخل في تركيب خلقي ودوافع خلقي.. كانت قد تناسقت مع المناحي المظلمة في هذا الكون التعيس! الذي قد استعاد نواميسه وقوانينه وأنظمته تعمل من جديد، وكأن ما حدث مجرد تمثيلية سخيفة من مسرحيات الحياة العادية عند بني الإنسان!

قام الراعي الغادر. وقد عادت إليه سكينه عجيبه، فجمع الأجزاء المقطوعة ورمى بها داخل الغار الذي كان أشبه بالشق العميق أسفل تلك الصخرة القلعة، ثم سحب الجثة ودفعها بعنف وبغير نظام داخل الشق حتى غيبها تماماً داخل ظلمة ذاك الغار ومن ثم أخذ يفلق بابه بحجارة منتقاة وفرتها له طبيعة ذلك المكان في سواد ليلة.. فجعل منها جداراً يخفي ما وراءه تماماً.

عند ذلك انسحبت هابطاً الصخرة بخفة ماعز الجبال وحذره.. ويكمل الوالد القصة.. "سرت منكمشاً مصدوماً ومناظر الطريق تمر أمام عيني الجامدتين باستمرار دون أن ألتفت إليها"!!

ظلت صورة الغازي الذبيح تحوم في ذهن الوالد خلال سيره في الطريق.. لقد تركه يموت بقسوة لم يصدقها.. وكان كلما حدثني عنها أو أشار إليها ينبئنني أنه ما زال لا يصدقها..! لقد ظل يسمع نفسه الثقيل المتحشرج

حتى أسلم روحه..! وظل الوالد يسأل أسئلته الكثيرة.. هل كان في داخلية إنساناً آخر؟ وهل وصلت حدود إنسانيته إلى نقطة غير مألوفاً له أو معهودة عنده..! هل كان بمستطاع إنسانية الآخر فيه أن تتقبل الاتصال بذلك الغازي المجهول بضعفه وألمه واحتضاره.. وظل تفكيره منصّباً في معنى ما حدث! وهل هو ضعف حاد في صميم شخصيته تحول إلى بلادة في الإحساس..!

يعود الوالد يسلط ضوءاً آخر على القصة..! "كان ذلك الراعي الذي لم تطل به الحياة بعد الحادثة، كان أحد معارفي، عمل راعياً للبعارين أكثر من اشتغاله برعاية الغنم.. كان لي معه معارك وشجارات وصولات وجولات في لعبة "الإبطاح"، وكانت الغلبة سجلاً بيننا، نتبادل الدور في بسط أحدهما للآخر وإلقائه على وجهه فوق التراب.. إلقاءً من غير رفع المنافس له رفعاً عن الأرض.. كان يتصف بالغدر وخرق الاتفاق دوماً كيهودي.. كانت تدور بيننا المشاجرات الحادة وخاصة عندما تأخذه عزة عنده آثمة، فيسارع في كل مرة يرى فيها هزيمته قريبة بوضع رجله بين ساقيّ ليسهل عليه إسقاطي على الأرض أو يسارع "فيأخذ العباط والسباط" أي يسارع بوضع ذراعيه اللتين تحت إبطي الاثنين، وهذا ما لا يصح في قانون لعبة الإبطاح عند القوم حينذاك! إذ كان المفروض أن يضع كل من المتباطحين يده تحت إبط واحد من إبطي منافسه ويضع ذراعه الثانية فوق عضده حتى يتساوى المتنافسان في موقف الإبطاح.. ولكن ذلك

الفتى الغادر العنيد الذي ذبح الأعزل جريحاً لم يكن ليرضى بالهزيمة ويتمرغ وجهه بالتراب.

بعد أيام من الحادثة الرهيبة جاء رجالاً غريباً، أغراب يسألون عن شاب من رجالهم طال غيابه عنهم، يدلون بأوصافه، ويذكرون أشكاله قائماً، جالساً، ماشياً، ومتحدثاً ومنصتاً.. خاب مسعاهم.. إذ رفض جبهة إعلامهم..!

هال محدثي ما أصابني من وجوم، وما ركبني من حزن، وما اعتراني من غم وانكسار، فقد كان ما سمعته منه هو الأمر المنكر الداهية، بل قمة الغوائل والنداهي.. فحاول أبي التخفيف عني واستمر يقول: عاشت شعوب بلاد الشام في القرن التاسع عشر بأذات اعتى صور التعصب والجهالة، والكبر والتعبر المقيت بين الفلاح والبدوي.. تعصب الحضري ضد البدو، وأزدراء أهل الحضري وسكان القرى ضد أهل الصحراء والكلا حتى تغفل هذا الأزدراء في وجدانهم، فشكل رافداً يرقد في مصب الثقافة الشعبية عند كليهما! فقالوا في ذلك أمثالا كثيرة في جولات الحراة، وفي مواقف العداوة.. أمثالا عبرت عن هذا التعصب البغيض: "ما فيش اقل من دم البدوي"، "وما ثل البدوي على باب دارك"، "وإن كان هراق البدوي عباة فأعطيه سوق النبي، ويكفي البدو عن الفلاحين بـ"نخاسة العير" لأنهم يقتلون الحمير بدلاً من الجمال، ويذهب التحقير المعنوي من كل منهما تجاه الآخر فينسحب على أمور

كثيرة، مرّد كل ذلك إلى تلك الهجمات المريعة التي كان يشنها البدو على قرى الفلاحين.. ينهبون ويسلبون، ويقتلون ويفرضون الخاوات.. بل وداب البدو على ترك مواشيهم ترعى حقول الفلاحين: يكسرون الأشجار، ويدمرون الحرث، ويثفون الزرع، ويهدون الجدر.. متبئين ما يعرف في ثقافة البدو "عملية القشط" وهي نوع من السرقات تتم في وضع النهار، عملية يتم فيها استلاب كل ما يجد البدوي في طريقه.. ويذهب المأثور الشعبي عند البدو بتحليل عملية القشط مع غيرها من عمليات الحرمة لجعلها مبررة مقبولة في مجتمعهم فيقولون في ذلك: "الرجل الذي يَـقْـسُطُ مش عيب، هذا كار الرجال، والطمع في صدورهم! وثقافة الغزو عندهم مهيئة بالأشعار والمأثورات، وبالمواقف والأحوال، وما يلزمها من أعمال القتل والنهب والسلب والخديعة.. بل يعتبرون الغزو أشبه بريضة قومية تمارس في حينها، ولا يصبر عليها إلا الشجعان من رجال القبائل في الصحراء أو العشائر في القرى.. بل إن أناس ذلك الزمان يرفضون تزويج بناتهم من رجال لا يغزون، ولا يقشطون، ولا يطيعون، ولا يعتدون.. فقد عدّوهم من النجباء.. وقد تموت ابنة الواحد منهم جوعاً، أو يعرض عرضها وشرها للقليل والقال تحت غائلة الجوع.. وهذا كان زعمهم!

(٤)

بؤم وغربان

بعد ستين يوماً من ذبح الغازي والتمثيل به وقعت مصيبة أخرى في قرية "الكواكب" لم تخطر ببال، ولم تطف بعقل أو بخيال أحد من قاطنيها البؤساء حينذاك..!

في ضحى يوم خريفي بدا الجو ساخناً، كَلَحَ فيه وجهه وبسر، وتأوّهت فيه رياحه بعد نواح صامتة في ليلته السابقة، ونَفَسُ القرية - وارثة الحزن - مكتوم، وتبدو كالثكلى الأرملة تبكي الزوج والابن، والأب والأخ أو العم أو الخال.. في ذلك اليوم تتابعت النوازل، وترادف البلاء، واندفعت إنذارات الشؤم فيه مثل تقادع الفراش في النار.. في ذلك اليوم نزلت نازلةً على أرض "الكواكب"... تطريده^(١) من أسباهيات^(٢) الترك، (وهنا بدأ الوالد يتحدث عن تلك النازلة ويصف المقام بمقال ذلك الزمان الذي عاشه وعرفه وتعامل مع مفرداته) على ظهور أكاديشهم^(٣) مع ثلة من الطواشين^(٤) والتفكجية^(٥) تضم ثلاث كروسات^(٦) تبرق عجلاتها

١- مجموعة مطاردة من الشرطه .

٢- فرسان أو خيالة .

٣- مفرداها أكديش وهو الحصان الهرم .

٤- شرطة من المشاة .

٥- حاملوا البنادق .

٦- عربات يقود الواحد منها حمار أو بغل أو حصان هرم .

الحديدية لمعاناً من شدة وكثرة ارتطامها واحتكاكاتها بحجارة الطرق التي سارت عليها.. قُدَّامُها أغاها^(١) قد ترجل عن ظهر حصانه العجوز!

كانت "الكواكب" كباقي قرى القضاء.. بل وكل قرى البلاد، شبه خاوية من الرجال الذين اندفعوا إلى شرّ التجنيد في صفوف جيش السلطان التركي وتهافتوا فيه راغمين كارهين، تاركين قراهم تجترّ أحزانها وترافق نعيق البوم ونعيب الغربان فوق البيوت وعلى قمم الأشجار والأطلال فيها..

لم يكن في القرية حينئذ سوى نفر قليل من الرجال بينهم ثلاثة حرافيش^(٢) هاربون من التجنيد.. وكانوا من عائلة "هاني مصلح الحميد" أهل أمك.. ويمضي الوالد ويقول: وهم من أبناء العمومة لأمك: أب وابن له وخال الابن، جاءت الأسباهية تطلبهم.. طلبوهم بيتاً بيتاً.. وجلدوا الرجال.. وعذبوا الفتیان.. حتى وجدوا ثلاثتهم في اليوم التالي فساقوهم إلى الساحة في وسط القرية مقيدين.. وهناك في صُرّة القرية وأمام الأطفال والصبية والفتيان وأمام النساء والشيوخ جُمِعَ.. أعملوا في الثلاثة مزاريقهم^(٣)..!! فبعجوا البطون وأخرجوا الأمعاء!!

أدوا مهمتهم القذرة، وقاموا بها أشد قيام وغادروا القرية على حال هو بلا شك.. الأشر بين الأحوال!! نسوة نادبات نائحات، ونساء شاعرات

١- رئيسها أو قائدها .

٢- مفرداها حرفوش وهو أحد أبناء البلدة .

٣- رماحهم .

معادَات يَمْعِدُن محاميد القتلى، يلطنن بأيديهن وجوههن وخدودهن.. وقارةً بها يُقْلَبُنْ الأحشاء طبقات طبقات وهن ناحيات باكيات يمزقن الشعر والشعور، وَيُقَضُّنْ الجيوب وَيُعَقَّرْنَ فوق رؤوسهن التراب.. كل ذلك والجبال تُؤَوَّبُ - ومعها السهول والبطوح والحقول والسفوح والقيعان والطلول - أصوات العويل والنوح.. أمام تلك المشاهد لم تصمد شمس ذلك اليوم في مسارها المعهود فسارعت مخذولة مقهورة بالهروب والغروب، فاشتدت كثافة سواد ذلك الغسق قبل وقته على غير نظام مألوف بين أنظمة الكون ونواميسه.

وتمضي القصة ووالدي لا يزال يُسرد علي تفاصيلها..! عند نزول مجموعة الإجرام تلك، كان أغاها قد طلب من أحد رجال القرية أن يقوم بتوزيع الجنود على بيوت القرية باعتبارهم ضيوفها، وأن يقدموا لهم من السماط^(١) مع ما يطلبون: خرافاً طلية! ديوكاً محمرة.. وحتى مشروبات روحية ما أمكن إلى ذلك ضلالاً.. ولم ينس التوصية على توفير العلف من الشعير المُنْقَى لنغالهم^(٢) ولبغالهم^(٣)!!

ويشرح الوالد طريقة أولئك الأوغاد: لم يكن لهم نظام خاص ثابت لاختيار الرجال للخدمة القهرية والإلزامية، كانوا يلجأون أحياناً إلى نظام القرعة وإلى طرق أخرى تتداخل أطراف كثيرة في تعقيداتها بدءاً من

١- الوليمة الفردية .

٢- النخل : ولد الفرس أبوه حمار .

٣- البقل : ولد الحمارة وأبوه الحصان : يجري على لسان العامة : أنه عندما يُسأل النفل عن أبيه يجيبهم أن الحصان خاله !

السن المطلوب، والحالة الاجتماعية والاقتصادية وانتهاءً بمحاولات استبدال الخدمة بمبلغ نقدي يقضي على حصيلة العمر إن لم يقض على العمر نفسه.. تتداخل رشاوي الضباط وشراء هروبٍ مُعدٍّ وجاهزٍ للمجندين أثناء المسير على الساحل مثلاً.. أو بالقفز من القطارات.. أو بصورٍ شتى..!! وكان سيئوا الحظ من المجندين من يتم إرسالهم إلى المنفى "الموقت" في بلاد البلشفيك^(١) أو في بلاد جوه^(٢)، بلاد الثلوج ليهلك مثل من هلك قبله.. عشرات الآلاف من الرجال في المعارك أو تحت سطوة المناخ أو الجوع والمرض..!! وكنت ترى المجندين عند اقتيادهم خارج قراهم مقيدين بالسلاسل وكأنهم بالفطرة مجرمون قتلة.. وبعد فترة تدريب قصيرة سرعان ما يتم إرسالهم إلى مرَجَل الحرب وأتونها..!

١- بلاد الاتحاد السوفياتي سابقاً .

٢- بلاد وسهول أوروبا .

ويستمر الأب في سرد قصة له مع الأتراك، يحدث ولده الذي كان له
أذاناً صاغية، ويحاول أن لا تفلت منه شاردة مما يقول.

بعد شفق مساء كل يوم، عند العشية آخر النهار اعتدت ومي فزز^١
النضان وحببة أنغز أن تقبل راجعين من المرتفعات. تسير لثة^٢ النضان والمعز
في اتجاه القرية فتدخلها في عشتها.

وذاث يوم كنت في مواجهتهم. أوقفوني. أوثقوني أكتافاً بمرس من
أمراسي يحفظونها هذه الغاية. هكذا كانت طريقتهم - دون مبالاة
لوقوف أو اعتبار لحال - في اصطلياد الرجال والتقاط الشبَاب لخدمة
إلزامية في الجيش السلطاني لخمس سنوات. صنادونا: خمسة رجال،
ساقونا معهم كاندواب. بل الدواب كانت أحسن منا حالاً وأكرم هيئة،
أخذنا السير حتى ابتعدنا عن القرية. نارة إلى الشرق وأخرى إلى الغرب،
وأخيراً اتجهنا شمالاً. تكبد في السير حفاة فوق الطرق حتى ضجعت
حجارنها، واحتج صرارها من كثرة ارتطام أقدامنا بها. سرنا طيلة
أوقات الليل ومن طوال ساعات النهار حتى استوت شمس كبد السماء.

١- فزز من تعذر ما بين العاشرة والحادية عشر من الليل.

٢- لثة من تعذر ما بين العاشرة والحادية عشر من الليل.

وحينذاك توقفنا في معسكر يبعد عن مدينة 'عكا' ثلاثة
كيلومترات. فوق الكروسة، كرم الأغا وأنظاره ما كانوا قد أخذوه من
القرية: من الديوك حية، ومن الدجاج ما يزيد عن أربعين، ومن موز
خفيفة كالأرغفة والبيض جرى سلقه. حتى الزيت والسمن. وأربعة
خراف، وشاتين تسقيانهم الحليب الطازج أثناء تحركاتهم.!!

وفي المعسكر، جرت عمليات الفرز والتصنيفات. لتوزيع الأدوار على
الأنصار الجدد. على الجلب القادم. وكان المسؤولون أثناء فرزهم
وتصنيفهم لنا يلحون على إيجاد من يصلح لأن يُضم إلى مجموعة 'المهاترة'
أي مجموعة العازقين للموسيقى في أوقات النوبة. ينفخ البورزان وهو
البوق، أو يضرب النقاير أي الطبول عند إيقاف الجند أو أثناء مسيرتهم.

كان من ضمن إجراءات الفرز فحص القم والأسنان، وقد اجتزت ذلك
برضى وقبول عندهم. فقرروا صلاحيتي للتدريب على النفخ في البورزان
لإيقاف الجند خاصة ساعة الصباح. ارتحت لمثل تلك المهمة وخصوصاً قد
مارست جيداً العزف على الشبابة لشيأهي وجزأفي. أخفف بعدوية أصواتها
من تعبنا وأبعث الأتس والأمان في داخلنا. فتنتشر الأنعام سائحة سايحة
عبر المكان وتعددها فتشمل الحيات والثوام والحيوانات القريبة منا في
أوجارها.

وهنا يركز الأب أنظاره على ولده وهو يحدثه وكأنه يساعد على
زيادة نشاط الذاكرة عنده فيقول: لا بد أنك قد خلصت إلى حسن

انضباطي وقوة تحكمي في خلجات نفسي، وإلى لياقة الإمكانات عندي في تحكمي بحركات الجسم بينما كنت أشاهد موقف الراعي القاتل للبارد كما حدثتك في حينه..! إن تحكمي بالشهيق والزفير ساعدني بأن أكون من أصحاب النفس المتواصل الذي لا ينقطع حتى في الظروف الصعبة.. وقد ساعدتني في ذلك عوامل عدة أهمها هوايتي في صنع ما يشبه الشبابة أو البوق مستعملاً سيقان النبات أو قرون الكباش أو عظام الغزلان:

ساق أو قرن أو عظمة بمسارب ضيقة، أصغر حجم الأنبوب منها أو أزيد في توسعة فتحة المدخل لتخرج منه الأصوات بدرجات متخففة أو مرتفعة.

وفي نهاية الأمر أُلحِقْتُ بمجموعة ضاربي النوبة.. وقاموا بتدريينا، وكنا ثلاثة: واحدنا ينفخ قصبه من النبات خاصة به وهي موضوعة بالماء ينفخ فيها دون أن يتوقف، يجدد الهواء من الأنف فقط، بينما يقوم فمه باحتواء الهواء.. يمد آلة البورزان - فيما بعد - أو الساق أو القرن بتيار هوائي متواصل.. فإذا انقطعت فقايع الماء عوقب المتدرب منا بمواصلة النفخ لفترات أطول..!!

مكتنا في "يسق" ومعناه مكان للإعتقال، وهذا أقرب إلى الصدق منه إلى معنى "المعسكر" كان بقاءنا وتدريبنا فيه قد استغرق سبعة وعشرين يوماً. أصدر بعدها ساري المعسكر - وكان قائداً برتبة أغاشي يحمل

ثلاثة نجوم على كتفه - أمراً بترحيلي إلى أحد القلاع الحربية في صنجية^(١) الشام حيث أكون بورزان تلك القلعة أعلن النفير بين جندها.. ويشرح الأب لولده فيقول: وكانت تلك القلعة إحدى تلك القلاع التي تتواجد على طول الساحل السوري اللبناني الفلسطيني بدأ من اللاذقية شمالاً حتى منابع نهر الأردن في الجنوب.. وكانت تلك القلاع تشكل جزءاً خطيراً من منظومات التحصينات الممتدة بشكلٍ خطٍ دفاعي متناسق عن مدن الساحل وكفور الداخل.

في يوم الرحيل كنّا ثلاثة: يسلي^(٢) يحمل قربانه^(٣)، ويلبس قلباً فوق رأسه وشيخ معمم، وأنا.. تحركنا شمالاً، كنت والشيخ نسير معاً متجاورين أمام الجندي بمسافة ثلاثة أمتار لا تزيد ولا تنقص تنفيذاً لتعليماته الصارمة والمتكررة..

في البكور، ومع ظهور الخيوط البيض، خرجنا - ثلاثتنا - من المعسكر. وفي الطريق استراحت نفسي بصحبة ذلك الشيخ لحسن حديثه، وتجاوبت خواطري مع هدوء أعصابه ومع ثقته الزائدة بنفسه! حتى حديثي هذا معك - الآن - ما زلت أجهل سر ذلك الشيخ الوقور؟! اقترحت عليه أن نهرب معاً، وبهدوء أعلن رفضه للفكرة متعللاً بما يرتديه من ملابس رجل دين تجلله بالوقار وتفرض عليه احترامها، وعلاوة

١- إقليم.

٢- رسول من الجند.

٣- بندقية.

على أنها تقيد سرعته.. وأضاف أن لا بد أن يعود لبلدته بطريقة تليق برجل مثله. وطمأنني - والحديث للوالد - الشيخ أن عزمي على الهروب سيظل سراً دفيناً في الحرص والصون..

قطع حديثَ وسيرِ نجوانا صوتُ حارسنا على غير انتظار لأمر بيولوجي مُلحَّ عنده: لقضاء حاجته التي لا يقضيها له أحد غيره، أمرنا بالتوقف وبتسليط عيوننا على الطريق مطأطئين الرؤوس، ننظر إلى مقدمة أقدامنا دون أن نحرك أو نتحرك يَمَنَةً أو يَسْرَةً.. فتوقفنا عند منعطف متشعب حاد على الطريق، ذلك المنعطف يبعث الحيرة في اختيار الاتجاه الصحيح أثناء ملاحقة طريدة فارة..!

كانت لحظات مشحونة بزخم من الانفعالات والإثارات.. لحظات عصبية تجمعت فيها عوائق الحياة ومكارهها وآلامها تصيح في التريث وعدم الهروب.. غير أنني استحركت قدماي إلى الأمام.. ومشيت خطوات.. وخطوات فتمشَّت في قدمي حُمَيَّ الهروب! ومن ثم ركضت بها حتى عدوت الشيخ فبعدت عنه ثم جريت وجريت، وكان الجري شديداً، ما جريت مثله قط، من قبل ولا من بعد.. سَابَقْتُ الريحَ ساقاي، لا تلويان على شيء.. ملابسني القليلة والمريحة.. وخفة وزني ورشاقتي وقوة دوافعي، وقدراتي البدنية الفتية.. كلها عوامل ساعدتني على النجاح في الهروب.. كدَدْتُ ثلاثين ساعة منذ أن غُيِّبْتُ عن شيخنا الطيب وعن يسلي حارسه

حتى قدمت "الكواكب" في فجر أَرَدْتُ سماؤه رشاشاً، وأرهمت^(١) معها عيناى مطراً خفيفاً من الدموع المشفوعة بابتسامة نشوة ونصر.. معلنة أفراحي بتجدد وجودي من نوع جديد.. وجود مفعم بالعزم، مشحون بالقوة، وجود واعد بالحياة الملانة بالبناء وبالجمال، يداً بيد مع الآخرين من مأتي الأجيال والأقران..

(٦)

العودة إلى الكواكب

وصلت "الكواكب" فجر ذلك اليوم.. وبدت القرية لي حينذاك خامدة تحت طيات الهموم، وقد خلت أسراجُها من زيوتها فانطفأت.. فسكنت معها الأنفاس!

كانت أمك نائمة.. ولم تشعر بحركتي الخفيفة التي اعتدتها حتى صارت جزءاً متميزاً من نشاطي المتفجر، لم تشعر بحركتي وأنا أزيح فرع الشجرة الكبير عن مدخل غرفتنا.. كانت نائمة كالزهرة - تضم

١ - أنزلت دموعاً كرهام السماء وهو الأخف من المطر .

ثوبها وتنام معانقة حلم الرجاء، تتشوّق فيه للقاء الزوج الغائب.. كانت قد هلّت تباشير صباح ذاك النهار فتفتحت شفتاها لتكون أول من تُقبل الشمس..

وهنا بادرت مستأذنًا أبي أن أكمل الموقف وصفاً وتعليقاً وأن أكون لسان حاله فأقول بالنيابة عنه: "وكانت لحظات الاشتياق، اختفت فيها الكلمات وتفجرت فيها مجاعات الوصل والحب.. فالتقت الأبدان، وتعانقت الأرواح وارتوت التهديدات أعذب ارتواء.. وبعد طول وصال اكتحلت العيون بالنعاس.. فكان النوم.. وما أعمق بحور نومكما في النهار ذاك!!

وفي الغداة، في اليوم التالي - يكمل الوالد قصته: أطلعت أمك على أمري وعلى كل خبري، ثم أردفت أمراً بأن تكون جاهزة للهروب من "الكواكب" إلى بلد جديد، لفترة زمنية مطلوبة.. قبل أن يعود الدرك التركي للبحث عني فيكون مصيري مصير أولاد مصلح الحميد!! ففوجئت أمك لأول وهلة بالأمر، وحزنت حزناً شديداً لأنها ستضطر إلى أن تفترق عن والديها الشيخين.. ولما كانت أمك - شأنها في ذلك الزمان شأن أية امرأة أخرى - لا حيلة لها أذعنت للأمر وأعلنت قبولها وموافقتها دائماً على مرافقتي في حلي وفي ترحالي..

ورغم ذلك فقد ظل وجه أمك مهموماً، هناك ما يقلقها ولا تريد الإفصاح عنه.. إنها تحمل في أحشائها جيناً في الشهر الثالث.. إنه الحمل الأول لها..!

ثم استرسلت أمك تقص علي الذي حدث في قرية "الكواكب" طيلة الشهر المنصرم الذي أبعدت عنها فيه. أخبرتني ما فعله رجال "الأفندي"^(١) الملتزم في الناحية بأهل البلدة فقالت: داهمت رجالات الأفندي الملتزم، غير المتجانسة، بلدة "الكواكب" وكان لقاءهم أولاً بالأنعام والمواشي مع رعاتها على الطبيعة في المراعي: على الجبال والمرتفعات، وفي السهول وفي الحقول وعلى حواف الوديان وداخل تجمعاتها في الصيرت، يُحصونها عدداً ويسوقونها انتقاءً واختياراً!

وكان الأتراك حينذاك في أوائل القرن العشرين قد ساءت أحوالهم فزادوا في الضرائب وخاصة بعد أن فقدوا الثقة بالأهالي في الكشف عن المقدار الصادق لدخولهم ولما يمتلكونه.. ولقد انسحب فقدان الثقة ذاك فأصابهم في نفوسهم وشكوا في تخميناتهم.. فزادوا الضرائب إلى الضعف وخاصة ضرائب الدخل أو (التمتع) وزادوا رسوم الحيوانات، الأغنام والجمال منها خاصة، وضرائب الويركو والمسقفات وتعاملوا مع نظام الأنقارية والتشغيل بالجبر والإكراه أثناء الحرب، فساقوا أمامهم عدداً

١ - الأفندي الملتزم يدفع مبلغ من المال لصندوق الحكومة عن مدينته والقرى التي تدور داخل اختصاصاته الاقتصادية فيقوم بجباية الضرائب أضعافاً مضاعفة من أهل تلك المدن والقرى، ويضيف إليها ٦٪ بدل الالتزام للتجهيزات العسكرية، وقد أثرى الملتزم إثراءً فاحشاً عن طريق استغلال وظيفته ويسمى هذا "نظام الالتزام".

(٧)

في بلاد بني معروف

وفي غداة نهار ليلة سفرنا غطفت الجو، فاستبشرنا بصحو طيلة النهار فسرنا.. ولكن ما لبث الجو أن اعتكر في العشية.. فقضيناها ليلة في مغارة ذرية. في ضحى اليوم التالي وإشرافه واصلنا المسير حتى منتصف النهار.. فاسترحنا.. وتريّعنا فوق قطيفة خضراء أبدعت الطبيعة فرشها لنا.. ثم واصلنا السير بقية ذلك النهار وطول ليله، تساعدنا السماء بصفائها والرياح بسكينتها.. وظل حالنا ذاك حتى ساعات رواح النهار عندما حلت البرودة فلسعت وجناتنا وقت الأصيل في المساء.. فقررنا الاستراحة والمبيت.. وكنا قد وصلنا مدينة "درعا"!!

أكملنا سيرنا في اليوم التالي، وكانت كثرة تحركاتنا داخل الأحراش بين أشجارها العملاقة الضخمة من البلوط والسرو والصنوبر.. والبطم والأرز.. كنا نتسلى بتمييز الأشجار نذكر أسمائها.. جبلاً صعدناها لقممها نلها.. وسفوحاً وبطاحاً وسهولاً نزلناها لابعين مبتهجين.. الطيور في العلالى فوقنا ترقبنا في تساؤلات تهمها.. والحيوانات تصاحبنا عن قرب أو تزاملنا من بعيد.. لم نحسب للخوف حساباً إلا من إنسان غادر..! الشبرية كانت سلاحى تزينها ما يشبه الزمردة الحمراء

من حرافيش البلد لتعبيد طرق الكروسات لمدة ثلاثة أيام لكل رجل منهم بواقع ثماني ساعات عمل كل يوم دون أن يدفعوا بارة^(١) واحدة لأي منهم..! لم يتوقفوا عند ذلك بل مشوا بأجود المواشي في البلدة والتي يحتفظ بها أصحابها في الزرايب والأحواش والصيرات، يراقبونها ويعتنون بها عناية خاصة للتوليد ومواصلة إنتاجها.. وصادروا كميات محرزة من الطحين والحبوب من العدس والفل والحمص والبازيلاء والقمح والشعير، فخلت الخوابي في القرية منها إلا من كميات لا تكفي كبدور للزراعة الموسمية من جديد.. غلّو الغلة فتهبوا، بعض الأسر اتهمتهم أنهم ذهبوا بالذهب الخاص بنسائها وهو القليل القليل..! وفضّوا الفضة وأخذوها بالبطش والتهديد والضرب والتكيل سلبوا ما سلبوه وسرقوا ما سرقوه من البلدة ومن أهلها - تاركين خلفهم وجوهاً مغبرة شاحبة، وجباهاً موسومة بالكآبة والذلة، ونفوساً ذهب القهر بها أي مذهب، وعقولاً عقلت فتعطلت..!!

حينذاك ازددت إصراراً على الهروب، وقررت أن تكون هفتي^(٢) يم جبل الدروز دون أن تعلم أمك شيئاً عن وجهة رحيلنا.. سوى أننا قد نوبناه.. بتنا ليلتين في "الكواكب"، وفي الليلة الثالثة، عند اشتداد العتمة بدأنا الرحيل.. سرنا ساعات الليل كلها..

١- أصغر نقد في العملة التركية حينذاك وهي أقل من الفلّس.

٢- وجهتي نحو...

تُذَر رَأْيُهَا بِالْخَطَرِ! وَتَحْذَرُ مِنْ تَسْوُلِ لَهْ نَفْسِهِ بِشَيْءٍ مِنْ الْإِقْتِرَابِ أَوْ
التَّحْرِيشِ...!!

كَانَتْ أَمَكِ تَسِيرُ بِمَحَاذَاتِي طُولَ الطَّرِيقِ: يَمْنَةً وَيَسْرَةً.. تَلَا حَقْنِي
وَتَجَانِبُنِي تَارَةً أُخْرَى، تَتَقَدَّمُنِي بِخَطَوَاتٍ مَرَاتٍ.. وَفِي كُلِّ الْحَالَاتِ لِمَسَاتِي
لَهَا لَا تَتَوَقَّفُ: أَقْبِضْ كَفَهَا: أَدْغِمِ أَوْ أَدْعِمِ أَصَابِعَهَا أَصَابِعِي، أَضْمِ
سَاعِدَهَا أَوْ أَحْضَنْ خَاصِرَتَهَا.. أَدَاعِبْهَا وَتَدَاعِبْنِي.. نَسْتَلِبُ اللَّذَاتِ اسْتِلَابَ
الْعَصْفُورِ لِفُرْصَتِهِ خُلْسَةً يَتَلَذَّذُ فِيهَا وَهُوَ يَنْقُرُ رَطْبًا يَانِعًا وَرِزْقًا حَلَالًا وَهُوَ
يَتَذَكَّرُ نَاطُورِ الزَّرْعِ أَوْ صِيَادِ الطَّيْرِ.. كُلُّ ذَلِكَ حَتَّى تَظَلَّ أَمَكِ تَشْعُرُ أَنْسَاءً
وَأَمْنًا وَصُحْبَةً.. فَتَتَسَوَّى اللَّيْلُ وَمَا يُخْفِيهِ وَالنَّهَارُ وَمَا يُفْجِيهِ..

وَأَخِيرًا وَصَلْنَا إِلَى بِلَادِ "بَنِي مَعْرُوفٍ" فِي جَبَلِ الْعَرَبِ شِمَالِ الْجَوْلَانِ بِيَعْدِ
مِائَةِ وَعِشْرِينَ كِيلُومِتْرًا عَنْ دِمَشْقٍ. وَبَنِي مَعْرُوفٍ كُنِيَّةُ الدَّرُوزِ، وَكَانُوا
حِينَئِذٍ - وَلَا يَزَالُ أَبِي يَرْوِي الْأَحْدَاثَ: "أَنَسَاءُ كِبَارِ الرُّؤُزِ" يَتَمَيِّزُونَ
حِينَئِذٍ بِقِيَمَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ خَطِيرَةٍ وَثِقَلُ طَائِفِي مَرْمُوقٍ يَحْسِبُ لَهُ الْحِسَابَ
الْعَظِيمَ: يَفِيثُونَ الطَّرِيدَ الْمَطْلُوبَ بِدَمٍ قَدْ سَفَكَهُ، وَيَحْمُونَ الطَّنِيبَ طَالِبَ
جَوَارِهِمْ وَحِمَايَتِهِمْ، وَيَكْرُمُونَ الْجَنِيبَ الْمَبْتَلَى بِغَرِيبَتِهِ، كَانُوا فَرَسَانِ
الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ، أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْعِطَاءِ وَالْفِدَاءِ.. كُنْتُ قَدْ عَرَفْتُ عَنْ
شِمَائِلِهِمْ مِنْ كَرَمٍ وَنَخْوَاتٍ كَثِيرٍ كَثِيرٍ، عَرَفْتُهُمْ قَبْلَ أَنْ أَعِيشَ فِي
جَوَارِهِمْ، وَكَانَ صَدِيقُ الْعَمْرِ لِي "النَّتْشَةُ بْنُ حَبِيبٍ" قَدْ قَصَّ عَلَيَّ

قِصَصَهُمُ الَّتِي عَرَفْتُهَا عَنْ وَالِدِهِ "هَرِيمِ بْنِ حَبِيبٍ"، وَكَانَ قَدْ أَمْضَى فِي
جَوَارِهِمْ قَبْلِي - فَتَرَةً طَوِيلَةً مِنْ عَمْرِهِ.

لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ مَا نَعْرِفُهُ الْآنَ
بِجَوَازَاتِ السَّفَرِ أَوْ تَأْشِيرَاتِ الدَّخُولِ أَوْ سِمَاتِ لِلْخُرُوجِ، فَقَدْ كَانَتْ كُلُّهَا
بِلَادِنَا مَفْتُوحَةً الْأَبْوَابِ فِي الْحُدُودِ الْمَعْرُوفَةِ لَدَيْنَا الْيَوْمَ، مَفْتُوحَةً أَمَامَ كُلِّ
وَاقِدٍ مِنَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ حَيْثُ تَكْرَمُ وَفَادَتِهِ..!

جَبَلُ الدَّرُوزِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ كَانَ يَحْكُمُهُ أَمْرَاءُ "آلِ الْأَطْرَشِ"، يَتَوَارَثُونَ
الْإِمَارَةَ أَبًا أَوْ حَفِيدًا عَنْ جَدٍّ أَوْ عَنْ أَبٍ، بَعِيدٌ أَوْ قَرِيبٌ طَوِيلَةُ أَيَّامِ الْحُكْمِ
الْتُرْكِيِّ.. لَكُنْهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ اخْتَلَفُوا مَعَ الْأَتْرَاقِ حَتَّى أَعْلَنُوا الْعَصِيَانِ
عَلَيْهِمْ، فَحَدَّثَتْ بَيْنَهُمْ صَدَامَاتٌ شَابَتْ رُؤُوسَ الْوِلْدَانِ مِنْهَا..!

نَزَلْنَا عِنْدَ "آلِ الْأَطْرَشِ"، وَهُوَ فَصِيلٌ مِنْ فَصَائِلِ الدَّرُوزِ، تَرْتَبِطُ
بِأَوَاصِرِ النِّسَبِ وَالْقَرَابَةِ مَعَ الْفَصَائِلِ الدَّرُزِيَّةِ الْآخَرَى وَهِيَ بَنِي مَعْرُوفٍ
وَجَنْبِلَاطُ وَأَرْسَلَانُ.. وَكَانَ نَزُولُنَا عِنْدَ أَحَدِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ
الشِّيمِ وَالنَّخْوَاتِ، أَحَدِ نَشَامِي الدَّرُوزِ الْبَارِزِينَ آنَئِذٍ، الْخَيْرُ وَلَدُ الْخَيْرِ "يَحْيَى
الْأَطْرَشُ"^(١) حَاكِمُ الْجَبَلِ، الْإِمَارَةُ الْمُسْتَقْلَةُ عَنْ سُورِيَا حِينَئِذٍ!

عَشْنَا فِي جَوَارِ الْأَمِيرِ يَحْيَى ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ: عَمِلْتُ فِيهَا وَاشْتَغَلْتُ بِأَنْوَاعٍ
عَدِيدَةٍ مِنَ الْأَشْغَالِ: عَمِلْتُ أَكْرَارًا، أَشْتَغَلْتُ فِي الْفَلَاحَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَمَا يَتَفَرَّعُ
عَنْهَا، وَتَنَقَّلْتُ بَيْنَ رِبُوضِ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ، وَبِرُوكِ الْإِبِلِ وَجُثُومِ الطَّيْرِ.. أَقُومُ

١ - وَالِدُ الْأَمِيرِ حَسَنِ الْأَطْرَشِ الَّذِي ضَمَّ جَبَلَ الْعَرَبِ وَإِمَارَتَهُ إِلَى الْجُمْهُورِيَّةِ السُّورِيَّةِ عَامَ ١٩٤٣ م.

بكل المهمات بدءاً من سَوِّقِ الماشية.. والإرتباع إلى تفقد شتونها وحلبها،
وجزّ صوفها، وتنظيف جلدّها أو وبرها.. كان نزولنا عند الأمير يحيى
عام ١٩١٣م.. في وقت ربيع الكمأة والنُّور والكلأ والحليب.

تميّز الأمير يحيى بالبساطة والبشاشة، والجوار عنده بمثابة الأمر
المقدس: فنَعَمْنَا بجواره بكل حماية وخاصة بعد أن قصصنا عليه قصة
هروبي من الخدمة الإلزامية في الجيش التركي، أغدق علينا
الإكراميات ومنحنا من الامتيازات ما لا تخطر على بال مغترب مثلي..
كنت أحصل على خاروف عن كل عشرة نعاج أرهاها في كل سنة،
وعلى جذّي عن كل عشر أعنز.. يضاف إلى ذلك خمس نعاج، وخمس
شياه كلهن حلابات.. أما الثياب فكان نصيبي خمسة أثواب مع ثلاث
حطات، وعقالين وعباءة وفروة، أما العملات فقد كان في حوزتنا في
نهاية السنة الثالثة - من خدمتي لآل الأطرش - ما يفرحنا ويرضيها
حينذاك، كانت العملة المعدنية قد تكدّست في كيسنا - وخاصة أننا
لم نَحْتَجْ إلى صرفها في شراء أو في انتفاع إلا فيما نُدّر من الأمور. فقد
كانت أحوالنا عندهم مُيسّرة وعلى ما يرام في تلك البلاد بما كانوا
يقدمونه، وبما يتفضلون به من العطايا على الذين في جوارهم وعلى من
يعمل في خدمتهم.. كان في كيسنا عملات صغيرة، وعملات كبيرة
وأخرى خطيرة، كان في كيسنا من كل هذه العملات:

بارة = نصف ميلم وهي أصغر من أي نقد آخر.

دانق : أقل من ٢ بارة .

درهم : ٦ دانوق أو ١٠ بارات.

قرش : ٤٠ بارة أي ٢٠ مليماً ويساوي ٤ دراهم.

ومن العملات الكبيرة : البشلك : ١٠٠ بارة أي قرشان ونصف القرش.

الوزري : خمسة قروش أو شلناً .

المجيدي : ١٩ قرشاً أو ٧٦٠ بارة .

ومن العملات الخطيرة: الليرات الذهبية؛ المجيدية والحميدية
والرشادي؛ ليرات قد ضربت على التوالي أيام السلاطين من بني عثمان:
عبد المجيد عام ١٨٣٩م، والسلطان عبد الحميد ١٨٧٦م، والسلطان
محمد رشاد ١٩٠٨م.

من أجمل فترات حياتي كانت تلك التي كنت أشارك فيها في خدمة
رجال التعليلة في ديوان الأمير "يحيى" .. كانت التعليلة وخاصة عند تشريف
الأمير يحيى لها، تسودها المهابة، ويجلّها الوقار، وتميّزها أحاديث
الرجال الرصينة، وذكر مشاهير الشجعان من أجدادهم، وكانت
أحاديث الرجال بالتناوب.. أحاديث تثبت الاحترام لساردها، وتشيع الأُس
والبهجة عند سامعها: كل حركة.. كل سكة، أو لفطة بحساب..
تحدث الأمير مراراً.. وشاركه أمراء آخرون.. كلهم تحدثوا عن تاريخ آل

الأطرش منذ مجيئهم من اليمن السعيد مهاجرين ومبتعدين عن عداة قبيلة
"التوخيين". ذلك العداة الذي جعل القبيلتين تعيشان حروباً طاحنة
مستمرة انتهت بانتصار التوخيين على القبيلة التي تنتمي إليها عشائر
الدروز وهي قبيلة "المعينين" نجا من تلك الحروب ثلاثة من أجدادهم
التجأوا إلى لبنان في منتصف القرن التاسع عشر.. وكان من نوادرهم التي
كثيراً ما تتشروا بها قصة اللقب الذي ارتبط بهم وارتبطوا به منذ أيام
جدهم - إسماعيل عبد الغفار المعني اليمني مؤسس أسرته. وهو لقب
"الأطرش"^١.

اشتركت كثيراً في خدمة عليّة القوم أثناء تعليلتهم الليلية: أقوم
بتجديد القهوة، وأدور بها من اليمين بلا تمييز، يشرب بعضهم فتجاناً
والبعض الآخر فتجانين ومن ثم يهرّ أحدهم الفنجان معلناً اكتماء.

عرفت أمور صناعة القهوة كما عرفت غرابية آدابها بدءاً من طرُق
الفنجال وقرعه بمصيب الإبريق، وانتهاء بهزّ مروزا بعدد الفناجيل
المشروية عند الضيف الواحد ودلالات ذلك، ناهيك عن استعمال أي اليديين
عندهم في حمل الدلة والفناجيل وتقديمها، أيهما أوجب؟ ومقدار صبة

^١ تعني الثلاثة الذين من الجوز، من اليمن، فلهذا تسميهم بـ "ثلاثة من الجوز" ويقولون في دولة قطر دولة السعودية، ولا سمح
بقرعة الأمير مشير بهجران أن أولئك الثلاثة هم لاستخدامهم لأمر، فلفظ له بقرعة "ثلاثة من الجوز" وليس مبرور هناك
الأمير مشير بالثلاثة "أما الثلاثة الذين من الجوز" فكانت من أصلهم من الجوز، فلفظ له بقرعة "ثلاثة من الجوز" وليس مبرور هناك
فكانوا من أصلهم من الجوز، فلفظ له بقرعة "ثلاثة من الجوز" فكانت من أصلهم من الجوز، فلفظ له بقرعة "ثلاثة من الجوز" وليس مبرور هناك
أقرض الفناجيل العربية من قبل الأندلس والاندلس، ولما كان لقب الأطرش قد انتشر في بلاد الشام، فلفظ له بقرعة "ثلاثة من الجوز" وليس مبرور هناك
بقرعة الأمير مشير بهجران أن أولئك الثلاثة هم لاستخدامهم لأمر، فلفظ له بقرعة "ثلاثة من الجوز" وليس مبرور هناك
وكانوا من أصلهم من الجوز، فلفظ له بقرعة "ثلاثة من الجوز" فكانت من أصلهم من الجوز، فلفظ له بقرعة "ثلاثة من الجوز" وليس مبرور هناك

القهوة داخل الفنجال؟ هل هي جرعة أم جرعتان؟ هل هي سندس الفنجال
أم ثلاثة أم أكثر أم أقل؟

ويصيح المقام صيفته على المقال.. فإذا حدث عن أن خلا الديوان من
الأغراب أو الضيوف جعل الرجال موضوعات سرهم تدور حول حوادث
النهار وما اتفق أن عرض ثلعتسامرين من مواقف حياتية يومية في الصيد
والقتص.. في الشراء والبيع.. في المزارات وفي كرامات أهلها.. في الجن
والمردة.. وفي أشعار العرب وقصائدهم وعاداتهم وقيمتهم.. وفي أصحاب
الربايات وأقوالهم.. وما تعرض له الرجل من مرض.. أو مشكلة خاصة.. أو
اشتراك في جاهات خطبة أو فك مشاجرات وإيقاف ضربات وإجراء الصلح
بعد خصومات.. كان كل ذلك أو بعض يجري دون أن يقاطع أحد حديث
أحد، ودون أن يستأثر أحد الجلّساء بالحديث عملاً بالقول المعروف
(الحديث أمانقل) أو مناقلة.. أي أن لكل جليس فرصة للحديث..

أما والدتك.. والذي يحدثني، فقد كان أمرها مثيراً للدهشة.. كانت
في تلك الأيام محطّ اهتمام وقبول النسوة الدرزيات واحترامهن بشكل ما
حظيت به امرأة غريابوية مثلاً، ويرجع ذلك أن أمك كانت تمارس الطب
الشعبي، وتمارس وصفاته خاصة فيما يتعلق بمجال العقم أو تأخر الحمل
أو الإجهاض المتكرر، وغير ذلك من أحوال النساء.. انفسية المتعلقة
بظروف الزوج أو برودة جذوة الحب عنده.

وكان مشهوداً لأمك ابنة الواحد وعشرين عاماً وقتذاك - بمهاراتها المتعددة بطرق الكي بالنار: بقزحة الشوفان أو باستعمال المسلة أو المسمار أو حتى بمحباس القهوة الغليظ...!!

وفوق كل ذلك كانت والدتك تُدلي بدلوها فيما يتعلق بالكسور والجروح.. تقدم النصائح وتُعِدُّ الوصفات، وتقدم الخدمات من تحويط وتخريج ولقطات خوف.. وأمور أخرى.. حصيلة خبرة طويلة عاشتها مع أمها ومع خالتها ممن مارسن الطب الشعبي وأدواته وطقوسه في بلدها..

لجأت نسوة الدروز، وعلى اختلاف فئاتهن إلى أمك حتى غدا محل إقامتنا مزاراً كريماً يترددن عليه في مختلف ساعات النهار مع أطفالهن أو أخواتهن أو بصحبة أزواجهن. ولا أخفي عليك أن هذا الاهتمام بالغرباوية وهذا التقدير لأمك قد انعكسا وانسجبا على زوجها الغرباوي أيضاً..!

وظلّ أمراء آل الأطرش يتوارثون إمارة الجبل طيلة العهد التركي إلى أن اختلف الدروز مع الأتراك، واشتدت حدة الاختلاف بينهم فأعلنوا العصيان عليهم وحاربوهم، فلم ير جمال باشا التركي حاكم دمشق حينئذ إلا أن يُجامل، ويتودد إلى زعمائهم ويدهانهم، فاستدعاهم للتفاوض معهم في أيار/ مايو ١٩١٩م حيث أكرمهم في الليل، وأنعم عليهم بأرفع الألقاب والأوسمة. ثم مكر بهم في الصباح وأمر بشنقهم جميعاً في ميدان عام ليُرهب به بقية الحكام المتمردين على الحكم التركي.

وكان من بين من أعدمهم الأمير ذوقان الأطرش^(١) والد الأمير يحيى الأطرش حامي جوارنا ومولى نعمتنا في ذلك الوقت.

وكان وقوع الفئة الخيرة من شجعان ونشامى جبل العرب في قبضة الغادر جمال باشا التركي وإعدامهم بمثابة القشة التي قصمت ظهر كل درزي في ذلك الحين.. حتى صاح كلهم على لسان رجل واحد "باطل"! ما ظل في السويداء رجال^(٢).. منتخباً الواحد منهم ومتعمداً ومتوعداً بأخذ الثأر والانتقام، وبالنيل من حثالات البشر أمثال جمال باشا وزبانيته في ذلك الزمن.. أوفى النشامى بما تعاهدوا عليه، ونفذوا وعدهم، وكالوا صاعهم ثأراً وانتقاماً من الأتراك حتى طردوا شر طردة من البلاد.. فتخلص من ظلمهم ومن تخلفهم العباد..!

١- الأمير الذي رفع لواء الثورة ضد الأتراك إلى أن وقع في قبضة جمال باشا الغادر - السفاح التركي - فاعدمه يوم ٦ مايو ١٩١٦ وجاء ولده من بعده "سلطان باشا الأطرش"، فواصل جهاد أبيه ضد الاحتلال التركي أولاً ثم ضد الاحتلال الفرنسي ثانياً... وهو من أبطال بدايات نضالات الأمة العربية ضد الغزاة الصهاينة.. لعب دوراً هاماً في تشكيل جيش الإنقاذ بالتنسيق مع فوزي القاوقجي" وقد طلب سلطان باشا الأطرش أن تكون نواة الجيش المذكور أربعة سرايا من جبل العرب من الدروز تحمل أسماء المعارك الكبرى التي خاضها الثوار الدروز ضد الفرنسيين عام ١٩٢٥ بقيادة "سلطان باشا الأطرش": الكفر، المزرعة، المسيطرة والفالوج. وسلطان باشا الأطرش قائد الثورة العربية الكبرى ضد الأتراك هو أول من دخل دمشق ورفع العلم العربي فيها..

٢- أصبحت مقولة ومثالاً يردده العرب "النشامى" في مثل المواقف التي قانتها الدروز فيها.

(١)

أمي لهجة أطرب لسماعها

أمي - مثل أهل البداوة - تُسَكِّن أوائل الكلمات ، وتتطق همزة^(١) أولاً للتوصل إلى النطق السليم كما تجتلب همزة^(٢) قبل حرف العطف، وتسكِّن الواو وتكسر الهمزة.. وغير ذلك من أمور تشكيلية، ومن تبديل حروف أو قلبها أو إسقاط بعضها.. نسمع منها، ونصادف مثل هذا وغيره الكثير أثناء حديثها معنا..

وتتطق القاف كما يُنطق "g" في اللغة الإنجليزية المرموز له بالرمز "g" في كلمة Singer مثلاً. وتتطق كاف (ك) المخاطبة جيماً تركية بثلاث نقط فتقول: "صَبَحَش الله بالخير" بدلاً من صبحك الله بالخير.. وتقلب حرف اللام نوناً في كثير من الأسماء مثل إسماعيل وعزرائيل بدلاً من إسماعيل وعزرائيل..

لهجة أمي البداوية أحبها وأطرب لسماعها منها بالذات وهي تروي لنا من الحكايات والأسمار والألغاز.. لهجة أمي العذبة ماتت عندي بموتها وأصبحت في عداد التراث الذي فيه قيم الجدات والجدود.. ويضيف عندي

-١ مثلاً: إيصلة في بصلة.

-٢ مثلاً: أو مزابه ... في هزا به

"إبراهيم لينكولن" إلى عظمتة عظمة مميزة في قوله المأثور: "أعظم كتاب قرأته أمي"..

كانت أمي - يرحمها الله - تحفظ الكثير الكثير من الأمثال العربية، والأقوال المشهورة. وكانت تحفظ شعراً كثيراً وتجيد ترديده في المقام المناسب، وكانت أيضاً تُحسِّن الاقتباس والتحوير والتجوير لما تحفظه من الشعر فيبدوا تأليفاً جديداً من إبداعها ملائماً للمناسبة الطارئة وللموقف الجديد. هذا الإبداع المشهود لها به كان من وحي الشعر الفلكلوري المتناقل شفهيّاً بين الناس.

وكان من عادة أمي في ليالي الشتاء البارد.. وقد خلت الدار من الصبح والزوار.. وحول كانون النار.. كانت تثير في نفوسنا شجون الوحدة، والخوف من المستقبل وهي تشدو بصوتها الجميل حزناً تراكم عندها بفعل الأحداث الجسام في الأيام الصعاب منذ أن فارقت مسقط رأسها في قرية "الكواكب" وهي زوجة صغيرة لا تعي أهمية إضافة الملح إلى عجين خبزها.. وتموت والدتها كمدماً وحزناً على فراقها بعد أيام من رحيلها..

دأبت في ليالي تلك الأيام تناجي قمر كل ليلة ترجوه أن لا يَضيئ بضوئه على ابنتها الصغيرة لينير دربها ويدخل السكينة في نفسها.. ويموت لها أبناء أربعة من الذكور متتابعين.. فتُمدُّ صوتها المتهدج الباكي أشعار العتابا والمواويل، وتشجو بالهم والحزن.. ومن ثم تصهر وجداننا في بوتقة

آلامها، فتنهمر دموعنا، فتسارع حينذاك إلى تلطيف الجو بأشعار جديدة، وبألحان أكثر رقة وعذوبة، متحركة بطبقات صوتها تعدل بها أمزجتنا ومن ثم تعيدنا إلى اتزاننا وإلى مرحنا..! وعرفانا بالجميل نحو أمي، وإحياء لذكرها الجليل عندي، وتخليداً لحبي لها وتقديري لشخصيتها: أكتب قصصها وحكاياتها بلهجتها العذبة وَلَكِنَّهَا الحلوة، ما استطعت إلى ذلك مفردات أستحضرها، ومن تشكيل كامل للكلمات، راجياً أن يعطي تشكيلي لها أداءً سهلاً للفظ الكلمة الصحيح. كما سأحاول أن أكتب المعنى والتفسير لما يحتاج إلى شرح أو إيضاح، ولا يغيب عن بال القارئ الكريم أن لهجة أمي المسموعة مباشرة عنها أجمل بكثير منقولة أو مطبوعة على الورق..! أقوم بكل ذلك وفاءً وإجلالاً لها وللهجتها التي هي لهجة البداوة، والتي تمثل الكثير من التراث والتاريخ ومن العادات والتقاليد والمفاهيم.. عرفت كثيراً منها مباشرة قبل انخراطي في الدراسات الإنسانية والأبحاث العلمية..

ظلت أمي وفية للهجتها، غيرة على عاداتها الأصيلة رغم تنقلاتها الكثيرة برفقة الزوج الحبيب أو الحبيب الزوج طيلة حياتها في العالم العربي والإسلامي: في "الكواكب" وفي "جرش وعجلون"، في جبل العرب وعند الدروز، وفي "السويداء"، في "قرية الفلسطينية وفي مدينة القدس"، في "بيروت وقرنايل والزوق في لبنان، وفي "مكة المكرمة والمدينة"، وفي "القاهرة وبغداد"، وفي "الخليج"، وفي "عمان".. ظلت محافظة على لهجتها

رغم حراكها الثقيل في المتواصل المذكور.. وكانت لهجتها تبدو دائماً مألوقة عند أهل من ذكرت من القرى والمدن والبدو..!

وحكايات الوالدة هي قصص واقعية صادقة، عاشت أحداثها وفواجعها وفي خضم السنين اللاتي عمّرتها منذ طراوة عودها إلى جفافه وبُسْهِ في رمسها الأخير. في حكاياتها تلك صور مجسمة، متباينة في أبعادها، وفي مضامينها - لمجتمع في بيئة ملئها أفراد من أهلنا وآخرون من أقرباء لنا أو من البعداء عنا عاشوا أثناء طفولتهم الاجتماعية وبرائتهم الفكرية.

قَصَّت الوالدة علينا قصة عمنا "رشدان" في يوم من أيام تواجدها عندي في الخليج عام ١٩٧٠ وكنت قد استمعت سابقاً.. ولاحقاً مرات ومرات: سمعتها من الوالد.. ومن الشقيقة دلال، فعلق عندي من القصة في ذاكرتي أحداث كثيرة.. وفي كل المرات كنت أجد في حديث الوالده في سردها الأمتع، والأقرب إلى الصدق في الرواية والأمانة في التفاصيل..!

قصة العم رشدان

بدأت الوالدة القصة فقالت: ترى أبوك وعمك، خوتهم^(١) ما مثلها، والفرق بينهم في العمر سنين كثيرة! أيام هالسؤلافة كان عمك رشدان ترميه بأخر الطعش^(٢) وأبوك عمره هذاك الوقت ٣٧ سنة. كود عمك رشدان جة لأبوه، إوجدك كان كبير: واحد وستين سنة.

عمك إو هو زغير أوليد، خافت جدتك عليه أمن العين من كثر زينه وحلاته، صارت أثلبسه الخلقان، تشحذهن أمن الناس اصحابين البخوت. ويوم كبر، صارن البنات يتهاوشن عليه، وصار بعض الأنائي لشافته، يصيبها راجف من زينه؛ زينته عجب يخوف إو يصنع، وجهه غضي^(٣) يقط النور منه.. جدائل شعره اللي ما هنَّ يم^(٤) أنثى! سبحان الله! عجيبة من عجائب الله بالزين..

ويوم لحق ملاحيق الرجال صارت أمه تكازيه^(٥) اتريده يتجوّز، وهو يداحرّها من شهر لشهر، ويم من ذات الأيام، وهو يشارك في عونة الحصاد لدار مصلح.. ترى يمه.. اكثير من الأعمال هذاك الوقت، كان

١- أخوتهم لا مثل لها.

٢- التسعة عشر من عمره.

٣- يضيء وجهه نوراً جميلاً.

٤- عند.

٥- تلاحفه وتضغط عليه.

يصير بين الناس بالعونة، يساعدون أهل البلد بعضهم لبعض.. مثل عيلة وحدة: أبناية الدار عونة، إو عقدها عونة، إو الحصاد عونة، إو قصاص^(١) الغنم عونة..

عمك رشدان شاف له من بين النسوان المساعدات في العونة أنثى أتعرّطت له.. أعجبتّه، سلّم عليها! إو ما دري إله سلامه يصير زغروت^(٢) حيه.. نشيدها عن اسمها وعن أبوها؟ قالت له: "شهله".. وإوصيفت بيت أبوها، والبنات، دخيل الله عليك من أول ما شافته حيته.. وسألها: لك بني عم؟

شهلة : وأكترهم^(٣)!

رشدان: مطلوبة لحد منهم؟

شهلة : طلبة، ما هي طلبة، كل واحد منهم هايياً أمن الثاني، وأنى، والله ما عليك مخفي، ما ابنفسي أحد منهم..!

رشدان: لصار! اتعالى في سماه، اجعلنا نلتقي ألبلياً^(٤) ميعاد، وش رايك أطلبك إمن أهلك؟

شهلة : (ضحكت وقالت): ما أنت مكروه إو هنزي قسمة إو نصيب، وان ردّت إلي أقول من دّلوان منك أخليت^(٥)..!!

١- جز الصوف عن ظهور الخراف.

٢- كناية عن الأمر الذي ينتشر بسرعة كفضيحة.

٣- ما أكثرهم.

٤- من غير موعد.

٥- كما خلقت حواء من آدم وصارت زوجاً له.

وتشرح لي أمي رحمها لله في تعليقها الطريف التالي على الموقف فتقول: ترى.. يُمّه.. ها البنت شهلة هاذي حَوْدٌ^(١) مَرّه، ترقص^(٢) من غير سحجه، والمره هاللون اتورَدك عالعين، واتصدرك ظمَيان.

مرة دايماً أمحفلة^(٣) نفسها، أو تطيب بالخضير^(٤) اللي عطره كان يعم البلد: أسهلها مع وعرها..!

وتستمر الوالدة في تعليقها فتضيف: عقب ما وصلنا بلدنا من الدروز، وأبوك شايفن رشدان متغير، أبوك مالاغاه^(٥)، كل مره يحاول يلاغيه، يشوف منه شوفة عجيبه، ينام إنهاره أو بالليل يرقى^(٦) رُجماً أغرب البلد، أو توالى الليل، ينصى^(٧) الدار، أو لا يتعلل مع الرجال أو لا يخالط أحد. أتحيّر أبوك بعمك، ظنّ إنه إمهاوي أو إنه مظيفوم^(٨)، ترى كلنا نعرف، وأبوك يعرف عن أخاه إنه رجل هواوي^(٩)، لشاف حُرْمَه أثوب^(١٠) أزرق ما ينصامد^(١١)! أبوك يا ولدي نشد جدك يشوف سائلة رشدان! ويوم جدك نَشْدَه والشو السائلة!؟ أسمعنأهم أو هم يهرجون:

الجد: (يخلف أو يبت^(١) لولده ويقول له): أنشدتك بالله يا رشدان شو طرى^(٢) على بالك أو الشو غير حالك! إنت أمهاوي^(٣) يا رشدان؟

رشدان: والله ييه! أنفسي شهلة بنت هملان الفليح، أو خايف أقول لك تزعل وتعايد^(٤)، وأمي اتكازيني^(٥) بالطويلة إن اتجوز، وأنا إن ما صارت إلي بنت افليح مَرّه، ما لي هوى بالجيزة!

الجد: أنا أدري يا ابوي إن الجيزة قسّمه أو نصيب، مير^(٦) أريد أنصحك يا رشدان: أبو البنت هاي^(٧) وأمرته حاكمه^(٨) به^(٩)، مزيونة صحيح وابنتها شهلة ما هي امخليّة من زين أمها اشين - مير السائها لون مذاراب^(٩) الطاحونة ما يدخل باثمها، تشبك العرب واتقام مستريحة!

رشدان: ييه مآلي خص بامها ولا دخل بابوها..!

(الجد): يا رشدان! الثمرة ما تبعد عن الشجرة يوبه! أو قبل ما تاخذ البنت إشد^(١٠) عن أمها أو عن خالها. أقول لك: البنت مزيونة صحيح، مير لا أبوها منسب ولا أمها مقطب^(١١)..!

١- يصير عليه باليمين الفليخ.

٢- ماذا خطر على بالك.

٣- محب ولها.

٤- تعارض.

٥- تلح علي.

٦- غير.

٧- تافه الشخصية أمام زوجته في البيت خاصة.

٨- متسلطة عليه وتتحكم في أموره الشخصية.

٩- العود المثبت في وسط فردة الرحى في الطاحونة وتدور عليه الفردة العليا.

١٠- اسأل.

١١- وليست تصلح بأن تمسك بها.

١- في ريمان الشباب وريانه.

٢- تندفع في عواطفها.

٣- مهتمة بجمالها وزينتها.

٤- نوع من العطور مشهور عندهم.

٥- ما تحدث معه.

٦- يصعد تلاً غرب البلد.

٧- يعود إلى الدار.

٨- مظلوم.

٩- بتاع نسوان.

١٠- كناية عن المرأة المميّزة.

١١- لا يتمالك نفسه.

رشدان: والله يا أبوي إن ما خذيت هالبنت خص نص كود^(١) أموت
أبلا زواج..!

أبوه: أنا ما قطاع نصيب يا رشدان! اللي يعرفون معارفنا ما خلوا شين
وما قالوه:

لا توخذ الانثى على زين خذها وأياك بنت النذل تاطي^(٢)
افراشها

الوالدة: وَقْتُ ما اسْمَعْتُ جدتك: فاطمة البهماوي: هرجة رشدان ويا
أبوه، قامت إو نَصَّت امْجَارِي^(٣) دار أم شهلة، هناك كانت الهرجة بين
شهلة وأمها قِدَام^(٤) جِدَّتِكَ:

أم شهلة: والشُّو سولا فتك مع الغُرباوي^(٥) يا شهلة؟ - وتعلق الوالدة
على إجابة شهلة لأُمها - : (إنها ما غَبَّت^(٦) عن أمها شيء، دخیل الله
عليك)

شهلة: الغُرباوي زين الشباب يُمّه، آني ورشدان أتعاطينا^(٨) بالله أنتجوز
بعضنا..

أم شهلة: يا شَنَّة^(١)! سَوَدَ الله ما طرى على بالك، والله لو يدُرُوا أولاد
عمك، الواحد منهم كود^(٢) يلوطك لَوَطِ الشاة، إو يقذع بيبك كل
القذع^(٣) اللي ما صار بالدنيا مثيله!

شهلة: والله إن لاط وإن قذع.. عن رشدان ما أَجَنَّب..!

أم شهلة: (بعد أن أصفقت كفاً على كف): حسبنا الله عليك يا
شهلة!، حسبنا الله عليك يا شهلة! ائْثُوقِعي الحِرابَة^(٤) بين هَلْنَا
والغُرباويّة، أو يصير الطايح^(٥) بينهم رايح! العوذ بالله منك.

الوالدة: إو اهون إداركت شهلة وجود جدتك البهماوية، وكان في
نيتها أنها تهرج مع جدتك إلا أنه فاطمة البهماوي سبقتها:

فاطمة البهماوي: (بصوت حاد النبرة): إنت يا شهلة، ما أريد أشوفك،
لو أنك تستحين ما ظليت قَدَام وجهي ساعة، يار وجهك يَكْفِي أَقْدَاح
اللبن، إو هو ترى اللي راح يقشع^(٦) أوليدي.. ترى يا شهلة الدنيا (أعتاب^(٧)
إو أكعاب^(٨) إو تَوَاصِي^(٩).. العوذ بالله منك!).

- ١- يا عاية.
- ٢- إلا يذبحك ذبح الشاة ويسلخك.
- ٣- يمثلون بجنتك أشنع تمثيل.
- ٤- الخصومة الشديدة والحرب.
- ٥- المتوسط بالخير بينهم مقتول.
- ٦- يضنيه ويطرده من الدنيا.
- ٧- عتبات نفعاء بها.
- ٨- وأقدام يخبر مجيئها عن شؤم.
- ٩- كناية عن أن المكاتيب تعرف من عناوينها.

- ١- إلا، غير.
- ٢- تدخل فراشها.
- ٣- من قرية يُهما، اليُهم = الفرسان.
- ٤- نحو.
- ٥- أمام ناظرها وسمعا.
- ٦- ظل لقب الغُرباوي ملازماً للجد ولولديه من بعده منذ أن تزوج الجد القادم من الغرب في قرية "الكواكب".
- ٧- ما أخفت شيئاً.
- ٨- تعامدنا بالله.

الوالدة: وبعد ما قالت جدتك اللي قالتها جت هافّة^(١) على وجهها ويوم
أوصَلت نشدناها: "عسا نيتك راشدة"^(٢) أو سألناها على اللي جرى وقالت
لنا هرّجة شهلة وأمها من أولها لتاليها..

(٣)

أفند^(٣) الكواكب

وتتمم الوالدة قصة العم رشدان، وقد دفعها انصاتي العميق فشجعها
على الاسترسال، فتذكر لي كافة التفاصيل فيها:

الوالدة: في "الكواكب: أربع أفند بني الحميد هلي"^(٤)، وبني حميدان
ودار الغمور، ودار حامد، أهل شهلة كانوا وقم^(٥) مية رجّال. من شبابهم
شاباً اسمه "حجر".. "حجر الصخري"، كبير جماعته، وما الكبير غير
الله، صار حجر الصخري وقم الثلاثين أو هو ما اتأهل^(٦)، حبّ هالأنثى

- ١- تسير على غير هدى.
- ٢- نيتك طيبة أرشدتك إلى الطريق السليم.
- ٣- حمائل وعوائل.
- ٤- أهلي.
- ٥- نحو أو تقريباً.
- ٦- لم يتجاوز بعد.

شهلة، هاذي بنت عمه وراذ يتزوجها، وهذا إزله موزون^(١)، ما يُحوّص على
لازمة عليه، عنده من روحه حسبة^(٢)، حشيم^(٣)، ومثل ما قلت عالسّاع^(٤):
هوّه المتوجّه^(٥) بين رجاجيل حملوته، عقّب^(٦) له أبوه أرض ورعايا من
البّل^(٧).

والغنم.. غني - والغني وجه الله، "حجر الصخري"، يُمّه هايشه^(٨)،
بايشه^(٩)، ما في البلد قدما لون^(١٠) قدمه.. كبيرة.. كبيرة.. يغير من عمك..
يغير من زينه.. ومن شوفته.. ومن سيرته.. في ثمّ^(١١) البنات ديمه^(١٢).. يغير من
شجاعته.. يغير من قوة في بدن عمك مخفية.. ترى عمك رشدان ما خلّى
شاباً من شباب البلد أو من كهولها مثل أبوك إلا وايباطحه، ويبطّحه
عمك ويثبته عالتراب قدام الرايح والجاي.. حجر هاض يدري إنه عمك
رشدان عنده زودة^(١٣) نفس، وشايفاً حاله أكثر منه لحجر..

- ١- متزن.
- ٢- رجل المهمات والمسؤوليات لا يهرب منها أبداً.
- ٣- ذو احتشام وهيبة.
- ٤- قبل لحظة.
- ٥- وجه قبيلته.
- ٦- أورته.
- ٧- الإبل.
- ٨- ضخم مهول مخيف.
- ٩- تُقال لترداد المعنى السابق وتوكيده.
- ١٠- مثل قدمه طولاً وعرضاً.
- ١١- فم.
- ١٢- دائماً في فم البنات.
- ١٣- عزة وثقة زائدتان في النفس عنده.

والشاعر قال في الناس هذول:

الحريم ما حبين بيضة غريره^(١)
والرَجَال ما يحبون رَجَالاً شجيع
جماعته يَنْصُون خيمته وديوانيته كل ليلة، ويَنْقَهُون^(٢) عنده، ويهرجون
مع بعضهم وقتاً طويلاً يحلا لهم. حجر طَبْعُهُ عنيد، ما تَعْرِف دخلاته^(٣)..
أخذنا الهرج يُمّه.. بعد هالسولافات، تلاقى رشدان وشهلة بأيام في نفس
العونة.. عرض عليها يُطلبها من أهلها.. وقالت شهلة "مير أولاد عمي
يُطلبوني، إو أبوي وأمي يريدون، وأخاف عليك منهم وبعضهم أعفون^(٤)..
(وتستمر الوالدة في قص القصة) وظلوا رشدان وشهلة يهرجون، باح كل
واحد منهم اللي ابضميره، إو اسرحوا بالسواليف.. نسوا حالهم.. ما افطنوا
غير إعجيز إمبرثرة اتشوفهم وهم يهرجو.. اسمعت اللي بينهم.. أو شيعت
انه شهلة بنت صبيح امهاوية الغرباوي، وأخذها يا^(٥) غراب إو طير..
وصارت الحرمة ابثم الحريم البان.. وفوق هاظا وهاظ.. بنفس الليلة، نصت
العجيز. واللعوذ بالله منها.. نصت ديوانية القوم، وخشت عليهم في التعليلة،
ولون وجهها لون الحصيني^(٦) اللي طارده اكلاب الصيد.. اعجيز
منقورة^(٧) الكعب.. وقالتهم.. يا حيف^(٨) عليكم.. ويا اخساره، والعرب

- ١- حسناء.
- ٢- يشربون قهوته.
- ٣- خفاياه وحيله ومكره.
- ٤- لا يرعون إلا ولا ذمة بلا أخلاق.
- ٥- وانشر الفضيحة كما يشاء المُذَال.
- ٦- الثعلب.
- ٧- نمامة - قطاعة علاقات اجتماعية.

كل^(٩) ابوهم - يتتفسون ابوجه^(١٠) نساوينكم! تسمرون، وتتعللون،
والغرباوي ولد الغرباوي - اللي الناس ما اصنفوا^(١١) على راسه، يهاوي
ابنتكم شهلة بالرجوم^(١٢) وبالشغبان.. يا فضيحة العيلة^(١٣) والبيله..
هالسواة^(١٤) ما صارت لا عند بدو إو لا عند فليح^(١٥) ولا عند حَظَر^(١٦)..
تخافون من الله.. هاظ ما ادري وين هو يصير؟! أعوذ بالله.. دخلنا عليك..
دنيا صارت آخر وقّت.. وخرجت اعجيز^(١٧) السو وهي تقول:

ما اتواعدوا غير الزنا بوعدهم يا حلو ملقاهم على غير ميعاد
وتستمر الوالدة في سردها: "الرجاجيل في التعليلة قوم ارتزت^(١٨)، كل
واحد منهم سكّت، اقطع^(١٩) أو لا كلمة منه. حجر خص نص^(٢٠) زامت^(٢١)
كبد، ما نبش^(٢٢) ولا رمش..! (واحد، كبير العمر فيهم.. مصلح
وحكيم.. صاح فيهم..) وقال: "هذي اعجيز ما تبغي الخير، وما هي

- ١- يا عيب! واعيباه.
- ٢- وكل العرب عن بكرة أبيهم يوافقوني الرأي فيكم.
- ٣- كناية عن أن العاشقين ملتصقان ببعضهم ببعض.
- ٤- لم يتفقوا على اعتباره ذي شأن.
- ٥- في الحقول والوديان.
- ٦- القبيلة بكل أفرادها.
- ٧- مثل هذه الحادثة.
- ٨- عند الفلاحين.
- ٩- عند أهل المدن.
- ١٠- عجوز السوء.
- ١١- حلت بهم مصيبة.
- ١٢- وكأنه قطع لسانه.
- ١٣- بالذات.
- ١٤- كظم غيظاً لا حد له.
- ١٥- لم ينطق ولم يحرك حتى رمش عينه.

انظيفة لسان، والناس يا أجاويد أتزوّد بالهَرَج، وما بينهم اللي يريد
العَمَار!

الوالدة : كلام الرِّجَال الحكيم راح في الديس^(١) والهيش.. من كلامه
ما حد سمع شين، حجر الصخري ما قال أُو ما شار - .. بهداوة النار
واسكوتها تحت رمادها قام ومشى هافاً على وجهه أثراقه غريان سود
ما يشوفهن حد غيره.. جا مَقْفَى^(٢) إو هوّه نوباً يغرب إو نوباً يشرق.. مير هوّه
حط ابّالّه إنه يحط قرده^(٣) على اهدى الغرباوي، وصار يكلمن نفسه إو
يخسّي^(٤) لروحه: غرباوي ينهزم بروحه أمن حنّانه^(٥) إو عريائه إو يساومنا
على عرضنا.. واللّه يا رشدان لو عليك مية حارس لخلي هالقديمية^(٦) تنهش
أقلييك، أو أقبل أصير بين العريان "الخابر الصابر" اللي يداري الفجور في
قريباته.. وما تنقبل له شهادة!!

١- جمع ديسه وهي الغاية الصغيرة الصغيرة كثيرة الأشجار والأعداد . الهيش الخلاء المكتظ بالأشجار والنباتات ملتقة
الأغصان متشابكة السيقان بمعنى: كلامه ضاع في الفضاء....

٢- يسير.

٣- كناية عن التحدي بحركة وغضب عنده ضد هدوء ولا ميلاة عند الغرباوي.

٤- يُعقر نفسه ويجلد ذاته.

٥- من أهله الذين يعملونه الخنان.

٦- سلاح أبيض أطول من الخنجر وأقصر من السيف.

(٤)

الفاجعة

حدثني القوم، الوالد والوالدة والشقيقة والشقيق، وكلهم يكبروني
سنيناً ويزيدوني معرفة ودراية فقالوا: في ليلة حمراء حزينة، تحجّر قمرها
في كبد السماء، وحجب ضياءه، وادار جانبه المظلم حتى لا يرى أناس
تلك الليلة - وهم يتحركون ويكّلون، فينامون مستسلمين لكل مجهول
يأتيهم به القدر، ولكل مصاب ينزله بهم الغدر عند إنسان منهم ضد آخر
فيهم.. فلا يرى منهم رديئة^(١) تقع تحت ضيائه..! كانت ليلة صيف.. عانى
العم رشدان في نهارها معاناة مغايرة عما اعتاد عليه من تعب ونصب.. رأى
بأم عينيه في ذلك النهار صُفْرَةَ الموت وذبوله بدأتا تغشيان النباتات
والأزهار في الطلول، وأوراق الأشجار في السهول والحقول.. وبَدَى لرشدان
في ذلك النهار وكأن أوزار الدنيا قد تفاقمت عليه، بدى مهموماً وعلى
غير عادته وهو يتابع ويلحق بعينيه أيدي الحصادين والغمارين^(٢) وهي
تُحرك المناجل والقواليش^(٣) تجرّ رقاب السنابل وسيقانها. وبالكاد شارك

١- مصيبة.

٢- الذين يجمعون ما يتساقط من سنابل القمح خلف الحصادين.

٣- أدوات تعمل عمل المناجل.

الشاقوق^(١) والمجموعة وهم يغنون أغاني الحماس لزيادة النشاط في الالتقان والإنجاز، وتبث الراحة والهدوء في النفوس والأبدان.

كانت معاناة رشدان ذلك النهار معاناة عليها ريشة^(٢) تشرح قول الحُصَّاد أن "الحصيدة من النار"^(٣).

أرغم رشدان نفسه وألحَّ على ساقيه وقدميه بالعودة من الحقل إلى البيدر حيث يقوم بحراسة شيل القمح وحزَمه ليلاً.. ألقى رشدان بثقله "الخفيف" فوق طرحة من طرحات القش، ألقى بنفسه، وكأنه يودع الليل والنهار والإنسان والأشياء.

وتتمم الوالدة سردها للفاجعة وتقول:

الوالدة: الليلة نفسُها، افذات الليلة، نصى حجر الصخري للبيدر، وكنُّه^(٤) معاه على ميعاد.. وأنه رشدان، ما غيرُه، ولحاله! نايم! ما داري عن شيء باهال الدنيا^(٥)، لُون الكبش اللي هداه ربه لمصيره..! ممدداً، ومستسلم..!!

ومن بعيد، بعيد.. وعسانا يُمَّه ما احنا واياكم^(٦) على سؤا.. فوق شجرة تعرَّت عن سِتيرها وقفت "أم سلمان"^(٧) تنقق بأعلى صوتها.. مؤذنة ببداية

١- رئيس الحصادين.

٢- واضحة يلحظها الكل.

٣- وكأنها النار.

٤- مكانه.

٥- في هذه الدنيا.

٦- دعاء أن يبعد الله كل شر عنا جميعاً.

٧- من أسماء البومة عندهم.

الفاجعة..! قَرَّب الصخري، ويوم ما اقترب من رشدان وما هو رشدان - رَدُّ أيده بقديميته، ودَحَّ رشدان على راسه في جنبه اليسار وانها لُنُص^(١) النصاب، وانه ما يعتاز غيرها، إو من الغل عنده حَضْحَض^(٢) الشبرية بالجرح، إو أجَّه من عند عمك رشدان منهزم..!!!

وتستمر الوالدة في تفاصيل المصيبة فتحدثنا..

الوالدة: مين اللِّي شافه؟! تشوفون الخير - الرِّجال العاقل الكبير الناصح الحكيم إلِّي كان بينهم في ديوانية حجر، ليلة التعليلة والعُجيز.. اللي حذرهم من اعجيز السَّوَّ.. إو زودة^(٣) الهرج.. لَحَقَّ الرِّجال الطيب.. حجر الصخري يوم أقفى من قدامه، حاول يماشيه^(٤)، ما قدر.. كان كأنه في نيته الراشدة أنه يمنعه من سواته اللي كان ناويها لرشدان.. إو ما قِدر..!!

يوم شاف رشدان على الحال اللِّي ما هي حال؛ ودمائُه تُثَيَّبُ على القش من فوقه ومن تحته.. وهو غايب عن الحس.. صاح الرِّجال إو ردد اصياحه إو دَبَّ اصواته.. تجمعت خلايق الله من البيادر، إو من البساتين والكروم إو من الدور يشوفون الشَّو السالفة اب هالليل..!!

١- منفرة حتى منتصفها في الجرح.

٢- حركما.. انت داخل الجرح في كل الاتجاهات.

٣- أبعدنا الحديث وتشعب فأنهانا عن تكملة القصة.

٤- أن يسير بجانبه وينصحه.

وصل الطارش^(١) يَمْنَا واحنا نايمين، قام أبوك.. ينشد الشَّو الخبر،
الطارش ما وُطِّح.. قال لأبوك.. الحقني عالبيدر.. عند خَيْك رَشْدان، وانهزم
من قدام أبوك..

يوم أبوك شاف أخوه ودماته وهو ما حاسس بحدا حواليه،..! الله درى
بحالته.. انهلع أو نسي حالة.. إو حَلَف وَبَّتت،.. وبالطلاق من المرة إو من
المُرَّو غير ياخذ حقه بالصاع^(٢) الجاير.. وصاح بنخوته.. وأنا أخوكي يا
خودة^(٣).. والله لَنْ عاش ذباح رَشْدان ما يمشي على صَحِّ الأقدام إو الإيد
التي قتلت رَشْدان غير تَقْطَع..!

حملوا عمك رَشْدان، وَضَمَطُوهُ^(٤) على ظهر أفرسه ساندًا ظهره على
صدر فارسها، وأوصلوه البيت ودماته تَصْفَى.. يا موتى^(٥)..!!

في البيت.. قول جدك، كان الله اخذ وداعته أيام قليلة قبل ذبح ولده
رَشْدان..! في البيت الحريم كلها محتاسه^(٦): ام رَشْدان وأخواته، "فودة
وخودة". هاصت^(٧) الحريم وراذن^(٨) يهجمن ويتشالفن لنسوان الأغرما..
نهرهن أبوك.. وقال: "باطل ما ظل بالدنيا رجال.. سود الله وجوهكن" هو

قال قولته إو تشوف النساوين غير هاذي ثوبها قدايد، أو هاذي امخانقها
بدايد، إو هذيك شعر راسها واجدايلها إِمْنَقَلْ، إو وجهها امبَهْش..

(٥)

غرماؤنا

عمك رَشْدان صار وراه^(١) إو دونه، داووه بالطب العربي، وصار من
خطيب لخطيب، خطيب يفتش^(٢)، وعجوزاً تَرْشَرْش^(٣).. داووه بالنار..
وبالصبرات^(٤).. ما شى نفعه، وصار يشوف داه^(٥) في أرداه..!!

صاروا.. أوجوه^(٦) الربيع يشقون^(٧) على رَشْدان.. أو من جُمْلَتهم، صديق
أبوك "النتشة حبيب الجاري"، أو في يوم وهم جالسين حَوَالِيه لعمك.. أبوك
نَشَدَ عمك، نشد أخوه عن اللي جرى على البيدر - عمك - كل مرة
يسأله أبوك فيها - ما يحرك إيد ولا السان.. شيله بيله^(٨).. وهاذي المرة

١- الرسول حامل خبر الشؤم والفاجعة .

٢- يأخذ بثأره ويزياده.

٣- كبرى شقيقاته وينتمي العربي القح في مقام النخوة أثناء الشدة إلى أخته. فودة* مرآة كثيفة شعر الرأس، وخودة تعني بيضاء

٤- ثبتوه بأربطة من القماش.

٥- تتمنى أن تموت بدلاً منه.

٦- مضطربة.

٧- ثرن بفوضى.

٨- أرذن.

١- لآخي ولا ميت.

٢- يفتش عن حظه في أبراج النجوم.

٣- ترش أدوية على هيئة بودرة فوق الجرح.

٤- بالكي بالنار مستعملين حلقات نبات الشوفان فوق الجرح.

٥- حالة يتصارع فيها الداء ضد الدواء مع غلبة المرض على الدواء واقترب الموت.

٦- المعارف والأصحاب المحترمين.

٧- يزورونه شوقاً للاطمئنان عليه.

٨- قطعاً بالمره.

حرك عمك إيدته في الهوا فوق صدره، إنهم من حركاته إنه لا يريد أيّوح باسم ذبّاحه.. لأنه يوكّد إنه راح ياخذ حقه منه بإيده.. آخر مرة وصلت مع أبوك للأخر.. عندها صاح أبوك أشدّيك بالله أو بالبيت اللي بناه الله، وسبعة جمال إمحملات غله، كل حبة تُصرّخ وتقول.. مين قتالك يا أخوي..؟ يعني يا رشدان هالنومة ما منها قومه.. قول أنو ذبّاحك.. لا تخلي دمايك يروحن هدرًا يا أخوي.. وهذيك الشوفة صابت أبوك حشرجة وكأنها حشرجة الموت وهو يتلفظ هذول الكلمات وعند ذاك بالكّد والموت بدا رشدان يحرك شفايفه..!! ويتمتم.. أبوك قربّ ذاته.. وسحب إيد النتشه بن حبيب الجاري ما عرفوا ولا فهموا شي..!!

ما عرف أبوك الأغرم^(١).. وما توكد منهم.. ما وفّى رشدان حركاته — غير وهو يغمّظ عيونه.. وانه كئنه نايم — يا الله دخلنا عليك من جهّد البلا..! والعوض على الله إلهي ما تنام عينه.. قضا ربنا ونفذ، واحنا إله شاكرين أو لحكمه خاضعين.. وعلى ما قدر ونفّذ صابرين.. ولا إله إلا الله ومحمد رسول الله..!

أبوك الصامد — جبار والله، صار دموعه ديمه نازله على خده بيكي أخاه، أو من السرحان ماله مجده^(٢).. يطاعم الزاد امطاعم، وصار ويا الأغرم^(٣) امتقاطعين العلوم.. ويله موت أخوه هالموته.. أو ويله غريمه —

١ - عدوه وأهل عدوه.
٢ - ما إله خلاص، أي دائم السرحان.
٣ - اوقفوا كل تبادل وتواصل لعداوة وتربص وحذر وانتظار وقلق.

عارفهم ومش عارفهم — ومش موكد منه عارفه وأهل البلد بيقولوا: "هاظ هو" شافيفنه وهو يتالع^(١) في مشيته.. أو ويله إمّه إلهي ليلها أو انهارها بكايه لطامه شقاقه.. أو ويله أخته خودة من يوم ارتزت أو صابها أبو العرقيل^(٢) — ما تحرّز تمشي..

مضت ولقة^(٣) من الأيام، وصار أبوك النوم ما يعرفه بالليل ولا بالنهار إمنّ البلّشة^(٤) إلهي انبلش بيها..!

أو في ليله قريبه.. جمعنا أبوك مع النتشه بن حبيب الجاري وزوجته "منعام" وأخوه "مقبل بن حبيب الجاري"، اجمعنا أبوك وأمّه شاهدة.. وشار علينا بالثم المليانه تجهزون حالكم، وناخذ حريمنا ونعود نعيش بين حنّانًا وعربانًا..!

انغرب غربة.. نرجع لبلادنا..! وغير هالهرجه ما قال شي.. كد أبوك أو شاف نعمه تبشى^(٥)..! اعرف أبوك السالفة.. طمنها واجبر خاطرها إنه بعد ما نوصل بلدنا غربة يرجع يجيب الها "نضرة" ترى بدلونها ويسمونها عوان^(٦).. اسم ثان إله.. ترى صار إله أرب^(٧) وأرب يعود.. ويعود إلى "الكواكب" مرّة ومرتين وثلاث..!

١ - كناية عن التباهي والتعظيم والكبر لانتقامه لشرفه على حد زعمه.
٢ - من أسماء مرض الكساح (يمرقل في السير).
٣ - مدة من الأيام تميل إلى الكثرة.
٤ - الورطة الشديدة.
٥ - تبكي.
٦ - المرأة المحيرة.
٧ - غرض وهدف.

(١)

الجنود القريبة

كان الجد عبد الله أعرف لدينا، كحفيد بارز لجدّه القريب أو البعيد الأشوس^١ "ابن السّيدين"، مالك الأطيّان والمروج.. والذي اشتهر ليس في قريتنا فحسب بل وفي عدة قرى كانت تضم قطعاً ومرايح ومروجاً من أطيّانه.. في قرى أخرى مجاورة لقريتنا. في "القباب"، في "عمواس"، وفي "عين كارم".. بل وتتسع الدائرة التي تضم أملاكه وعقاراته لتشمل عدة قرى بعيدة في شمال فلسطين وفي جنوبها.. حتى تعبر نهر الأردن، فيعلن اسمه عن حضوره في قرى الأردن وفي بواديّه..١٩

حمل الأشوس "ابن السّيدين" لقب إقطاعي عند عارفه من فرسان الذاكرة، ومن رواة القصص ومردديها. يركز هؤلاء عند الحديث عنه على عشقه للنساء في سيره الغرامية، وفي زيجاته المتعددة التي لا يعرف عددها.. فقد كان كمال التجربة عنده لا يحصل بالزواج مرة واحدة، وهو يفهم أن تعدد الأزواج وتشريعهم من مفاخر الإسلام.. والله قد أباح الزواج.. وحلل الطلاق.. والرجل يعاشر بمعروف ويفارق بإحسان.

١ الجري على فمل كل فمل بخيلاء وتكبر

كان العشق عنده فكرةً وعقيدة.. استأثرت بهما نفسه حتى صار الجنس عنده غايةً في ذاته، وتهون دونه كل لذائذ الحياة!

العجيب فيه فيما يُروى عن أصحاب "عكاز الذاكرة" - أنه كان ممن يجمعون في عشقهم للنساء بين مذاهب ثلاثة في العشق: المثالي والخيالي والعشق الطبيعي.. يرى الجمال الأنثوي في صفات مثالية ظاهرة على جسم المعشوقة من نسائه.. إلى جانب مسحة روحية توحى بتمجيد الجمال الشهواني فيه.. يختار زوجته مرة تلو المرة - عطبولةً في قامتها، وضيئةً الوجه، غانية تستغني بجمالها عن الزينة والتزين، وسيمة بحسنها الثابت، ذات فم مليح، ولسان ظريف، وقد رشيق مياس، لها شمائل لطيفة، وحركات لبقّة، وشعرٌ في كمال الحسن وفي بهائه، ممشوقة في تمام سن المراهقة.. حتى في كهولته لم يتنازل عن شروط الجمال هذه.. صفات تكللها مسحات الاشتهااء والرغبة العارمة.. يختارها امرأة، رائحة الجنس دائماً حاضرة فيها.. ومن هنا صار التماس بينه وبين أنثاه طقساً من الطقوس اليومية عنده، تدفعه إليها طاقة بيولوجية عارمة مركوزة في أعماقه، دافقة متجددة، مشبوبة دوماً بالاشتعال والتوقد، راضخاً لطبعه الغلاب ذاك.. والله أعلم بمن خلق..!!

كان الباه عنده متوهجاً بصورة قل أن تسمع عنها أو ترى لها مثيلاً في الأولين والآخرين قديماً وحديثاً..

كان يؤمن قولاً وعملاً بأن النساء زينة الشهوات عند الرجل، وقد قُدِّمَتْ عنده على الأبناء والأحفاد، والأموال الصفراء والبيضاء، والعقار والدور من أرض وحدائق وحقول، ومن أنعام من أبل ونوق.. وخيل وجياد..!!

يؤمن بأن الله تعالى - خالق الإنسان وشهواته - في قمة فضله ومَنِّه على عباده يعلم أن من تمام أسباب نزهة خاطر عند عبده المؤمن وانفراجه عن غمِّه إنما يَكْمُنُ في تفضله عليه بأن يزوجه بحوراء عينا يوم القيامة في مقام أمين، في الجنة ذات البساتين الخضر، والعيون الجارية في الفجاج والأرجاء، والجهات والأنحاء.. فتكْمُلُ سعادة العبد المؤمن كما قيل في ثلاثٍ تُنْقِي قلبه من الحزن: الماء والخضراء والحوراء..

ظلت النساء عنده زينة حياته، يسترضيهن بالباه طيلة ارتقائه درجات الشباب والكهولة، وبالعطايا والهدايا فترات هبوطه دركات الشيخوخة والشيب والكِبَر..

لا فرق عنده بين نساء النصارى والنسوة المسلمات.. من بنات القرى أو من سيدات المدن. كان يسخر دائماً من أصحاب القول بأن القلب لا يتسع إلا لحبيب واحد.. بل يضيف لهم إنما يتسع القلب لمحبة كل نساء الأرض متمنياً أن تتلاقى أفخاذهن في فخذين اثنين.. يتفخذهن فيستريح..!! يهزأ ممن يتشدقون بالوفاء للزوجة المتوفاة فلا يتزوجون ثانية حتى يواروا ترايبهم.. بل يصل به الأمر إلى إستصغار الذين يكتفي الواحد منهم بزوجة واحدة وهم موسرون أصحاء..!!

لقد قرأت الكثير عن رجال وعن نساء تجلّت فيهم ظاهرة الفحولة النكاحية تلك بصورة جليّة، جريئة اشتهرت في التاريخ، وكَتَبَ عنها المؤرخون المعلومات الكثيرة في مجتمعاتهم وفي بيئاتهم، لا فرق بين النساء والرجال في ذلك.. نسوة ظلّت الواحدة منهن تحتفظ بعصمتها وبحقها بمفارقة الزوج الذي ملّته لا لسبب إلا لإشباع رغبتها في التغيير وإرضاء شهوتها من الجديد.. ولم تظهر حتى الآن منذ العصر الجاهلي من هي أسرع نكاحاً من نكاح "أم خارجة" وغيرها من المُردفات في العصر الإسلامي، وكلهن ذات شرف ومحتد مثل أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب أو ابنة شقيقها الحسين: "سكينة"!!

لا عجب في ذلك ولا نكراً، ما دام العالمُ والمثقف والقارئ يدرك أن كلا النساء والرجال محكومون بنفس الدافع البيولوجي الصّارم، العرمرمي الذي لا يرحم..!!

كان الأشوس "ابن السّيدين" شديد التعلق بالحياة وبقيمة مسرّاتها، جامعاً في حبه للانفتاح عليها، يستطلعها في نسائها، تساعد في ذلك ثروة هائلة موروثية ومكتسبة.

كان متراباً بلغت أمواله كثرة التراب، وكان قنطرة قنطر الأصفر والأبيض على الأرض فوق عباءة من عباءاته الكثيرة أكواماً شهدا الناس وتحدثوا عنها كثيراً من المرات.. ينفق منها ويتكرم بها.. يوزعها

على من شاء من زيجات وزوجات.. وغير زوجات.. قريبات وبعيدات.. من الأصدقاء وغير الأصدقاء..

وظل "ابن السידین" طيلة حياته زير نساء.. مزواجاً.. مطلقاً تختلط عنده عواطف الحب بإثارات العشق والهوى، وبطغیان الشهوة حتى الظما.. ظل على تلك الحال حتى ملكه الذهب، فانقشع عنه وذهب.. وتسريت أراضيه وعقاراته من تحت أصابع يديه بعد أن دب فيها داء التقلص والتقصان بالبيع والإرتهان.. حتى قال فيه العارفون ضمن ما قالوه.. ضيَّع حاله وماله على إثره^١.

ولكنه بالرغم من كل ذلك فقد كان يجمع بين الطيبة والكرم والاعتداد بالنفس وبين قدر كبير من القوضى والبله.. هو إلى البلاهة أقرب منه إلى الحمق والخرق إذا كانت البلاهة - كما يشير إلى ذلك علماء اللغة وفرسانها - تعني أن صاحبها على سلامة طيبة في الصدر وفي الطوية..

وابن السیدین مهيب الطلعة والسيرة.. ولعل فرعاً يحمل اسمه في قرية مجاورة يعرف عند أهلها بـ "الهيبة الأشوس" تعني معنى ذلك.. بكل المعنى المشار إليه والمنوه عنه هنا.. تزين الهيبة تلك طبع حار، ومزاج حاد، وإرادة جريئة، وجسم قوي قوة مدهشة، كان وسيماً يميل إلى الطول، يتوج طوله وجه منير المعالم فيه شاربان مشربان دوماً بكل عناية واهتمام، طرفاه لو وقف عليهما صقران لما اهتز الشاربان.. ولَمَّا ترنَّج الصقران..

تحت شفته السفلى الدقيقة عنقفة مُسمَّمة تقول لمن يراها: هنا وعند صاحبها قف اجلالاً واحتراماً!.. ولحيّة غزيرة تملأ صدغيه.. أصبحت في كهولته بيضاء فصنعت مع بياض العمامة فوق رأسه إطاراً جميلاً يضم الوجه الجميل ذي العينين اللامعتين الذكيتين.. تكتحلان زهواً دائماً، وأنف دقيق تقطر الأنفة منه في الزمان والمكان..

ولعل تلك الهيبة كانت قد وصلت إليه بالوراثة عن جدّه البعيد عراب "آل سالم" ولقبه خطاب في بلدة الفلسطينية، وكان يدعى "مسلم" الذي انحدر بعشيرته بأفخاذها الأربعة: (آل العُسل^٢، وآل معرس^٣، والمخاليف^٤، وآل عتاقة^٥)، وكان خطاب لقباً له.. جاء من الجنوب.. من عرب الجزيرة العربية من بين سكان اليمن السعيد في القدم.. من القحطانيين الذين شاركوا في حروب الفتح الإسلامي.. فبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وانطفأت نيرانها، وتخلّصت من أثقالها، اختار "خطاب" قرية الفلسطينية مكان إقامة واستقرار. ويشير لقبه هذا أنه كان من عليّة القوم، ووجهاء الناس.. فكلمة "خطاب" تعني المتصرف في الأمور وأسبابها.. وهو الشخص الذي عنده فصل الخطاب. وهو الذي يعطي الحكم النهائي في الأمر أو في القضية مثل قضايا الخطبة والزواج.. ولا يتأتى ذلك إلا لمن كان من

١ الرجال الصالحون

٢ السائق الماهر إذا نشط القوم سار بهم فإذا كسلوا عرس بهم أي أنزلهم في آخر الليل للاستراحة

٣ القادمون من كل صقع: مدينة أو جهة أو قرية

٤ كانوا عبيدا فاعتقوا

مشيخة القوم ومن رؤساء الناس الذين بأيديهم فصل الخطاب في القضايا والأمور الصعبة عند القوم.

وقد أناخت حمولة خطاب إبلها، وأرخت جيادها، وحلّت رجالاتها في القرية، فامتلكت حمائلها الأربعة حصة الأسد من أرض القرية برمتها، بل ومن أفضلها وأخصبها موقعاً وثماراً وزرعاً. بل أن سادة الأرض وملاكها المعروفين في بلدتنا يعودون إلى حمولة خطاب في مختلف العصور ومنهم مثلاً ابن السيدين في القرن السابع عشر و"مصطفى آل معرس" في القرنين الثامن والتاسع عشر وسلامة العُسل في القرن العشرين.

وللقارئ الحق في أن يتوقع سلوكاً خاصاً، ونمطاً معيناً من الاتجاه من قبل ذلك الرجل الأشوس "ابن السيدين" تجاه أسرِهِ.. وتجاه أبنائه.. فكانت عنايته بولديه أحمد ومحمود عناية مبتورة.. ناقصة.. لم يعن بهما عنايته لزيجاته ولزوجاته.. لم يضمهما إليه.. نسيهما أحياناً نسياناً تاماً دون أن يجهل وجودهما.. وبارحت أم كل منهما هذه الدنيا وما كاد أيهما يكمل العشرة الأولى من سني عمره.. وظل الولدان من بعد يعملان في حرف هيئة رخيصة.. يرعيان الغنم والبقر أو يفلحان الأرض خاصتهما أو لغيرهما، وقد نال كل منهما حصته المتواضعة من الأرض والتي لا تزيد في أدق

المقاييس عن المائة من الدونمات، من أرض أبيهما في اللحظات الأخيرة.. قبل أن يودي بها إفراطه وتقريطه فيبيعهما أو يرهنها كما وقع مع بقية أراضيهِ وأطيانهِ..!!

كان عمل الشابين في الرعي أكثر منه في عمل الفلاحة والزرع رُغم أن الأرض المتبقية قد آلت إليهما عن أبيهما حينما بلغا سن النضج والرشد فوق العشرين، تلك السن التي كَفَلَتْ لكل منهما الاستقلال بعد أن قضيا سنوات مراهقتهم الأولى في حياة مضطربة يُغَيِّران فيها عشمهما ويتبادلانه بينهما مراتٍ كثيرة دون أن ينميا بينهما ودّاً، أو تعاوناً يجمعهما، أو حباً يحوطهما.. حتى فُقد الانتماء الأخوي.. عند أحدهما على الأقل..

كان من الممكن لعبدالله أن يكون يتيماً ذهبياً لقرب عهده بجده الإقطاعي ابن السيدين، مالك الأطيان ولكن صفة الحلم عند الأخير لم تكن كافية لأن تحميه من حمية التسرع في أمور الحب والزواج والهجر والطلاق.

الجد "عبد الله" اليتيم المُترب أيام طفولته الأولى.. اختلف فيه أفراد العائلة.. اختلفوا في تحديد لحظة يُتمه بأبيه، بعضهم يجعله جُنيماً حين انقصف عمره، وبعضهم يجعل عمره سبعة أشهر حين بادره اليتيم، وبعضهم جعله ابن ثلاث سنوات حين مات الأب، وبعضهم - وهو الأغلب والأرجح - والأقرب إلى إجماع غالبية أفراد ذلك البعض ممن قال أنه قد ولج أبواب يُتم الأبوة الظلماء وهو في السابعة من عمره.. وعلى أية حال فقد كان يتمه بأبيه مبكراً..

عاش "عبد الله" سنوات ما قبل يُتمه المبكر مع أبيه أحمد وأمه فاطمة.. عاشها فترات عجاف حرم فيها من الأب الذي كان حاضراً غائباً، حاضراً بجسمه المريض وبنفسه الخائفة من الأمراض المنتشرة في محيطه آنذاك.. وغائباً عن كل شيء كان يتعلق بحاضر أسرته أو بأيام مستقبلها.. فقد كفَّ يده عن العمل في أراضيه، ولم يعد يرتبط بها كما

يجب أن يكون الارتباط، يستثمرها أو يعطي الزراعة حقها من وقته ومن اهتمامه، ومن ثم لم تعرف الأرض التي ورثها المعاملات الزراعية حتى تقوم الأسرة فيها وتقوم معيشتها عليها.. أهمل أرضه وانصرف عنها: فيبيع قسماً وافراً منها يعتاش بأثمانها.. وترك ما تبقى منها مشاعاً.. فاستغلها بعض من أقاربه لحسابه دون موافقته..!!

"كانت حصيلة ما تبقى لعبد الله ولأمه ثلاثة وثمانون دونماً من أرض جده الأشوس.. يشاء القدر أن يزيد في بؤس الصبي عبد الله.. فما كاد يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى فجع بوفاة أمه.. فذاق مرارة اليتيم المطلق.. واحترق بناره.. لطيماً.. فلا يجد له ملاذاً من بعدها سوى عمه شقيق أبيه.. "محمود الأشوس" أقرب أعمامه إليه وألصقهم رحماً به.

كان ذلك العم همماً وغماً.. كان رديفاً لكُرب الزمان وبلاويه التي توالى على عبد الله بسبب قسوة قلب ذلك العم ورعونة أخلاقه وحِدَّة طبعه وجذب أحاسيسه.. فقد كان قطعة حجر صلده قُدَّت من عُرْض صخرة عاتية، عاملاً بكل صنوف القهر وألوان الهوان.. وفي سبيل القبول به عنده، يأويه ويطعمه وينفق عليه، أطلقه في الجبال والوديان يرعى له ماشيته وأغنامه وهو بعد صبي لا يعرف "الهرَّ من البرَّ"، لا يفرق بين من يحبه ومن يبغضه.. نعم: لقد كان عبد الله حينذاك لا يعرف من يكرهه ممن يبرِّه.. فاشتغل له برعي الغنم وسوقها.. ووضع ذلك العم الخصم يده على أرض الصبي وكل ما آل إليه من إرث ومتاع بأسلوب من الاحتيال

وَضَيْعٌ.. يزرع الأرض، أرض الصبي ويفلحها وينتفع بثمارها، يأكل منها أو يبيع، لينفق أو يخزن دون مراعاة أي حضور أو وجود للفتى اللطيم.. لم يكرمه يوماً.. ولم ينل على أتعابه في الرعي في البرّ نهاراً.. أو على خدماته المسخّر لها في المنزل ليلاً يخدم فيها عمه وأضيافه وزواره!!.. لم ينل شيئاً من إكراميات أو امتيازات يقتطعها له.. على الأقل من عوائد أرضه وعلى جهّده وخدمته..!

بل لم يدفع له ما يمكن أن يعتبر أجراً أو إرضاءً له.. ولم يشفع له لُطْمه.. رغم استمرار عبد الله في خدمة عمه الغاشم، رغم استمرار الفتى في عمله طوال أيام السنة: في صيفها وفي شتائها على السواء والدوام.. وفي الربيع وفي الخريف.. محروم من التمتع بأيام الأعياد وغيرها مثل أقرانه ولِدَاتِهِ.. بل كان يحاسب إذا ما أُدين بشرب حليب من الشياه في البر أو بأكل شيء من لبّانها أو أجبانها في البيت! ومما زاد من بؤس الحياة وشقائها عند عبد الله أن زوج عمه لم ترع بدورها له حقوقاً، كأن تحسب حسابه لطعام تحفظه أو تقدمه له.. وتغسل ثيابه كما يفعل خلق الله من أمثالها وأمثال زوجها مع رعاة أغنامهم..!!

كانت تلك المرأة من بقايا مخلفات مجتمع الجاهلية النتن.. عاشت تسلطاً من زوج مقيت.. ملك قرار مصيرها ومصير غيرها ممن في الدار: يقمع الأبناء ويرهب البنات.. يحيا حياة تتبلور فيها أنانيته البغيضة التي ترفضها حتى الحيوانات.. كل ذلك وغيره كثير جعل تلك المرأة تُصَبُّ

على الفتى اللطيم مشاعرها العدوانية من شراسة وغيرّة وقسوة، فشاركت في دراميته حتى غدت عمليات القمع له متوالية من قبل الزوجين اللئيمين.. لم يرعيا فيه إلاّ ولا ذمة.. ولا رحماً ولا قرابة.. يضربونه ويصيحون عليه بالصوت العال.. على مرآى وفي جمّع من الناس.. فيتجمع الفتى المسكين وجلاً، ويتداخل بعضه في بعض مرتجفاً.. مختقاً في بكائه، وفي شهيقه حتى غدا فريسة لتشاؤم يتضاءل أمامه تشاؤم أعمى المعرّة^(١).

هكذا عاش عبد الله محروماً من ملاطفات الأهل، وتدلّيلهم، فانطفأت فيه عفوية اللعب، وخدمت جذوتها.. لم يعرف حاجات الطفولة أبداً، واحترام وجوده كان معدوما فعاش طفولته وفترة صباه مصاباً بمرض الدونية، يميل إلى الإنزواء والإنطواء، محاولاً جهد طاقاته أن يخفي مصابه عن رفاقه الرعاية.. فعاش بلا هدف أو بلا وعي، وكأن سراج ذاته حطمته رياح هوجاء فأخفت وهيجه..!

١- وهو الشاعر أبو العلاء المعري.

(٣)

قَارِبَ الحُلْمِ

ولما بلغ عبد الله الخامسة عشرة من عمره.. أمدته الطبيعة بتغييرات بيولوجية صارمة، وفطن عبد الله لظواهر تلك المتغيرات فيه، لقد بدأت تظهر عليه بشكل تسلطي شديد: كانت تلك الظواهر جديدة عليه، واضحة يلحظها ويقف عندها.. في أعضائه.. وفي طريقة تفكيره.. وفي سبل الاستجابة لعواطفه.. ومن ثمَّ تؤثر في مشاعره، وتوجه آراءه!

كأها مظاهر جديدة، تلح عليه بحضورها وبكيانها كما هي.. فبدأ يلبي نداءها ويستجيب لإيماءات الغدد فيه.. في بداية ظهورها كانت ردود الفعل عند الفتى تجاهها مشوبة بالخوف والغربة.. وظل على ذلك إلى أن وعى ماهيتها وأدرك أهميتها في حياته وفي وقعها عليه.

بدأ يحاول معارضة العم، وأخذ يميل إلى إخافة زوجته بصوته الجهوري الأَجَش، مُبْدِياً طلباته منها بطريقة تحمل نُطْفاً من الثقة بالنفس، موجودة في داخلته منتشرة متباعدة، بدأ يعلن عن وجوده الخاوي وسط الحضور الممتلئ للعائلة اللئيمة على مستوى من مستويات الرجولة ما كان وارداً له عنده في الأيام الخوالي..!

وتضافرت مع تلك الظواهر والمستويات شدة يُتَم الفتى.. فقد بدأت تتحوّل في داخله إلى قوة دافعة فيها الشيء الكثير من الهجوم.. من قبل

إثبات الوجود.. بادر عمّه بالمطالبة بمكان كريم خاص به ينام فيه، يليق بإنسان كرمه خالفه دون أن تشاركه الماشية أو البهائم فيه، وصار يلحُّ في مطالبته بحقوقه من امتيازات الرعاية وإكرامياتهم.. حاول أن يحقق تغييراً شاملاً في مناحي حياته حينذاك.. وكانت رغبته في تحقيق مطالبه أو الإعلان عن وجوده رغبة عارمة ألحّت عليه أن يحققها على أرض الواقع المزروعة بأشجار الزقوم.

ولكن رغبته تلك كانت بلا معنى.. كيف يقدر على تنفيذ وتحقيق مطالبه؟ فالرغبة منذ أن خلق الله الإنسان وهي ترتبط عنده بملكة اسمها "القُدرة" قدرة خاصة يتم بها تنفيذ رغباته ومطالبه.. وبدون تلك القدرة تكون الرغبة مجرد حلم من الأحلام. أحلاماً يتصورها صاحبها بألوان الورد، أثناء نومه بالليل وخلال استرخاءاته في النهار.. وتتلاشى كما تتلاشى غيوم الصيف عند أول طارق من طوارق الوعي واليقظة والنور. كيف يحقق رغباته وهو الذي يعيش أوضاعاً مأساوية محبطة؟! لقد عاش عند عمه جهد البلاء، عاشها بشدة وجذب ألحت عليه أن يختار الموت على الحياة.. عاش حياة الأسى والشجن والانسحاق والضياع.. كانت نفس الفتى اللطيم تتحرّق فيها في البحث عن الأب والأم.. يبحث عن نموذج فوق الأنا عنده، يبحث عن الكمال الاجتماعي المتوفر بوجود الأبوين عند الآخرين.. يبحث عن التجذر في مجتمع حتى لو كان مجتمعاً صغيراً لثيماً كمجتمع العم الفاشم.. كان يبحث عن لِينات ناقصة في سلسلة

بيولوجيته ليثبت هوية له، تحمل إنتماءً، هوية وانتماء ضاعا منه فحُرِمَ
منهما نتيجةً لإنتماء صور الأب والأم عنده، تلك الصور التي يتشكّل على
شاكلاتها غيره من المحظوظين بأبائهم وأمهاتهم..!

صار الفتى يعيش تأملاً جديداً، يتأمل فيه كل شيء بدءاً بحياته
وانتهاءً بالأرض والسماء والحياة والناس.. والكون.. بدا حياة أكثر
انكماشية ولكنها تأملية كذلك التي تقع لأصحاب الفكر الروحي..
فبدأ يحسّ بنوع من الاستسلام لله أشبه بالصوفيين..! استسلام مسكّه
وحفظه ومنعه من أن ينسحق تحت طاحونة اليُتم المزدوج.

(٤)

بحر نوم لجى

حدثني والدي عن أبيه رحمهما الله أن والده كان قد غرق ذات يوم من
أواخر أيام خريف في بحر نوم لجى، غرق في نوم لم يدرك قعره لعمقه،
وهي ظاهرة نوم غريبة، وقع فيها الجد عبد الله ذلك اليوم..، والحقيقة
أنه من الصعب وصف تلك الظاهرة لكثرة ما يحيط بها من غموض تتعلق

بمتغيرات في موجات المخ عنده أثناء تلك النومة الغريبة على نحو ما نفهمه
عن علماء المخ والأعصاب هذه الأيام..

قام الفتى عبد الله فجر يوم من نومه فزعاً.. مرهقاً أشد ما يكون
الإرهاق.. فهو لم ينم إلا قليلاً من الساعة.. وكيف ينام وقد قام بخدمة
زوار عمه محمود في دارته..! فالفتى عبد الله ما إن يصل بأغنامه من
المرتفعات في غسق كل يوم.. حتى يطلب العم منه أن يُبادر فيبدأ بخدمة
القوم.. ويظل يخدمهم طيلة ظلمة الليل دون أن يقوم بالاحتفال وبالابتهاج
بتنفيذ مراسيم النظافة الجسمية والراحة لبدنه والطعام لمعدته.. استمر
على رأس القوم واقفاً يخدمهم حتى تصدّعت نفسه، وخارت قواه مع
تصدع ظلمات تلك الليلة.. انتبه عبد الله من غفوة صغيرة فبدأ وكأنه
يترنج ترنج من ضرب على أم رأسه، بادي الاضطراب في توازنه، تنبّه
وكانه قد وعى بعد غيبوبة..!

وقبل البكور على عادته كان في طريقه يسوق الغنم إلى منطقة من
مناطق الشعاب في القرية.. اختار الفتى هناك مكاناً تحت شجرة من
أشجار الفاكهة في حقل تحوطه موارس الجذامة نصف محصودة الزرع..
ومقطوعة الرؤوس أشجارها. آوى الفتى إلى ذلك المكان ليجعل منه مناماً
له..

انتبه عبد الله بنفسه ذلك المكان آملاً أن تحميه الشجرة بظلالها من
شمس الخريف وهي تتجول أثناء النهار في أرجاء السماء مستوية تامة

لتساعد في إنضاج العنب والفواكه والإنسان، فينضج العنب وتتمو
الفاكهة حتى اللباب فيها، وينام الإنسان، إنساننا - فتى الحكاية -
نوماً أشد ما يكون في عمقه، وكأنه كما يقولون في أيامنا هذه "تحت
التخدير". استغرق عبد الله الإنسان في نومه استغراقاً كاملاً وبسرعة
مذهلة، لا قبل لعلماء النفس والبدن، ولا قدرة لأخصائي المخ والأعصاب
تحليل ظاهرة نوم عبد الله تلك في ذلك اليوم! ظاهرة قد ملكته
وتحكمت فيه.. بل لم تساعدني الدراسات التي أجراها العلماء على
النائم ما يفسر لي تلك الظاهرة أبداً.. فعبد الله مثلاً يدخل مباشرة في
مرحلة "التسبيح" وهي مرحلة النوم الشديدة العمق، ولا مرحلة في النوم
أشد منها في عمقها.. يدخلها عبد الله دون أن يمر بمراحل النعاس والوسن
والترنيق والتفريق والإغفاء ثم النوم الغرق ثم المرحلة الأخيرة في النوم وهي
التسبيح! وهي مراحل يذكرها العلماء، وهم يصرون على أن كل نائم لا
بد وأن يمر بها متدرجاً على التوالي..!

وبعبارات بسيطة أقول أن الفتى عبد الله نام تلك المرة برأس مثقل،
مثقل بالأم اليتيم وهموم الفقر، وفقد الانتماء، وقسوة العزلة والمهانة التي
أثّرت بها تجاوب خلاياه.. نام.. والأجدر أن أقول: "استغرق في غيبوبته
تاركاً الدنيا تتسرب ساعاتها.. ساعة إثر ساعة، وكأنه لا يريد أن
يرقبها أو يلحظها.. أو يُعدها..!

ويستمر الوالد فيقول.. "كانت الأغنام ترعى على مقربة منه بجانبه
وحواليه، منتشرة، متقاربة ومتباعدة.. يسمع الحملان والكباش وهي
ترسل بثغائها من فوق التخوم بصوت عالٍ لطيف.. وعلى مسافات لا تمنع
التلامس يسمع البعوض بين الأشجار، وحول ثُقرات الصخور التي ما زال
فيها بقايا من ماء الشتاء والندى والضباب، يسمع البعوض الصغير في
جوفه حزينة حاملاً أحزانه عالياً أو هابطاً، كريح خفيفة تنشط وتخبو..
وكان آخر عهده بمثل هذه الأصوات.. في ذلك المكان قبل غيابه في النوم
مع صوت الجدُّد^(١) ومع عويل صرّار الليل بين شجيرات الشوك الصغيرة
حول حقل الرقاد.

غابت الشمس، وأطفت حمرة الأفق.. وبدأت العتمة مع بدء عودة
الحياة إلى الفتى عبد الله! صبح بعد أن استنفذ من نومه كل ساعات
ذاك اليوم.. بدا يصحو وقد آوت الطيور إلى أعشاشها ومالت الحُباب^(٢)
وأسرجة^(٣) الليل إلى ضفاف الخضرة ورطوبتها.. ولاحظ الفتى أن قناديل
القرية القريبة على البعد تحاول أن تُثير ظلمة ذلك الليل في الأنحاء مع
ضوء القمر..

مكث الفتى مشدوهاً، يتطلع إلى السماء، فيلحظ البوم وقد نشط
الآخر من نومه العميق وبدأ يطوف خلصة وراء ما يفترسه وسط الليل

١- الجدجد: دويبة على خلفة الجنْدُب، نطاطة سوداء قصيرة.

٢- دويبة صغيرة أو ذبابة تطير بالليل لها شعاع في مؤخرتها كالسراج.

٣- أسرجة الليل - نوع آخر من دويبات الليل تضيء وتنشع فتبعث البهجة في ظلمة الليل لمن يراها.

الندى.. وينظر إلى الأرض فيرى عن قرب قار التحلل الصغير وقد دخل بعضه القليل في بعضه الصغير مرثعاً يشخص بعينه إلى أعلى في ترج ومسكنة حتى يتلاشى وجوده.. وينظر الفتى مع القار إلى أعلى فيرى أشعة القمر الفضية وهي تثير الطرائد من مكانها، وتضفي بظلال سوداء متحركة بحركة أنوار والفنى وغيرهما في الحقول والأرجاء.. ويرى الغمام يجوب السماء فلا ثابته به ولا تتغير له - في كل تحرك حركة رتيبة ممل بأشكالها السريالية القامضة، تحركها هبات من نسيم تحاول فيها أن تربط بين أمور بعيدة ومتباعدة بل وعصية على كل ترابط وكأنها تريد أن تلغي التناقض بين الحياة والموت.. بين الأعلى والأسفل.. بين الصير واليوم في الأجواء، والفنى والفار على الأرض.. بين الماضي والمستقبل!!

شعر الفتى ببرودة القمر، وبالسكون المتيق الذي كان يملأ البسيطة حينذاك، يملأها إثباتها وحيرة، وعموضاً وقتلاً وخوفاً..

أين أنا بادر الفتى عبد الله نفسه خائفاً وصائحاً ومستجداً.. يا الله! أين الحلال! أين الأغنام! أين ذهب الأشياء! ثم نهض كاللندوغ فاستقام على قدميه.. وأشراب بعنقه.. ثم دلف وتهاوى.. يمشي مشية الشيخ رويداً رويداً، يتلفت يمنة ويسرى.. لا شيء! لا أغنام أو لا حلال! لا بياض ولا سواد.. ثم مشى كمن شاك الشوك قدميه.. وسار وأهبط في سيره منزجاً.. ثم صرول هنا وهناك دون تنسيق في الخطوات أو نظام في

الخطات.. يجري في الجهة الواحدة مرات ومرات ثم يعود.. يصعد تلالاً ويهبط تخماً.. يعيد الكررات والفترات لعله يجد دالة في الأفق على وجود ما يتساءل له أو عنه.. ولكن دون جدوى!

يا إلهي إله الذهاب.. إله الضياع!

ويشرح لي والذي اصطلاح الذهاب ومصطلح الضياع في ثقافة الرعاة فيقول أن الذهاب هو فقدان الأغنام أو الإبل بين رعاة معدودين، وأما الضياع فهو فقدانها فقداناً لا يستطيع الراعي أن يحدده.. فهدت كل الغنم.. فضاعت!!

(٥)

جاهلية

عاش الشعب الفلسطيني في القرن التاسع عشر أعشى صور التعصب.. أذكر منها واحدة تهماً في حديثاً عن الفتى عبد الله.. تلك الصورة هي صورة التعصب الثقيت بين الفلاح والتبديوي أي تعصب اتحضر ضد البدو.. وازدراء أهله ضد أهل الصحراء والكلا والماء.. حتى تغفل هذا الازدراء في وجدانهم فشكّل رافداً يرفد في مصب الثقافة الشعبية عند كليهما.

فقالوا في ذلك أمثالا كثيرة في جولات الحراية، وفي مواقف العداوة أمثالا تعبر عن هذا التعصب البغيض: منها عندما يُكْتَى البدوي عن البلادة الموجودة في الفلاح يقول: "الفلاح أذنه عريضة". فالذكاء والفراسة خاصة بالبدو، وأما الفلاح فهو المخلوق البليد..!! ويذهب التحقير المعنوي من كل منهما تجاه الآخر حتى ينسحب على أمور كثيرة، ومرد ذلك يعود إلى تلك الهجمات المريعة التي كان يشنها البدو على قرى الفلاحين: ينهبون ويسلبون، ويقتلون، ويفرضون الخاوات.. بل ودأب البدو على ترك مواشيهم ترعى في حقول الفلاحين، ويكسرون الأشجار، ويدمرون الحرث، ويتلفون الزرع، ويهدون الجُدُر!!

كيف للفتى عبد الله أن يتصدى لغزوة؟ أو لعملية لها اسمها في ثقافة البدو وهي عملية "القَشْطُ" وهي نوع من السرقات تتم في وضح النهار، عملية يتم فيها استلاب كل ما يجده البدوي في طريقه.. ويذهب المأثور الشعبي عند البدو بتحليل عملية القشط مع غيرها من عمليات الحرمة وجعلها مبررة ومقبولة في مجتمعهم.. فيقولون في ذلك: "الرجل الذي يُقَشِّط مش عيب، هذا كار الرجال والطمع في صدورها!!" وثقافة الغزو عندهم مليئة بالأشعار والمأثورات، وبالمواقف والأقوال وما يلزمها من أعمال القتل والنهب والسلب والخديعة، فهم يعتبرون الغزو أشبه بريضة قومية تمارس في حينها، ولا يصبر عليها إلا الشجعان من رجال القبائل في الصحراء أو العشائر في القرى.. ولقد حدثني والدي أن أناس ذلك الزمان كانوا

يرفضون تزويج بناتهم من رجال لا يسرقون ولا يقشطون ولا يطيحون ولا يعتدون.. فقد عدُّوهم من الجبناء، وقد تموت ابنة الواحد منهم عند جوعاً أو يُعرض عرضها للقليل والقال والاغتصاب تحت غائلة الجوع.. وهذا كان زعمهم..!!

لقد تعرض الفتى عبد الله لعملية تقشيط كاملة أو لغزو من مجموعة صغيرة من بدو التعامرة أو غيرهم من البدو.. وكيف يكون مصيره لو قُدِّر له أن يرى بأم عينيه أغنامَهُ وهي تُساق أمام ناظريه.. ترى أكان بمقدوره أن يتصدى لهم وهم يذهبون بغنمه، لا بد إنهم لقاتلوه لا محالة شر قتله..! وممزقوه كل ممزق على غرار ما كان يقع من الغزاة البدو على الرعاة.. وعبد الله الفتى يتذكر ذلك الراعي البائس الذي قتله البدو بالقرب من مدينة "طبريا" في أوائل خمسينات القرن التاسع عشر.. فقد تعرض ذلك الراعي منكود الحظ لغزوة بدوية.. وبدلاً من أن يلوذ بالفرار، قاوم الغزاة بمفرده فقطعوا جسده بخناجرهم وشبرياتهم..!! ومات المسكين بين الغنم التي دافع عنها..

كانت المصيبة عند الفتى أهون مما كان يمكن أن تكون عليه..! لقد ضاعت الأغنام أما هو فقد سَلِمَ! وقبل أن تضيع الفرصة المواتية للنجاة من عمه المتجبر الذي - في واقع حاله - لم يكن يراعه أو يحافظ عليه.. ولا يأخذ في حسابه نذالة ظلمه أو عقوقه لأقربائه، يعزف بعطفه عن أهله وذويه.. لقد غاب عن ذلك العم الجاهل أن خير أنواع التعاطف هو ما كان

(١)

الخروج

خرج الفتى عبد الله وحيداً فريداً.. متوفزاً متلفتاً ينتظر الطلب، ينظر وراءه يترقب وكأن هناك من كان يطاردُه بغية أن يدركه ليأخذه! لم يتلبَّثْ، ولم يُعِدْ لذلك الأمر الشديد عدته.. فلا زاد ولا رفقة.. ولا قافلة.. ولا ظهراً يركبه في سفره الشاق، ليس معه بارة^(١) ولا درهم^(٢).. لأن من يهرب من جحيم يحرقه فيه ظلمٌ غاشم لا يطلب إلا النجاة بحبل رقبته..!

وظل الفتى يسير في قلب المخافة.. حافياً.. مساحات شاسعة، وأبعاداً مترامية في أرض غريبة ظل فيها غريباً هيئاً على من رآه أو تحدث إليه.. في أرض لا يعرفه فيها أحد.. لا سند له فيها ولا ظهيراً، وهو مع ذلك لا يأبه السفر قيظاً في النهار أو برداً في الليل.. ظل يسير.. ويسير.. لا ينزل ولا يتوقف إلا لقضاء حاجة أو لإرهاق لا طاقة له بتحملة، أو لشدة في حاجة له للإسترخاء والنوم الخفيف.. وكيف من به خاف^(٣) ينام؟! ثم يواصل السير الحثيث والهروب الطويل مسيرة أيام سبعة بلياليها، حتى أثر السير المتواصل في خُفِّ قدمه فتساقطت جلده!!

١- أصغر من أية عملة عثمانية في ذلك الوقت (كل ٤٠ بارة تساوي قرشاً واحداً) .

٢- الدرهم : كل أربعة دراهم تساوي قرشاً .

٣- خاف : الخوف المريع والشديد .

منصباً على الأهل وذوي الرحم! فليذهب إذن ذلك العم الجاهل - بصورته التي أحد وجهيها هم في الليل والآخر غم في النهار - إلى الجحيم، ولتذهب زوجته التي كانت عند عبد الله الفتى شبيهة باللاتانة بلادة وبالكلبة عَقْراً وهريراً، وبالبعلة حقداً وعقارة.. فليكونا معاً في أصحاب السعير..!

وبإزاء مثل ذلك الظلم الذي عاشه الفتى عند عمه، والذي لم يعد له قبْلُ في دفعه، رأى ضرورة الإرتحال في بلاد الله الواسعة.. فقد يكمن الفرج في ذلك.. يعوضه الله فيه عن كل ما لم ينله أو يحققه.. عند عم كان له..!

وهو في كل هذا البلاء والعناء لا يهمله الجوع كما كانت تهمة وتشتد عليه وتؤرقه يقظاً أو غافلاً حاجته للأمن، والتخلص من هاجس الخوف فيه..

كانت نفسية الفتى عبد الله في رحلته قد تجردت - تجرد الأشجار من أوراقها في الخريف - تجردت من كل حاجاتها.. إلا من حاجة الأمن وكل ما يبعث الأمان في النفس، والسكينة في القلب، وما يخلصه من كل ما يثير عنده نزعات القلق والفرع والترقب.

اقتات مما كان يقتات عليه الناس والأنعام منذ قديم الزمان: على أحرار^(١) البقول، وقلوب^(٢) الأشجار وكلاً الأرض.. تجذب الجائع إليها بنضارة خضرتها وحسن شكلها، وزاهية لونها.. فتشبع رؤيتها النفس قبل الجسد.. أزواج من نباتات شتى تزخر بها كل أرض طيبة.. اقتات من ثمار أشجار الخريف الباقية فوقها أو المنسية فيما بين أغصانها..

طوى عبد الله المنازل: شرقاً.. وشمالاً.. وجنوباً.. توغل في الآجام، لا يأبه إن كانت تعيش فيها أو تتخللها حيوانات أو زواحف أو هوام. يتكلف الراحة في بطحاوات الوديان.. ينام فوق ترابها اللين، وفوق رقيق حصاها السهلة الصغيرة.. سار في طرق صحراوية.. وفي مسالك جبلية وعبر قيعان فيها مزاليق ومهاوي يهول أمرها، ويتعسر السلوك فيها.. وهو في كل هذا وذاك يدعو ربه أن يُنجيه من القوم الظالمين.. فكانت دعوته كدعوة كل

١- كل ما يؤكل من البقول غير المطبوخ فهو من أحرار البقول.

٢- الذي ينبت في وسط الشجر غضاً طرياً رخصاً قبل أن يقوى ويصلب، واحدهما قلب.

مظلوم سريعة الإجابة والتحقق.. فهداهُ ربه إلى كرم كريم، مترام الأطراف بأشجاره المتنوعة المعطاء.. كان ذلك الكرم في أرض مجاورة لآثار "ديدن" الرومانية..!

آوى إلى الكرم، وكأنه يأوي إلى ديدن المدينة القديمة، يأوي ويلتجئ إلى تاريخها المليء بالقوة والعاطفة والتوترات الاجتماعية والسياسية فيها، تاريخ ينعكس ويتردد صداه من خلال أعمدها القوية في شكلها وفي قوة ودوام بقائها.. ومن خلال أسواقها ومدرجاتها في أوقات الأزمات والمحن والبلايا..!

آوى الفتى إلى شجرة من أشجار الخروب الشامي.. آوى إلى خروبة لا زالت بعض ثمارها العريضة الطويلة وكأنها القيثارة الصغار تتدلى وتتأرجح من بين أغصانها العالية كتاريخ حياة الفتى بين البقاء والسقوط..!

امتهد الفتى أرض الخروبة الكبيرة، وقد استقر رأيه أن يكون مهدها آخر عهده بالهروب! ألم تكف سبعة أيام ولياليها قضاها وحيداً طريداً يجهل فيها الطريق ويفتقد الرفيق..؟ ألم تكن كافية..؟ بلا.. لقد أوفت.. وربما تكون القاضية..!

أخذ عبد الله إلى النوم تحت الخروبة، كان الوقت حينذاك وقت قائلة^(١) الرعاء.. فيه استوت الشمس في كبد السماء.. نام الفتى كل

١- استراحة الرعاة وسط النهار في قيط الظهر.

ساعات الهاجرة^(١) والهجرة^(٢) والظهيرة^(٣)، وامتدت ساعات تقييلته فشملت ساعات الرواح^(٤) بعد الزوال. وضع الفتى ظهره على الأرض ومدّ ساقيه فأكمل استلقاءه، وما لبث أن انسدح فنام منفرج الساقين تحت وَطْأَةِ الوهن والوسن.. ثم ذهب في غفوة تطورت آخر الأمر نوماً شديداً عميقاً..!

(٢) والذي قدّر فهدى

كان الكَرْمُ^(١) لشيخ مرموق من مدينة "الصيت"، صاحب غنى، يجمع في غناه بين التلاد^(٢) والمال المكتسب. ورث أرضاً وعقاراً ونمّاه حتى كثر.. رجل حُرّ المتاع والضياع، له إبل وغنم، شاورياً^(٣)، أملاكه موزعة في القرى المنتشرة على طريق الصيت - ديدن: في الدويهة^٥ وفي أم الدباليش^٦.. والكِتّة.. وفي مخراق^٧..

ولما كان شيخ الكرم من سرّوات الناس فقد امتلك فرساً أصيلة تنقله في زيارته لكرومه وفي استطلاعاته الدائمة لأطيانه وأملاكه..

ترجل الشيخ ظهيرة ذاك اليوم في كَرْمِه.. وترك فرسه تتحرك مبتعدة قليلاً داخل الكرم بينما فارسها يتقدم نحو فتى غريب كان قد اقتحم عليه كَرْمِه ونام فيها نومةً تدعو إلى الريبة، وكأنه في هيئته الزرية ما

١- الكرم: يتسكن الرءاء = الأرض التي يكثر فيها كرمات العنب وتسمى الحَبْلَة أيضاً وهي الأصل من الكرم فيها انتشرت قصبات العنب عن غراسها وامتدت وكثرت فامتثلت (حَبَلَتْ) بالخير.

٢- الموروث عن الأجداد.

٣- صاحب إبل وغنم.

٤- الشجرة وبُعد الذكر.

٥- الورطة

٦- أم اللّقم الكبيرة

٧- منديل يلف ويضرب به

١- الهاجرة: قبيل الظهر بقليل.

٢- الهجرة: الظهر.

٣- الظهيرة: بعد الظهر بقليل.

٤- الرواح: بعيد العصر.

يحفز إلى الدهشة وتدعو إلى التساؤل في عين كل ناظر إليها عند أول وهلة!

أخذ الشيخ يدور حول الفتى دون أن يحسّ هذا بشيء ، ثم جلس قريباً من رأسه وكأنه يعدُّ أو يرقب أنفاسه ليتأكد من أن هناك حياة فيه كامنة . ثم أخذ يتفرّس ملامح وجهه ، ويقرأ قسّمات السحنة فيه ، ويؤول أوصاف الهيئة عند الفتى..! ماذا رأى في الفتى النائم؟ رأى فيه وصيفاً^(١) في ثياب فتى بائس قد أسلم نفسه كلية في نومته تلك ، لأخطار الوجود والموجود ، ولكل آفات وشرور الزمان والمكان حتى بدا وكأنه قد أسقط من حساباته كل ما يتعلق بوجود أو حياة أو موت أو فناء..! "لا" قالها الشيخ يحدث نفسه ويحاول إقناعها: إنه ليس من أهل الجوار ، وبقيناً ليس من هذه الديار.. إنه غريب ، وربما هارب طريد.. فارٌّ من عيشِ ضنك ، أو من منزل شديد الضيق عليه.. ثم واصل الحديث مع نفسه:

"شاب ضعيف ، ضامر البطن لطيفه ، وتبدو خُصرةً باهتة بعيدة حول سُرّته التي بدت وكأنها جزء من ظهره لشدة هزاله.. تلك خُصرةٌ ما كان يقتات عليه من الأعشاب وكلاً الأرض.. يبدو أن رحلته الغامضة كانت طويلة..!"

١ - هو الشاب من الخدم.

"يا إلهي! استغاث الشيخ استغاثة جمعت دهشته وألمه عندما وقع بصره على قدمي الفتى النائم.. جلدة الخُفّ في كل منهما قد تآكلت وسقط معظمها.. ثيابه بالكاد تحاول ستر الرجل..!"

قام الشيخ ليجلس بعيداً عن النائم ، وقرر بينه وبين نفسه أن يترك الفتى في نومه ، لعله يسترد شتات نفسه ، ويهيئ قوى إدراكه لاستيعاب حالته الجديدة.. وهذا ما تفرضه حالته المكدودة ، المنسحقة من هول جهد بذله وشدة معاناة تحملها.. فاتخذ شيخنا مكاناً قصياً في كرمه يرقب ويراقب الفتى بحيث لا يلحظه عندما يفيق من نومه الفَرْق ذاك..!!

استقر الشيخ في جلسته ، وكان في تلك الأثناء في جلسته كمن يريد أن يثور للقيام لأمر يهمه ، ويستفزّه إذا ما لاح له من بعيد ، وظل في قعدته متوثباً حتى بدا له الفتى يتملّ في مضجعه وقد دغدغته برودة رواح النهار وانصرافه.

وقف الشيخ هابئاً وهاماً أن يتجه صوب الفتى ولكنه سرعان ما توقف.. تذكر قراره ، فعاد إلى قعدته مترعباً يحمل نفسه على الأناة والصبر.. وكانت فرسه في هذه الأثناء تشمه ، وتدور حوله تمدّه بعطايا اللطف والحنان ، والحب والعرفان شأن الأفراس الأصيل..!

ابتعد الشيخ قليلاً عن فرسه ، وانتحى جانباً وراء شجر قريب يشاهد ويرقب.. انتبذ عبد الله ركناً تحت شجرة الخروب وجلس فوق صخرة هي جزء من أرضها.. ونظر حوله مرات ومرات ، فغشيه من الخوف ما غشيه..

تذكر حالته بعد أن تساءل أين هو آنذاك؟ عاجزاً لا وسيلة له ولا حيلة، وحده، ضعيفاً، مسكيناً، ابنَ سبيل حائر.. جوعان.. قلق.. غير قادر أن يدفع عن نفسه غربةً بدأها، لا حول له ولا قُوَى أو وقاية.. لا يملك أن يقول.. ويقول لمن..؟ في هذه الغربة المترامية.. لا حدَّ لها..! تذكر عمه الطاغية، الذي هضمه وظلمه؟ وهو سبب وجوده وسط هذه المخافة والمتاهة والغربة الحُبلى بالصدمات وبالمفاجئات، بسبب خسفه الجشع، وظلمه البشع، وبَغْيِهِ اللئيم.. إرتج قلب عبد الله هلعاً وجزعاً واعتراه الذهول والسكون والخوف من المجهول فأوحت إليه طبيعته البشرية، بأن يطلق صوته الفطري ليُنْثَمَ عنه، فأجهش بالبكاء..! حين ذاك تحرك الشيخ، وأخذ يقترب من الفتى، وقبل أن يصل إليه كان لبكائه صوت النحيب، وفي عيونه دموع كثيرة امتلئت بها.. فصعب على الفتى الباكي أن يلحظ القادم إليه، أو أن ينظر تجاهه، وهو في كل هذا وذاك فارغ القلب، لا عقل له فيه، ولا وعي ولا قدرة على نظر أو تصرف..!!

سبحان الله..! يؤلف بين قلوب، ويقارب بين نفوس.. إن قلب الإنسان عجيب، غاية العجب.. كلمة واحدة أو لمسة واحدة يهدي الله صاحبها فيطلقها أو يبادرها في الوقت المناسب وفي المكان اللائق.. لتُبدل هذا القلب البشري العجيب تبديلاً هائلاً!

التقطها الشيخ بالفطرة فيه، وبالحَدُسْ عنده.. فعرف أن حاجة الفتى الشديدة هي: "الأمن النفسي".. إنها أولى حاجاته.. وبعدها تأتي الحاجات الأخرى..!

في صوتٍ رخيٍّ نديٍّ.. وهو يقترب من الفتى.. قال له:

"لا تشق عليك يا بُنَيَّ ولا تدع نفسك تتشتت فتضيع حشرات".. وتابع الشيخ يلطف جو المكان وزمانه بعطر الرحمة ونفحة القُرب، وبأريج الأنس وحلاوة الطمأنينة.. فأضاف:

"أنت في بستانٍ لي.. في أرضي.. في أرضٍ أمان.. من دخلها فهو في حمايتي.. فطِبْ نفساً، واهداً روحاً! ثم تناول يد الفتى بيمنه فأقامه وبدأ يُرَبِّتُ على كتفيه وكأنه يحتضنه.. فأحس الفتى بكلمات الشيخ وبلمساته تهبط على قلبه الواجف المَحْرُور ظلالاً وبرداً وسلاماً..!

كلمات الأمان ومفردات تطيب النفس وألفاظ الرحمة وتعبيرات الحماية وتسلية الفؤاد كلها صادفت مكانها الصحيح في قلب الشاب عبد الله الذي لم يُجر جواباً يعطيه للشيخ فاستسلم إليه وبدأ الشيخ يشرح له أنه في شرق النهر، في إقليم الأردن بالقرب من آثار ديدن، المدينة القديمة قديم الظلم في هذا الوجود.

ويطلب الشيخ من الفتى أن يهدئ من روعه، ويأمره أن يؤجل الحديث ويوقف كل حوارٍ بينهما حتى وصوله لبيت الشيخ:

لم تكن دارة الشيخ بعيدة، فوصلها في الصيت قبيل المساء. وفي البيت جرت الأمور في استرسالها الطبيعي كما المفروض أن تجري في مثل تلك المواقف: فقام الفتى تحت إمرة الشيخ وتوجيهاته - بترتيب أموره نظافةً وملبساً، وكان قد تدبر الشيخ أمر نوم الفتى - فأوعز إليه أن يأخذ القسط الوافر من النوم، فالنوم - كما قال له شيخنا - كالحمام ينعش صاحبه بعد المضاناة^(١).

وشيخنا الخير يعرف المقام والمقال: الفتى قد أمضى أياماً طوالاً وليالٍ عديدة دون أن ينال كسرةً من خبز، أو قدرةً^(٢) من لحم أو شربة لبن، فهو جائع وقَرِمٌ^(٣) وعِيْمَانٌ لكل ذلك.. فأثر الشيخ العارف أن يقدم له ما يهيئه لتناول الوجبات الثقال. فكان أن شرب الفتى ما قُدِّم له من الخبيط (لبناً

١ - المعاناة الشديدة.

٢ - القطعة الصغيرة غير الوافية.

٣ - وتمنيان شدة الشوق والاشتياؤ إلى ...

رائباً مخلوطاً بالحليب)، ثم تناول بعد ذلك من المجيع: وهي الحلوى التي كان يحبها الرسول صلى الله عليه وسلم، من التمر واللبن.. ونام الفتى!

وفي الليل وهما يتوسدان في فراشهما حدث الشيخ زوجته قصة عثوره على الفتى المسكين، وشرح لها مدى تأثير حالته وبكائه في أعماق نفسه وكيف أن الله في علاه قد ألقى محبة هذا الفتى في قلبه..!

كانت زوجة الشيخ من نفس الطبقة التي تشكل فيها زوجها الطيب، كانت زوجةً مباركة طيبة تعاونه على معاني الرجال^(١)، فاستحسنته قوله وعمله غاية الإحسان وأجلته أجل الإكرام.

الشيخ: في الصباح رباح إن شاء الله..! نعرف قصة الفتى: في أي وَكْرٍ وُلِدَ؟ وأي عَشْرٍ درج فيه؟ وأي دنيا قد صُدَّ عنها، وجاء إلينا منها؟

وفي اليوم التالي، عقب الغداء وبعد أن خلا الشَّقُّ^(٢) من الزوار دار الحديث بين الشيخ وبين عبد الله.

١ - سلوكيات الكرم المروءة والنخوة والشرف.

٢ - بيت من الشعر أو الصوف حيث يتجمع أفراد العشيرة يسمرّون ويأكلون ويشربون.

الشيخ: يا عبد الله! وكلنا عبيد إله، ولا إله إلا الله.. نسمع هَرَجَتَكَ إن شاء الله.. وَأَعْلَمُكَ إنْ تريد أهلك وبلادك إنكَرَكَ^(١) إلهم، لو هاذُ يهفي^(٢) المال والحلال.

عبد الله: لا والله يا عم! قلبي ما هو امشرهب بالهل^(٣) ولا بالبلاد.. ترى مالي سند^(٤) ولا ظهير ولا لَبْد^(٥).

الشيخ: سألَفْتُكَ^(٦) - ثانية - يكون إلهها باب أو^(٧) جواب.

ولما قصَّ عبد الله عليه القصصَ: قصة يُثْمِهُ المبكر، ولُطْمِهُ القاهر، وقصة عمه معه، وقصة هروبه.. دون أن يخفي عنه ودون أن يبخل عليه بالتفاصيل.. والشيخ يستمع له باهتمام وينصت إليه بكل جوارحه.. بادر الشيخُ عبدَ الله قائلاً:

الشيخ: "العُوذُ بالله! هاذ عمك ضَبَعُ^(٨) ارجال! سَبْعُهُ.. سبع^(٩) سبعات يلازُمُهُ، ما يستاهل يا أوليدي، وانت هالساع في بلاد ربنا البعيدة.. ما

١- نديدك.

٢- يضيع مالنا وغنمنا.

٣- متعلق بالأهل.

٤- ما إلي جماعة تحميني.

٥- ولا شيء مطلقاً.

٦- مشكالك أو قمصتك.

٧- أي توجد لها حلاً.

٨- الخسيس منهم.

٩- الأرادنة يخافون من شوم هذا العدد (٧) فإذا دعوا على إنسان بالشر: قالوا سبعة، سبع سبعات يلازمه" وتفسير ذلك عندهم: السبعة اليومية/ وهو أن يرفض الرجل دعوة له على طعام خاص، السبعة الليلية: ينام الرجل في الليلة التي يسرق اللصوص فيها إبله أو غنمه أو أي شيء من ممتلكاته، السبعة السبوعية: ألا يذهب الرجل إلى سوق الجمعة مرة واحدة في الأسبوع فتضيق عليه فرصة بيع أو شراء، السبعة الشهرية: يتكاسل الرجل في الذهاب إلى المطحنة لطحن طحين إسرته لمدة شهر، السبعة السنوية: لا يجز أغنامه مرة في السنة ولا يحصد حصاده، السبعة عين البار: لا يشارك الرجل فيها شباب المشيرة في غزوة يغمون غنائماً فيها دون قتال، وأخيراً سبعة الأيود والليالي السود أو السبعة الدهرية وهو أن يتزوج الرجل امرأة سليطة اللسان أو يصاب بمرض مقعد يلازمه إلى أن يموت...

يطولك منه فيها ظيم^(١)، وطول مَنَتَ عَنَّا، وانت محصن برعايتنا بعد رعاية الله.. واللي يجراك.. بجرالك بعدنا..!

لم يشعر عبد الله طيلة سِنِي عمره الخمسة عشرة الماضية براحة نفسية مثل تلك التي شعر بها في كياناته الداخلية وفي جوارحه أمام الشيخ الطيب في ذلك المساء..

نادى الشيخ زوجته وابنته الوحيدة، وقدمهما لعبد الله.. كانت امرأة فاضلة، أمينة تعهدت عبد الله وأحسنَت مثواه وقد قَرَّتَ عينها بلقائه وسرَّتْ، وخاصة أنها لم يكن لها ولد من زوجها الشيخ ولا من غيره، ورعته بالكلائة وأنعمت عليه وأكرمته فكانت له فضلى الأم كما كان زوجها الشيخ نعم الوالد والمجير..!

وسبحان من ألقى محبة الفتى عبد الله على عبيد الله في دارة الشيخ الكبير وعلى رَبْعِهِ عند عشيرته.. فقد أجمعوا لشيخهم وقالوا له بصوت واحد في لقاء التعارف عندما قُدِّمَ عبد الله إليهم: "ضيفك ضيفنا، ودخيلك دخیلنا! في بيتك المقصود يا شيخنا.. وبيوتنا^(٢) مفتوحة إله..!

١- ظيم: أي ظلم.

٢- وبيوتنا مفتوحة إله أي مستعدة لاستقباله وإكرامه.

(٤)

الزواج الأول

عاش عبد الله مطانبا^(١) الشيخ هایل سبع سنوات طوال. محاطاً بحصانته ووقايته. كان عبد الله فيها حافظاً لسانه وبصره، عفيفهما مع نساء أطنابه الذين أحسنوا مثواه، ورعوه حق الرعاية، لم يُسء خلالها إلى أحد من أفراد العشيرة التي أنجدته ورحبت به، ومع مرور الأيام والشهور والسنوات ظلّ عبد الله صدوقاً معهم يشاركونهم في أفراحهم، ويحزن معهم، يشاطرونهم البهجة في مواسمهم، ويحتفل معهم في أعيادهم..

لم يضع الشيخ الصيتي بينه وبين عبد الله أية فواصل بل كان مطلعاً على أسراره، ولا أغالي إن قلت أنّ عبد الله قد حظي بمنزلة عند أهل الشيخ كعضو منهم يعرف أسرارهم ويحافظ عليها. يشكو أترابه^(٢) همومهم له، ويأتمنه الكبار على بيوتهم.. وفي نهاية الأمر.. صار عبد الله يحرص على رفقة الشيخ ينتظر أوامره ويقوم بخدمته، فتعلم منه قيمه وشيمه حتى استقرت نفسية الشيخ في راحتها إلى الفتى..!

وفي تلك الأثناء تكشف للشيخ "هايل" صفات رجولية عند عبد الله.. صفات يعرف قيمتها أمثال ذلك الشيخ الفاضل رحمه الله.. رآه الشيخ

١- دخيلاً ومستجيراً.
٢- أتراب الفتى = من هم في مثل سني عمره (أولاد الجيل الواحد).

جريئاً لا يخشى الليل في ظلمته، فيه عبوس الشجاعة والغضب، مثابراً على العمل، أمين على العرض، وحارساً أميناً على المال والعقار، عرفه بريء النفس، وجربه نظيف الحس، عفته تظهر في كل تصرفاته حتى في الأحوال العادية والأمور البسيطة.. بلا تكلف أو تصنع..!

مالنا ولصفات عند عبد الله اكتشفها الشيخ واستراح لها.. ما دام القدر يطوي الزمان والمكان.. وفي الاثنين - جيئة وذهوباً - حياة الفتى تنقلها يد القدرة الكبرى، فقادته إلى ذلك الشيخ المحسن وإلى زوجته فضلى النساء.. نساء زمانها.. قادته إلى بيتها الرحبة، الندية المؤنسة الرقيقة، فأنسته كل ما شكل خطراً عليه!

تتجلى يد الله فيما قد "قدر فهدى" بحيث تبدّ جليّة فريدة على مسرح الحياة، حياة عبد الله وحياة شيخه الكبير.. تبدو مكشوفة بلا ستار من قوى ورموز ومؤهلات - ليكون تحقيق الحلم عند عبد الله بغير الأسباب المعروفة في دنيا الناس.

كان للشيخ بُنيّة تماثل عبد الله في عدد السنين التي مضت من عمره . كانت على حد وصف أمي لها " اذهينة"^(١).. بنت^(٢) قلب، قدّارة على الكلام، تقنع السامع بمُرادها^(٣).. صورته.. امصوّرة بجمالها.. أبوها وأمها

١- صاحبة عقل راجع.
٢- شجاعة.
٣- بما تريد.

ما إلهم من الطنا^(١) غيرها.. أمدلله^(٢).. يحلفون بحياتها، ومن زود^(٣) حب الشيخ لبنيته هاظ، ما اتزوج من مرة ثانية.. كرامة إلهها ولا مهال!

ذات يوم - وربما بعد أن كان الشيخ قد أحسَّ في نفسية ابنته، وفي داخلية عبد الله ثقة متبادلة وميلاً فطرياً، سليماً، صالحاً لبناء أسرة وإقامة بيت.. فيعرض^(٤) الشيخ على عبد الله أن يزوجه ابنته.. بكل صراحة وبساطة دون التواء أو تحرج، ودون إيماء أو تردد!

يا لفرج الله.. ويا لرحمته.. ويا لقربه من المظلوم.. أحس عبد الله أن فؤاده يكاد يطير من صدره، وهو يسمع هذا العرض الشريف فوضع يده على قلبه ليخفض من علو دقاته، وليطامن من خفقاته.. أحس عبد الله بأشرف موقف يلقاه إنسان من التكريم..! وهل شرف يطاول شرف المصاهرة هذه.. مصاهرة الشيخ الجليل..!!

"عماه: إنني لمصاهرتك ممثّن.. وحامد.."

١- من خلفه الأولاد والبنات.

٢- يدللونها - من الدلال.

٣- من شدة أو من كثرة.

٤- وما في ذلك من شيء.. أبداً.. فعرض أي ولي ابنته على الرجل سنة قائمة منذ زمن بعيد.. وتمثل ذلك:

١. في عرض شعيب ابنته على موسى.

٢. وفي عرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنته حفصة على أبي بكر، وعلى عثمان بن عفان، فسكت الأول واعتذر الثاني.

٣. لما جاء الإسلام أقام كفاءة النكاح على معيار الدين والخلق، فاعتبر الدين أصلاً وكماً كما جاء في "زاد المعاد" لابن القيم الجوزية رحمه الله.

معيار الدين في النكاح تقرر في قوله تعالى: (إنما المؤمنون أخوة) (آية ١٠، سورة الحجرات)

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (سورة الحجرات، ١٢)

إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه!

إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض، (حديث نبوي) فتزوج الموالى من القرشيات وبهذا لم يعتبر القرآن السنة في الكفاءة في الزواج أمراً وراء ذلك.. لا نسباً ولا صناعة ولا غنى ولا حرفة، فيجوز للعبد القرن (الذي ولد عند سيده) نكاح المرأة النسبية الغنية، إذا كان عفيفاً مسلماً..

فتزوجا...!

عبد الله.. ابن السبيل.. وابنة الشيخ الجليل!!

وفي البرزة^(١): في الخيمة الصغيرة التي خصصها والدا العروس - وعلى غرار ما كان يقوم به أهل المروءة والكرم والمال من العشائر في أفراح أبنائهم.. في البرزة تلك.. (زحّق^(٢) سعدُ عبد الله). وغدرت به الدنيا.. فخانه كلية.. لقد صدق القول في ثقافة البادية والريف المتطور عنها: (الشرايا بعضها لقايا) أو (بعض^(٣) الزيجات رزايا)!

في بداية الأمر، وعند دخلة العروسين: كان الاتفاق أن يظل العروسان في برزتهما مدة أسبوعين. وفي الجبال بعيداً عن الناس. لا يخرجان منها، يأتيهما الزاد والطعام من الأهل وهما في خلوتهما..

وعلى غير توقع وبكل ما تتضمنه الدهشة، وما يحويه الاستغراب من انفعالات استقبل الشيخ وزوجته طلب العروسين منهما أن تمتد فترة البرزة حتى محاق^(٤) الشهر..!!

١- هناك ما يعرف في ثقافة البادية "بالبرزة" وهي خيمة صغيرة ليقتضي العروسان فيها لياليهما الأولى من الزواج.

٢- زحّق: مثل يضرب في معاكسة الحظ الشديد جداً على أصحابه.

٣- في بعض الزيجات يكون فيه الرجل على هامش الوصال الجنسي.

٤- آخر الشهر في ظلمته بعد احتراق قمره.

فوجئ عبد الله في ليلته الأولى.. وفي اللحظة الأولى من اختلائه بعروسه أن حالة الانتصاب عنده ليست على ما يرام، ويزمق^(١) دون ارتفاع.. استمرت فترة القصور الجنسي عنده أربع عشرة ليلة.. وقد كان ذلك هو الأمر الأشد وراء طلب عبداً لله تمديد فترة البرزة حتى امتحاق^(٢) الشهر. لم تنفع المدة عبد الله لاعتزال الناس في الجبل حيث تبين له أن شهره ذاك كان محاقاً كله، فقد استمر عجزه عن إتيان عروسه.. حتى أصبحت رجولته تدور وتدور حول رحي الأهوال النفسية التي يعيشها رجل شاب في هامش الوصال الجنسي..

قد يكون عبد الله انتابته انفعالات الفرح الشديد من أن ينفع نفسه^(٣) وعروسه!! ووصفت الوالدة حالة عبد الله الجد بكلمات بسيطة: "صابتة أم أفريجة، وطارت إدويرات راسه وبطل ينفع النسوان!"

حقيقة: عند كل مراقب ومحلل ... كانت مشاعر السرور في عبد الله طاغية، فعظمت الفرحة عليه. فرحة مشبوبة بعدم تصديقه لكل ما جرى له ومعه.. في البلاد الجديدة..!

وكيف لا نتحدث عن ذلك: وعبد الله يعرف قدر نفسه، ويعرف العالم الذي جاء منه والحياة التي أفرزته.. وهو مع كل ذلك يتزوج ابنة حلوة تخطو عتبة باب الغلطة^(٤) على عريسها وهي متجللة بالبراءة والنقاوة

١- يزمق: ينزل ماءه من غير جماع ويدون انتصاب.

٢- آخر الشهر وتلاشي قمره.

٣- أو يزاو لا الجنس مما ويواصلان ويستمتعان.

٤- هيجان صحوة النكاح عند المرأة والرجل.

والطهارة: هي ابنة لشيخ عظيم تحوطه المهابة ويزينه الوقار..! سيد عائلة كبيرة..! تتميز بالشرف تميّزها بالثراء والنجاح بالحياة مما رفع من مستوى الأمنيات عنده أن تتسحب آثار ذلك على مستقبل أيامه..!!

كانت فرحته من غير حدود فطغت على مشاعره، وسيطرت على حواسه فاختلطت في وجدانياته وفي جوانحه ذكريات الطفولة بآلامها.. وأحداث الصبا بقسوتها.. كل ما مرّ في طفولته وفي صباه.. وفي فتوته وهو عند عمه.. كل ذلك تدافع بعنف حطم باب المخزون النفسي عنده.. لقد انفلتت - وبغير ضوابط كوابيس الأرض برمتها على عبد الله.. توالى عليه مرة واحدة.. حتى خشيت زوجته من مغبة ذلك عليه!

صار يحتمي من ذلك بالإنطواء على نفسه، وبالعزوف عن التواصل مع الآخرين.. لا يقرب طعاماً إلا لهما^(١) وإلماً^(٢).. يخاف الجماعة.. ويتحاشاها..!!

لقد تحوّلت فرحة عبد الله العارمة إلى مصيبة دزّت قرننها في أول يوم من أيام زواجه.. فكترتان سيطرتا على عقله: حرمانه من زوجه، وخروجه من الحياة الجديدة.. دعت حالة عبد الله الشيخ وزوجه إلى التفكير بصوت عالٍ دون موارد أو خجل.. فقصت الإبنة العروس على مسمعيهما قصة الشهر المحاق في البرزة وما جرى فيها..!!

١- وكأنه باقترابه من الطعام يقترف ذنباً يرمي عليه.

٢- أي في الأحيان على غير مواظبة.

(٥)

الزواج الثاني

كان السحر والدين - قبل أن يأخذ العلم مكانته في حياة الناس - كانا يقومان بتفسير كل مرض فيحيلان ذلك إلى مرجعيات يتوهمونها أو إلى أسباب غامضة يخلقونها.. فغالبية الأمراض - عندهم - إنما يكون سببها واحد من الناس داخل فئات كثيرة.. منها مثلاً لا حصراً: شخص يكرهك، امرأة غير نظيفة، صاحب عين حاسدة، أو تتسبب عن قرينه أو عن الجن.. من العفاريت، أو من الأرواح الشريرة.. وغير هؤلاء كثير..!!

والذين كانوا يقومون بالعلاج فهم أيضاً كثيرون: المشايخ، الرجال المسنون، النساء الحاذقات من كيبيرات السن القاطعات^(١) أو من الدايات^(٢).. أو أحد من المشعوذين أو من الحلاقين أو من.. السحرة.

بأمر من أصحاب المشورة والمشايخ وصفوا الوصفات للعروسين: وصفوا لهم التعاويذ^(٣)، وألبسوهما حرزاً^(٤) وحجباً^(٥).. طيلة عام كامل.. لم يتركوا أثناءه وسيلة لعلاج عرفوها إلا استعملوها لعبد الله ولزوجته.. مهما كان ذلك العلاج سواء وافق العقل نوعه أو عارض منطقه..! حتى

١ - الطاعنات في السن اللاتي توقف حيضهن.

٢ - يزاولن مهنة التوليد.

٣ - وهي الرقيات تكتب وتعلق على الإنسان لتحمية (كما كان في اعتقادهم) من العين والحسد والشر.

٤ - وهو ما يحصن به المرء نفسه ليحميه من الشر.

٥ - جمع حجاب وهو الحاجز بين الشيئين يلقه صاحبه وهو من الرقيات.

الطعام النادر أو الفاخرة في غير أوانها أو العشبية التي بُعد مصدرها.. كل ذلك وغيره أكثر لم تُجد إنعاشاً في فحولة عبد الله المتوارية.. أو فتيلاً يحمل بصيصاً من نور أو نار يشعل الجنس عند الشاب المسكين.. ومن ثمّ كان القرار الصعب: "الفصل والفراق".. فصل عبد الله عن عروسه الزوجة.. والتفريق بينهما..!

قال العارفون من الشيوخ أن ما حدث مع عبد الله هو سحر ظاهر بيّن أراد أصحابه أن يُفَرِّقوا به بين عبد الله وعروسه.. مستدلين على ذلك بما يقوله الله في كتابه العزيز.. "فيتعلمون منهما ما يفرقون بين المرء وزوجه.."^(١) "وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله".. وبصمات القدر على عبد الله في دروبه الحياتية بادية لكل ذي فطنة وحضور بال!

استغرق العلاج.. علاج القصور الجنسي عند عبد الله عاماً كاملاً وفي نهاية ذلك العام ذي الجذب النفسي والقحط الجنسي عنده انفصل عن زوجته، ومرارة الدنيا في فمه.. انفصلاً بأرقى صورة من صور المعروف. انفصلاً بكرامة وعرفان بكل جميل بينهما.. انفصلاً نزولاً عند موافقة الأب والأم وعند رغبة الإبنة العروس وإن أخفت ذلك من قبل أو من بعد..!

يمضي الشيخ الفاضل بكرم طبعه ونصاعته قدماً فيتم معروفة مع الشاب عبد الله، فينزل الشيخ عند قرار الناصحين القائل بأن علاج الشاب مشروط - بعد فصله بأبغض الحلال عن زوجه البكر نهائياً -

١ - من الآية رقم ١٠٢ سورة البقرة.

مشروط بتزويجه من امرأة سبق لها الزواج. تزوجت ومات عنها زوجها أو عزية طلقت منه لترجع إلى نكاح جديد، ينزل شيخنا عند هذا القرار فيجد لعبد الله زوجاً بأوصافها وبأحوالها كما رأى أولئك الأبعاد من الناصحين!!

العروس الجديدة كانت من قرية "بهما"^(١)، كانت ثيباً مات عنها زوجها بعد أن أنجبت له ثلاثة أبناء: ذكران وأنثى شقيقة لهما.

كانت فاطمة البهماوي زوجةً لرجلٍ مزارعٍ من قرية الكواكب من عائلة "الهديان". أنجبت له قبل موته ولدين وشقيقة لهما اسمها فودة. تزوجت فاطمة عبد الله عام ١٨٦٢ وأنجبت له "خودة" ثم ولدت له ماجد الشهير بأبي عبد الله والابن الثاني رشدان. كانت عروسه البهماوية امرأة مِعْمَمَة^(٢) ومخولة^(٣) أصيلة^(٤)..

ويظهر من السيرة التي سردها علي الوالد: أن الزوجة الجديدة لعبد الله كانت على درجة عالية ومتميزة من الحنكة والتكيف وتدبر الأمر الجديد على الوجه الأحسن والأنجح، فقد أحاطت زوجها عبد الله بكل عناية - وتكبره بسبع سنوات وتزيد عليه بخبرات وكفاءات عالية فيما يخص الأمور الزوجية وفيما يتعلق بأمور الذكر والأنثى.. فوجد عندها.. في جوانحها النفسية، وبين أعضائها الجسدية ألواناً من الحب والعطف

١- من قرية البهم أي الفرسان والشجعان

٢- لها أعمام محسوبون.

٣- لها أخوال من أعيان المجتمع.

٤- بنت عائلة كبيرة يهتمها أصلها من الإنحراف.

والانجذاب، والشهوة والتناغم والانسجام مما حفز كوامن رجولته وفحولته للظهور، على ما يتمناه من كان في مثل أمره! ومما جعلهما ينعمان بحياة طيبة ملوها احترام متزامن مع حب متبادل، وتفاهم تام.. أثبت ثلاث ارتكز عليها إطار سعادتهما الزوجية: مَحَبَّةُ الشيخ الصيتي الفاضل حَتَمَ عليه توأماً ورعاية لأبناء زوجة عبد الله إشرافاً وتوجيهاً لدَقَّةِ سفينة الزواج الجديدة، وظل تعاونه كريماً كل الكرم مع عبد الله وزوجه وأسرتهم حتى توفاه الله. ألف رحمة من الله له وعليه..!!

وبالمقابل - مقابل ذلك الكرم النادر - بل والأصعب مجاراته من قبل عبد الله - لم يدع الأخير سبيلاً استطاعه إلا سلكه في خدمة ابنة الشيخ الفاضل في أطيافها بعد زواجها ثانية، يشرف على العمل في أرضها على غرار عمله في أرض أبيها، فظل عبد الله ملازماً لأرضها التي ورثتها. متفانياً في خدمتها إعترافاً بجميل أبيها وعرفاناً لطيبة مواقفها معه.. يبذر الأرض - مع معاونيه - ويحراثها.. وفي موسمها يحصدنها، يعزقها ليزرعها ويسقيها وفي موسمها يجمع ثمارها وتناجها، يجمع الغمور، وينقل الزيت والحاجيات.. يجمع الحطب والوقود.. حتى دواجن البيت وحيواناته كان يقوم بخدمتها إكراماً لصاحبته.. ظل كذلك حتى أصبح لابنة الشيخ الصيتي أخاً وفيماً وخادماً مطيعاً.. ولفاطمة البهماوي زوجاً محباً ومخلصاً.. ظل ذلك حتى قضى الله أمره.

(١)

النتشه بن حبيب الجاري

تربطنا بأسرة النتشه بن حبيب الجاري أوامرُ تُرابطُ.. بين أوامر القربى، وبين حبال الصداقة والجيرة والمصير.. وقد تجذرت تلك الأوامر بقوة في تربة الأسرتين: أسرة أبي عبد الله وأسرة بن حبيب الجاري خلال القرنين.. أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين..

في أواخر القرن التاسع عشر كان قد هاجر من بلدته "عبطى" تحت طائلة القهر الذي غشى العباد أثناء حكم الترك في البلاد.. فلقد اشتط الأتراك في ممارسات اغتيالاتهم للناس: في أرزاقهم عبر ضرائبهم المتعددة والمتجددة والدائمة، وعبر استعباد الناس، وتجريدهم من حقوقهم وبظرتهم الفوقية عليهم..! ومن خلال التجنيد الاجباري لمحاربة الأوروبيين وغيرهم.. ذلك التجنيد الذي كان من النادر أن يعود المجند المكروه منه سالما الى أهله..! هاجر "الجاري" الجد الى بلدة "صرحه" شرقي النهر الى الشمال.. وهناك استقر وأنجب له زوجاته العديد من الذكور يهمننا هنا حبيب الذي أنجب ولدين هما النتشه بن حبيب وأخوه مقبل.

ظل النتشه بن حبيب - شأنه في ذلك شأن أبيه وجده - ينشد الحياة الأحسن عبر هجرته وتقلاته، يطلب حياة جديدة به يحياها.. كانت

تقلاته كثيرة بين الفلسطينية وصرحه والكواكب وجبل العرب.. حتى استقر لفترة طويلة في قرية "الملق"، وتزوج فيها من السيدة "منعام" الملقاوية، انتقل معها وعادا الى "الكواكب" حيث ولد لهما فيها ابنه وابن ذكر..

عاشت أسرة النتشه بن حبيب مع أبي عبد الله الغرياي، فأقاما مع أسرتهما في حوش واحد يضم غرفتين متواضعتين في قرية "الكواكب".. اشتركت الأسرتان في الإقامة متجاورتين في ذلك الحوش لسنوات عدة.. بدى ذلك الحوش وكأنه يضم أسرة واحدة لا أسرتين، تضم إحداها ضيفا مقيما عندها لا يبرح، هو مقبل شقيق النتشه..! ظلت الأسرتان تعمقان المودة بينهما وتزيدان من الحميمة عندهما حتى أصبح كلا الرجلين الأخص صديقا عند الآخر.. وهكذا عرفا عند رجال البلدة في "الكواكب" وعند نساها.. بالخيرة من الأصدقاء..!

عاشت أسرة النتشه بن حبيب في شظف من العيش.. في شدة وضيق ويُس.. وفي هذه المعيشة كانت ولادة الأنثى لهما.. "ابنة" سموها "نضرة" عام ١٩٠٨م.. وتحت وطأة العيش القاسية في حياتهم، وسطوة المجتمع الأبوي حينذاك تقرر مصير الأنثى.. تقرر مصيرها في الزواج وهي في اللحظات الأولى في يوم ولادتها..! جاءهم "بشر بن غانم" الذي كان قد سبقها في المجيء إلى الدنيا بخمسة وعشرين عاما.. جاءها "بشر" مباركا لأبيها بابنته الجديدة.. جاءهم ومعه هديته من مال وملابس.. فيعطيه النتشه - مقابل سبقه لغيره بتقديم التبريكات - "نضرة" عروسا وزوجا في حينها المناسب..!

كبرت نضرة، وأصبحت صبية حسنة الخلق خُوداً^١، جميلة الوجه بَصَّة^٢، ناعمة البشرة غَضَّة^٣، لطيفة البطن والخصر، هيفاء، لينة القد ميساء مع امتداد في الطول.. في حُسْنٍ واعتدال..! في الخامسة من عمرها تولى وشَّام تجميل وجهها - على حد ثقافتهم - بالوشم^٤.. وزاد على ذلك

١ الخود من النساء: الفتاة الشابة حسنة الخلق

٢ امرأة ناعمة بيضاء

٣ امرأة رقيقة الجلد ظاهرة الدم

٤ لغة غرز الوجه بالابرة أو المسلة وذُرَّ النَّوُورُ فوقه وهو دخان الشحم بعد إحراقه أو تحشوه بالكحل أو النيل فيزرق أثره أو يخضر. والوشم حالة متجذرة في الحضارات القديمة عند الفراعنة لأغراض الزينة، وللحمية من الحظ السيئ والأمراض والحسد، بل هو وشم أبدي هجى استخدم لوشم العبيد والسجناء والرعاع وأيدي الأطفال حتى لا يضلوا الطريق

بان رَدَع^١ ذقنها.. وشمها وردعها في وقت كان الوشم فيه أكثر أنواع التَزَيُّن ذيوعا شأنه في ذلك شأن الحنَّاء، والأساور، والأقراط، والشامات الاصطناعية هذه الأيام: كان الوشم حينذاك يحقق أغراضا تتعلق بجمالية الوجه والكف مع ظاهره.. والمعصم. وجميعها مناطق محببة للرجل رُؤْيَا وَلَمْسًا. بل يقولون ان الوشم يفوقها جميعا.. يفوق كل الزينات على الجسم حينذاك. لأنه أثبت وأبقى وأقل كلفة وتكلفة.. ومدعاة للفخر عند المتوشمة^٢. وغزل شعراء البادية كثير في المتوشمات.. فتحن نقرأ مثلاً:

من ذاق حبَّ أوشامهن ما استراح لو أنه عودٌ أو شيباتٍ نوازية^٣

أي أن من ذاق القبلة على الشفاه المتزينة بالوشم لا يمكن أن يستريح حيث تظل الأشواق تعاوده إلى تقبيل تلك الثغور المتوشمة، ولو كان قد وصل إلى آخر مراحل الشيخوخة: لو كان هِمًّا شابت منه عظامه البارزة في المعصم وهي النوازي..! ويعتقد أهل القرى المتطورة عن البداوة - أن الشعر النابت على النوازي هو آخر شعر يشيب من شعر الانسان.



١ علامات غرز الابرة على الوجه يسمى عندهم "الوشم"، وأما إذا كانت على الذقن فهو الردع، وعلى بقية أجزاء الجسم فهو "النَّق". وهناك أنواع أخرى من الوشم: على طريق الفم يتصل بنفس الوجنتين اسمه "شوارب الجندي" والوشم على طريق العين اسمه "شدادات" أو ذنب العين والوشم على رأس الخدين، والذقن والأنف على شكل نقطة واحدة يسمى "وشمة" والوشم عند أسفل الشفة السفلى على شكل خيط يصل إلى وسط الذقن اسمه "السيالة" والوشم عند ملتقى الحاجبين اسمه "هلال"

٢ قيل عند العرب منذ القدم: أعظم في نفسه من المثيِّمة وهي امرأة وُشمت إسنها ليكون أحسن لها

٣ نواصيه

٤ آخر مراحل الشيخوخة والكبر والهيم

(٣)

في الجورة^١

قلنا: لقد تقرر مصير نضرة في الزواج يوم ولادتها في عملية اجتماعية.. يسميها مجتمع البادية والريف في ذلك الوقت بـ "عَطيّة الجُورة"، وتعني عندهم خطبة الطفلة فور ولادتها، خطبتها لأول من يحمل التبريكات بمجيئها - و الهدايا لأهلها، وتلك عادة في مجتمعنا ذاك كانت تعتبر مسألة نافذة المفعول يحترمها أناس ذلك المجتمع احتراماً دقيقاً ويقول العرب في ذلك: "الي يدشّر العادة^٢ يتعادي".

تحمل تبريكاتهم المتبادلة فيما بينهم في مثل ذلك الموقف تعبيرات لغوية توحى بأن الأمر أشبه بعقد إيجاب و قبول.. "امباركة! امباركة عليك.. ترى أجّتك.. أجّتك حظية وزوجة.. الله يبارك لك.. ان راد الله^٣!

ومن هنا كان الزواج وصفاته تتم بين الكبار، حيث كانت تعتبر مسألة تخصهم هم فقط.. الكبار و أما الصغار فهم أدوات في الصفقة..!

^١ كانت المرأة في الجاهلية - وقبل أن تبدأ عملية الولادة، ويأمر زوجها - تقوم بحفر جورة صغيرة في الأرض ثم تسدح عليها فارجة ساقها حتى تستولد، فإن كانت أنثى بقيت في الجورة وطمرت. وهذه العطيّة عندهم ترمز إلى إنقاذ الطفلة المولودة، ووعدّها بحياة أفضل وهناك عطية من نوع آخر في الريف المتطور عن البادية: في الريف يضعون المولود ذكراً أو أنثى فوق صنية من القش لشهور عدة استجلاباً للبركة وعوضاً عن شراء أو استعمال سرير أو عرية.. كما هو الحال هذه الأيام أي أن الذي يتمرد على ما ألفه الناس من عادات لا يحق له أن يلومهم إذا عادوه

^٢ ويشيرون إلى هذه الصفقة بأمثال كثيرة تتردد في فلسفة الحياة عندهم: "يا ميخذ الزغار يا غالب التجار". الزغار = الصغار، غالب = قاهر ومنتمر على التجار.. حرصت العائلة في البادية والريف المتطور عنها على امتلاك المرأة الشابة الصغيرة لتخدم البيت والمزرعة مدة طويلة.. الصغيرة فيها قوة وكفاءة ويسهل تلقينها أفكار الكبار ونظرياتهم للحياة.. بعكس الكبيرة الناضجة

في مجتمع كانت العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة علاقة ذكر متسلط على الأنثى، تعتبر الأنثى فيه ودية مرهونة بسلطته، علاقة لا تقيم وزناً لأمر الزواج المعنوية أو للحالات النفسية للعروسين إلا من خلال خدمة تلك الأمور وتلك العلاقات لأهداف الأسرة الكبيرة أو مجموعة من الأسر من خلال العشيرة. فالأمور الذاتية المحضة مسألة لا يجوز البوح بها..!

(٤)

في الحظيرة

وتفرض طبيعة المواقف على "نضرة" كل شيء ضد الوعي الغائب عنها! فهي لم ترفض الزواج من الشخص الذي اختاره لها أبوها.. تزوجها "بشر بن غانم" شقيق "حتوم بن غانم"، وكانت قصة عطية الجورة قد سبقت اغتيال رشدان بسنوات.. تزوجها "بشر" قبل أن ينتأ لها ثدي، تزوجها دون سن النضوج وتحت القدرة على الإنجاب.. وعلى حد تعبير بدوي جميل ورد على لسان والدتي (رحمها الله) وهي تصف زواج نضرة:

تزوجها وهي^١ ما بتعرف "الدَّخْ من النَّحْ"، تزوجها بشر وهو يكبرها بخمسة وعشرين عاما بينما كانت تعبر التاسعة على مهل..! وظلت زوجة لبشر مدة خمس سنوات.. طوال..!!!

عاشت نضرة تلك السنوات تحت قوامة زوجها "بشر"، سنوات اكتنفها ظلام دامس، وبقيت مغمورة في هَلَكَةِ الماضي.. عاشت نضرة فيها وكأنها غنيمة غزوة لزوجها، تؤدي عملها بسخرة ذاتية عاتية، وكأنها تعاقب نفسها، سُخْرَةً طحنتها حتى العظام، في وقت^٢ كانت الحياة فيه امتدادا لحياة البادية رغم انتشار الحجر والشجر وامتدادهما في العمران.. ظلت تخدم البيت الكبير والمزرعة البعيدة وخاصة أيام الحصاد وجمع الغمور.. تقوم بعمليات لا نهاية لها متتابعة في مواسمها.. وفي أوقاتها: عمليات التخزين للحبوب في المطامير^٣ والخوابي.. مع النساء والرجال تقوم بتخزين منتجات الزيتون برصيعة وشانق نيعه.. تخزنه في جراره..

وما يسبق التخزين من جهد جهيد، وعمل متواصل، في اعداد الكامر^٤ وتمليحه، وتجفيف الخُضَر وانتاج البندورة والبامية المنشفة، وعمل البرغل، وتجهيز الجريشة والفريكة، وتطجين اللحم، وحفظه

^١ أن لا تفرق بين الإقبال على ممارسة الجنس بشوق واندفاع أو الامتناع عنه بالرد القبيح على من يطلب الجنس منها. وفي ثقافة البادية المتطورة إلى الريف كل شيء جميل من المداعبة بين الرجل والمرأة إلى اقتضاض البكارة أو كل ما يتخلل العلاقات الجنسية من إقبال وصد يدخل تحت عنوان "الدخ والنح"

^٢ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

^٣ بشر قليلة النور في قاع البيت أو في ساحته، تدهن جدرانها بالثيد والتراب أو تغطي بالقصول لمنع الرطوبة وتغطي بباب كبير من الحجر

^٤ الزيتون الأسود

قورمات^١ لأيام الشتاء.. وصنع الدبس في الزُرُويات^٢ الفخارية، واعداد بقية مشتقات العنب من عنبية، وزبيب، ومدقوقة وصفطات الملبن.. وغيره..!

والى جانب كل ذلك تظل طول العام تساعد في خدمة الضيوف وتجهيز المضافة لهم.. تقوم بكل شؤون الدار، تخرج لجلب الماء والوقود من حطب وروث البهائم، وتخدم الدواجن في أكنانها، وتتابعها أثناء إنتشارها، تحلب الغنم والبقر، وتنظف الزرائب والحظائر..

كانت "نضرة" داخل بيت زوجها "بشر" وكأنها في حظيره..! ولكنها حظيرة "مقدسه" تلتزم- مع كل أفراد الدار الكبيره- نظاما جعل الجهل والطاعة العمياء من الفضائل تلزمها الخضوع لزوجها دون أن تنبس ببنت شفة، كانت ألعوبة، كانت منفعة وتسلية وجنسا لزوجها وهي صغيره.. لم تكن تتمرد أو تنثور أو تشاكس أو تهمل أو تزاوّل عليه لؤما أو مكرًا! حتى عجبت منها نسوة الدار بل ونساء القرية! وإن كن في كل ذلك مثلها متساويات معها أو متقاربات منها.. عَجِبْنَ من صبرها ومن خنوعها المتهافت! قضت سنوات زواجها ذاك في عيشة حقيره: مقهورة الإرادة، مغلوبة على أمر يخصها دون غيرها.. يستوي عندها أن يقتلها أو أن يُمنَّ عليها بحق الحياة..!!

^١ كلمة تركية جمع قورمة "مأخوذة من قاورمة" وتعني لحم مقلي بالزيت يخزن في وعاء فخاري يحمل نفس الاسم قاورما، ويقال أو ربما كانت أصل كلمة "شاورما" هذه الأيام
^٢ أوان فخارية

(١)

الديس

كان الناس يُجْرُونَ موسم العنب والتين إجازاً خاصاً، ويحبونه حباً كبيراً، ففيه يتعمون براحة نفسية ويدنيه أكثر مما كانوا يتمتعون بها في مواسم أخرى. في موسم العنب كان يتوفر لهم فيه تزهة أوفر حيث كانت تخرج العائلات للتغريب في الكروم. هيسبدلون الحجر بالعريشة والشجر، يعتمدون أكثر ما يعتمدون في وجبات طعامهم على ثمار الكرّم من العنب اللذيذ، والتين الطيب وفي ثقافتهم - حينذاك - أمثال يرددونها بقناعة تامة تشي بقُدسية وقيمة هذه الثمار: فهم يصدقون بأن العنب مثلاً كله فائدة: الجلد تلجلد، واللحم للحم، والعظم للعظم ... وهم يعنون بذلك أن قشرة العنب تنيد الجلد، وليايه أو خياره ينيد اللحم، وبذوره تنيد العظام.

تراوحت اتجاهات أفراد أسرة الجد عبد الله نحو العنب ونحو مشتقاته الطيبة المصنّعة عندهم: فالجد عبد الله كان مغرمًا بشرب الديس^(١)

(١) تروى الأبيات عن الوقت إلى العاصي أو إلى المسحور، وذلك من مآثر الفلاحة البدوية والريفيّة.
(٢) العنب، أصل العنب، وجموده لا يخبث.

وأكله. يتمتع بطعمه الحلو ذي التكهة هَرَجَة^(٢) ولطفاً، وبرائحته زكاةً وعبقاً^(٣). ويُفْرَحُ ناظره بلونه الأحمر المزان بالشقرة^(٤).

عرف سكان القرية، هَرَجَة الكواكب غرام عبد الله بالديس، فعرف عندهم بلقب جديد غير لقب 'الغرباوي'. عرفوه بـ 'أبو الديس' وانسحب هذا اللقب^(٥) على ولده البكر الذي انتقلت إليه عادة حب شرب الديس وأكله. فنسب إليه مباشرة: 'ماجد الديس'.

وأما رشدان، الابن الأصغر لعبد الله، فكانت وجباته في موسم العنب كثيراً ما تعتمد على الخبز والعنب مررداً مقوّة دارجة على السنة أفراد مجتمعه آنذاك: 'لو أن الله يياكل'^(٦) ما أكل غير العنب!

كان رشدان يحب العنب بشكل لا فت، وينتظر موسميه يحماس.. ونحن نعرف كما سبق أنه قد وقع اغتيال رشدان قبل^(٧) نضج العنب. وقبل قضاؤه مما جعل شقيقه يحدث نفسه: 'لو كنت متأكداً من القاتل بالضببط لأخذت عهداً على نفسي أن أحرم قاتله - أي قاتل شقيقه - من أكل العنب.. عنب ذلك الموسم كما حُرِمَ منه أخوه!'

(١) تروى الأبيات عن الوقت إلى العاصي، والمسحور، وذلك من مآثر الفلاحة البدوية والريفيّة.
(٢) تروى الأبيات عن الوقت إلى العاصي، والمسحور، وذلك من مآثر الفلاحة البدوية والريفيّة.
(٣) العنب، أصل العنب، وجموده لا يخبث.
(٤) تروى الأبيات عن الوقت إلى العاصي، والمسحور، وذلك من مآثر الفلاحة البدوية والريفيّة.
(٥) تروى الأبيات عن الوقت إلى العاصي، والمسحور، وذلك من مآثر الفلاحة البدوية والريفيّة.

(٦) تروى الأبيات عن الوقت إلى العاصي، والمسحور، وذلك من مآثر الفلاحة البدوية والريفيّة.
(٧) تروى الأبيات عن الوقت إلى العاصي، والمسحور، وذلك من مآثر الفلاحة البدوية والريفيّة.

بالنسبة لماجد الدبس.. فكل شيء داخل نفسيته.. وكل ما يحيط به من حوله إنما يشير عنده حوافز الثأر، ويؤجج نار الانتقام، ففي داره نساؤه: زوجته تجهش بالبكاء إذا ما لحظته من بعد أو عن قرب.. فقد كانت دموعها طوع إرادتها.. فلا يراها إلا والدموع مترققة في عينيها، شقيقته لا تتوقفان عن النحيب والنشيج.. أما أمه - أم القتل الشاب.. المغدور فقد ظل "الدبس" يسمع تولولها^(١) عند انبلاج كل فجر تدعو بالويل.. وتستغيث بمن يشفي غليلها بالثأر لولدها..! تبدأ رنيناً^(٢).. هنيئاً^(٣)، وتواصله حنيئاً^(٤).. وأنيناً^(٥).. وخنيئاً^(٦)..! ذلك كله.. بل وأكثر زاد من شناعة الكارثة، وسطوة الفجيعة..! مما أضاف للمصيبة ألواناً كانت هي الأشد قتامة والأكثر مرارة مما أودى بحياة أمه - فاطمة البهماوي - المقهورة حتى النخاع واللباب.. فقضت عقب فجيعتها بولدها رشدان بشهر واحد دون أيام قلائل.

(١) صياحها بالويل والوعيد.

(٢) إذا أخرج المكروب صوتاً رقيقاً فهو الرنين.

(٣) وإن أخفاه فهو الهنين.

(٤) فإن أظهره وخرج خافتاً فهو الحنين.

(٥) فإن زاد فهو الأنين.

(٦) وإذا ارتفع صوت المفجوع فهو الخنين.

أما ماجد: فقد كان جزعه على أخيه لا متهاياً، جزع يفتت الكبد.. ويملاً النفس حسرة تتراكم في داخلاته بحيث لا تتقطع.. حسرة تزيل الفؤاد.. وتجعل عينيه تستجيبان للدموع.. كل ذلك أورثاههما وجيعاً.. وحملأً ثقيلاً تنوء بحمله سنوات عمره السابقة والآتية، وهي تركم همّه ذاك على كتفيه وفوق رأسه، فتعلوا طبقات الهموم والحزن مع الأيام صعوداً وبعداً فتسحبهما إلى الأرض انحداراً وسقوطاً..

أليس الذي له عند "حجر الصخري" هو القصاص.. أو ليس القصاص هو حق من الحقوق سنّها الله إله العباد، ورب العبيد للناس من خلقه.. عقوبة مقدرة بالمماثلة.. يعاقب القاتل بمثل فعله.. قتل! إذن لا بد أن يُقتل، "النفس بالنفس".. قتل منا فاعتدى علينا: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم"^(١).

أفكار وخواطر وأحاديث مع نفسه ترابطت في ذاكرة ماجد.. مستوحياً ومتمثلاً جلسات ومناقشات وحوارات شيوخ الدروز وأقوالهم البيّنة أثناء انتخائهم أو انتدابهم للبت في قضايا تمس قتلاً أو اعتداءً على عرض أو سرقة أو غير ذلك من المشاكل والقضايا التي تعصف أحياناً بشرائع مجتمع ما أو عشيرة أو قبيلة.. ففي جبل العرب كانت مسارح الحياة تعج بكل ما هو جدير بإلهام قريحة ماجد الأشوس فيفهم شؤون الدين والدنيا.. والآخرة.

(١) آية ١٩٤/البقرة.

ظل أبو عبد الله قريسة لأعاصير عاتية تداهمه من جوانبات نفسه ومن خارجها.. فنهَّج رجولته المجروحة وكرامته المهانة.. وإياه المثلوم.. قوى طاغية جبارة، ومناقات غلابة تدفعه لتحقيق رغبة جامحة عنده في الانتقام.. إنه شيء فطري وغريزي أن تستبد به شهوة الانتقام.. لقد قال أول من كتب تاريخاً في الإنسانية "هوميروس"^(١) في الإلياذة: "الانتقام أحلى على القلب من الشهد" وقد نصب الأقدمون معبوداً للانتقام أسموها "تيمسيس" هي التي سحرت حروب طروادة، - وإدارتها شراً إدارة - أشهر حروب التاريخ القديم..!

(٣)

القضاء الشعبي

وصلت القاهرة القضاء الشعبي في بلاد الشام وفي بلادها - أيام العثمانية والإنجليز من بعدهم - إلى مستوى مرموق.. وكان ذلك نتيجة لحكم التركي، ومن بعدهم للاستعمار الإنجليزي والفرنسي فيها.. فلقد استحكمت الفوضى في البلاد، وانتشرت في الأرجاء حتى تطاول

(١) هوميروس أشهر شعراء تلك القديمة (٩٠٠ قبل الميلاد) ومنزلت شعبي الإلياذة والأوديسة.. هوميروس.. وهو الذي وصف أسس فلاسفة اليونان حروبهم.. ومن ثم كان له في المصطفى الباب عز من رزق لا من واد.. و.. إن الأديب.. شك شك.. شتمه

الأقوياء والأغنياء من الناس على الضعفاء والفقراء.. فلجأ الناس إلى أن يصنعوا أو يقتربوا قضاء لهم من أنفسهم.. فالحاجة أم الاختراع، فاختروا من زعماء البادية والقرى والمدن قضاءً ممن يتميزون بمعرفة الحلال والحرام، ومن الذين يمتلكون ملكة الحديث والحوار والإقناع.. والقدرة على استشفاف المواقف، واكتشاف الحقائق، قضاء أو زعماء أو شيوخ.. ملتزمون بما يقولون، القول لهم لا يقترب عن الفعل عندهم، وثبو خاطرهم بما يمتلكون من مال أو جاه أو حياة أو وجود.. التزاهة في الحكم والعفة والحلم علامات لهم.. تجلهم المهابة ويتشاهم الوقار.. والإقتدار..!

من أولئك الذين ذكرت، تدخل وسطاء انخير العقلاء لإصلاح ذات البين بين عائلتين قد يئست^(٢) بينهم الجحور..! بعد أن عمّ الشر الضريقتين.. وكثر القيل والقال بين الرجال.. وازدادت لطلطة النساء في القرية.. فسعى العقلاء في المصالحة بين عائلة الضريقتين وعائلة حجر الصخري.. وكانت نتيجة سعيهم.. حلف يمين من قبل.. حجر..!

حلف يمين يبرؤه من دم رشدان.. ثم يقتله.. وليس له يد^(٣) في مقتله..! مقتل رشدان هو موقف من مواقف السماء.. وحلف اليمين من قبل "قاتله" وحكم القاضي العشائري هو موقف الأرض.. وكلاهما.. كلا الموقفين يتصفان بالخطورة.. ومن هنا فإن لوقف حكم القضاء - خطورة

(٢) اندثار منهم.. ذلك واستند.. عن الله بهم قد يست وتمتد..!

(٣) يده لم يملك.. ولا.. يبرؤه..!

موقف السماء - لا بد من القبول به والخضوع له على مستوى ما يلاقيه
القضاء والقدر من كل ذلك!

وكانت المشكلة - على غير توقع من الجميع - أن صاحب القصاص:
شقيق القتل اشترط أن يختار هو المكان الذي يجب أن تجري فيه طقوس
اليمين المعهودة حينذاك عندهم. فاستجابت المحكمة العشائرية لطلبه
واتخذت قرارها أن يكون الصلح في مكان له قدسيته الدينية وقيمتها
الاجتماعية..!

احتضنت كل بلاد الشام - خلال التاريخ - العديد من الأنبياء والرسل
أولهم إبراهيم عليه السلام وابن خالته لوط ومن بعدهما اسحق وإسماعيل
فشعيب.. إلى جانب مقامات لمائة وأربعة وعشرين ألفاً من الأولياء
الصالحين في مقاماتهم.. المترامية على امتداد بلاد الشام.. في أحدها قررت
المحكمة أن يختار "ماجد الدبس" مكان القسم.. حيث يقسم القوم على
براءة ولدهم من دم رشدان..!

(٤)

في مقام .. النبي شعيب

فوق رابية مرتفعة.. في جبل شعيب في الأردن.. مقام مقدس يلتقي فيه
بُعْدان.. بعدان عميقان.. بُعْد جمالي أخاذ.. رابية تمتد على امتداد البصر
حيث أشجار الزيتون واللوز.. والبرتقال والليمون.. والأشجار المثمرة
الأخرى.. إلى جانب البلوط والسرو وغيرها من الحرجيات..

والبعد الثاني.. بُعْد روحاني.. فوق هذه الرابية يوجد مقام خطيب
الأنبياء.. حيث دفن هناك نبي^(١) الله شعيب عليه السلام.. في ذلك المقام
كان حَلَفُ اليمين..

فليحلف حجر اليمين، وليحلف أهله معه ومُؤَمَّنُوهُ^(٢)..
ويا ويل^(٣) حالف ويا ويل مُحَلِّف..! ولأجعلن الحجارة الكبيرة والصغيرة
"تحسب لثأري ألف حساب وحساب".

أخذ ماجد الدبس يحدث نفسه.. ويتحاور معها.. سيظل ثأري في دمي
رُغْمَ مليون قَسَمٍ، وسيظل يسري في عروقي كاللهيب..! ألا يعرف

(١) تقع منطقة وادي شعيب على بعد ١٥ كم شرق مدينة السلط، منطقة سياحية يخترقها سيل وادي شعيب، من أهم الطرق
الرئيسية الموصلة إلى فلسطين، وكانت تعاني تلك الطرق من ضيقها وتعرجها مما تسبب بالعديد من الحوادث والكوارث
المرورية. وجود السيل بالإضافة إلى مناخها شبه الغوري جعلها محطاً للزوار والسياح في فصلي الشتاء والربيع.
(٢) وراء من يحلف اليمين أحد أقربائه يؤمّن على يمينه أثناء قسمه : كان يقول أمين .. صادق .. لم يقتل .. لم يقتل فلان ..
(٣) تصيب الكوارث حالف اليمين وخاصة إن كان كاذباً ... وتصيب الكوارث أيضاً الذي طلب اليمين.

(١)

حبُوس

في إحدى جلساتنا، وكان ثلاثتنا - في الغرفة المتواضعة جداً - في مدينة القدس عام ١٩٥٣م وبعد قدومي من مصر. قلت للوالد.. وقد فرغت الوالدة لتوها من إجراءات درء الحسد عن ولدها، بعد خروج المهنيين، والمباركين بوصولي سالماً وناجحاً أحمل شهاداتي الأكاديمية الأولى^(١).. قلت للوالد والوالدة تجلس بجواره.. وكلنا نشاوى وخاصة وقد نشونا ريحاً طيبةً بفعل احتراق البخور الذي كانت رائحته تعبق في أرجاء غرفتنا، فطابت أطنابنا^(٢)، فشملتنا طيرورة^(٣) خفيفة تحفز ثلاثتنا للعبث والتسلية، فاستبان نشوة كل منا، ولاح منه استعداداه الخاص للحديث والتصريح، والقول والاعتراف..

قلت للوالد : حدثماني كثيراً، ونشيت^(٤) منكما خبر الظلم والعسف تحت حكم الأتراك.. وهجرتكما إلى جبل العرب عند الدروز في سوريا.. وقصة اغتيال العم رشدان غدرًا.. ورفقتكما لدار النتشه بن حبيب..

(١) شهادة "الثقافة" المصرية (شهادة الرابع الثانوي أيام النظام الملكي في مصر ١٩٥١م، وشهادة "التوجيهية" (شهادة الصف

الخامس الثانوية في مصر عام ١٩٥٢م.

(٢) أبداننا.

(٣) الطيرورة = الخفة والطيش والصراحة مع ابتهاج.

(٤) نظرت فعرفت.

"القاتل".. بل ألا يدري القضاء العشائري؟ - كما يقولون - "أن البرودة ما تزول"^(١) في البوسات! سيعرف جميعهم أن ما طفى عبد^(٢) إلا أذله الله!.. ألا يعرفان من هو أخي رشدان؟ سأسمعهم من هو رشدان! شاب فتى كله.. شامخ كله.. بأس كله في وجه الصعاب.. وأجمل وجه بين لداته الشباب.. سين ضحوك، يفتح قدأمه عند كل أنثى.. ألف ألف باب.. ثغر هو، ومبسم هو.. وقلب هو.. يفصح عن أفراحه وآماله في فورانه البكر.. وعينان هو.. تتقدان وتضيئان يتمرد فيهما ألف متحدر من الشجعان.. هل عرفتم من هو (أخوى) رشدان!!!.. أأزيدكم!..

توقف أبو عبد الله عن التراوض في أمر أخيه

ففطن لنفسه ...

ولما هو مقدم عليه ...!

(١) العداوة الشديدة أو برودة جثة القتل لا تزيلها ولا توقفها قبيلات المتصالحين المناهقين.

(٢) انتقام الله سريع من الطغاة والمعتدين وأكلي حقوق العباد ...!

وعودتكما إلى أرض الجدود.. ولكن.. لم تحدثاني كيف أصبح كل منكما سكناً للآخر تتبادلان بينكما المودة والرحمة..! هل كان عقدكما وزفافكما معاً في آن واحد. وخاصة أن الوالدة قد تزوجت من قبل بلوغها.. تزوجت مُهَجَّنةً^(١) كما عرفت من لَمَمَ الحديث منكما في أوقات متفرقة..

"لم أكن لأشغل نفسي وأفكاري بخواطر الزواج كغيري من الشباب".. أجاب الوالد.. ثم أضاف "وخاصة أنني كنت قد خبرت الكثير من أمور اللهو والعبث، والأكثر من شئون النساء.."، وهنا تدخلت الوالدة في الحديث: "أبوك يُمَهِّدُ: يا ما حاس^(٢)، ويا ما داس^(٣)، ويا ما بدل^(٤) في طوباس.. الناس بدلوا أمراوس^(٥)، وأبوك بدل راسين براس".

وهنا تدخلت في الحديث مدافعاً عن أبي، فوجهت حديثي للوالدة معقباً: "ما في شجرة إلا^(٦) وهزها الريح"! يستمر الوالد في حديثه: "كنت أقول لنفسي سوف يجيء الزواج من حيث لا أدري ودون أن أحسب لمجيئه أي حساب.. فالزواج.. كالقدر.. يحدث في زمانه وفي مكانه وبالكيفية المرسومة.. ثم يستطرد الوالد في حديثه الفلسفي الفطري: "أَتَمُرُ -

(١) أي صغيرة على الزواج.

(٢) مارس العبت مع النساء كثيراً.

(٣) فتركهن ومشى بعيداً عنهن.

(٤) وغير كثيراً في صداقاته مع النساء في كل مكان في الأردن وفي فلسطين، وطوباس من قرى فلسطين والمثل متداول هنا وهناك.

(٥) يتبادل الناس فيما بينهم في المعاملات التجارية مثلاً رأساً من الماشية برأس مثله... أما والدك فقد يأخذ رأسين مقابل رأس واحد منه ليقدمه للناس...

(٦) مارس الحب مع النساء من قبل...

شأنني في ذلك شأن كل المخلوقات في الكون، وما فيه من كائنات وآنام - بأمر خالق هذا الوجود:.. الشمس تطلع ثم تغيب، والقمر يبدأ وينتهي ثم يعود، والشجر والنبات يظهر وينمو أو يتهشم ويموت.. والمطر ينزل رزقاً وخيراً وماءً أو يُحْبَسَ فيكون الجفاف والتصحر والهلاك والضياع.. والزرع يتلون خضرة وصفرة ثم تذروه الرياح.. وفصول السنة تأتي وتروح.. وفي الأيام أناس وأمور.. وفي الليل هدى وعبث وخمور، ولهو ولعب أو إيمان وكفران.. كل شيء..

كل شيء مكتوب ومخطط عند الله في دَفَاتِرِهِ..! "قصدي يا أبي في اللوح المحفوظ"^(١).. وفي الإمام^(٢) المبين - تدخلت هنا لإتمام المعلومة عنده وقد بدا لي وكأنه يطلب مني ذلك.. "كُتِبَ من قبل أن تأتي إلى الدنيا وتكون لنا صفات.. ووجود.. وكذلك زوجي يا ولدي.. أو زواجنا.. لم أفكر أبداً بعروسي.. ولم أحاول أن أتخيلها في صورة خاصة في ذهني.. لم أفكر.. ولم أقرر أن تكون "عروس" جميلة أو وسيمة أو خلاف ذلك.. طويلة أو قصيرة.. غنية أو مثلى بنفس الحال.. كنت على موعد مع حظي وتصرفه معي في مسألة الزواج.. ظل الحال كذلك حتى كانت لحظة شجار من ذلك النوع الذي يحدث بين الأم وولدها.. في لحظة من لحظات

(١) هو لوحة التحكم في الكون الذي نشأ فعلاً، وقد بُرِّمَج القرآن المجيد في داخلها - وبموجب هذه البرامج تعمل قوانين الكون العامة مثل "جدل هلاك شكل الشيء باستمرار أي" قانون التطور" ... من بداية الخلق إلى نهاية الثواب والعقاب في الجنة أو في النار. "بل هو قرآن مجيد ... في لوح محفوظ". آيات ٢١، ٢٢ من سورة البروج.

(٢) أحداث الإنسان بعد وقوعها تسجل في "الإمام المبين" إنا نحن نحي الموتى، ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين" سورة يس آية ١٢.

الغضب في أعتى شحناته التي تنزل بالأمهات.. فتفرغ هذه الشحنات صياحاً، وصخباً وتهديداً ووعيداً فوق رأس ابنها الشاب المكتملة رجولته.. التي بها خبر معنى الحياة.. قالت "طيب.. والله يا ماجد ما أزوجك إلا أحبوس..!"

"أحبوس"!!

أيوه! "حبوس" تحبس الرزق وتمنعه عنك..!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. طير الله ولا طيرك^(١)..!

وتبيري الوالدة تدافع عن لقبها في الماضي، تفسره قائلة: هذا ما يثْطِير منه أحد: حبوس يعني يحبس الشر والدواهي عنك بإرادة الله..!

ضحكنا جميعاً حتى بدت الضواحك^(٢) الأربع لكل منا، وحتى يتواصل حديثنا ويستمر ابتهاجاً! أبدت إليهما مداخلة بسيطة فقلت: "كان من عادة العرب أن يلصقوا بالمرأة الجميلة نعتاً فيه معنى الدمامة والقبح فأم المعتز^(٣) بالله سميت "قبيحة" لفرط جمالها وخوفاً عليها من عيون حسادها من النساء خاصة.. وزوجة الخليفة يزيد بن عبد^(٤) الملك نعتوها.. وأعطوها اسم "الجرباء" (الجرباء بنت عقيل) وكذلك يذكر لنا التاريخ "أم اسحق بنت طلحة سموها أيضاً الجرباء لتمام جمالها وكانت

(١) مثل فيه معنى الدعاء عند العرب: فعل الله وحكمه، لافعلك وما تتحدث به، ويقال عند التشاؤم.

(٢) السن بين الأنياب والأضراس وهي أربعة.

(٣) الخليفة العباسي محمد بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد وأمه رومية.

(٤) الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم.

الواحدة من أترابها ترفض أن تظهر معها.. شبهوها بالناقة الجرباء التي تتوخاها الإبل مخافة العدوى!

ثم وجهت الحديث مباشرة للوالدة.. وإنني يا أماء لا أحسبك إلا واحدة ممن خشيت أمها عليها من غدر الزمان أو خافت أعين الحساد.. أو احبت أن تضلل الأرواح حتى لا تصل إليك فتصيبك بسوء..!

فترد الوالدة: "أبوك تزوجني وأنا زود عن عشر سنين حبة، واغسلت عنده..! ولقد سبق أن عرفت منها مراراً أن الوالد قد تزوجها ولم تكن قد بلغت مبلغ النساء: لم يكن ثديها قد شاك^(١) بعد.. وإنما قد نصا^(٢) عنده!" "نعم" أجاب الوالد موافقاً: "تزوجتها ابنية صغيرة.. عشر سنوات وبضعة شهور، فكانت نصيبي.. ثم أضاف مسحة من مرح ملحوظ فأردف: "مُقدّر وما منه فكاك^(٣)!.. والحمد لله..!

وأنا بدوري - أشاركك الحمد لله يا أبي.. فلقد أعطاك وقتها لعبة، دمية، تلعب معها أو تلهو بها، بنت عشر - مطية لسرورك.. تعمل على إطالة ابتهاجك وامتداد فرحك.. تبهج قلبك.. وتبعث النشوة في أعطافك.. انظر إليها يا أبي..!!

فيها كل ملاحظات وحلوات الأذن، العين، الأنف، الفم، والذقن.. صباحة الوجه وضاءة البشرة.. تتجمع فيها قسمات من جمال مطلوب..

(١) لم يتهيا بعد للخروج والبروز.

(٢) برز وتكعب ثديها وتدور.

(٣) لأمه رب منه.

وقبول مَرْجُوٌّ.. وقبل أن أسترسل في الوصف.. افترَّ ثغر الوالد عن ابتسامة محببة إلى - وكأنه يريد بما رافقها من حركات في العينين عنده وفي الحاجبين - أن يذكرني بقصرٍ في قامتها.. فقلت له: "لا يضيرها أن تكون أُمي دحداحة^(١) أو قصيرة^(٢) بجانب لباقتها في شمائلها.. وفي إنجابها النجباء من الأبناء.. أُمي يا والدي.. أم منْجَاب مباركة.. بارك الله في الزوجة الولود..!

(٢)

مهيرة (٣)

أردت أن أتحكم في سير الحديث مع الوالدين في نفس موضوعنا السابق فوجهت الكلام مباشرة إليه باهتمام كبير: "لا بد أنك دفعت مهرًا غالباً حتى عرست بها وأنت "الغرباوي"، وهي ابنة العشيرة صاحبة وجود مميز في زمنها وفي بلدها.. واكمل الوالد حديثه: لقد سَقَّت الصَّدَاقَ والمهر الى بيت مخطوبتي في عشيرة "الحَمِيد" في بيت مصلح وُلِدَ

(١) تميل إلى القصر غير المعقول.

(٢) قصيرة ومقبولة.

(٣) غالية المهر

أَفْلَحَ.. سَقَّت صَبَّةً^١ من المَعَز، وفرزاً^٢ من الظَّان.. الوانها تخب الألباب لصفائها ولنقاها: موشحة بالبياض، و مُشْرِية بالسواد، ومخالطة للحمرة أو الشَّقْرة.. منها النتوج^٣، ومنها الجارور^٤، وسبعة من ذوات الخواوير^٥ حلوب، منوحة تمنح البركة وكل ما هو طيب لأهل أمك، رمز للعطاء وإشارة للخير.. هذا وقد سيق من السياق اياه فحل من فحول معيزنا، انتقوه وعينوه.. فحل تشتهي ان يقرعها^٦ كل واحدة من المعيز وهو يرسل نبيبه^٧، وتأتاته يستميلها للنزو والسفاد وقت الهداد^٨..! "ومع السَّوق... تدخلت الوالدة وهي تزيد في سياقها.. "كانت نهَّاقة^٩ واتاناً^{١٠} منها..! والى جانب كل ذلك سبع مجيديات^{١١}: بينهن ثلاثة مقبوضة مع السياق.. والرابعة مؤجلة..!"

"وحماره وطلاها^{١٢}..! سألت الوالد متعجباً!

نعم "أجاب الوالد" فكما كان قوم امك من الجمَّالة^١ يقنون الجمال ومن الخيَّالة اصحاب أفراس وخيل.. فقد كانوا ايضا حمارة.. أصحاب

١ صَبَّةٌ وفرزاً من الضأن = نفس المعنى وهو اذا كان عددها دون الأربعين

٢ صَبَّةٌ وفرزاً من الضأن = نفس المعنى وهو اذا كان عددها دون الأربعين

٣ حبلى

٤ الشاة الجارور = ذات الثديين الطويلين اللذين يكادا أن يصلا الى الأرض وكان الشاة تجرهما جرا

٥ نماج الواحدة منها ذات ثديين غزيرين باللبن

٦ أن ينزو فوقها

٧ من أصوات فعل الغنم (التيس) يثير بها انشاء

٨ وقت التزاوج واللقاح

٩ نهَّاقة = حمارة

١٠ واتاناً منها = أي انشى حمارة ولدتها

١١ جمع مجيدي : عملة تركية منسوبة الى السلطان عبد المجيد ، فقد ضربت أيام حكمه ، وقيمة المجيدي (١٩٠) فلساً

١٢ ابنتها

حمير.. للنقل والسفر القريب.. "مثل هذا المهر يعني انك - يا والدي.. كنت موسراً.. وغنياً!"^١

"كان عندنا ما يكفيننا - في كفاف يكفنا عن الطلب من الناس، وفي غنى ميسور يغنيننا عنهم فلا نحتاجهم ولا نسأل منهم..". ثم واصل ابي حديثه قائلاً:.. لم نكن نملك عقاراً.. ولا ضيعات نستغلها.. ولا حقول نحراثها ونفعلها.. ولا بساتين نزرعها.. وانما مائناً كان مالاً ناطقاً: (ماعز وضأن) وأحياناً نقتني بقرة او اثنتين.. كانت معيزنا ونعاجنا خير معطاء لا تتوقف عن النتوج.. تضع وتُلبن خيراً وفيراً.. ومنها من كانت تحمل في كل نتوج اثنتين أو ثلاثة.. تضع سَخْلَتَيْن أو ثلاثة، بهَمَتَيْن أو ثلاثة.."

ويمضي الوالد في حديثه: "فمنذ أن أتيت من جبل العرب، وغادرت الدروز.. ركزت على اقتناء الغنم مؤمناً بمقولة ذلك الزمان "الغنم غنيمة واللي ما يقناها هليمة"^٢.

ولكن مؤجل الوالدة قليل جداً! فما معنى ذلك؟ سألت الوالد فأجابني: "في تلك الأيام الخوالي، لم يُعبر الناس هذا الجزء من المهر.. مؤخر الصداق.. أهمية ملحوظة، فقد كانت العادة ان يقل المهر المؤجل عن العاجل بشكل كبير.. عكس ما يجري في أيامكم الان!" ثم تحول الوالد في حديث يكمله:.. أحببت الحلال^٣.. اشتريها وأرعاها ثم أتاجر بها..

١ الجمالة و الخيالة = اصحاب جمال و خيل

٢ تافه

٣ الحلال يشمل بقرأ وغنماً و خرافاً

(٣)

في كل شيء اذا أمعنت فلسفة
هيات تقرأها في أعظم الكتب

"رعت أغنامي و خرافي مع حلال الآخرين في اول عهدي بالرعي"^١.. أخذ من أصحابها كل الشياه القالب^٢ لونها مهما كان عددها، حتى كبير القطيع عندي، فاجتمعت الضأن والمعز لدي حتى صارت ضاجعة^٣، ومن ثم ثلّة^٤ ملحوظة.. ثم بعد ذلك عكفت على شياهي و خرافي لا أرى غيرها.. أحببت هذا النوع من العمل، كامل حريتي معي - أجول مع شياهي في ربوع القرى، وارتحل من مكان الى مكان.. أرقب اصطباغ الفجر بالحُمرة قبل طلوع الشمس الأخاذ، وانتظر حمرة الشفق مصفرة عند مغيبه، وأحياناً حتى غسق الليل.. أغيرُ المفالي^٥ وأعتاد المراعي.. كل يوم: دُروبٌ جديدة، وأشياء جديدة، وأشياء تبدو سهلة.. بسيطة.. ولكنها تحتاج الى من يستوعبها ويفهم مكنونها.. لا يسعه إدراكها إلا حكيم!.. "ما من نبي إلا وقد رعاها - تدخلت في الحديث

١ حرفة الرعي

٢ الذي يخالف لون أمها لون السخول والوبران منها

٣ أكثر من ١٠٠ من الضأن والخراف

٤ الثلّة = كثرة ملحوظة من الماشية

٥ أول ظلمة الليل بعد غياب الشفق

٦ المراعي البعيدة

معلقا - بُعث موسى وهو راعي غنم.. وبعث داود وهو راعي غنم، وبعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو يرعى الغنم.

وأكمل الوالد حديثه.. "وفي الرعي أشياء مثيرة تبعث على التحدي، بكل همّة وبكل جدية اتحداها دوما.. أتحدى كل تلك الإثارات على كثرتها.. وأجد متعتي في مواقف التحدي.. وفي تجلياتها... البحث عن الماء والكلأ للشيء يحمل تحديا مكرورا.. التعرض لخطر الذئب والفهود تحد قاتل.. ترقبك وحسبانك لغزوة بدوية تذهب بغنمك وقد تقتلك.. تحد للموت وتحدي للضياع^١ حتى أغنامك تتحداها وأنت تراقبها لتمنعها من رعيها الجائر^٢ فتعطل قدرتها على تسلق الأشجار لتلتهمها..! نومك في الخلاء أياما عديدة مع الأغنام في مراحها^٣ وفي ربوضها^٤ دون أن تعرف ما يجنّه^٥ الليل، وما يأتي به النهار يحمل كل تحديات الحياة.. كل حياتي الرعوية كانت تحديات متواصلة في كل يوم.. أتحدى.. فأُنجم^٦ الأجمة التي يقول الناس فيها أقوالا كبيرة عما تأويه من الجان: الولهان منه والسعلاة^٧.. فلم يحدث أن تراءى لي أي منهما.. أدخل الكهوف والمفر، وأنزل الغيران^٨ والأدوية، وأجوب الفلوات بحثا عنهما وعن عفريت

^١ ضياع الأغنام باستيلاء اللصوص عليها

^٢ اعتداء الشياه على الأشجار المثمرة فتأكلها

^٣ مكان استراحة الأغنام

^٤ مكان مبيتها ليلا

^٥ يخفيه

^٦ اقتحم الغيضة الكثيفة الأشجار والملتفة السيقان

^٧ أسمان لنوعين من الجان يظهران للإنسان بزي النساء... وتترأى السعلاة للرجال

^٨ الأراضي الواطئة السحيقة بين جبال متقابلة

يتخطفني دون جدوى، فما انخلع قلبي، وما سقط مني..! رأيت كل الصور.. صور مخلوقات الله وهي تدب على الأرض أو تطير فوقها.. سودّ وشقرّ ورقطّ وبيضّ وصفرّ وخضرّ.. جميع الحيوانات والهوام أعرفها.. عشت وتعمدت التعرف على هوام الأرض، وحشراتا وأجناسها بل والسوام منها: ما له من سم قاتل أو غير قاتل.. من القوام صدت القنفذ والشيهم^١.. وما أطيب لحمهما! داعبت جرو السبع، وذبح^٢ الضبع، وطفل الطائر وفطمات الماعز.. أطرب لثغاء الغنم ويشجيني ثؤاج الضأن^٣، أميز نيبب^٤ التيس من هبيبه^٥، وارتاح لصهيل الفرس^٦ وحممتهما.. أنفر واضحك من سحيل الحمار، ومن شحيح البغل.. لا أخاف وعوعة الذئب وأعرف تضوره إذا جاع.. أسرع لنجدة الكلب عند سماعي وفوقته لخوف داهمه! وأحدد مكان الثعلب عند ضباحه، فأنصب فخاخة ليكون وليمة لي في اليوم التالي.. أسمع فحيح الحية فأحددها ثم أتعقب فحيحها وهي تتساب فأتبعها حتى أقتلها.. تمثيلا لقول نبينا صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية". ثم يتابع الوالد حديثه ويجدد لي فيه: "مشيت.. ومشيت كثيرا مع شياهي في أيام صبارة^٧ الشتاء، وفي أوقات حمارة^٨

^١ يسير القنفذ مجتمعا متكورا يحمي نفسه مثل الشيهيم بأشواكه، والشيهم هو التيس يملك أسنانا شديدة القوة له القدرة على قضم العظام وأنياب الفيلة العاجية والقنان الزجاجية

^٢ جرو الضبع

^٣ الثؤاج والثؤاج هما صوتا الغنم السوداء والنعاج في الأحايين العادية

^٤ صوت التيس وهو يخاطب معزاه لثيهرها ويهيجها، والنيبب صوت التيس أثناء السفاد ويقابله يُنبب الرجل إذا هذى أثناء الجماع

^٥ عندما ترى مالكها وتستأنس به

^٦ شدة برد الشتاء

^٧ شدة الحر والقيظ

الصيف.. في عصف البرد. وفي قيظ الحر! أنا يا ولدي كل ذلك، حُدياً^١ الناس وغير الناس.. أتعمدهم.. فأباريهم في أفعالهم.. أو أبادرهم بما يدهشهم، وأنازعهم الغلبة والبقاء والمتعة.

وظل الوالد يفيض علي من حديثه عن الرعي إلى أن أضاف إليه ما يكشف عن مفهومه الفطري لهذا النوع من العمل الذي كان يعشقه: "كثيراً ما يقول الناس أقوالاً تكشف عن بلاهتهم، فتفضل حينذاك بل تتمنى أن ترافق الشياه الخرساء، وأن تعيش معها وتشاركها في سلوكها الذي ينحصر في شغلها الشاغل في البحث عن الغذاء والماء والأمان.. دون أن تدرك أشياء كثيرة أو تعيرها أهمية.. فهي لا تدرك تغير الدروب، ولا تبدل المراعي، ولا اختلاف الفصول لأنه لا يشغلها سوى الغذاء والماء! وأظن أن هذا - محاولاً أخذ موافقتي على ما يقول - "هو حال كل المخلوقات!"

"والشياه في خضم انشغالها ذاك لا تخاف إلا إثنين: من عدوها وهو الذئب، وممن لا تعرف من بني الإنسان.. فهي تنفر من الغريب الذي لم تتعود على رؤيته أو مواجهته.. تنفر منه ولا تتقرب إليه.. تلعب مع الأطفال وترتاح لهم وكأنها تعرف أعمارهم الطرية!"

"في سيرتي مع الرعي - يكمل الوالد حديثه - "كنت أرى صراع البقاء بين الأقوياء في صراع الكباش^٢ الشديد لباس وفي امتراس

١ الذي يتحدى غيره مع إصراره للغلبة عليه.

٢ جمع كبش وهو فحل الضأن

التبوس^١.. وفي استعراض الحضور والوجود عند الضعاف - في نطنطات العبران والجديان والقراقير^٢.. في مشهد مسل يدعو للدهشة والفرجة والعجب.. ترى ذلك إذا انتحيت عنها جانباً تتفرج وتراقب".

ولأبي تعليقات بديعة وتفسيرات ممتعة وظريفة يطلعنا عليها وهو يقارن - بأمثلة حية - بين جماعات الأغنام ومجتمعات بني الإنسان فيقول: "فلان - ويخص شخصاً معيناً يصفه بالجبن - من نجاج أم عيسى^٣!.. وفلانة - وقد ذكرها لي بالإسم - مثل الشاة العيوف^٤ - ترفض العيش مع أهل زوجها.. بل وبعد وفاة زوجها تتكرر لأبنائها منه فتتزوج وتسلاهم..! وللغنمة اسم تستجيب للنداء به إذا ما دعاها صاحبها أو راعيها، فتتلقى طعاماً كهديّة خاصة منه، فتبقى مرافقة له، تتقرب إليه، معترفة بجميله.. وتعرف أنها إذا ما بقيت قريبة منه لا يتعرض الذئب لها.. ولا تضيع.. والأغنام وهي تجري من مكان إلى مكان.. وتأكل أحسن ما تصادفه.. ترفع رأسها بين الحين والآخر لتتظر أين صار رفاقها وأين اتجاه راعيها.. جماعة الأغنام وقطيع الخراف يحترم المريع^٥، وكأن أفراد الجماعة أو القطيع تعرف تميزها الخاص عنها.. بل سرعان ما تمتثل

١ امتراس من الممارسة والمزاولة وهنا ممارسة القتال بين التبوس، والتبوس فحل المعز.

٢ في السنة الأولى من العمر من صغار الضأن والماعز، والقراقير = النجاج الضعيفة.

٣ كناية عن الجبن في ثقافتهم

٤ وهو أعجب ما نراه في مجتمع الغنم: فالشاة العيوف تنفر من طليها (ولدها) عند الولادة وتعاuf الشرب مع الغنم ... وترعى

الكلاب بعيدة عن جماعتها ...!

٥ كبرى النجاج يديرها الراعي لتكون قائدة للقطيع.

الشيء للتيس الفائز في الصراع فتلتف حوله^١ وكأنها تهتئة بالفوز مقدرة شجاعته.. اسمح لي يا أبي أن أضيف إلى كلامك الشيق هذا كلاماً من كلام الله في هذا المقام، قال تعالى عز من قائل في سورة الأنعام آية ٣٨: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم..".

١ بل شبه شاعر قائداً عربياً في الشجاعة بالتيس: "أنت كالكلب في حفاظك للود ♦♦♦ وكانيس في قراع الخطوب".

(٤)

وفي المشايعة.... فقه

يفاضل الوالد بين الرعاية وبين المشايعة.. بين رعي الأغنام ومشايعة الإبل فيقول: "ما شايعت البل^٢ مرة.. تعاملت معها ولم أحبها، لا أطيعها لطول صبرها، ولصغر حلمها.. تتحمل ظلم الإنسان.. هينة لينة! رغم قوتها وشدتها.. لينة حتى مع الطفل.. تتقاد له: وإن نوحها^٣ على شوك أو على صخرة.. استأخت!"

كان كلامه عن الإبل يشير إلى أنه لم يكن على ود معها أبداً.. بل يؤكد أن كل ما يرتبط بالإبل إنما هو مدعاة للغلبة والتعب ومن أسباب الهلكة وجهد^٤ البلاء، ويعطي الأمثلة فيقول: "في وقت حصاد القمح يقوم الجمال كل صباح بعد إطعامها- بتجهيزها للنقل والترحال، فيبدأ بحزام الإبطان، ويمضي في شد وتره والجمال يهدر حينها، ويقبقب^٥ أحياناً، وبعد ذلك يتأكد الجمال من وضع اللب^٦ على صدر الجمال، ومن وجود الثغر تحت الذيل، والجمال يرغب ويَزِيد.. ثم يستطرد في كلامه.. "حي جه.. من

١ رعي الإبل

٢ الإبل مخففة

٣ أبركها

٤ حال وصل فيه الإنسان طلب الموت ...!

٥ يزيد من ارتفاع صراخه.

٦ حزام يشد على صدر الجمال.

فمك.. تأمره بها وهو متنوخ^١ ليقوم.. فيستعصي في كثير من الأحيان وخاصة إذا كنت تحمل عصي.. فلا يتحرك ورغاؤه يرتفع حتى تظنه يريد أن يفترسك، فتدعن له وتتخلي عن عصاك.. ناهيك عن البعران^٢: سقبها وحوارها وبكرها^٣، وهي الجمال الصغيرة، فإنها لا تستجيب لك.. ولا تبرك على مجثمها الذي تريده أنت إلا بعد معركة عنيفة معها، تتخلل تلك المعركة جهاد عندها عنيد، تُرغى^٤ فيه وتُزبد بشكل متواصل قد تتقيأ فيه على وجهك وأنت تحاول أن ترغمها على البروك.. حرونها^٥ شديد، وهروبها سريع.. لا أحد يستطيع اللحاق بالبعير أو القبض عليه..!

وإذا حدث وتعارك بكران من الجمال، فلا تنتهي المعركة بينهما إلا بتدخل مجموعة من الرجال أو الرعاة مسلحين بالهراوات لينجحوا في الفصل بين الخصمين بعد قتال شرس طويل.. وإذا تأخر تدخل الرعاة، يمزق الغريم غريمه بالأنياب في كل أنحاء جسده.. في الرقبة.. في الفك، في الفخذ.. فينز الدم من جراحهما ويتلوث به جسماهما^٦!

يعود لتحميل الجمل فيقول الوالد: "بعد التأكد من الأحزمة المتعددة في الأماكن المخصصة في جسد الجمل.. يتم تجهيز الجمل بحمله الثقيل،

١ بارك على الأرض في المناخ.

٢ جمع بعير وهو الجمل الصغير.

٣ السقب في عائلة الجمل بمثابة الصبي في عائلة الإنسان والحوار في منزلة الولد، والبكر في منزلة الفتاة.

(٤) ترغى: تصدر صوتاً يضح منه السامع، وتزيد الإبل أي يخرج بصاقها الأبيض فتتلطخ بها مشاferها. والجمل لا يرغب إلا عن دَل واستكانه.

(٥) عدم انقيادها لصاحبها.

يغمزونه^(١) بالوقوف.. وعندما يبدأ بالنهوض تهرع الجماعة من الرجال لتخفف عنه الأثقال.. يضع الواحد منهم كفه تحت العذل يرفعه - ومعه رفاقه يرفعونه إلى أعلى- .. عندما يقف الجمل بصدرة تمسك عصبية الرجال الحمولة من أطرافها الخلفية تدفعها إلى الأمام حتى لا تقلت الحمولة إلى مؤخرة الجمل.. وعندما ترتفع مؤخرة الجمل إلى أعلى يرفع الرجال الأعدال من أطرافها الأمامية إلى الخلف حتى لا تنقطع "أذنابة الجمل"^(٢) فتتزلق الحمولة على رقبتة.. لم تنته العملية بعد..! فبعد أن يسير الجمل بالعدلين واقفاً.. يخطون به خطوات، بينما يتفحصون الأحمال من جميع الجهات أثناء سير الجمل.. يوازنون الأعدال ويُرخون الأحبال أو يشدونها.. يعقدون حبالاً إنحل من هنا.. أو يزيّدون في شدة آخر ارتخى في ناحية هناك.. أو يستبدلون حبالاً إنقطع.. كل ذلك حتى يضمن رفاق الجمل من بني الإنسان موازنة الأعدال والأحمال والعلائق عن يمين وعن شمال.. هذه الأحمال لا تأخذ وضع الاستقرار النهائي على ظهور الجمال إلا بعد أن تسير بها ساعة من الزمن على الأقل، وبعد أن تعرق ظهورها.. تحتها.. لذلك تظل الجمال المحملة بالأثقال تحت المراقبة والإصلاح.. والتعديل طيلة الرحلة..!"



(١) يضعون أيديهم على ظهر الجمل الجائم يستحثونه على النهوض .

(٢) الحزام تحت ذنب الجمل.

لكل أناس في جملهم خبر^(١)

وحديث الوالد لي له صفة التماسك دائماً - يعطي لكل مقام مقال له بلغة أهل الإبل - حديث يجر حديثاً، وكلام يستذكره.. فيذكره بكلام آخر يترابط معه.. حقاً كان حديثه ذا شجون وفنون، فيه وجهات نظر وآراء وأفكار.. كلها مترابطة..!

"تغيظ أصحاب الإبل طريقة بول الجمل".. الوالد يستمر في حديث جديد عن الإبل.. "الجمل لا يبول مثل الحمار أو غيره من الدواب التي تبول واقفةً ومباشرةً تجاه الأرض.. وإنما يبول الجمل في الهواء..! يبول على شكل زخات بولية صغيرة منفصلة بعضها عن بعض، تدفع الزخة منها طاقة دفع داخلية في الجمل، فتخرج الزخة كالطاقة باندفاع شديد، وكأنها مصوبة بعناية فائقة نحو هدف ما.. والويل لمن يسير خلف الجمل عندما تصفع وجهه زخة بولية بشكل مفاجئ! فتلطم عينه حرقه شديدة.. أو تسافر الزخة مسافة بعيدة فتلطح جُدَرٍ مرابضها^(٢) وتجعله في وضع يزيد من صعوبة تنظيف تلك الحيطان مما يبالي في نَتْنِ مواضع إقامة الإبل".

ويستكمل الوالد حديثه : "بيلة"^(١) الجمل هذه تستغرق أكثر من ساعة، ومقسمة على عدد لا يحصى من الزخات، تمرق من بين رجلي الجمل بشكل ينضبط مع حركة الذنب، بحيث تنفذ الزخة الأولى عندما يكون الذنب على اليمين مثلاً، وتتبعها الثانية فتمرق عندما يستقر الذنب إلى اليسار.. فلا يعطل الذنب إندفاع الزخة إبدأ..!

"حقاً" بادرت بالتعليق على حديث الوالد - إن في الجمال من عجائب الخلق والتكوين الشيء الكثير.. وقد أشار الله إلى ذلك في قوله : "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت..!" وانتهزت الفرصة وسألت أبي إن كان قد حضر مشهداً جرى فيه تلقيح جمل لناقة أو فعل^(٢) لصلوص^(٣). ثم أضفت إلى حديثي معه : "لقد سمعت من الناس المتعارفين^(٤) أن الجمل لا يقبل أن يمارس عملية تلقيح أنثاه إلا في خلوة تامة لا يزعجهما فيها أحد.. بل يهجم على المتطفل عليه في خلوته أو على مختلس النظر إليه..!"

فقاطعتني الوالد مشيراً: "هذه أكاذيب وادعاءات، أطلقها الذين يمجدون الإبل تمجيداً تغشاه المبالغة في التشريف والتقديس.. وما الجمل إلا حيوان مثل غيره من الحيوانات.. ثم قام بسرد قصة "الجنس" عند الجمل والناقة:

(١) بال ، يبول ، بولاً والإسم بيله.

(٢) الفحل = هو البكر في عائلة الجمال يبدأ التلقيح عند ست سنوات من عمره وهذا أكثر التوقيت قبولاً عندهم.

(٣) الصلوص في عائلة الجمل هي الجارية أو الفتاة في عائلة الإنسان وتلقح لأول مرة.

(٤) المتعارفين = الذين يدعون المعرفة.

(١) أصحاب الجمال أكثر دراية ومعرفة بطباعها وعاداتها ... وبالمعنى العام: الناس أدري بأمورهم.

(٢) مكان إقامة الجمال وبيئاتها.

لا يتوقف الجمل عن شم المنطقة التناسلية للأنثى.. في كل الفصول وليس فقط خلال هيجانه في التلقيح في الشتاء والربيع.. بل ويُكْرِفها^(١) كلما صادفها وتمكن منها.. ولا ينفك يرفع رأسه عالياً كلما رآها، ويفتِلُ شفته العليا إلى الخلف.. ويكمل مغازلة أنثاه فيعضها عضة - وقد تكون قوية - قرب منطقتها التناسلية أو خلف السنام.. فيسيل منها الدم! والفحل في أثناء كل ذلك يظل يطلق هديره الذي لا يتوقف.. وإذا ما اشتد هيجانه أبرز شِقْشَقَتَهُ^٢، وحك قذالته^٣ بكتفه، ويمرر أنفه على رأس الناقة وجانبها حتى يصل إلى منطقتها التناسلية، فيفرك أنفه ويحكه بها..! فتستجيب له الأنثى، تستجيب لهذه المغازلة وتظهر رغبتها ورضاهها حيث تقوم بفحج أرجلها الخلفية ثم تتبول ببطئ أمام الفحل، مُبْدِية أعضائها التناسلية، وتحك جانبها بجانبه فتزيد من هياجه.. فتبرك.. تبرك الناقة تلقائياً موجهة ببوصلة غريزتها..

شهوة الضراب العنيدة في الفحل تدفعه فيبرك بقوة فوق الناقة الباركة.. مستنداً على أطرافه الخلفية، وصدره مُسْتَدّاً على ظهر الناقة، يثبتها ويسيطر عليها بأطرافه الأمامية وهي باركة.. حتى يخيل للمشاهد أن أضلاع الأنثى قد تكسرت.. والناقة ترسل العويل.. ترغى.. وتزيد.. وتستغيث.. وتتقيأ كتلاً من الزيد المنفوش.. ويصل عويلها إلى داخل

(١) يشم بولها ويمررها

٢ لهاء في حلق الجمل

٣ قذالة الجمل = مزخرة رأسه

البيوت القريبة والبعيدة.. فيهرع الأطفال والنساء.. ومعهم الرجال للفرجة..! بل أبعد من ذلك: فإن كثيراً ما يعيق ذنب الناقة دحس^١ مقلم^٢ الجمل في حياء^٣ الناقة الهائجة، فيمسك أحدهم الذنب.. ذنب الناقة إلى أعلى.. ليساعد قضيب الجمل على الإندفاع بين الشفرتين إلى داخل المهبل.. فلا الجمل غاضب ولا الناقة خجلى.. كان المشهد فظيلاً أصاب فيه الغثيان بعض المشاهدين.. وتقياً آخرون.. قلة من الإناث من أحست بالخجل.. أمام الجمل وناقته اللذين غابا في مراغ الشهوة، يستمتعان بشبقهما^٤، وإشباع^٥ غلمتهما.. وعلى غرار الفحل وأنثاه كان حال نساء القرية وأزواجهن في تلك الليلة: كانت ليلة تباعل^٦ ونكاح، ليلة دَحْبٍ^٧ وهرج، وعَزْدٍ^٨.. ونام فتیان القرية.. ذكوراً وإناثاً.. وقد اختلطت أحلامهم بمخلفات ذلك النهار المنصرم.. فَحَلَمُوا.. بحديث^٩ العروسين..

١ الدفع بنف على سبيل الاستحواذ واللذة

٢ عضوه التناسلي

٣ فرج الناقة

٤ شدة الرغبة فيها النكاح

٥ تحقيق لذة النكاح كاملة

٦ الملاعبة بين الزوجين طلباً للجماع

٧ ليلة أكثرها في الجماع

٨ النكاح بشدة وغنف

٩ المغازلة الأولى للموسمين قبيل النكاح عندهما في ليلتهما الأولى

(١)

حكومات العشائر

عندما عزم ماجد الغرباوي الرحيل إلى الغرب كان الأردن يعاني فوضى الحكومات المحلية منذ الاحتلال البريطاني!

ثلاث حكومات: في الكرك والطفيلة حكومة، في السلط حكومة، وفي إربد حكومة.. تضم جبل عجلون بقبائله وبأفخاذها.. بني جهمه والكفارات وبني عبيد، والشريدة، وانقسمت هذه بدورها إلى خمس حكومات محلية: دير يوسف، وعجلون، وجرش، والرمثا، والوسطية..

فزاد ذلك من صعوبات المواصلات في البلاد، ومن استفحال الخصومات بين القبائل..! أمام تلك الحال فكر أبو عبد الله في استئجار جمل وفي أن يصطحب صاحبه معه يدلّه على الطرق الآمنة في عودته إلى الغرب عبر أراضي حكومة الشمال في إربد. وأبو عبد الله - كما حدثني - كان يعلم أن كثرة الحكومات في الأردن حينذاك إنما كانت وليدة السياسة الإنجليزية في إدارة البلاد: في فلسطين وفي الأردن! وكادت ذاكرة أبي عبد الله أن تسعفه بإسم الإنجليزي المسئول الذي زرع بذور الفتنة والفرقة بين العائلات في البلاد... واتبع سياسة فرق تسد.. فمزق البلاد.. وشتت العباد. كان يقول أن اسمه قريب من اسم البس.. ألهر،

فذكرته: "هربرت صموئيل"^(١) اسم سمعه مراراً وهو يتردد على مسامعه عشرات المرات في موقف لا ينسى أبداً.. أسعفته ذاكرته النشطة في الحال عندما استعاد ذكرى تواجده في السلط في فصل ربيع الكلا، يعمل لعدة بيوت في المدينة العامرة والمزدهرة حينذاك يرعى ماشيتها السمراء والبيضاء.. حضر ذلك اللعين إلى المدينة ليقوم بنفس الفساد الذي قام به في فلسطين يزرع بذور تفكيك البلاد والقضاء على الموقف الموحد لها وعلى زعامتها مستقبلاً وذلك عن طريق إنشاء حكومة محلية من المتفاوضين مع الاحتلال من أصحاب البلاد الكثر الذين غالوا في ارتباطهم بسلطات الاحتلال دون ضرورة!

جاء إلى السلط بصحبة مجموعة من ضباطه ومعاونيه وألقى خطاباً سياسياً في ساحة كنيسة.. قوطع خطابه حينذاك عدة مرات مطالبين بالاستقلال والإفراج عن كل من اعتقلهم عقب أحداث النبي موسى في الشهور الأولى المنصرمة من ذلك العام.. فاضطر منصاعاً وراغماً الإفراج عنهم^(٢).

(١) يهودي وصهيوني وأول مندوب سامي بريطاني في فلسطين، وصل البلاد في مارس ١٩٢٠، وهو خالق مسألة التوازن العائلي في البلاد.. فمثلاً: وزع المراكز الهامة: البلديات، والإفتاء بين عائلة الحسيني وعائلة النشاشيبي ومثل هذا في كافة مدن فلسطين، ثم تجول في الأردن داعياً لتكوين حكومات مستقلة.. فهو أشد الذين شقوا وحدة الأمة و فرقوا كلمتها...
(٢) ومن بين من أفرج عنهم عام ١٩٢٠ الحاج أمين الحسيني مفتي وزعيم فلسطين ومعه عارف العارف المؤرخ الفلسطيني المعروف وكان قد هربا وطلباً اللجوء عند قبيلة الخرساني عقب أحداث النبي موسى... عام ١٩٢٠م.

(٢)

العزم على الرحيل

حكى أبو عبد الله عن رحيله من "الكواكب" فقال: عزمت على الرحيل إلى الغرب، وتعجلت السفر وكأنني فجأة بدأت - وبغلو شديد - أتفهم باقتناع أهمية عودتي إلى أرض الجدور.. وبدا لي أنه لم تكن هناك ضرورة لأية مفاضلة، أفاضل فيها بين استمرار المقام.. وبين تعجيل الرحيل.. المقام في أرض فقدت فيها الأعز من بين خلق الله عندي، وبين بلاد تضرب فيها جذوري في البعيد.. بعيد في ثريتها بُعد غور التاريخ.. منذ الأجداد والأمهات ومن بعدهم الأحفاد والأسباط^(١) والأبناء.. يعود لنا فيه من جديد انتماء حقيق.. إلى أهل.. وإلى عشيرة.. وإلى أرض.. وسماء.

تعجلتُ سفرنا إلى الغرب.. لقد خشيتُ من تقدم السن بي ما يضعف عزمي على الرحيل.. أو يُنبِتْ همتي.. وقد رأيت كيف يُبلى الحزن كما تُبلى الثياب.

بين شاكٍّ ومصدقٍ ناجيت النفس: هل حقاً سنرحل..؟ نعم.. سنرحل.. لقد دقت ساعة الرحيل.. فخفق قلبي معها ألف خفقة، وارتجفت فيها كل عظمة من عظامي ألف رجفة.. ودمعت عيناي ألف ألف دمعة..؟

(١) الأسباط: أبناء الأحفاد.

داهمني خوف شديد، على غير عادة، ودون توقع.. خوف من ماضٍ عشته مضى وانقضى.. ولكنه ظلّ عليّ لا فكاك منه..! خوف من كل مجهول.. كامن في كل غيب^(١)..؟

سرح فكري في أيام العمر التي عبرت فطوأت، تحويني في مسارح التواصل، وفي مواقف الجدل والصراع في خضم هذا الكون العجيب! وبالشجون والحبور^(٢).. في ذكريات عبرت أفق الخيال.. تعددت - حتى حفرت مكانها في الوجدان - لا يبوح بها أبداً. في أحلام وأمنيات تحقق منها القليل من الأقل.. وأخفق الكثير.. داهمت فكري آهات مدوية.. لم يعد لها ذلك الصدى المألوف، وإن كنت لا أزال أحس بها في دقات قلبي.. ورجفات عظامي وفي قهري وأشجاني.. ماذا بعد هذا العمر^(٣) كله في "الكواكب".. هل يمكن أن تطوى كل تلك الصفحات.. ووأد كل تلك الذكريات؟ أيمكن أن يحدث ذلك؟ فترتدع فينا الحواس كلها.. فلا نعود نشأق لتكرارها.. أم سنظل في حنين متواصل، متوقية ماضية باكية.. حزينة لفراقنا..؟

لا بد أن تشرق الشمس من جديد.. لا بد من أمان وأحلام.. لا بد من سعادات تنتظرها.. نطرق أبوابها.. إنها الحياة.. لحظات صدق.. لحظات أمل وعمل.. وقدرة واقتدار.. وإرادة وانتظار!

(١) الغيب: الظلمة الشديدة.

(٢) الشجون: الأحزان مع الخوف، والحبور: السرور والرضى.

(٣) ٣٥ عاماً كان عمر أبي عبد الله عندما عزم على السفر، وعاش أبوه عبد الله ٥٥ عاماً في بلدة "الكواكب".

و ذات مساء أفضت إلى زوجي بذات ما عزمْتُ عليه.. فتلقت الخبر أولاً
بتحفظ وفتور.. وكأنها قد فوجئت به قبل الآوان.. وهي على يقين أنه لا بد
أت. فبدت عليها شوائب التردد، تشوب قسماً وجهها صور حركية
كثيرة غير معتادة.

سرعان ما عادت إلى نفسها.. وكأنها قد فطنت لأمر مخيف. وكأي
أنثى تابعة، رضخت..! وأبدت ترحيباً بالأمر بين دموعها وبين اختناق
صوتها..

علانا الوجوم.. صمْتُ بلا كلام.. وعلَّتنا كآبة.. سرعان ما قشعت^(١)
كل ذلك عني.. فشحذت إرادتي.. وطهرتها مما قد علق بها ومما يُضعفُ
العزم على الرحيل.. أو يُعيقنا عن تنفيذ أمر تعلقتُ به نيتي!

استفسرت من أمك عن سر سلوكها بصورة مُحبطة أولاً نحو الرحيل!
فأكدت أنها خشيت مما قد تثير أمها من أزمت نفسية أو صحية أو أية
معوقات أمام السفر الطويل.. والبعيد..!

طلبت من والدتك أن تخفي أمر الرحيل عن والديها في زيارة الوداع
فوافقت..!

اقتصرت اللقاء بين الأم وابنتها على تهالك الثانية على أمها "عليه"،
تعانقها بين الفينة والفينة تمطرها بقبلاها بين الحين والآخر تطبعها فوق
مواضع في جسدها، تحضنها إلى نفسها، على صدرها بتماس شديد،

(١) طردت وتخلصت.

وبين عضدين بضغط وحنان.. تتبادلان الاحتضان والإلتصاق.. فلا تدري
فيها من الحاضنة ومن المحضونة آثار ذلك دهشة كل من كان في الدار..
الأخوة والأخت والأب وغيرهم..

طمأنت أمك الجميع أنها قد رأت حلماً لشيخ مهيب يطلب منها فيه أن
تزر أمها اليوم.. وتُظهر لها بإصرار وبقوة: حبها الكبير.

لم تطل الزيارة.. وفي بيتنا.. في تلك الليلة.. لم أنعم بنوم أو سكون
نفس.. شعرت أن ما أفارقه قد انهار وانتهى إلى لا شيء في لجة ما لانرى
ولا نحس.. وكأن حياتنا السابقة كانت خيلاً وحدثاً.. حياة قد غارت في
دورات الزمن^(١).. الزمن الذي لا يذر، ولا يترك الحياة والأحياء من غير
مور^(٢).. أو طور..

في ساعات الفجر.. انتابني نغاس شديد، فتقل رأسي فهجعت^(٣) ثم
أفقت بعدها بين النائم واليقظان، اسمع كلام من حولي في غير تبين^(٤)
أو اكتراث فعدت إلى النوم واسترسلت في رقادي^(٥).. حتى استوت الشمس
في سرة السماء.

(١) الزمن كل ما في الدنيا من حياة وأحياء... جيئاً وذهاباً، ووجوداً وعدمًا.

(٢) حراك وتجدد وتطور.

(٣) نمت قليلاً.

(٤) وضوح.

(٥) نومي الطويل.

وكانت هجيرة ذلك النهار أواخر أيام التشارين^(١)، بدا كل شيء وكأنه قد مال إلى الهدوء، لا يشوب هدوء الطبيعة فيها إلا تتابع سقوط أوراق الشجر.

أخبرت أمك أنني في طارش^(٢) بسيط وقريب.. وسوف أعود لنبدأ الرحيل..

(٣)

ودّع^(٣) في الوديع

عطف "ماجد" على قبر أخيه، توتد صامتاً واجماً طويلاً أمام الضريح فغلبه البكاء، وكأن الميت قد فرغ من إلحاده في قبره لتوه: أجهش في البكاء، ثم انتحب وانتحب حتى غلبه التعب والقهر فركع متخاذلاً... لا يدور ولا يحور... حتى عاد إلى نفسه المتضعضة الهالكة.. وبدأ يناجي الملحد المفقود...

سلام عليك يا أخي..! سلام عليك يا رشدان.. سلام عليك من رب رحيم.. سلام على شبابك سرعان ما أفلَّ وغاب..

حَمِيمِي.. إياك ثم إياك.. أن تظنَّ أننا قد نسيناك..! أو قليناك^(١)..

أو أنك قد قضيت غير فقيد.. أو غير حميد.. واللَّهِ! أننا لمُكترثون، وحزينون..! أمك بُعِيدَك بأيام قضت نحبها.. تجاوزك.. لحدك عن لحدها غير بعيد.. أختك مكلومة تبكيك نهارها.. وتستصرخك ليلاً.. وأخ لك شقيق.. لو بحث له باسم قاتلك لجعل لك عليه عهد لصيق.. أن عهدك لك عليه لصيق.. يشفينَّ من غادرك الغليل..! ولكان طَلَبُ دمك همِّي الملازم لي.. مجراه في دمي.. والمَلْحُ علي.. والدائم معي لا أصبر عليه.. ما بيننا وما بين القوم الغُرم.. هدنة على دَحْن.. لا صلح ولاسلام حتى أدرك نُورتي فيهم.. أي ثأر.. يا رشدان.. هو الثأر المنيم^(٢)..

هذا هو عهدي لك.. تشهد علينا الأرض والسماء، والشمس والقمر، والنجم والشجر، والفجر والسحر.. والنهر والبحر.. والماء والهواء، والرياح والأفق.. والريح والشفق.. كلها تذكرني وتشهد علي.. تذكرني برجولة مجروحة، وبكرامة مهانة، وبإباء مثلوم وفقدان مأزوم.. تذكرني بشهوة الانتقام. بغريزتي الفطرية، هذه الغريزة إعصار يهيجني ويستبد بمشاعري.. وكأنني أسمع صراخاً وأصواتاً تطالب أن أبدأ حربي حتى يتذوق قلبي.. جدة ومعنى.. لا طعم ثأر.. ولا مذاق شهد..! ولقد رفضت..

(١) أبخضناك.

(٢) الثأر الذي يكون كفؤاً للقتيل إذا أصابه طالب الثأر رضي به فقام بعده.

(١) تشرين أول وثان تبدو الطبيعة امتضرة أي هادئة. وهذا في ثقافة البدو والريف المتطور عنها..

(٢) مشوار قريب

(٣) الثأر الذي يكون كفؤاً للقتيل إذا أصابه طالب الثأر رضي به فقام بعده.

واحتفظت باسم قاتلك.. وأبيت إلا أن تتأثر لنفسك بنفسك.. أحسبتك عند الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أخي رشدان! لقد طوي بساط عيشنا في هذه الديار، وهي ديار غربة، ودار جفا لأهلاً.. النفس يا رشدان طابت للرحيل.. هذه الفطرة التي فطرها الله فينا معجونة بالحنين إلى الوطن الأصيل.. جئتكَ أستئذنيك بالرحيل، والعودة إلى بلاد الأجداد والآباء.. فوالله إن عُسْرنا في دارنا أَعَزَّ لنا من يُسْرنا في الغربة.. في الغربة خسرتك.. وفي الأوبة قد نسلاك.. يا شقيقي..! إن بُعد المقام عن المقام، فإن الروح من الروح قريب!

"قفلت عائداً من زيارتي لقبر أخي عصراً، وبدت لي الزوجة والبنات وقد تهيئن.. وفي السماء يظهر قوس قزح، قد تقوَّس.. فاستبشرت والعائلة بالسفر..^(١) "إن قوست باكر، إحمل عصاك وسافر!" قول يردده أناس ذلك الزمان.. الوالد يتمم حديثه لولده..: "في أيام سبقت يوم الرحيل ذاك كنت قد أتممت صفقات تجارية بعث فيها كل نعاجي وغنمي، وبقرتنا الوحيد مما أضاف مبلغاً من المال طيباً مباركاً إلى ما في حوزتنا، استعداداً ليوم الرحيل وما بعده.. لم يكن هناك ما يُورَث أو يُورَث..! "وبيت بلا ورثة يريح الوارثين".

(١) يبين قوس قزح أناس ذلك الزمان أن المطر غير محتمل يوم ظهوره.

تخففت من الأهبة لسفري ما استطعت.. ولم نحمل من المتاع الخفيف أو الثقيل إلا ما أشعر بمسييس الحاجة إليه، واثقاً أنني واجد في كل بلد ما نقضي به حاجات العيش فيه".

"توجهنا إلى دور أهلنا.. إلى بيت الأخوة فودة وشقيقها وإلى بيت الشقيقة في دارتها.. وكانوا وسط دموعهم وصراخهم يتساءلون – بأصوات وما هي بأصوات.. إلى أين سائرون؟ ومتى نحن عائدون؟ والله ما من مسافر يدري ما الله صانع به..!

(٤)

الرحيل

"ولما تَبَدَّ للرحيل جملُنَا الأنف^(١)، وَجَدْنَا بالسير، فاضت المدامع..
سافرنا في لجة^(٢) الليل، لا نلو على شيء.. ولا نبتغي إلا رحمة الله
بالمسافر.."

كان أبو عبد الله مليئاً حينذاك بفتوة الرجولة.. في الخامسة والثلاثين
من عمره مفتولٌ مجدول.. قوي الشكيمة.. حاد الطبع سريع الغضب.. وفيه
مع ذلك بَرٌّ "بأهله ورقّة" لهم.. فاستأجر الجمل ورحّل لها البعير بحيث
حملها عليه وجعل معها ابنتيها: "مدلول" ذات الأربعة أعوام، "ودلال" ابنة
السنتين.. في حجرها وبجوارها، يقوده هو بنفسه تارة، ويقوده صاحبه
أخرى، وهو هَيِّن لَيِّن في انقياده لهما في سيره.. وفي إناخته..

لم تكن حتى ذلك اليوم، أية سكة حديدٍ قد مُدَّت في البلاد، ولم
يكن السفر بالسيارة بالأمر المألوف.

استمرت العائلة في سيرها غرباً طوال ليلتهم وشطراً من نهارهم التالي،
حتى تعبوا بعد أن طووا من الأرض في ليلهم الأكثر من الطريق.. وقرروا
الاستراحة وقد بدت لهم من بعيد صخرة وكأنها العريشة فأتوها.. وكان

(١) المطيع المبارك إن قدته انقاد وإن أنخّته على الشوك أو الصخر استناخ.

(٢) سير الليل كله.

لها شيء من الظل، فأنأخوا جملهم وناموا قيلولتهم^(١)، ورفضوا عن أنفسهم
بعض ما أرهقها من وَصَبٍ^(٢). ونالوا من الطعام كان في سفرة في جراب
فاستعادوا قوتهم، وجدّدوا صبرهم..

يقول في مواصلة الحديث عن سفره مع زوجته وابنتيه: "شَرِبَ الحليب
كان لازماً لنا، نشربه في الصباح والمساء وفي أي وقت أردناه.. وخاصة
الصغيرتان.. فالتمست راعياً.. قادماً من بعيد، رجل في غنيمه^(٣).. يسوق
أغناماً رأيته يطلب الصخرة ذاتها يريد ظلها الذي أردناه.. فلما وصل -
وقد لا حظ أن هَمَمْنَا بالرحيل.. سألته.. هل أنت حَالِبٌ من أجل الصغيرتين.
فرحب وأنعم وأكرم، فاختر شاة وقدمها لي فأخذتها، ونفضت ضيرتها،
فتجاوبت الشاة فاجترت ودرّت في إناء كبير قد جهزته لهذه الغاية فشرينا
حتى رضينا..

ساروا ومطيتهم تخبُّ^(٤) لهم وتضع^(٥).. وكلما أصابهم الركوبُ أو
السير بوهن.. نزلوا منزلاً واستراحوا فيه فظلوا في مسيرتهم العصبية في
اطمئنان خاطر، وفي رباطة جأش.. فمهما صنع بهم الزمان أو المكان فلا
زيادة لشيء فوق ما أصابهم..!.. يسألون أي غادر ورائح، يقطعون الأرض

(١) نوم الظهر.

(٢) مشقة وهي أكثر من التعب.

(٣) في غنم قليلة.

(٤) تسرع وتبطئ.

(٥) تسرع وتبطئ.

شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً تجاه فلسطين.. مقلّين قدر ما استطاعوه^(١).. من السؤال عن غير الطريق..

ظلوا في طريقهم غرباً حتى جسر المجامع بين بيسان وطبرية، وكان حينذاك الصلة الوحيدة بين شرق النهر وغربه. وهناك فارقهم الجمل.. وصاحبه..

وصلوا إلى مشارف منخفض الغور في الضفة الشرقية لنهر الشريعة^(٢) الذي يهبط وسط سهله الفيضي منذ عصور التأريخ القديم، تجدد الفيضانات السنوية سهله دائماً بتربة وبكميات عظيمة من المواد الطينية العالقة في مياهها في حالة الفيضان مما جعل تلك المنطقة تزدان دائماً بشريط أخضر كثيف من النباتات الطبيعية على ضفاف النهر، وبأشجار الحلفا والصفصاف والبوص والدُفل والقُصيب وغيرها^(٣).

ويزيد في جمال المنطقة الفتي المتمثل في أصناف لا حصر لها من النباتات الطبيعية اختلاف التضاريس: أودية، وهضاب وجبال، بحيرات، وأنهار..

حدثني الوالد وأطنب في حديثه عن جمال تلك المناطق. وخاصة في الربيع حيث ترفل الأرض في جمال لا حصر له تضيفه شقائق النعمان^(٤)

(١) استطاعوا، قال صلى الله عليه وسلم: "السؤال مذلة حتى عن الطريق أو كما قال".

(٢) الشريعة: مورد الشاربة التي يشربها الناس أي يأتونها هم ودوابهم فيشربون منها ويستقون.

(٣) اجتمعت كلها خلال خمسينيات القرن العشرين.

(٤) قيل النعمان اسم الدم وشقائقه أي قطعته فشبهت حمرتها بحمرة الدم.

ونرجس الرياحين، وشومر الجبل، وقرن الغزال وذنب الفرس بخيطانه الفضية وشفافيتها وخفتها، وطاراوتها..

(٥)

الوصول

عبروا النهر.. فوق الجسر الذي كان قد أقيم فوقه للانتقال إلى غرب النهر منذ القدم، وقبل بناء قرية المجامع على ضفته الغربية في بلادنا فلسطين. ومن فوق الجسر يتجلى للرائي عنف نهر الأردن في تياره وشدة انحداره.. وسرعة قلبه لتتاهي سرعته.

عبروا إلى الضفة الغربية، وفي إحدى الأبنية من الخرائب الأثرية القديمة والمنتشرة حول القرية باتوا ليلتهم، يلبون حاجاتهم الجسدية ويظهرون أبدانهم بماء الشريعة. فاسترحن: الأم وابنتها، وبِشْن وهن يحلمن بالوصول وانتهاء الشقاء.. أما رجلهم فلم يداعبه الكرى إلا قبيل ظهور نجمة الصبح، عند صبح العتمة وأوائل الفجر.. لقد انتاب الرجل هاجس لا يرحم.. لقد أصبح فرداً وكأنه قد تقطعت جذوره تماماً.. إنه الآن ذاهب إلى بلدة له أقارب فيها، لا يعرف عنهم شيئاً - وهم كذلك عنه - شأنهم

في ذلك شأن الغرباء.. الزمان يُلهي.. والمكان يَسْخَرُ.. والناس يتلهون بسباقات ماراثونية^(١) حياتية.. فيفوزون.. وما أكثر ما يخسرون.. وبدأت تلايف الذاكرة عنده تخرج من بين طياتها كل ما يُذكره بأنه كما كان غريباً هناك فهو لا يزال غريباً هنا..! ومع ذلك تظهر "العودة" على لسانه وفي قلبه، فهي عنده دُكْرَةٌ وشُعُوف^(٢) يعود وقد تقدم العمر به، وبدأت الشعيرات الفضية في غزو الرأس، والتجاعيد في التسلل إلى الوجه، وبدى له كما لو أن الحُضْنَ الدافئ.. ومسقط الرأس ووطن الأجداد والآباء.. يسخر منه، ويهزأ.. وهو يرى تلهفه أخيراً في العودة إليه مع أسرته آملين حَقْنَ الأحلام في شرايينه، والآمال في ترابه، والأمان في أزهاره.. فهل سيتحقق ذلك..؟

اتجهوا جنوباً وغرباً يلتمسون الخَمَرَ^٣ ليحموا أبدانهم ورؤوسهم من المـأر، وإن بدا في أول أمره خفيفاً.. في الطريق استعانوا بكروسة يجرها بغل.. وصاحبه يسوطه^٤ بين الحين والآخر، فتزداد سرعة العربة والفتاتان الصغيرتان مأخوذتان بحركات الشاحج، وهو يُباعد بفعل السوط بين خطاه فيتوسع في جريه..

تخلصوا من الكروسة عصر ذلك اليوم عند بناء أثري يقع شمال قريتهم، في قُبَّة ترتبط باسم "عبد العزيز"، فاستراحوا هناك ثم واصلوا

(١) في التكاليف على العيش بسباقات تتطلب القدرة على الصبر والاحتمال.

(٢) الولوع بالشئ حتى لا يعدل عنه.

٣ الخَمَر بالتحريك هو كل ما سترك من شجر أو جبل أو كهف أو بناء

٤ يضربه بالسوط.

السير - القرية تحت أقدامهم - عَبْر منطقة الآبار الأثرية العشرة، والأقواس الرومانية الأربعة وكلها تقع ضمن أراضي قريتهم، في منطقة "بيت مِرَّة".. الأثرية..

ساروا على الأقدام عبر أراضي الجفير بمحاذاة منطقة الزنانير، فدخلوا مشارف البلدة من الشرق بعد ساعتين من الغروب، وقد أرخى الليل تماماً ستائره على الكون فازدادت العتمة، ومما زاد من سواد الليل وظلمته وقتذاك، تغير لون السماء وغياب كامل لنجومها، وحركة الرياح فيها.. فَتَلَقَّفُوا برودة نافذة.. تهزُّ الأوصال! فقرروا قضاء ليلتهم في مغارة كبيرة تقع شرق البلد..

كانت بهيمة الليل تزداد بوتيرة مخيفة، متمهلة، وهم داخل الكهف الواسع بأرجائه والضيق ببرودته اللاسعة وسكونه الرهيب.. وفي الخارج يتساقط المطر وكأنها تغسل الماضي وتزيل ما علق بهم من أدرانهم وعلائقه وكل ما يربطهم به.. وتفتح لهم طرقاتاً نظيفة يملئون شواغرها وهم متجهون إلى المستقبل.. إلى الآتي من أيامهم..! يتساقط المطر بغزارة، والريح تهب من جهة الشمال هُوْجاء صاخبة وهي تمرق خلال الشجر والحجر وتعصف بنوافذ بيوت القرية، وهي تحت أقدامهم راقدة.. قريبة منهم.. وتصفع حيطان البيوت وواجهات الدور بحبات المطر الصاخب فتثير في النفس أفكاراً حزينة.. وتأملات مخيفة.. وخواطر كئيبة..

(٦)

القرية

وفي الصباح، وقد تمكن الضياء من تلاييب الليل فهزمه، ومن ثمّ انتشر وازداد سطوعه في أرجاء المكان.. وصارت القرية.. كلها حركة، وقد أعلنت انطلاق الحياة واندفاعها بإيقاعات توحى للأسرة العائدة بيوم واعد جديد..

كانت رائحة الأرض فيه - وقد تشبعت بماء الشتوية في الليلة الفائتة.. رائحة لا مثيل لها.. مزيج من عبق الأنوثة وأريج الرجولة، ودلة قهوة فوّاحة بالهيل، وجوزة الطيب، وعبير براعم الأشجار وهي تطل من أكنيتها في استحياء تنهياً للميلاد..

دلفت الأسرة رويداً رويداً إلى القرية وبخطاً متقاربة وكأنها تحمل ثقلاً لا تدري أين منتهاه..

دخلوا القرية وقد بدت لهم وكأنها تجمّع سكني متقارب.. أغلب بيوتها مدمرة.. دمرت بفعل زلزال^(١) داهمها منذ زمن بعيد.. وما سلم من بيوتها انشطر وتشقق..!

وتشكل القرية حوشاً كبيراً يضم إلى جانب بيوتها معصرة للزيت وحجراً ضخماً، بالقرب من مقبرة.. ومغارة تذهب في عمقها إلى مئات

١ عام ١٨٢٧م.

ازدادت عتمة السماء، وانهارت أمطارها فزادت رتابة الكهف ورطوبته من حولهم.. يتناهى إلى أسماعهم أصوات لا يستسيغونها، لا يعرفون كنهها وسط الرياح الباردة، وهي تزمجر مولولة بتلك الأصوات الجوفاء.. وكلما ازدادت زمجرة الرياح ازدادت فيها لسعات البرودة لأجسادهم، وكَفَحَات الصخب والاضطراب والقلق في نفوسهم. كانت أسنانهم جميعاً ترقص إلى أعلى وإلى أسفل على شرف البرد والخوف وانتظار المجهول..!

اقتربوا من بعضهم البعض، تلتصق الأم بابنتيها، وهن يلتصقن بالزوج والأب.. محتميات مما هن فيه..! ما استطعن إلى الحماية سبيلاً، وما استطاع رجلهن أن يوفره.. لهن من دفء مفقود..! كانوا قاعدين.. ملتصقين قابعين تلفهم الصحبة مع السكون.. مثل بومة كبيرة قد تكومت.. في انتظار لانفراج..!

الأمطار تخص حمولة "العُسل" واسمها مغارة دار "يعقوب" .. على قاعدة الحوش كانت بيوت عوائل "آل عتاقة ودار هتيكه"^١، وفي عنق الحوش إلى الشرق كانت تقع بيوت "آل الفتيلة والمخاليف" وإلى الشمال دور أبي ضبة، وفي الغرب بيوت "آل العسل وآل مراس" .. ويجوار المسجد غرباً وشمالاً تقع بيوت "آل معرس" وفي ذلك الجزء بالذات تقع دارة "مصطفى الطربوشي" و "دارة الصلاح"، ومن فوقها درج يقود إلى عَالِيَة^(٢) الجد ابن السيدين .. التي طالما استعلت فيها جدنا .. الذاهب في التاريخ ..

بيوت القرية حينذاك لم تكن على شيء من تناسق أو جمال من الخارج، وهي بكل تأكيد لا بد أنها لم تكن كذلك من حيث الأثاث والحُسن والترتيب في الداخل ..

أوحى عدد بيوت القرية في ذلك اليوم - أوحى لأبي عبد الله - أن سكانها في حدود المائة .. يزيدون عن ذلك أو يقلون ..!

المنظر العام للقرية ولطرقها وحراراتها الضيقة ولما يغطيها من ثلث الدواب وبعر الأغنام .. وما يكتنفها من ذباب وحشرات .. تسير فوقها أقدام حافية، ويرتدي أصحابها ثياباً لا تدفع برداً ولا تمنح دفئاً .. بالكاد تتحقق من نظافتها المفقودة.

كل ذلك يوحى للمشاهد لأول مرة أفكاراً غير مشجعة عن الصحة والفقر في تلك القرية .. الناس فيها يبدون لك لأول وهلة .. وحين تتبادل معهم تحيات اللقاء والتعارف أنهم أناس طيبون ومهذبون .. ولكنك سرعان ما تدرك خطأ حكمك لهم .. عندما يستديرون عنك في لباقة، صارفين النظر عنك في غير ارتياح. لحظات تألم بارحة، حبلى بخواطر كئيبة تدفعك إلى القرية من جديد، فتولج غربتك في غيبتك .. ثم تعود عودة على غير قبول ..!

يقول الوالد وهو يسرد علي قصة دخوله القرية مع عائلته: سألناهم عن دار الشيخ ابن سلامة العُسلِي .. فدلونا عليه في دارته .. وعندما وافيناه في الدرب أمام عليته .. بش في وجوهنا وتقدم نحونا وهو يُهل ويرحب ويعانق ..

"أهلاً بك يا "أبا عبد الله" .. كنا في انتظارك يا ابن العم منذ أن وصل صاحبك "أبو أحمد" .. فلقد سبق النتشه بن حبيب ووصل عندنا منذ عشرة أيام .. وأخبرنا عن عزمك على القدوم خلال أيام .. أهلاً بك بين أهلك يا ولدي .. وحللت سهلاً بين عشيرتك تعزك .. وتمنعك ..! وسلمت إن شاء الله في بلدك وفوق أرضك!"

وكان عناق الرجلين طويلاً وعلى فترات استنفذت دمعاً، وأثرت عاطفة وقرباً ..!

ماجد الأشوس بن السيدين: بارك الله فيك يا عماه .. ما أكثر ما كان والذي يظهر حبه واحترامه لك أثناء حديثه عنك .. فقد حدثني مراراً وتكراراً عن شيمتك وعن عزوتك .. وجمال خصالك .. بارك الله فيكم ..!

١ لا يسترون على شيء - الهتيكه = الفضيحة

٢ في اللغة الدارجة يسمونها "العلية" أي الدار المرتفعة والمشرقة ...

ثم قام الشيخ يوزع بركاته وحبه وترحيباته على زوجة ماجد وعلى ابنتيه الصغيرتين فقمنا بدورهن بطبع قبلاتهن فوق يده اليمنى إجلالاً واحتراماً..!

صحبهم الشيخ إلى داخل بيته في العلية.. وكان الوقت آخر الشروق وبداية عتبات الهجرة في جنوحها وزوالها.. أخذ التعارف مجراه بين الضيوف وبين أهل البيت وقدم الشيخ العسلي زوجاته الثلاث: عثمانه العسلي، وصبحه وعزيزه مع أبنائهن الثلاث على التوالي: إسلم وسالم وسليم.

وبعد الترحيب بالأسرة الجديدة القادمة من أعماق غربة في الزمان والمكان.. تركهم القوم ليأخذوا استراحاتهم من السفر.. فقضوا يومهم في تجديد نشاطهم واستعادته وتسخينه.. اغتسلوا.. وطعموا.. واستبدلوا ملابسهم وناموا بقية يومهم وطول ليلهم..

وفي الليلة الثانية تحدث الشيخ مع ابن عمه العائد.. تحدثا في كل شيء.. فألمَّ الشيخ بهموم أبي عبد الله التي تشغل فكره وباله..

أنزل الشيخ ابن سلامة العسلي ابن عمه في علية جدّه ابن السيدين، وأمد الغرفة بالضروريات من الفرش والحصير.. والأدوات والمُحَلَّات حتى تتأتى للأمور هيئتها الدائمة، وجاهزيتها المطلوبة..!

في سهرة ذلك اليوم.. اقتصر التواجد في بداية السهرة على الشيخ وعلى أبي عبد الله.. فعرف الأول من ضيفه أنه عازم كل العزم على العودة إلى

"الكواكب" لإحضار ابنة صديقه الحميم النتشة بن حبيب الجاري من بيت زوجها..!

الشيخ العسلي: حدثني أبوها عن أمرها.. وكأني بك يا ماجد تولى هذا الأمر أهمية زائدة؟.. أليست هي زوجة على ذمة رجل؟ وعلى ذمة شقيق من تتهمه بقتل شقيقك "رشدان".. إنك بعملك هذا لا ترضي الله.. وتلقى بنفسك في تهلكة لا تقم لك منها قائمة بعد.. بناتك يا ماجد وزوجك... أنت سيدهم الوحيد!

أبو عبد الله (مقاطعاً): ليس من عادتي يا عماء أن اتصل من وعد قطعتة على نفسي لابنتهم ولوالديها.. وهما صديقا.. بل أخوة لي..! (واستطرد) لقد رتبت للأمر أهميته وعدته.. ولم يبق إلا أن أتكلم على الله وأقوم بالوفاء بما وعدت.. أما ابنتاي وزوجي فأنا على يقين أنهما في حُرِّ حُرِّز إنهن في حمايتك ورعايتك حتى أعود إن شاء الله..

الشيخ العسلي: هذا شأنك يا بني..! ولتكن رغبتك مسؤوليتك.. وليرضى عنك الله فيما أنت مقدم عليه وإن كان خيراً فخير.. وإن كان غير ذلك.. فلك ولعائلتك الله.. نعم المولى ونعم النصير..!

في تلك اللحظة حضر النتشة وعمه الكبير الشيخ أبو العطايا المخالفي بوجه وضاء ولحية بيضاء.. تضيفي عليه عمامته هيثة وسيم.. فيها.. وقار. تعانق الصديقان وقضوا سهرتهم والحميم يسأل حميمه.. وهذا بدوره يجيب..

مما يجدر ذكره أن داراً عامة للضيافة تخص كل أهل "الفلستينية" كانت في حوشها.. يستقبلون فيها ضيوفهم.. ينزلونهم ويقدمون لهم القرى كل بدوره في البيوت والعائلات في الأيام والشهور دون استثناء طول العام.. رفض الشيخ العسلي اعتبار ولد عمه ضيفاً وأنزله في داره أولاً ثم أعاد إليه - مبادرة منه - بيت جده الأشوس بن السيدين.

طلب الشيخ من ولد عمه أبي عبد الله أن تكون السهرة في الليلة التالية في عليته مع شيوخ حمولة آل العسل ومع رجالاتها الكبار وأبناء عمومته.. فرح ماجد بذلك أعظم الفرح وأحلاه، فقد كان على رغبة قوية على أن يبدأ بمدّ الجسور بينه وبين أهله وأفراد حمولته وعشيرته من بعد.. بينه وبين آل العسل وخطاب.. وكثيراً ما كان يناجي ربه ويسترحمه بأن يجعل له معهم قناعة ووداً..

في نهار ذلك اليوم سحب الشاب إسلام بناء على رغبة والده الشيخ - سحب أبا عبد الله في جولة طويلة شملت بساتين وأراضي وحقول الحمولة استغرقت طيلة ذلك النهار.. في كل مناطق البلدة: الجفير.. والقرنة.. وبيت مزه.. والكروم.. والشعاب.. والزحيلة.. والوادي الغربي.. والنقاشه.. والبساتين.. والحبائل ومنطقة الحريقة.. تكررت جولاتهم ثلاثة أيام متتابة عرف فيه أبو عبد الله قريته وأراضيها تمام المعرفة وعرف أسماءها واطلع لأول مرة على أسماء ملاكها.. وأصحابها..!

في المساء الموعود.. التقى الجمع الطيب في عليّة الشيخ العسلي، حضر رجال الحمولة من أبناء العمومة والأهل.. حضر الجميع.. خلا رجل واحد.. الله وحده يعلم حجته.. لقد كان ذلك الغائب هو ألقهم قرابة بأبي عبد الله.. إنه مذؤوب بن محمود الأشوس بن السيدين.. تظاهر الجمع بقلّة الاكترات لغيابه..

ضمت الجلسة مصطفى الشاويش، وصالح علي العسلي، وصافي الرمزي وشقيقه جمعة الرمزي، واسماعيل خليل حرب الرمزي وشقيقه العائد من تشيلي محمد خليل، وجاء أيضاً أتراب أبي عبد الله أبناء عمومته: عبد الله محمد علي العسلي وشقيقه علي..

تم التعرف بالأسماء والكنى.. أبلى فيه الشيخ العسلي والشيخ مصطفى الشاويش يساعدهما صالح العسلي وابن أخيه عبد الله محمد العسلي جهداً رائعاً في توضيح وشائج القرى المحكمة القوي بين أبي عبد الله وبينهم ويقربون من الوشائج الرحمية التي تتشابك بها القرى عادة في مداخلاتها.. وهي في ذلك تشرح مدى قرابة مذؤوب بن محمود من أبي عبد الله.. فهي تسبق كل القرايات وتتقدمها..!!!

انقض اللقاء في ساعات دورة الحرامي^(١) على وعد للقاء جديد خلال أيام. ولكن هذه المرة سيكون اللقاء في الدار العامة للضيافة مع وجهاء البلدة ومخاتيرها حتى يتم تعارف ضروري ومطلوب على حد تعبير الشيخ

١ بعيد منتصف الليل .

العُسلي، تعارف يبدأ بين ابن الحمولة العائد، وهو ركن عزوة جديد للعشيرة، وبين أولئك الرجال من أصحاب البلد..

عاد أبو عبد الله إلى بيته.. وتكاد الدنيا على ذلولها وسعتها لا تتسع لخطواته..! أحس حينذاك أنه يريد أن يطير في الفضاء كما أسراب الطير، يغرد معها أنغام السلام وألحان الأمن وأغاني المصير الواحد في خضم حياة يكتنفها - أبداً - مجهول لا متناهي.. لقد وجد ماجد انتماء! فتعزز وجوده.

(٧)

اللقاء الكبير

تلا لقاء الأحبة وذوي القربى بإبنهم العائد يومان، وكان اللقاء الكبير في دار الضيافة العامة حضرته مجموعة الأقارب وعلى رأسها الشيخ العُسلي، وحضر من أهل البلدة مجموعة طيبة على رأسها الشيخ مصطفى الطربوشي من كبار الملاكين في القرية وإن لم يكن الملاك الأول، وهو مختارها أيضاً، وحضر معه ولداه محمد وإبراهيم، والحاج أبو العطايا

المخاليقي، والشيخ بن صرصر^١ وابن عمه الشيخ إسماعيل سالم آل مراس متعهد قطع الحجارة من المهاجر لأجل تسويقها في القرى واستعمالها في البناء. وحضر اللقاء المفتوح الحاج حسن ابن ضبة المختار الثاني، وولده يوسف.. نسابة القرية بجداره، وصاحب السجل الرسمي الموثق بخط يديهما لجميع مواليد ووفيات القرية ذكوراً وإناثاً. وجاء مع من جاء ليلتذاك اليوم، الحاج صيخ المصايحة^٢ وشقيقه صياح المصايحة وصاحب الصوت الرخيم مؤذن القرية وموقفها في الليالي الرمضانية وقت السحور: الشيخ الأحمدى وكان من ضمن من تعرّف عليهم في ذلك اللقاء.. يوسف الفتيل كبير دار الفتيلة في القرية.

دار بين هذا اللفيف من الرجال حديث متلون طويل فيه الأخبار وفيه من المشاكل المستجدة على مسرح الحياة في تلك الأيام، وقضايا كانت تشغل عقول وأفكار ذلك الجيل من القوم..:

الشيخ العسلي: الحمد لله لعودة ولدك إبراهيم: من الغربة سالماً يا شيخ مصطفى..!

الشيخ مصطفى الطربوشي: الحمد لله. شكراً لك.. لقد عاد يا شيخ كما توقعت له أن يعود..

الشيخ العسلي: ألهم أنه عاد سالماً واكتحلت عيناك برؤياه يا شيخ...!

١ الفحل النجيب والعظيم من الأبل

٢ عادة الحديث بينهم تكون بصوت مرتفع رغم قوة سمعهم وكأنهم يصيحون ببعضهم البعض

الشيخ مصطفى الطربوشي: (بسخرية وألم) نعم.. بعد خمسة عشر عاماً في "تشيلي" يعود ومعه درّيل^(١)! وبدوري أيضاً.. أهنئك يا شيخ حسين بعودة ابن عمك محمد خليل الرمضي من غريته..!

الشيخ العسلي: (مخففاً من أثر الموقف على الشيخ مصطفى) نعم.. الحمد لله لقد عاد محمد خليل أيضاً من "تشيلي" ومعه مقص دوالي بعد طول فراق وانقطاع.. عن الأهل والزوجة.

وهنا يتدخل الشيخ مصطفى الشاويش معلقاً ومنهياً لحديث الشيخ المفعم بالألم والسخرية..

الشيخ مصطفى الشاويش: عليكم أيها الشيخان أن تؤمنا بالقدر، وأن تحمدا الله كثيراً على عودة أبنائكم ورجالكم.. فالكثيرون من الأهل والمعارف والأقرباء والجيران ذهبوا - كما تعلمون - ولم يرجعوا..! حاربوا مع تركيا ضد روسيا وشاركوها في الحرب العالمية الأولى.. انقطعت أخبارهم عنا..: يعقوب علي العسلي وولده مروان وأيوب، صقر خليل خضر الفتيلة. هؤلاء قد انقطعت أخبارهم عن أهلهم.. أما من مات فأنتم تعرفون: حمدان بركات المخاليف، رمضان طه آل مراس، مصطفى الصرصر، خضر الصب المطري العسلي.. كلهم ماتوا في حروب العثمانيين.. لا نعرف أين ماتوا؟ هل قتلوا في بلاد القفقاس والدرديل. أم في العراق، أم في رومانيا؟ أم في فلسطين أم في مصر أو اليمن؟ والله أعلم

١ منظار "تسكوب".

أين كانت نهايتهم..! (ثم يستطرد الشيخ مصطفى الشاويش) ويقول: ما كان لأولئك الرفاق حظ كحظي أو كحظ عبد الله محمد العسلي.. حتى ولا كحظ الحاج صبح المصايحة الذي أكرمه الله بنعمة قضاء الفريضة.. فريضة الحج.. في عودته إلى بلاده من اليمن عبر الحجاز.. لقد حاولت جهدي أن أستقصي أخبارهم في الجبهات التي تواجدت فيها فلم أقف لهم على أثر أو أسمع عنهم خبراً.. رغم رتبتي العسكرية التي وصلتها كمأمور تدريب عسكري.. ورغم قربي من جهات قريبة جداً من الجبهات الإدارية العليا.. والمسؤولة وصاحبة القرار..

ويتدخل الشيخ مصطفى الطربوشي في الحديث وعبر هذه المرة عن حزنه الشديد دون سخر^(١) - يقول:

الشيخ مصطفى الطربوشي: والله لقد فقدنا.. وغابت عنا وجوه طيبة! ضاعت بين جبهات القتال وبين الغربة في الأمريكيتين: أبو نعمان خليل فرحان، وشقيقه إبراهيم خليل فرحان، ومصطفى عبّود، ومحمد عطية.. كلهم قضوا نحبهم في أمريكا.. أكثر من عشرين شاباً لم يعد منهم سوى مصطفى الشاويش العسلي وعبد الله محمد علي العسلي.. والحاج صبح المخاليفي..

ألحّ بعض الحاضرين على عبد الله محمد العسلي أن يُحدثهم عن خدمته وعن وقوعه في الأسر في يد القوات البريطانية في مصر..!

١ بلا استهزاء.

عبد الله محمد العسلي: (وكان يتحدث وعلامات النجاة والوعي والثقافة تضفي شفافية ناعمة على قسَمات وجهه الذي يزهو بشارب منسَّق فوق فمه الصغير..) خدمتي في الجيش العثماني كانت في وحدة الهندسة لبناء الجسور والعبَّارات في جبهة قناة السويس الشرقية في الخطوط الأمامية.. درَّني الضباط الألمان على السلاح.. وعَلَّموني حِرْفَةَ البناء وتنفيذ رسوماته.. وقد كانوا كما تعلمون حلفاءً للأتراك في الحرب العالمية الأولى..

ورغم أن قوة الأتراك في الجبهة لم تكن تكافئ قوة الجيش البريطاني فيها.. إذ كانت تضم فقط: عشرين ألف جندي عثماني مقابل ثلاثمائة ألف عدد جنود الفرق الإنجليزية..! إلا أنه تحت ضغط الألمان الملح قرَّر الأتراك القيام بحملة جديدة على القناة في نيسان ١٩١٦م، ثم زحفوا باتجاه القناة رغم أن نصف عددهم المذكور لم يكن من المحاربين!

وبالطبع فقد فشل الأتراك في حملتهم تلك فشلاً ذريعاً، فكانت خسائرهم في هذه المرة ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير.. كنت واحداً منهم.. نُقلنا، كل الأسرى إلى مصر، وعندما توقفت الحرب أُطلق سراحنا.. بقيت في مصر ثلاث سنوات تعلمت فيها كل ما يتعلق بالبناء إلى جانب تمرسي في القراءة والكتابة والحساب.. وَعَوَّدْتُ نفسي على مصاحبة الكتاب.. أطلع دائماً فيه أثناء وقت الفراغ.. هذا وقد تمكنت من اللغة التركية حديثاً وفهماً واستيعاباً..

الشيخ مصطفى الشاويش (يُلقَى على حديث ابن عمه..)

سبحان الله! رب ضائقَةٍ فرجاً، ورب خسارةٍ نافعة.. تجنيده القهري وأسرِه عاداً عليه بخير.. حصيلة في المعرفة واللغة والدين.. وإجادة للغة التركية.. وتعلَّم مهنة تمكَّن منها من خلال ممارسته فيها مدة طويلة..!

وقبل أن ينفُضَ السامر.. عرج المتحدثون يعلنون عن قلقهم وسخطهم من تزايد النشاط الصهيوني في بلادهم فلسطين، ومن معاملة اليهود بالأفضلية، من قبل الإدارات البريطانية في فلسطين حتى أن اللغة العبرية أصبحت رسمية في البلاد، وأن مصانع لأصحابها من اليهود.. تقام وتتسع: روتمبرغ والبوتاس، والبحر الميت..! والهجرة تتوالى وأعدادها تتزايد.. تحت مراقبة وحراسة وتشجيع وتسهيل من قبل هربرت صموئيل اليهودي البريطاني، المتصرف الوحيد حينذاك في كل ما يتصل بعرب ويهود داخل فلسطين ذلك الصهيوني العتيد أرسى قواعد ما يسمى حينذاك "بالتوازن العائلي" في البلاد. فوزع المراكز المهمة والمناصب العالية في البلديات وفي الإفتاء.. بين عائلتين اثنتين: عائلة النشاشيبي وعائلة الحسيني.. من طبقات الأعيان وكبار الملاك وأصحاب المصلحة الحقيقية في التعاون مع الإدارة

البريطانية اليهودية المتصهينة.. حتى المخاتير يعينون من قبلها بدون انتخاب..

وهنا تململ الحاج حسن ضبة على مضض وفي قهر وهو يتحسس صدره بعصية ظاهرة وكأنه يحاول ان يتخلص من عنف وشدّة يضغطان على أنفاسه، وهو يُعبّر عن غيظه وحقدّه على تلك العائلة المتطفلة على أرض البلاد والعباد.. عائلة "آل سرسق" البيروتية، فقد قام أحد أبنائها منذ وقتٍ قريب واسمه فيكتور سرسق - قام ببيع مرج ابن عامر ومساحته ثمانمائة ألفاً دونماً لليهود..!!

يتدخل الحاج صيح المصايحة المخاليف ويقول: خلاص.. انتهت الخلافة الإسلامية في بني عثمان وسقطت الدولة العربية في دمشق وزال الحلم الفيصلي.. واللّه وحده فقط يعلم سوء المثال.. وماذا سيحل بأهل هذه البلاد.. من خطب ومن بلاء..!

الحاج حسن ابن الضبة: ينصحنا أحد المسؤولين الإنجليز فيما نُشرت له جريدة الكرمل.. ينصحنا بقوله: إن مصاحبة اليهودي خير من معاداته..!

الحاج مصطفى الطربوشي: واللّه يا جماعة الخير..! الأيام القادمة حبلى بما يعلمه اللّه.. ونرجوا اللّه أن يحمينا من شرور ما يخبئ لنا هذا الزمان وأصحابه من الإنجليز والفرنسيين واليهود والعرب..! وتؤمن مجموعة من المستمعين على دعائه: آمين.

كان ماجد بن السيدين أثناء تلك الليلة الكبيرة يستمع لحديث رجالاتها.. كان خلال تلك السهرة أذاناً صاغية - شأنه في ذلك شأن أيام استثناسه بسماع حديث كبار الرجال في سهرات نشامى الدروز - منصتاً لا تقوته شاردة في استفسارٍ ولا واردة في جواب.. يحاول أن يحتضن المتحدث حتى لا يفلت منه شيء.. وظلّ يُصنّف الرجال المتواجدين في ذلك اللقاء ويميّز بينهم، فيعرف القارئ فيهم.. ومن منهم يكتب بالقلم.. وتزاحمت المواقف والأسماء في ذاكرته..

سأل نفسه: كيف تكتب جريدة "الكوكب" بيأس: إن فلسطين محط آمال اليهود - على لسان أحد المسؤولين الصهاينة - وستكون قبلة المهاجرين في المستقبل وهو أمر لا يمكن تلافيه.. بل وتؤكد الجريدة: أنه ليس في وسع أي دولة آسيوية كانت أو أوروبية أن تمنع هذه الهجرة.. وأن الخير سيُعْمُ البلاد (أي خير يرتجى من يهودي مفتصب؟ ومن خيانات تبدو في أفق الخيال والمال؟.. وعلى حد مقال الجريدة - يجب على كل عربي يحب الخير للبلاد أن يرحب بإبن عمه وزميله في العمل في مزرعة البلاد المشتركة (يتابع أبو عبد الله حديثه مع نفسه): "لا مرحباً بكم أيها الخونة؟ ولا أهلاً ولا سهلاً بكم وبيهود..! أفكار كثيرة كانت تتنازع بسطوتها في عقل ووجدان أبي عبد الله.. ولم يوقف تأملاته واستعراضاته واحتجاجاته على ما قيل وما كتب إلا على صوت الشيخ العسلي يعلن أنه الأول في الانصراف .

وعقب ذلك اللقاء الكبير.. بدأت اهتمامات جديدة ومن نوع جديد..
تسيطر على عقل ووجدان أبي عبد الله، اهتمامات وشدائد محرقة تذهب
باللجم وتذيب الأفئدة..!

الفصل التاسع

(١)

فعل الحرية الممتلئ

اكتشف أبو عبد الله في عودته إلى قريته "ال فلسطينية" أن غربته عنها
- وقد كانت امتداداً لغربة أبيه عبد الله - لم تغير شيئاً من "
فلسطينيتهما" أبداً، ولم تباعد بينهما وبين إنتمائهما إليها، ولم تقلل من
مشاعرهما المفعمة بالقداسة والفداء بحال.. وقد أحس إحساساً جميلاً
يتسم بالقوة تُجلُّ تلك المشاعر.. مشاعر الأهلية والقراية.. عاشها بانسيابية
تامة وبسلاسة متدفقة ناعمة.. لقد تملك لحنُ فلسطين شغاف قلبه
واستحوذه حتى امتلئ به وجدانه، وعبقت به أعماق مشاعره..

لقد نجح في عودته إلى قريته، في رسم بدايات جديدة له في أرض آبائه
وأجداده.. لم يكن يُكدرُ صفو تلك الأحاسيس أو يُشوّه جمالها سوى
موقف ولد عمه "مذؤوب بن محمود" وإعلان الحراية ضده.. فتتمزق نفس
أبي عبد الله بين ثلوج العواطف عند ابن عمه..! وزمهير الحزن والغضب
فيه.. فيغوص حتى الضياع في خضم من الأفكار السوداء تثقل نفسيته،

ليشعر بالانسحاق تحتها وهو يعبر الجبال من سفح إلى سفح، وهو ينتقل في البلاد من قرية إلى أخرى.. لا يدري.. ولا أحد يدري متى يستريح من المشاكل.. وأين وكيف سيكون آخر المطاف.. ومتى ينال فرصته لتغفو زوجته على ذراعه في شعاب الهدوء، وعلى ضفاف الأمان، وفوق بساط الاستقرار..! تحكّم اللاشعور بحواسه، وليس بمنطقه، مما يجعله يعي خذلانه مبكراً جداً مع ولد عمه!!

كان أبو عبد الله ما زال يخطو خطواته الأولى نحو أربعينيات سني عمره فوق الأرض وهو لا يزال مثلاً عاتياً لكل مقهور..! ولكن إلى حين..! فقد وطّد نفسه إلى الخروج إلى فعل الحرية الممتلئ.. في فضاء أوسع، رحب الأطراف، يتسم عبيره دون مساومة.. أو مشورة.. وبلا تهديد أو وعيد من قريب أو من بعيد!

طالت إقامة أبي عبد الله في بلدته لشهر واحد وبضعة أيام، التقى في آخرها مع عمه الحبيب إليه الشيخ العسلي، ذلك الرجل الكريم الذي أحله داره، وأنزله من نفسه منزلة الأهل والعشيرة.. آواه وآساه.. وخفض له جناحه، فكانا بمثابة الوالد والولد، يستروح ظلّه ويستمدّ عونه.. عاش عنده حقيقة البرّ ظاهراً وعمقاً.. وقد أظهرت له المواقف طيلة الأيام التي قضّاها في بلدته، أن الشيخ الوقور كان وجه قومه، ولسانهم، وملاذهم وقوام أمر العشيرة.. لولاه لم يكن ليتعرّف بتلك الكيفية أو السرعة على

حامته وأهله الذين تجمعهم به صلات رحم ووشائج قرابة..! في ذلك اللقاء بادر الشيخ أبا عبد الله قائلاً:

الشيخ ابن سلامة العسلي: إني أراك يا ولدي تخرج من عناء إلى عناء أكثر منه وأتعب! فلا توشك أن تركز إلى المقام والاستقرار، حتى تبدأ بسفر جديد وارتحال شديد، وكأنني بك قد عدوت فجعلت من نفسك دوماً أخاً للفلوات، وجوَّاباً للأفاق..!٩

أبو عبد الله: الحركة ولود والسكون عقيم! ولكن أعرف والله يا عمّاه، أن هذا الأمر من أصعب الأمور علي.. أقاسي فيه وأعاني منه، وأكابد وأعالج..

ولكنه يا عمّاه.. ليس عنه مناص.. ولا منه خلاص!

الشيخ ابن سلامة العسلي: ولكن عودتك إلى "الكواكب" مرة أخرى فيها من الخطورة على حياتك أكثر مما تتصوّر وأبعد من أن تدرك.. فذلك رجّع بعيد، وبلد طروح.. وفيه من يتوعدك ومن لا يرجو لك سلامة أو خيراً..! والبنت يا ولدي عرفت جوزها وعایشه معه سنين.. كل ثوب له لبّاس.. وكل جسم إله لبّاس^(١).. يا أبا عبد الله..! الطعّابين ما يأخذوهم إكرامين للحي رهاين..!١٠^(٢)

(١) إن كل أنثى خلقت لشخص معين ومن الحديث: لكل فرج ناكحه... "وإن كل قطعة قماش عيّن القدر لبّاسها".

(٢) الطعينة هي المرأة عامة سواء كانت في هودج أو ترعى إبلها أو غنمها أو في بيتها فهي طعينة يجب احترامها.

أبو عبد الله: الظعينة هذي طابت عن زوجها وبذها أهلها، واطمحت عنه وما تريد أن تبقى عنده يوماً واحداً .. لا تحبه ... ولا تريده.

الشيخ ابن سلامة العسلي: لا تعلم يا ماجد (وقد يأس من إقناعه بعدم السفر)، مدى قبح ما أنت مُقدم عليه - تأخذ امرأة من زوجها وتهرب بيها، هي ظعينة لا يجوز الاعتداء عليها لسبب أي مَطْلَب!

والحريم مثل الدراهم ما عليهم أمين، وكلام الناس كثير!!

أبو عبد الله: لقد حدثتك عن وعد قطعت على نفسي لأهل البنت.. أن أعيدها إليهم.. وما لي من قصد إلا أن أُلْظَمَ عقد شملهم، وأُخَيِّمَ ألفتهم.. وماذا أفعل.. وقد ثبتت وطائد المودة بين العائلتين، وَرَسَتْ قواعدها وتأكدت أواخيها.. إلى جانب أمور أخرى لا تغيب عن شيخ عروف مثلك يا عماء.. "هُوزَ في عصاة العز أو لا تكسرهما" يا عماء^(١). وما "عوان" إلا من الحريم خاصتي أحميها كما أحمي ابنتي:

الشيخ ابن سلامة العسلي: "كل واحد يبركب جملة"^(٢) وييلقى عمله.. على كل^(٣) شوف لك رفقة في الطريق والمثل يقول: الرفيق قبل الطريق، والرسول عليه السلام يكره السفر دون رفقه، وأحب السفر عنده "الركب" أي ثلاثة مسافرين معاً في طريق واحد!

(١) وهناك أمور يا عماء تحتاج إلى ذكاء لماح لمن يدركها: هييتي للآخرين .. لإظهار وجودي بلسان حال يصرخ "أنا هنا .. أعود ... وأعود...".

(٢) المرأة المجربة ونضرة ذات نضارة ونعومة، وعون لقبها

(٣) كل فرد مسئول عن سلوكه ..

(٤) على كل حال

أبو عبد الله: نطلب "منه" تسهيل الأمور. وأنت أعرف مني يا عمي الشيخ، أن الواحد منا وديعة غيبا! وهدف نواائب! ولا يصيبنا إلا ما كتب الله علينا.. وحسبنا "هو" ونعم الوكيل!

وأضاف إلى حديثه مع عمه الشيخ..

أبو عبد الله: ما يُثير حفيظتي يا عماء خَلْفُ^(١) "مذؤوب" .. قَبَحَ الله أمّاً وضعت بـ "مذؤوب" وحملت به.. لقد وجدت فيه استكلاباً، كاشفني بالعداوة والمعصية.. وكشف الغطاء مرة واحدة، وَحَسَرَ الغمَاءَ بشكل قمئ فاضح..! ولعمري إن كانت هذه فواتح الأمر.. وأوائله بيننا فكيف ستكون تواليه ونهاياته!؟

الشيخ ابن سلامة العسلي: بالنسبة لابن عمك ذلك.. أذكرك إنه.. "ما صداقة غير عُقْبُ سَمَاقَة". كما يقولون^(٢) وعسى تعود بالسلامة إن شاء الله، وعندها نصلي على النبي، ونرى ما يمكن عمله من أجل التوفيق بينك يا وبين ابن عمك!

أبو عبد الله: سبحانه الله.. اسم على مسمى.. ليت مسميه أعطاه اسم "واوي" بدلاً من اسمه! "واوي ومربيه نيمس"!

وخرج أبو عبد الله إلى بيته على وعدٍ من الشيخ الجليل أن يحفظ أسرته حتى يعود ... وقد استقر في وجدان والد الفتاتين: "مدلول ودلال"

(١) الخلف - الولد السمين: سكون اللام - أما الخلف بفتح اللام فهو الولد الصالح.

(٢) الصداقة الحقيقية لا تأتي إلا بعد خصام شديد ... سَمَاقَة: نشف اللحي بشدة وعنف في عراك ...

الصغيرتين أن الشيخ سوف يكون الأب الحاضر لهما أثناء عدم تواجد الأب الغائب عنهما.. ولا ينسى كيف بدت عواطف الشيخ العم - ذات ليلة - تجاه الفتاة "دلال" وهي تحجل أمامه في رقصة بسيطة تغني على مسمعه أغنية صغيرة حلوة.. : ع النني النني النني يا خوفي أهلي يتبرؤا عني. ليهبَّ عندها الشيخ الكبير قائلاً لها بكل حنان ولطف شمائل: "ما عاش يا بُنية من أهلك من يتبرأ عنك أو يتخلى عنك.. ثم يحتضنها وعيونه قد غطتها دموع طيبة..!

(٢)

مجتمع الرعاة

كان أبو عبد الله - كأي ممن عمل في حرفة الرعي، رعي الغنم والماعز والضأن - صاحب علاقة مميزة.. علاقة كلها حساسية على درجة كبيرة من الشفافية، مع أصحاب بيوت القرية أو القرى التي تتعامل مع اقتناء الماشية.. فكثيراً ما قام برعي أغنام وضأن تعود إلى عدة بيوت في القرية الواحدة أو في أكثر من قرية في الفصل الواحد، من فصول الدورة الرعوية التي كانت سائدة في تلك الأيام.. وعندما تكثر البيوت

صاحبة السمرء والبيضاء من الحلال الطيب، كان يستعين بصديق له يعمل معه ويشاركه في المردود الحلال من الأرباح المتمثلة بالغنم وبالمال، وفي الامتيازات الكثيرة.. يتقاسم معه ما كان يُعرف حينذاك بـ "العدولة" فيأخذان - أبو عبد الله وصديقه أو شريكه بالمعنى الأصح - وكان اسمه "ابن الخلدة".. يأخذان معاً الأغنام من أصحابها للرعي، ويحافظان عليها، ولهما مقابل ذلك سَمْنُها ولبنها وصوفها، وشعرها - حصة يتفق بشأنها - وذكر ما تُلدُّ عندهما.. ولصاحب العدولة أصل الإناث وما تلده من الإناث.. اشتركا أبو عبد الله وابن الخلدة مرات كثيرة في التعامل مع نظام العدولة حينذاك حتى أصبحا من أصحاب الغنم، وممن أثروا من الرعاة.. ومن أشهرهم.. لم يعبأ يوماً بموقف البدو تجاه من يتعامل مع ذلك النظام.. المتعارف عليه عندهم "العدولة".

وكان لأبي عبد الله - ولغيره من الكثيرين من رعاة ذلك الزمان - .. دالة^(١) على أصحاب الماشية السابقين، بحيث كان أثناء ترحاله وسفره من وإلى الشرق والغرب، ينام ويقوم في أي بيت من البيوت التي رعى لها.. فيخرج على أي بيت يشاء، وفي أي وقت يريد، دون حرج أو تردد، تحوطه عناية صاحب القطيع وخدمه وزوجته.. تطعمه وتغسل ثيابه.. يسهر معززاً مكرماً في ديوان مالك القطيع ترضية له وتقديراً.

(١) دالة : حظوة وقبول .

صاحب القطيع يعرف قدر الراعي الذي يرضى غنمه طول العام وفي كل الفصول صيفاً في القيظ.. وشتاء في البرد.. وفي الربيع، وفي الخريف.. وفي المواسم، وفي الأعياد دون عطل أو إجازات.. لا غنى عنهم أبداً.. فهم الذين يعرفون الأماكن التي تعيش فيها الحيوانات ومن ثم يتيسر لهم حماية القطيع من عدوان الذئب أو التقييط ومن تعرضها للضياع.. أو للفرق والإنجراف أمام السيول. ولذلك كان الرعاة من البراعة والنباهة بحيث يحسداهم في ذلك الوقت الكثيرون من أرباب الحرف وأصحاب المهن والأشغال: لحصولهم على إكراميات وهدايا وإمكانيات متعددة. أما الحساسية والشفافية - التي كانت تتميز بها علاقات الرعاة بأصحاب القطيع من أثرياء البادية والقرى المتطورة عنها، والتي كانت قد بدأت في ظهورها الحضاري - فقد كانت تعود في أسبابها إلى العلاقات التي كانت تسود المجتمع البدوي.. ومردّها إلى الفوارق الطبقيّة بين البدو من جهة - وهم سكان الخيام المؤتثة بأصواف وأوبار وأشعار وجلود الأنعام. وبين الرعاة من جهة أخرى وجلّهم من الفلاحين.. تبدأ تلك الفروق في نوعية تلك الخيام.. فساطيط^(١) سود من شعر الماعز يسكنها أغلب أفراد القبيلة، بينما شيخهم ينزل في خبائه الصوفي أو في بجاده الوبري^(٢).. وأخرى صغيرة الحجم من قشع من جلود يابسة أو من خيش أو من شجر.. يسكنها الفلاحون والخدم أو العبيد.. لا شيخ لهم ولا عميد! وتظل

(١) فساطيط: جمع فسطاط وهي الخيمة العادية.

(٢) بجاده الوبري: خيمة الشيخ المميزة يكسوها وبر الجمال.

حساسية تلك الفروق الطبقيّة تتبدى وتظهر عملياً ونحن ننقل بين خيول البدو الأصيلة، التي يتغنون بجمالها وسرعة ركضها.. ينسبون لها أرومة أرومة، وبطناً بطناً حتى يثبت إصالة رسنها^(١)، وكذلك ونحن ننقل بين هذه الخيول الأصيلة، وحمير الفلاحين مُنكرَةُ الطبع والصوت.. وبين أمثال يرددونها أولئك في هؤلاء، وأقوال وأوصاف يوظفها هؤلاء في أولئك..! ويعرف الرعاة والفلاحون نظرة الإزدراء عند البدوي تجاه المرأة، أية امرأة! ولو كانت تلك المرأة إحدى زوجاته! وتجاه الفلاح حتى لو كان من رعيانه الذين هم حُماة قطعانه وأعمدة وجوده الإقتصادي.. جميع هؤلاء مع الخدم والعبيد هم موضع احتقار وتنكيل من البدوي.

المعروف أن المجتمع البدوي يُتيح قدراً من العلاقات السرية والعلنية بين الرجل والمرأة. تحمل تلك العلاقات آداباً مقدسة، وأعرافاً تحافظ عليها، وتحاسب متجاوزيها.. فمثلاً "التعليّة" وهي سهرة المحبين.. وتفخر البدويات بكثرة الذين تعللوا معهن من الرجال.. ومن العار عند البدوية أن تُعيرها إحداهن بأنها لم تحصل على معجبٍ.. يُعلّلها..

ومن هنا فكثيراً ما يتحدث الرعاة فيما بينهم عن علاقة بين زوجة من زوجات الشيخ وأحد رعيانه أو عبيده.. الشيخ أو السيد البدوي يتزوج من الحرّيم أربعاً، وزوجته تعلم مدى حقارتها عند زوجها.. في لا شعوره.. فهي عنده "عورة دائماً، فإذا ذكر اسمها أو أشار إليها، شفع كلامه مسبقاً

(١) رسنها: تسلسل أفراد عائلة الفرس.

بقوله "حاشاك وأعزك الله".. لكن هذه الزوجة تستطيع أن تقضي على زوجها نفسياً ومعنوياً، فتخونه مع أحد الرعاة مما يجعلها تحس بمشاركة عميقة مع الرعيان في الظلم..!!

ولكن من موقعها: كأنثى بدوية قرينة شيخ.. فهي تحتقر الرعيان.. ويعرف الرعاة ذلك..!! من علاقات يسودها التسلط، ويتحكم فيها التعالي والإزدراء.. علاقات تتجلى بصور شتى في هذه المجتمعات الطفولية.. صور من التعذيب النفسي، والتعذيب السوطي.. صور تتضوي في داخلها أبعاد للجنس وغير الجنس..

(٣)

ابن الخلندة

ابن الخلندة، صديق أبي عبد الله، كان مركزاً واحداً من كثرة..! تدور حوله مثل تلك العلاقات.. سادت بينه وبين نسوة في البادية.. وكان ابن الخلندة من جانب التباهي يُطلع صديقه على قصص حول خلواته تلك، وعن شبقاته مع غلمات تلك النسوة العجيبة.. التي لا تفتأ الواحدة منهن تبحث عن طريقة أو وسيلة تمكنها أن تتأثر لنفسها من زوجها المؤثر عليها

غيرها من الضرائر والحظايا.. أو المتعالي عليها..! وكان لابن الخلندة من اسمه نصيب وافر، اكتسب عادة التزُّين من أمه فهو إذن: ابن المتزينة! يزيد من زينته المكتسبة فوق ما حباه الله من زينة طبيعية: جفونه سوداء ومن غير كحل، وتُحيط عينين دائريتين كعيني بومه، وشعر فينان فاحم مُسبِلٌ غُدْرَه^(١)، يختال بهما.. يتميز بحضور شخصية، وبنظافة مظهر وحُسْنِه، يُسندُ كل ذلك دُمَاطَةٌ في الحديث وحلاوة في المعشر، ظريفاً خفيفاً كَيْساً.

وسط فتوة وسيمة تحبها النساء.. نظيف دائماً، وتبدو النظافة عليه في الشماغ فوق رأسه وحول عنقه، ولايبذ مؤخر القدم عنده إلا على أحسن وجه، دائماً يُدْلِقُ عَقْبِيه بحجر النَشْفَة، يحافظ على نظافتها.. وطراوتها..

إنتجع^(٢) أبو عبد الله صديقه ابن الخلندة.. من أجل شراء بندقية ألمانية حسب الطلب.. فهو يعرف أن أحد شيوخ العشيرة - التي يرفع له ابن الخلندة على علاقة بالسلاح وبمصادره.. يشتري ويبيع.. ويُبادل ويُهدي.. وقد عُرِفَ شيخُ ابن الخلندة بعلاقاته مع البعض من الضباط الألمان، ومن

(١) جدائل شعره.

(٢) اتجه إلى.

الأتراك، ومن بعدهم بنى علاقاته الخاصة مع أمثالهم من الإنجليز! وخاصة وقد مضت - منذ أن دخلت فرقة من الخيالة الأسترالية إلى عمان في الخامس والعشرين من أيلول سنة ١٩١٨ - أكثر من ثلاث سنوات..

قصد أبو عبد الله صديقه ابن الخلند، وكان الوقت أواخر الخريف - في مراعي البادية بمحاذاة الحدود السورية حيث الدفء والنمو المبكر للأعشاب.. أبو عبد الله مع غيره من الرعاة قد تعودوا على دعوة رَعَوِيَةٍ يلتقون فيها سنوياً.. لم تكن لتتغير تلك الأيام، وقد ضمن العثور عليه هناك! فالتقى أبو عبد الله بلمّة من أصحابه الرعاة في رُفْقَةٍ تضمهم في مجلس واحد، يتعاطون الثرثرة بابتهاج وانتعاش، يجلس كل منهم على راحته وبكيفية الخاصة به في الجو السائد وقتذاك بين نسمة باردة، وشمس خفيفة خجلى، تسرقها منهم سحبٌ بألوان فاتحة وأشكال شتى، تنتشر في السماء أثناء هروبها هنا وهناك!

يجلسون كل جلسات العرب المعروفة.. أحدهم يجلس القُرفصاء ملصقاً فخذه ببطنه ويجمع يديه على ركبتيه.. وآخر محتبياً، يدعم ساقيه المنتصبتين بثوبه ويديه أثناء جلوسه على أليته، والثالث قد تربّع، ورفيقه بجانبه قد أقعى ملصقاً عقبه بأسنّته.. والخامس قد انسدح أرضاً فارحاً بين رجليه الممدودتين. أما سادسهم وهو "البرم" - وهذا اسمه - وكان أكثرهم حديثاً يضطجع تارة على جنبه الأيمن وتارةً أخرى يبدله على الأيسر، واضعاً في كل مرة كفه على ذراعه المنتصبية تحت صدغه

أثناء تعاطيه الثرثرة! يضاف إلى لوحتنا هذه.. إلى شخوصها، وإلى مناظرها وعناصرها ثلّة الضأن والماعز خاصة الرعاة في اللوحة.. اجتمعت حولهم أو بالقرب منهم وتحت أبصارهم.. وهي تقضم في اليابس، وتخصنم في الرطب من الشيوخ والقيصوم ومن الشجيرة عديم الشوك، ونباتات متفرقة أخرى ترعاها بينما زعزعة الريح تراقص النبات، وتحرك صوت الضأن، وشعر الماعز تشير إلى اتجاه النسيم.. وبين الحين والحين يخرج كبش لمغازلة عبوره أو ملاحقة نعجة فتية، وعبوران يتسليان فيقفزان ويتطنطنان في استعراض جميل، يقدمان في حركاتهما المتناسقة لهوهم ومتعتهم المفرطة وكأنها فرقة للرقص الشعبي في حفلة مشهورة.. يقابلهما أكباش فارعة القوة، وعفية البنية تتحارب وتتعارك مع بعضها البعض.. فتتشابك قرونها مختلفة على نعجة أو على ضمة عشب، أو استظهاراً لمهارة الواحد منها بفن النطح.. ومعزات قريبات يتراوسن^(١).. كل ذلك يمضي في سياق عجيب..

استأنس أبو عبد الله جلسة له بين طارش الخلان^(٢).. يرى رفقة الرعاة ولا يرونها، يتبين أشخاصهم ويسمع حديثهم السخيف وهو من السخافات اللازمة ومن الحماقات الضرورية لوجود هذا العالم..! تفرسهم "أبو عبد الله الكبير" وهذا لقب أبي عبد الله عند زملائه الرعاة، تفرس وجوه الرعاة من مكانه، يبحث عن ابن الخلند.. فلم يتبينه فسمع "البرم".

(١) يبادلن ضرب الرؤوس - تطح .

(٢) قطع أغنام الرفاق .

البرم: تُرى متى يجيئ ابن الخلنده؟ لقد تأخر عن مواعده حسب قوله؟

ابن مدخور الجاي: نُرْوَة تيس على معزاه^(١).. وتشوفه طُل علينا!

ولد مشجن: عوده! هاظ اللي شاغلك!

البرم: وانت؟ شو شاغلك دخيل الله عليك.. انت ما توفر العجفا^(٢).. لا

في خنانها ولا في نشيرها^(٣).

ابن الخنية: عوذ بالله من الهرجة.. وبعدين معاك يا البرم؟.. ولك أنا

عارفك.. أنا خابرك يوم ما شفتك فوق التل تطول ظبية^(٤) البقرة.. ما

تفهم إنه الثور يكومها^(٥) وهي تجري.

أخو وطفا: سبيعكوا كلكم! سبيع سبعات!.. عُرَّاب.. وما لكم غير

الغنمات.. تيوس يا خلق الله إتهب وتتب وتنزو..! ما يههم.. نعجة رُعوت ولا

عنز رُبي أو نتوج^(٦) واحدكم لا نعرفه بني آدم ينكح أم تيساً ينزو؟!!

ويتدخل أخو العمشا وهو يلح عليهم بأن يغيروا موضوع ثرثرتهم: "والله

لو أنه الواحد فيكم شعير ما نهقت عليه الحمير! استحو، شو هالهرج

الساقط هاظ؟ عوذ بالله منكم ومن شركم، هذا حرام عند الله وعند

عبيده..!"

(١) الفترة الزمنية التي يحتاجها فحل الغنم للسفاد.

(٢) الشاة الهزيلة.

(٣) حالة سيلان الأنف وتثير المطاس أثناء الإصابة بالبرد أو الزكام .

(٤) عضو البقرة الجنسي.

(٥) ينكحها.

(٦) في حالة نقاس بعد الولادة . نتوج : حامل أو حبل .

أبن مدحور الجاي: ابن العمشا يخرّف ويهدي^(١).. شو رايك يا البرم..؟

البرم: شو إسمه هو..؟ يده لا تبرج تتحسس وتلمس قطن الماعز^(٢) أو

يُداعب ضرعها.. والأخرى تقبض فيشلتها^(٣).. و..

وهنا قطع ظهور أبي عبد الله المفاجئ على البرم جملته وحديثه..

بادرهم بالظهور تماماً أمامهم يلقي عليهم التحية والسلام.. قام الجميع

وقوفاً، يهللون ويرحبون ويوسعون له الجلوس بعد السلام والعناق.. وبينما

هم يتبادلون الحبات^(٤) بينهم على الوجنات.. ظهر ابن الخلنده قادماً -

بهيته الفتية الحسنة - يبتسم وهو يأخذ صديق عمره وشريكه أبا عبد

الله معانقاً ومعبراً له عن شوقه القوي للقائه.. جلس الجميع.. وطال

الحديث وتشعب.. وكأن حديث القمة السابق لم يكن قد بدرت من

أصحابه قولة عوراء أو إشارة سوء! حاول الربع مداعبة أبي عبد الله

فصرفهم بلطف وكياسة واستفسروا عن رحلاته فأجابهم أنه لا يزال

عصفوراً غريباً يبحث عن وطن للدفع..!

استأذن لِداته من الرعاة وأخذ بيد صديقه ابن الخلنده وسارا معاً

مسافة تحدثا فيها حديثاً لم يسمعه الباقون..!

(١) يهدي ، ويدعو بالهداية .

(٢) ما بين الوركين.

(٣) رأس دُكره.

(٤) البوسات أو القيلات.

اتفق معه على شراء بندقية أثنائية من صانع أثاني يحضرها إلى بيت
شقيقته 'خوده' في الكواكب، ونقده ثمنها مقدماً..
ودّع رفاقه.. وكان ذلك الوداع آخر عهد بهم..!

ترك أبو عبد الله ثدياته وأترابه من الرعاة وهو على نية وداع كل شيء
في بلاد الأخوال والأصهار والأصدقاء والمعارف في البلاد.. كان يحاول أن
يودع الكل..! يحاول أن يجمع الأشياء مع الأحياء في كل الأجواء في
صورة واحدة لوداع واحد.. لوداع البلاد التي سار في متعرجاتها.. ومشى
فوق طرفاتها، وعلى دروبها.. وتغيا ونام تحت أشجارها، في أشواط وفي
الهجير.. وذاق ثمارها وندوة ظلالها.. خبّر جودها واستبشر برهامها..
تواصل مع أهلها وتعاون مع إنسانها.. كل ذلك أحب أن يعطيه حقه من
الوداع مغلفاً بالعرفان والتجميل والشكر الجزيل.

(٤)

الإنكفاء

هذه المرة، وأبو عبد الله في طريق الإنكفاء شرقاً.. شاهد ما ثم
يشهده في رحلة الهجرة الأولى إلى الغرب الفلسطيني.. رأى هذه المرة عسكراً
وعسكراً وجندرية في طرق خاصة، وعند معابر أوجدوها، وانتشروا
فيها، مدججين بالسلاح، وكأنهم بانتشارهم المنكر ذاك، وبسؤالهم
للقادمين وللفارين من بني البشر من أصحاب الأرض والبلاد، يريدون أن
يوقفوا دورة الحياة، وللشمس أن تتكور فتمتنع عن خلق شروقات
جديدة، وللمطر أن ينشف فلا يعود له عطول، حتى لا تثبت الأرض
أخضراً أو شجراً، فتموت الأجواء الواعدة بكل ربيع!

.. لقد بدأ عهد جديد.. بدأ الإنجليز وحلفاؤهم من الخيانة الأسترالية..
على انقراض عهد الترك وبني عثمان..!

اتجه من مدينة ديدن شمالاً إلى مدينة الصيت.. ومشى على مهل في
أراضٍ من أجمل أراضى الدنيا.. قادته طريقه، فاستسلم لجمالها وسار
معها، وكانت محطته الأولى في بلدة 'عين البساتين'، فاستراح، وراقت
نفسه بجانب ينبوع مائها العذب.. وقضى هناك ساعات جميلة لا ينساها
تمتع فيها بجمال الطبيعة الواسعة، وتعدد بناياتها.. ويمتظر واديتها..
وجمال حقولها وأراضيها..

اجتمع حول ذلك النبع نفرٌ من الرجال، بينهم شيخان متقدمان في العمر.. في أواخر عقدهما الثامن.. حارب واحد منهما في جيش إبراهيم باشا المصري، وشهد الآخر انتصار العثمانيين على الروس عام ١٨٥٦م أحد هؤلاء النفر يُحسن التهجئة وفك الحروف.. والقراءة..! شكّلوا رهطاً محباً للاجتماع والحديث.. آنس معهم وسعد بهم أبو عبد الله في طريقه..! زار بعد ذلك "كفر حنا".. وخرج من قرية ورطة وانتقل في طواحين الوادي اليبيس.. من طاحونة إلى أخرى بشكل تلقائي ودون توجيه.. حتى دخل مقام أحد الأولياء.. أحد الذين يعج بهم الإقليم ويحتضنهم..

بات ليلته تلك في ذلك المقام.. تلفه ظلمة الليل، وظلمة المكان يحاول احتمال الليل.. وتفسير الظلام، فتهزء به الموجودات من حوله، ويسخر الكون - منه - بوجوده القوي واللامتناهي.. يُلَقَّه.. في غابات الصمت والليل.. وحيداً يصبُّ (لنفسه) كؤوس الغربة والتشرد والظلام، مترعة بضئى التجارب، وعذاب الأيام.. فتداهمه الأفكار، وتتخاطفه الهموم فيكتسي كياناً الوجوم حتى يبدو البَلَّةُ عليه.. فلا يعود يعي أو يدرك لوجوده معنى! لا يعرف إن كان وجوداً فردياً.. أم وجوداً ممتلاً بالآخرين! ما الذي يريده الإنسان في هذه الدنيا! سؤال شكّل أحجية الحياة المليئة بالشواغل والمطالب.. وبالأخرين..!!

وفي بكور اليوم التالي، اتجه أبو عبد الله إلى قرية الكواكب، فوصل بيت شقيقته خودة وقت الشروق بُعيد الضحى.. ونسوة من أهل القرية تتسلى مع شقيقته في ساحة الدار تحت شمس الدفء النادرة أيام أربعينية الشتاء.. أمام حائط المنزل يقين من رياح الصرير الباردة..

عن على خاطره، وهو القادم من سفر بعيد، أن لا يفاجئ الشقيقة وخاصة وهي تستمتع في جلستها - وهي مركزها - مع رفيقاتها.. فانزوى عنهن.. واتخذ مقعداً له فوق صخرة ناتئة بمحاذاة حائط الدفء، فوق صخرة أولها في محاذاة ركن الحائط ويصل آخرها إلى خلف المنزل..

النسوة في باحة الدار يتحدثن بصوت الهمس وما هو بالهمس.. كان صوتهن مسموعاً واضحاً.. تحدثن عن كل ما له علاقة في الشغل والإنتاج بشكل وضّح ظروف معيشتهم القاسية التي كنّ يرزحن تحت وطأتها.. تحدثن عن الطبخ وعن طرق الطبخ، وأدواته القليلة.. تحدثن عن المؤونة من القمح.. عن البرغل.. عن العدس في أنواعه وألوانه.. عارياً أو في جُبَّتِه.. متفاعلاً في الطبخ لصنع مرق الفتيت أو معارضاً له معلناً كنبت ملحوظ^(١) في الفموص والفتيت.. تحدثن عن مدى قابلية البرغل للتوافق.. في تحضيره لصحن المجدّره..

(١) لا يستساغ أكله (لسان العرب - مادة الخبز).

تحدثن عن الأزواج، ورضائهم الصعب، وطلباتهم التي لا تنتهي..
إحداهن لَحَصَتْ أيامها مع زوجها فقالت "اللي ما يريدك لا تريده، لا بارك
الله بعشرة الغُصْبِيَّة، وأخرى ابدت امتعاضها عن زوجها بقوله: ذيله وليله
هدن حيله^(١)".. امرأة منهن شبّهت المرأة عند الرجل بالرغيف.. رغيف تحت
إباطه "وقت ما جاع يتناوله..." والرغيف لا مشورة له ولا حساب.. يأخذه
صاحبه بيده، يتلمّسه بأصابعه، ويتحسّسه بشفتيه، ويتلمذ به داخل فيه..
حتى يشبع.. يشبع دون شيء يذكر للطرف الآخر؟ للرغيف؟ أي رغيف؟

دخل أبو عبد الله عتبة البيت وبادر أهل الدار بالسلام، وتبع ذلك
إظهار الاشتياق المغلف بالمحبة، التي تبودلت فوق الوجنات وبين العيون..
ورحب عبد القادر بصهره.. وقدره أعظم تقدير..! سألم عن كل شيء
فأعطوه إجابات.. شابتها تردد من قبل الشقيقة وهي تخبره عن أصهاره..
وعن أم زوجته: "علّية" يا أخوي.. ظلت المسكينة تبشى حتى جمد دمعها..
وظلت مكظمة غيظها على سفر ابنتها فاطمة.. وكل ليلة تطلع وتعد
النجوم وتسألها.. ما شفّن فاطمة؟ "وفي ليلة عقب سفركم بأربعين يوم..
انجصعت عقب نص الليل.. وإن الشّهقة - فطتْ "ثليجة" من النوم - هزّت

(١) ذيله وليله... كناية عن الملاقات الجنسية وقضاء الليل بالتقل والسفر والعريّة.

أمها وأنها تهتز كلها.. صاحت.. الجيران كلهم اتجمعوا عليها حسّوها
وأنها مثل الثلج.."

أبو عبد الله: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. وكيف أقول
لفاطمة المسكينة؟ وكيف حال مصلح ولد اقليح الحميد؟.. ترمّل ع
كبر؟.. سمعت.

خودة: يا أخوي.. موة المرة، مثل لطفة الكوع، صحيح إلها حرّة أو
عقبها تبرد!!

استأذن أبو عبد الله شقيقته ليذهب إلى بيت أصهاره، أهل زوجته
ليقدم الواجب من تعازٍ ضرورية، وقراءة الفاتحة عند قبر المرحومة أم
زوجه. قضى بقية اليوم عندهم.

هجع أبو عبد الله إلى نومه مبكراً تلك الليلة، لعله يستعيد نشاطه
ويرمم حركته لليوم التالي.. وكما نام مبكراً فقد استيقظ مبكراً على
صوت شقيقته تقرأ فاتحة القرآن جهراً في صلاتها.. فأدّى صلاته مثلها..
ثم إنزوا إلى ركن من الغرفة عند الباب يتناوبان السؤال والجواب..
حدثها عن رحلته إلى قريته.. وأخبرها عن زوجته وابنتيه وعن أقربائه وعن
أهل بلدته.. لم ييخل عليها بحديث عن كل ما جرى له في رحلته وفي
وصوله.. قال لها ما جرى بينه وبين ابن عمه المذؤوب حتى ذلك الحين..!

وبادرها قائلاً: حتى لا أنسى يا خودة.. هاليومين.. يمر على الدار عندك هون صاحبي "ابن الخلنده" وأنت تعرفينه.. يعطيك الأمانة، بارودة ألماني تخفيها عندك حتى آخذها منك.. ترى ثمنها مدفوع وكل شيء محسوب حسابه.

وقامت بدورها تلقي على أخيها الشائعات التي ترددت في أرجاء القرية عقب سفره، وأقاويل أهل "الكواكب" حول ابتعاده وعودته إلى بلده في فلسطين.. لقد جزمت غالبية الشائعات والأقاويل على أن أخوي قد قطع عهده بالكواكب، وأنه لا بد قد اقتنع ببراءة الغرماء من دم أخيه بأدائهم لليمين في مقام النبي شعيب حسب ما أراد.. ثم انتقلت إلى موضوع عوان^١ وأنها قد تبنت خطة وضعتها بقناعة "عوان" واستعدادها للعودة معه إلى بلدها.. في فلسطين..!

تحضر عوان في أوقات متفرقة لزيارة خودة بإذن من زوجها.. وكانت غالبية الزيارات في وقت العصرية حيث تكون قد أتمت - أو كادت - تنفيذ برامجها اليومي.. تقضي عندها ساعة خفيفة تعود بعدها وقد انتعشت نفسيته بآمال إنسلاخها عن زوج طابت نفسها عنه، وبألماني عودتها إلى أبويها وأسرتها. ولم تنس خودة أن تخبر أخاها أن "شهلة" تزوجت بشر الصخري ولد عم حجر الصخري..!! فعلق أبو عبد الله على ذلك بقوله: إن الدنيا كذبة لا يصدقها إلا حمار...!

١ الاسم الثاني لـ "نصرة"، أطلقوه عليها عند عودتها إلى قريتها. وتعني المرأة الجرية

بعد أن تغلب ضياء النهار الجديد على عتمة الليل - إلى حين - استيقظت القرية فدبت فيها الحركة وانبعث النشاط الحياتي اليومي المعهود.. الطيور في البكور، وفي الضحى، تعدوا خماساً.. تتسابق إلى اصطیاد الدودة الواعدة.. وقطعان الماشية تسرح إلى الحقول والمراعي، والرجال والنساء ينطلقون.. كل واحد منهم إلى أمر يخصه ويعنيه.. الكل ينشد الصباح السار، الواعد لهم.. يتمنون على الله أن يبعد الشرور عنهم وأن يكون سراحهم ومن بعده رواحهم سهلاً ميسراً.. كل ما في ذلك الصباح استهوى أبو عبد الله، وبدت له الطبيعة وكأنها تدعوه أن يعيش فيها.. أن يتمتع نفسه، يستمتع بكل ما يمكن أن تهيئه له طبيعة ذلك اليوم: من مغريات وآلاء ومسرات..

فلبى النداء فصار في طريقه في الحقول وعلى التلال، في الوديان وفي القيعان فوق الصخور وفي الغابات يسمع الطيور في غنائها المتناغم والمتناسق.. في جوقات غنائية ساحرة.. أغنيات تلهم عواطف الإنسان بكل شيء نبيل وسام.. للحب للشوق.. للحنين وللوفاء.. تصاحب زقزقة العصافير موسيقى حفيف الأشجار وأنغام النسيمات في الرياح.. كل ذلك استرعى انتباهه في حالة من السكون المتحرك الجميل، المشفوع بنعومة محبيه، وبهدوء يبعث الأمان، والإمتنان لخالق الكون المتأن..!

لم تجمع الدنيا في طياتها.. ومناكبها مثل ما جمعته فيها من النقائص في ذلك اليوم..! فبينما هو يستشعر ابتهاجه لفرح الطبيعة في طريقها

المتناغم، وفي هيئتها الجميلة، التي بدت له كقطيفة خضراء منسوجة بالزهور، ومطرزة بالورود، تغني وترقص له وحده.. وهو يتابع سيره رويداً رويداً - كالشيخ في تهاديه - على نغمات أغصان الأشجار في حفيفها، وجريان المياه في ينابيعها وعيونها، وزقزقة العصافير في سكونها وطيرانها، ونسمات الرياح في سريانها. بينما يعيش كل ذلك إذ به - وعلى غير توقع منه - يجد نفسه واقفاً بجوار قبر أخيه..! لقد قادته قدماء إليه دون وعي عنده أو بترتيب منه..!

فحيا أخاه في قبره.. تحية تحمل الفجيرة.. وتستمطر الرحمة عليه.. لحظات كابدها وهو يبكي بكاءً لا عهد له به من قبل.. لقد بكى ما قدر له أن يبكي، وشاركه في نحيبه كل من كان حوله..! شاركه الشجر والحجر والحيوان والطير، حتى الهوام والسوام.. دموع كثيرة.. ذرفت، تكفي لملى كؤوس الضنى والعذاب في هذا العالم الحزين..! لحظات عانى فيها معاناة هي الموت! لحظات خلقت عنده شهوة جديدة.. هي شهوة المنفى وترك البلاد والبعد عن البيت.. وعن الحي وعن كل العباد.. أحسَّ بتلك الشهوة الطارئة عليه وهو في رعدة الخائف المحموم، التي زادت من خفقات قلبه وأظهرت لأول مرة الارتعاشات في يديه والاختلاجات في عينيه مما زاد وسارح في ظهور تلك الشهوة على السطح عنده!

ثم تحدث إلى أخيه في قبره شعراً :

لك في الأحشاء قبرٌ وإن لم تأته ومن الدموع روائحٌ وعوادي
ثم استرسل في مناجاته: تترقق المقل بالندى كلما مرت ذكراك
بالخاطرياً رشدان..!
أرقد هادئاً في قبرك.. لك الأنس! وعليك الرحمة! ولي الوحشة والعناء..
ما رقا الدم.. ولا زلت أرى دمك وأنت في علز^(١) الموت يا "رشدان".. وما
انقطع الدمع منذ أن اختارك الله إلى جواره بطريقته.. ومنذ أن استأثر بك
دوننا!

جئت أخبرك أنني سأطرد الهامة^(٢) من فوق رأسك.. فلم يعد لها عندي
سقاية ولا ماء..! سأوقفها وقفاً عن ترديد زقواها^(٣)! إهدأ في قبرك
واسترح.. وأنا بدوري أحلّ في داري.. قريباً يا "رشدان"! ثم انفجر ناشجاً..
فضجَّ وجهه مختقاً بالدموع كوجه طفل ضلَّ السبيل إلى أمه في سوق
مزدهم بالناس وبالحركة.. وسار في طريقه..! يتذكر ذلك اليوم.. وكأنه
أزخر أيام حياته ألماً وحنناً!

(١) شدة نزاعه مع الموت .

(٢) يعتقدون إذا قتل الرجل خرج من رأسه طائر يدعى "الهامة" ويحلق فوق قبره فلا يزال يزقو قائلاً : اسقوني.

(٣) صياحها .

(٥)

خطيفه

كان أبو عبد الله يستعجل أخباراً، وينتظر وصولها بقلق.. فما إن وصل بيت أخته "خودة" حتى بادرت به بإعلامه بمجيء صديقه ابن الخلدن ومعه المطلوب..! وقالت لأخيها أن صديقه متحمس لأن يكون تحت أمره وفي خدمته في أية قضية.. فإذا ما احتاجه فهو يعرف أين يجده. فدعا للصديق خيراً..

فرح بالبندقية أيما فرح.. تناولها وفحصها ثم بدأ يفكك أجزائها.. ينظفها ويعيدها إلى وضعها.. ثم ناولها إلى شقيقته لتحفظها عندها حتى يأخذها عند السفر إلى الغرب مع عوان..!

وتشاء الظروف أن يسوق عوان إلى بيت خود في عصر يوم من أيام الأسبوع الثاني بعد وصول أبي عبد الله. جاءت تستطلع أخباراً سمعتها من النسوة على العين، مفادها: - أن الغرياوي عاد إلى "الكواكب" وهو الآن عند أخته خودة وقبل أن تجيبها خود ظهر أبو عبد الله لها.. وبحركات آلية لا سيطرة للمسكينة عليها، ركعت "عوان" على ركبتيها لربها تحمده على مجيء سيدها - على حد تعبيرها - ثم انكبت على يدي أبي عبد الله وقدميه تقبلها مرات ومرات بين مصدقة بحضوره وبين متشككة فيه - وكانت قبلاتها المتلاحقة مختلطة ببكاء الخوف

والحزن والشكوى والأمل.. فانهمرت دموعها وتسلسل منها الكثير إلى داخل جوفها فشرقت بها.. تبكي.. وتسعل.. وتضحك.. وتتكلم.. وتمسح دموعها - حتى انفلتت خودة وجارتها في البكاء.. واستدرت عطف الرجل وبدى ذلك في ندى عينيه وبللها..! وأخذ يمرر يده على رأسها يلاينها ويريت على كتفيها.. ثم أخذها بيدها وأجسها بقربه يحدثها ويطمئنها، ويبعث الأمل فيها..!

أبو عبد الله: "أبواكي في انتظارك.. وهما في صحة وأمان - وكذلك شقيقك الصغير أحمد - ينعمان بالاستقرار بين أهلهم.. وعلى أرضهم إن شاء الله..!

(واستدار هنا يجذب ذراع شقيقته جانباً ويسألها سؤالاً خفياً).. تجيبه خودة برفع رأسها إلى أعلى علامة النفي ثم يواصل حديثه:

يا نضرة: ترى نمشي مسافة ما يعلم غير الله طولها.. أو في الليل الطويل.. في الليل إندكري..! يومين.. ثلاثة.. أسبوع.. أسبوعين.. ترى بيننا وبين البلاد جبال عالية.. وبرية.. وبادية.. وفيافي.. وبعدين فكري..! بدك جوزك خليك عنده! بكرة تلوميني وتقولي: خطفني من زوجي وحرمني منه.. (وهنا قاطعته عوان معترضة بقوة تعرف وتذكر هي مصدرها!)

عوان: أنا يا عمي ما أخاف الجهجهون^(١).. وزوجي طابت روعي عنه، واطمحت نفسي فيه - بالمرّة - وإن شاء الله ما يجمع راسي ورأسه وساده

١- السير في عتمة الليل الشديدة بدون دليل .

واحدة، وما بدّي إياه، يا خلق الله! وبعدين يا عمي ما في شين عليك مخبّي! لا حيض ولا حبل! وشيخنا مقطوع نقة^(١)، وصار لا قول ولا شور! حاشاك، صار أصبر من حمار!

أبو عبد الله : ما دام الحال على هذا المنوال.. فخذني حذرك وكوني في انتظاري عشية بعد لقائنا هذا بثلاثة أيام..! انتظري في كرم منطقة العين.. في الكرم الأول تحت الدالية الكبيرة وانت وامك تعرفانها..!
عوان : حاضر يا عمي.. حاضر يا جملي..! (وهنا ذكرها بأمور تهمه فقال):

أبو عبد الله : تعالي مُترَهمة! بدون أية زينة عليك مهما كانت - تعالي مرّها - لا كحل في عينيك وسَلْتاء.. لا خضاب على يديك..!
ثم أمرها أن لا تنسى أن تضع اللثام على طرف شفرتها عند فجأة غريب في الطريق.

وفي عشية اليوم الثالث من لقائهما معاً.. كانت عوان حسب الاتفاق الذي جرى بينها وبين أبي عبد الله في انتظاره في الكرم الأول من كروم العين، حيث تنتشر فيها أشجار العنب والتين والزيتون.. تجاورها الأشجار الحرجية..

لمح أبو عبد الله عوان تحفها شجرة كبيرة من أشجار الكرم الوارفة، فتحجبها عن العيون، وتبعد سؤل المتطفلين عن تواجدها هناك في مثل

١ - منتهي لا هائدة منه. بليد . والنق يقايا من الإنسان والقدرة على فعل أي شيء

ذلك الوقت، فتبعد عنها التهمة والحرج والقييل والقال.. لم يصدّق عينيه أول الأمر! فقد ساورته الشكوك حول حضورها بسبب تغيرات مفاجئة قد طرأت على طقس ذلك اليوم.. تغيرات لم تكن في الحساب.. في حسابها على الأقل.. فقد تجلّل أفق ذلك اليوم بأحد أقواس الله الكبرى المقزحة بأبهى الألوان، وبزينة تامة.. مما ينذر ويبشر بالمطر في آن واحد..

أخذ بيدها وسارا وهو يُردّد على مسامعها المثل المعروف: "إِنْ قَوَّسَتْ بَاكِر.. إحمل عصاتك وسافر.." سارا ثم سارا حتى وصلا وادي اليبيس بعد سيرهما مسافة طويلة متجهين شمال مدينة الصيت.. وهناك.. أَكْمَلَتْ السحب ظهورها وأشكالها الكبيرة وكأنها قد قُدّت من جبال ضخمة، ومن صخور كثيفة مخيفة كأنها الظلمة والسواد، تبعث الرهبة في النفوس.

"أندورّ على مغارة دَفِيّة.. فالمطر نازل لا محاله..".

.. وفي مقام أحد الأولياء من الذين تحتضنهم المنطقة فوق قمم جبالها وفي بطون بساتينها بالقرب من مياهها الجارية الوفيرة.. نزلا.. كان المكان مهجوراً.. بناء مضت عليه عقود سنوات طوال.. الجدران فيه نصف متماسكة.. تكفي لحماية المستجير بها من الرياح وهي تتجه نحوه.. يحافظ رواد المكان على نظافة تراب أرضيته خوفاً من، واحتراماً لصاحب المقام..!

تمدد كل منهما في زاوية اختارها لنفسه من زوايا المقام.. كانت عوان - رغم تماسكها على ما بدا حتى ذلك الوقت - .. كانت تعيش حالة فريدة من القلق والخوف، والتعب، والرجاء والأمل.. في داخلها شعور بالكآبة والإغصاب، والسخرة والغربة، كانت منكسرة الخاطر، مُتَشَتِّتَةُ النفس، خائرة غير مجتمعة.. ضائعة تبحث عن مرفئ حنان، وعن شاطئ حب وانتماء.. محطمة القلب قد غُرِزَتْ في صدرها خناجر القهر والغدر لمدد طويلة لا تزال تعيشها، تصطرع في روحها كل تأوهات الألم والحسرة.. تتساءل ؟! وسط صَمَتْ الحياة وضجيجها وسخرية الأقدار وقسوتها إلى أين تذهب... وتلوذ وترحل ؟!

خلدت عوان إلى النوم - لم يتأكد عند "أبي عبد الله" إن كانت حقاً قد داهمها نوم.. أم كان ذلك منها إضطجاعاً على ما بدا له ؟!

أما هو فقد استلقى على ظهره يحاول عدّ النجوم وهي تحاول الانفلات أو الظهور من تحت السحب السود.. كانت تلك النجوم الشاردة بادية له ليرات عُثْمَلِيَّة تلمع من بعيد، تمثل في بُعْدها الشاهق ذاك، حُلماً بامتلاكها.. مشابهاً في بُعْدها !

صرف أبو عبد الله تفكيره عن شهوة حب الذهب وامتلاكه، وبدأ يفكر بهيئة صباح ذلك اليوم.. وظل مضطجعاً يحدق في سماء المقام النصف مستقوف، فيتأكد من ضيق المقام ورهيبته، بصحبة امرأة، تلك كانت حالتها..!

لم يطل تفكيره في الحال، فعدل إلى دنياه يتأمل ويستوعب.. فتعمُّ تأملاته دنياه كلها والحياة التي تموج فيها.. ولكنه سرعان ما شغل نفسه بأمر أكثر جِدِّيَّة عنده، وأقرب تسليَّة لنفسه.. فانْهَمَكَ.. في تمييز الأصوات التي كان يسمعها من بعيد، وهو في مكمنه ذاك، أثناء عتمة الليل البهيم.. كان يسمع أصواتاً.. وَجِبَلَةً وَلَغْطاً.. أصواتاً أخذ يميّز بينها حتى عرفها.. فارتاح لها.. وارتاع من أخرى، فانْكَرَهَا ونفر منها !

سمع أصواتاً وكأنها الموسيقى تنبعث من بعيد، وترسل الشجى في نفسه، فتُذَكِّره بأحزانه الواقعة.. أصواتاً مصدرها أغانٍ باكية.. تثير الألم. وإن لم يميز كلماتها من بعيد.. ومواويل مصحوبة بألحان، وكأنها الآهات، تُشَوِّقُ قلب السامع للإستقرار ولطيب المقام، وللتوقف عن التطواف والترحال.. عرف صوت طبل النور وتعرف على ألحانهم فتذكر أنه في واد اليبیس حيث كانت جماعاتهم من آنٍ لآخر تنصب خرابيشها فيه.. ارتاحت نفسية أبي عبد الله لتلك الأصوات رغم ما أثارته فيه من أحاسيس متباينة ومشاعر متضاربة أثارت فيه الشفقة عليهم لكثرة ارتحالهم وديمومة اغترابهم، وكأنهم يبحثون في حنين متواصل، عن مجهول يُصَرُّون على عدم التعرف عليه ؟! كانت أحاسيس أبي عبد الله في جيشانها تطلب ذلك المجهول وهو المعروف لديه..!

إرتاح أيضاً إلى صوت الرياح الحنون وكأنها امرأة ترسل حنينها إلى
مُهْجَة كبدها الذي نأى عنها وطال انتظارها له.. فاستبشر بها خيراً
وأخذها علامة ليوم سفر جميل، دون أمطار أو رياح أو عواصف..

واستمر يميّز بين الأصوات في ذلك الليل الدامس.. فاستمع إلى صوت
جرذان الحقول وهي تصفر بكأبة بادية وإلى الذئب في وجارها بالجوار،
تتضوّر جوعاً، وكلاب تسمع لها وقوقتها.. يغمرها الخوف وكأن ضباعاً
تحاصرها، وثعالب وبنات آوى في كناسها تصيح وتلول تطالب بحقها في
العيش.. وأرانب في مَكْوْها ترسل ضغيبها وكأنها تؤخذ فتتزع من
حياتها على حين غُرّة.. استمع إلى أصوات ملئت نفسه بأحاسيس الوجود
والعدم.. حتى الجنادب بالقرب منه والحباحب والصراصير يسمع حشرتها
وهي تأكل من أوراق الكومة وبين ثايا الحجارة.. فحمدَ ربّه - خالق
كل هذا وذاك - أما عوان فقد كانت مستغرقة في النوم وكأنها تتهرّب
من اليقظة لتتأى عنها!

كان الطقس في صباح ذلك اليوم على غير توقع.. طقس جميل:
السحاب فيه قد تراخت أوصاله، فضاعت أشكاله، وتفرقت قطعهُ
وكانها العهن قد تمّ نقشهُ..!

انطلقا إلى الغرب.. تسير عوان أمامه تارة.. كغزال بري سادر في قلقه
بدلال.. وتمشي بجواره مرات أكثر، يتحدث إليها فتجاوب مع تواصله..
وكانت إذا ما سارت خلفه.. استحثها على اللحاق به..

كانت العوان حينذاك ابنة الأربعة عشر خريفاً، ولا نقول ربيعاً.. فهي
لم تشعر باخضرار الحياة ولا بريبعها، رغم ما يوحى به حديث سنّها من
دلالات الخضرة واستمرار الحياة والعطاء الدائم..

كانت نضرة (عوان) سينديانة، إلى طول القامة تميل، حسنّة الخلق،
رقيقة ناعمة، صاحبة بطن وخصر دقيقين، بضّة بيضاء، حورية في
حسنها، حمامة في وداعتها، تجمع بين الوضاعة في الحسن والفتاء في
الصبا.. تحاول أن تكون متفتحة مثل كم زهرة جديدة مقبلة على حياة
مغايرة وعلى وجود جديد، وما رحيلها مع أبي عبد الله إلا بداية مشوار
طويل لتحقيق ذلك الوجود..

كانت خشنة القدمين والكعبين تلحظ فيهما الشقوق.. فقد قضت
سنواتها الأولى عند زوجها وهي صنّاع تعمل وتكد، كان لزوجها امرأتين
وهي ثالثتهما.. أُثْفِيَة قَدْر^(١) زوجها، ومع ذلك لم تحظ عنده بمثل ما
حظيت به ضُرّتاها.. هيئة عوان تعطي مثلاً حياً على نرجسية الرجل
وأنايته ! هيئتها تشرح لكل ناقد أنه ليس هناك من ظلم في تاريخ
البشرية مثل ظلم استعباد الرجال للنساء منذ أن كان للرجل الحق في أن

(١) حجر مثل رأس الانسان وتُصب قدور الطبخ على ثلاث منها.

يقتل زوجته كما يقتل عبيده في العهد الأول لإنسان الأسرة الذكورية -
ولم يكن لأحد أن يسأل عن السبب!!

لقد وَعَتْ عوان الخذلان المبكر.. اكتشفت تعاستها في أولى سني
عمرها!! حقاً.. لقد كان وراء ذلك الحسن واللطافة الخارجية دمار هائل
في روحها من ظلم الزوج.. والمجتمع.

سارا وهما يلتمسان الخَمَر - طالبين الستر - بتكاثف شجره أو
حجره.. يتحرى أبو عبد الله مواضع الأمان ويبتعد برفيقته عن مسالك
الخوف من الإنسان والحيوان جُهدَه.. فقد كان يعرف أفواه الطرق ومنافذ
السير.. تحدثا كثيراً وهما يسيران.. في أمور ليست عندنا اليوم بذات بال..
وعلى أية حال فقد انكشف له أن الرجل يلذ له أن يتحدث أحياناً مع
امرأة شجاعة ذكية.. وكان الحديث بينهما يأخذ فرصته عند كل
منهما، فيتحدث حول شئونه الخاصة ما يشاء له أن يتحدث..!!

ذات يوم - وقد بلغ الفتى ابن عبد الله شأوا الرجال - سأل أباه من باب
الفضول.

الفتى: أنا أعجب يا والدي.. كيف قضيتما تلك الأيام والليالي معاً.. في
سفركما ونحن نشعر أن مثل ذلك السفر - من الشرق البعيد إلى قريتنا

في الغرب - كان يتطلب ثمانية أيام بلياليها؟ أضف إلى ذلك أن المرأة
كانت في حالة تأيم تام بعد زواج كرية هربت منه.. ولعمري إنها كانت
طوع أمرك وهي في حالة تتجاذبها معك المخاوف والهواجس وأشواك
الرجاء مع أشواك من الرغائب والشهوات.. وأنت.. أنت.. شاب ما وخطك
الشيب بعد ولم تبلغ الأربعين من سني عمرك - المديد إن شاء الله -
تتمتع بكامل قوتك.. ويتمام فحولتك.. كلاكما محرومان، بعيدان..
كل منكما عن قرينه.. ولا أشك أنك محتاج حينذاك إلى أنثى تُفدق ما
عندها من أنوثة - ساخطة عليها - على ذكورتك.. وأحب أن أضيف يا
أبي إلى ذلك.. إلى ما سمعته مني.. إنني قد قرأت عن الإنسان الشيء
الكثير.. عرفت أن هناك حقيقة إنسانية لا يشك أحد فيها وهي: أن في
كل إنسان عفيف، شريف قدراً معلوماً من السفالة أو القذارة قد تظهر
يوماً فتفسد كل شيء جميل كان قد سبق وقدّمه.. وأعرف أيضاً يا
والدي (وقد بدأ الغضب يظهر على قسمات وجهه.. كرد فعل على سؤال
لم يتوقعه).. إن في أعماق ذلك الإنسان حتى لو كان شريراً، شُعلة للخير
تُضيء داخل سوية نفسه في اللحظة التي يريد لها إلهاماً للنفس من خالقها
يلهمها.. التقوى..

وبعتاب شفيف يردُّ الوالد على ولده:

أبو عبد الله: لا أريد أنؤكد لك "يا ولد" أن تلك المستورة من بنات
حواء نظيفة في شرفها وعفتها، نظافة بناتي الثلاث: شقيقاتك دلول ودلال

ونعمات.. كلهن، جميعهن.. الأربع بنات نظيفات نظافة حَمَامُ البيت الحرام.. في مكه.. إستهْدُ بالرحمن يا ولدي.. لا تجعل من حديثك ثُلُطاً كَثُلُط الدواب.. عُدْ إلى صوابك وارعوي!

الفتى: (محاولاً الإصلاح وتجديد رضى أبيه) صدقني يا أبي ما قصدت طعنًا، وما استيقنت شكاً، وما رميت ظناً.. وإنما قصدت وراء حديثك في موضوع أليف عندنا نحن الرجال وهو موضوع المرأة والرغبة فيها، وأنت تعرف يا ولدي أن هذا الأمر.. يشترك فيه الجميع من بين جنس الرجال، فما من رجل منا إلا وَصَالَ في عالم المرأة وجال، صولات حلال أو جولات هي الحرام.

وما أردت من أسئلتني إلا أن أستشيرك.. لنتحدث فيه، فأنت الرجل الذي عجمته الخطوب، وراضه الزمان، وحنكته التجارب - وأدبته الحوادث، رجل شجاع، أمين، وفيّ، شريف، يتحدث في موضوع النساء، وأنا أحب حديثه، إنني أتعلم وأتأدّب.. يا أبي!

لم يُعَلِّق الأب، وإنما نظرات منه كانت شَرْراً، توحى بها مؤخرة عينيه..! بعدها حَمَدَ الإبن، ولم يَسْطِعْ أن يُبدي المزيد من جواب أو.. تعليق.. رغم أنه ظل في داخلية نفسيته يتساءل بجِدال متواصل مع نفسه حول منظومة السلوك والأخلاق.. وهل تتراجع أو تصمد أمام الشهوة والرغبة الجامحة؟! وخالق الذكر والأنثى يقول في سورة النساء: "يريد الله

أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً" أي كما يقول علماء التفسير: "إذا نظر إلى النساء لم يصبر".

في الليلة الرابعة من سفر أبي عبد الله مع رفيقته، وقبل وصولهما نهر الشريعة في الغرب، في منطقة تسودها غابات السنديان - معطرة برائحة الخضرة - وشجيرات اللزاب والقيقب، وشجيرات عشبية تنمو على تربة حمراء فوق صخر كلسي، تكسوها أشجار التين والزيتون ومئات من النباتات والأزهار البرية مثل شقائق النعمان والدحنون والزعمطوط، واللوف والحميض، والأوركيد والأقحوان، ونباتات طبية مثل الجعدة، ورجل الحمامة، والميرمية والقدحه، والقرصنة ويخور مريم.

تشارك تلك الأشجار والشجيرات والنباتات والأزهار أنواع من أكلات اللحوم مثل الضبع والذئب والقط البري والواوي وأبو نواره، وكلها تبحث عن الإنسان وعن الأيل الأسمر، وعن الأرنب.. ومع كل أولئك ترى هنا وهناك تنوعاً حيوياً آخر، يدب فيه فأر الحقل والسنجاب والنيص والشيهم والخُلند والزواحف من سلاحف وأفاعي وسحليات خُضُر، تطير فوقها صقور الحوام، وعقاب الحيات، والهدهد.. والحسُون والبلبل!

وفي تلك البرية: برية العيون والجنان.. كانا يسيران، أبو عبد الله ورفيقته الفتاة، بدا لهما كل شيء هادئاً وفجأة أرعدت السماء، وبدأت في رعودها كدقات حرب على الكون الصغير، وفي لمعات البرقان ابتسامات تهزأ بها من الأرض ومن عليها.. برية قفر، فلاة مرّت.. مبطلّة من كل إنسان غيرهما.. أتت السماء بمطر شديد، فحفر طرقات له فيها بقوة عارمة أدخلته سرب الضبع فأخرجها منها..!

وفي تلك البرية تسلّط على أبي عبد الله أمر مخيف دفعه إلى أن يُعدّ له عدته: أمرٌ جال في فكره، وجرى في حدسه، فتحرك به خاطره وعبر عن ذلك في حديثه مع نفسه.. "إنه وقت ظهور الضباع".. ففرضت تلقائية الموقف أن ينقل بندقيته من فوق كتفيه إلى وضع جديد.. بين يديه.. وفيهما.. على هيئة من ينوي استعمالها في الحال! فتوجس رفيقته من حركته المفاجئة خيفةً كاسحةً.. وهو بين هذا وذلك يطلب من رفيقته أن تمسك يمينها بحزامه الجلدي العريض حول خصرتيه من ناحية يسراه. وأمرها بصرامة أن تتشبث به وأن لا تتراخي قبضتها عنه بحال..!

لحظات.. وليست دقائق.. حتى وقع الأمر الجلل الذي شغل نفسه..؟ ضبّع قد قفا المرأة بغتة! ومن غير مقدمات، فاجأها من غير أن تشعر به.. أخذ بضبعها^(١) وأدخلها تحت عضديه.. وأخذ يوالي صياحه وأصواته المنكرة.. لقد كان الضبع في ذلك أسرع من كل شيء يقوم به أبو عبد

(١) أي أدخلها تحت إبطيه: أدخل عضديها تحتها. أدخل كتفها تحت إبطيه في قفزه عليها

الله، الذي ظل يسمع صوت عدوه في هروبه السريع، وأصواته المريعة، وضراطه المنكر والمتتابع.. ومن غير معرفة الكيفية.. أرغمت طلبة أطلقها من بندقيته - أرغمت الضبع الجبان على الانسحاب من الميدان.. وألحقه أبو عبد الله بطلقة أخرى بعد أن ازداد تماسكاً ومجابهةً للموقف.. فبدأ بنهر الضبع وكأنه يراه ويسمعه بصوت مدوي يحمل دلالات التصدي والإصرار عليه..!

الضبع يخشى النار والنور، وكما حدث عنه، وكما رواه الناس حول الضبع.. من خلال تجاربهم وتعاملهم مع الضباع: يقولون أن الضبع يعرف فريسته، فيظل يتضبّع ويتسكّع بانتظار فريسة يختارها.. ممن يعرف - في قرارة داخلته العدوانية - أنه يستطيع الإيقاع بها وافتراسها بعد استلاب عقلها..!

المرأة؛ قد تمّ ضبعها تماماً.. وأخذت تتملّص، وتنفلت كلما أمسك أبو عبد الله بها.. تسير إلى الأمام مندفعةً، وكأنها تتساءل وتبحث عنه.. عن الضبع! تعرف وجهتها تتجه يمينا لتعود فتتحرف يساراً وهي تنحب وتبكي أشد البكاء.. وتتلطف بكلمات لم يتبينها أبداً.. كانت تتحدث.. وتقول ما لا معنى له.. كانت مفردات كلامها لا تتسجم قط مع موضوع الحال! في كلماتها الكثير من اللامبالاة.. تطلب الموت بصوت ضعيف بصورة عجيبة!

ولما رأى أبو عبد الله إصرارها على مواصلة مسيرة الموت خلف الوحش الكاسر - وهي بتلك الحال - لطمها بشدة متناهية: يبسط كفيه فوق خديها على التتابع، وكانت شدة اللطمتين عالية الوتيرة، مما دفعها - بلا شعور أو وعي، وبدافع الخوف والفرع - إلى القفز على صدره!! تعانقه بيديها الاثنتين، لوتهما حول عنقه، مع ثني ساقها حول وَسْطِهِ.. أحس ماجد حينذاك أن روحه قد خرجت من بين جنبه من فرط وهول ضغط ذراعها وساقها من علٍ ومن سفلى..!

توقف عن الحركة وأنزلها برفق وتؤده.. وهو يرى فروص رقبتها المضطربة، وأوداج عنقها المرتجفة ويحس بنبض قلبها قد خرج من صدرها، رأسها وأسنانها في رعدة واضطراب، بل ما من لحمة أو مضغطة بها إلا وفيها رعشة وارتجاف.. فجاشت نفسها، وطار عقلها فعاشت الخوف كله في مشاعره وفي معانيه.. فطلبت.. الموت!

ويتحدث أبو عبد الله عن ليلتها الليلية تلك: "كنت فيها عاجزاً عن التفكير في أي أمر، وعن تَبَيُّ أي سلوك، سوى أن أكون أكثر لطفاً، وأرق إحساساً وأوسع رحمة، تجاه تلك المخلوقة، أنزلتها برفق، والتقطت بندقيتي عن الأرض - وكانت قد حُلَّت عوان مكانها- طلبت منها الجلوس.. بل أجلستها بجانب صخرة قريبة منا.. وقلت لها: ما رأيته يا عوان غزال بري! تدلُّ عليك واحتضنك.. المنطقة.. منطقة غزلان.. ثم أنذرهما "إذا

بقيت على هذه الحال:.. أعيدك إلى زوجك.. إلى أهل زوجك في الكواكب.. اهدئي!"

أطالا الجلوس.. ولم يكن الفجر ببعيد.. فأعطى أبو عبد الله عوان فرصة لجمع شتات نفسها المبعثرة.. تفرَّستُ في وجهها وفي شكلها العام وهالني ما رأيته وما أحسست به! فقد اتَّسعت حدقتا عينيها، وازدادت سرعة دقات قلبها، وقَوِي ضَخُّه، مع تنفس صعب سريع، وتعرَّق غزير لافته! أَلَمْ راعشٌ داخلها وخارجها: في القلب وفي العين، في الجلد، في الشهقة والزفرة، والنبضة. في هذه وفي تلك تمتزج المشاعر وتصطك الأحاسيس - معاً - شدةً وحدةً، تتحوَّل إلى آهات مُشعَّة تحترق فيها المرأة المسكينة.. وتحرقني معها..!

تركته تبكي ما شاء الله لها أن تبكي، لعلها تجد في البكاء ما يسكن عواطفها في ذلك الليل الكئيب!.. ومن ثم تعود إلى حالة قريبة من الحالة الطبيعية التي كانت عليها قبل ضياعها..

ولعل الدموع تغسل روحها في محاربتها، فتطهرها من الشوائب التي علقت بها والتي من شأنها أن تُعيق إعادة هيكلة وجودها الجسدي والنفسي..

قررت تغيير طريقنا.. فاتجهنا غرباً إلى بلدة "فياض"^(١).. وهي بلدة أعرفها مذ لجئت إلى قلعتها.. قلعة "أواب" في ظروف صعبة لأكثر من

(١) بلدة كثيرة الماء معطاء تهب وتجوّد على سكانها.

مرة.. ومنذ تجوالي في بساينها الكثيرة.. وأكلي من رُمَانها.. الذي يجمع بين لذة الطعم وجمال اللون وبهائه..

وفي السلط يتواجد أصدقائي الرعاة مع أهاليهم الطيبين..

قصدتهم راجياً أن ينقذونا من المشكلة الفجئة، من مشكلتنا العوصاء، التي التاث علينا أمرها، ولم نعد نعرف كيف التصرف فيها وكيف الخلاص منها.. يساعدون رفيقتي البائسة على تعديل حالتها إلى الأحسن قبل وصولنا إلى بلدتنا.. وخاصة أن كبار السن من الرجال ومن المسنات، من أهل تلك المناطق، على دراية تامة في معالجة أمور صعبة تصيب المرأة. وخاصة من كانت في مثل حالة عوان.

وصلنا مع طلوع اليوم التالي.. وتجاوزنا السلط إلى الغرب حيث بيوت المنطقة كانت متناثرة بين الحقول والمزارع تطل على ضفاف النهر.. وعلى الأغوار، وسهول الأردن الغذائية.. وقفنا على أعلى جبل فيها.. ومن فوق قمته رأينا روابي أريحا.. ومآذن القدس.. وجبال فلسطين..

وعلى صخرة عالية استرحنا.. وكانت جلستنا طويلة استغرقت بقية النهار.. نمنا واستيقظنا.. ومن نبع المنطقة الشاي في شربنا، وقمنا بطقوس النظافة.. وكان حديثنا مشجعاً.. وله شجون..

ويتمم أبو عبد الله حديثه: أناس هذه المنطقة وأشجارها ودوابها يتسمون هواء بلادنا فلسطين يا عوان.. تأتي إليهم لينة مباركة.. من قرانا ومن جبالنا في فلسطين!

عوان: (بعد لأي وانقطاع.. لسماع كلام يبدر منها - وله دلائل ومعاني!) ما أجمل هذا المكان! بل ما أجمل بلادنا فلسطين..!

أبو عبد الله: لقد عدنا إلى بلادنا والعود أحمد دائماً إن شاء الله..

هنا يا عوان.. كان لقائي كثيراً مع أصدقائي ورفاقي من الرعاة نستريح ونغني.. وهنا كان موعدنا مع الشبابة والنأي وأغنامنا ترتع في الخصب..

قضينا ليليتنا في أحد بيوت الرفاق.. كان شريكاً في العمل أيام زمان.. أحاطت زوجته وأمه وجدته عوان بكل رعاية واهتمام.. بعد أن قصصت عليهم قصتها باختصار شديد..!

كان المطر يوم تركنا بلدة "فياض" - قد خفت وطأته، وتوقفت حفشته، وتحول السحاب فيها إلى نشء صغير لا قدرة له على أن ينسحب في الهواء! توقف المطر، توقف إلا من شأبيب خفيفة تضي على المكان قرقة ناعمة وتثير في النفس أفكاراً بائسة حزينة.. وصاحب توقف المطر لين في هبوب الرياح.. تصفر ألحانا فتبعث الضجر، وكأنها تحاول أن تفسر قصتها التي تضيق بها..

وانبعث من كل ذلك أشبه ما يكون بتهيدة أرسلتها الأرض تشرح فيها قصة التبدلات والتغيرات الأبدية التي ترهقها والتي تصيبها في الفصول، وفي الشهور.. وعلى الدوام وبلا انقطاع..!

والحقيقة أن الضبع كان من أكثر ما يفزح - سكان القرى، فيقتل الكثيرين منهم الغادين والرائحين في الليل في أواخر القرن التاسع عشر.. تقتلهم في بكوراتها بعد أن تستلب منهم عقولهم..!

كان أبو عبد الله لا يخاف الضبع أبداً - ولم تكن تلك الحادثة هي الأولى أو الأخيرة - بل كان سلوكه ينم عن عدم اكتراث به! فهو يعرف - كما خبرته التجارب مع الضباع - في رحلاته عبر المفازل والفلوات، واجتيازاته لمتاهات الأرض القفر، ومن خلال إقاماته الليالي الطوال مع الماشية، في المراعي والحقول وفي الجبال وفي السهول، وحول الوديان وعلى أطراف الحرجيات والأحراش.. عرف من كل ذلك، وعاش ما عرفه، حتى تأكد له أن الضبع يعرف فريسته من جمع كبير من بين المسافرين، أو السائرين ليلاً، ويعرف أنه يتهيب الاقتراب من رجل يحمل ناراً أو نوراً، ومن مسافر يؤمن بقدراته الكامنة في رجولته أو في أنوثتها، فهو لا يقرب أبداً، ولا يحاول مطلقاً أن يتضبع الراعي الشجاع، أو الشخص الجسور أو من يتمالك نفسه عند شدة الموقف: فينتهره بصوتٍ حادٍ ويلججه بالحجارة، وباللّعان والسباب، بصوت يعلو على ضحك الضبع وصراخه..!

(٦)

آمت

فرح والدا عوان بعودة ابنتهما التي آمت (صارت بلا زوج) من زوجها فعمّتهم البهجة ونضارة الوجوه حتى نطقت أساريرها فرحاً.. لقد تخلصت ابنتهم من عبودية عاشتها خمس سنوات مع رجل وهبت له زوجة بعد أن جاوز الثلاثين ووخطه الشيب مذ كانت طفلة في اللّفاع!

عادت ابنتهم وعاد معها الوعي والحضور تحت الضوء الباهر بعد أن عاشت في ظلامٍ دامس..! عادة لتحيا مستقبلاً واعداءً ممتلئاً بالوجود، بعد أن كانت مطمورة في هلكة الماضي. انتشر الخبر في البلدة بأن أبا عبد الله قد عاد من سفره بصيد ثمين، عاد ومعه امرأة صبية.. خطفها من زوجها.. من أحد غرمائه.. وانتشرت أقاويل وتعليقات تحولت إلى قصص وتراقص النقصان مصداقياتها - وغلبت عليها الزيادة المحذورة عند أبي عبد الله ورفيقته في درب الرحيل..! كانت كلها تصب في مقولة بغيضة: مفادها أن الرجل قد خطف المرأة من زوجها - من غريم له لدود..!٩

كانت البلاهة تطلب على أفراد عائلة عوان بلاهة تغلب فيها سلامة الصدر، وبراءة الطوية على أي مكر أو خبث أو نكران للجميل.. ولكن مما أسف له أبو عبد الله وحزن من أجله أن البلاهة قد اكتملت كرد فعل كريه، أمام فعل سفه القوم، وسخافة آرائهم في القرية..

كان من الصعب على والدَيَّ عوان وأهل حمولتها أن يقدموا تفسيراً أو أن يقبلوه! لذلك الانقلاب البين في سَحْنَة ابنتهم.. فقد بدا ذلك التغيير في بشرة وجهها وفي هيئة حالها وفي لون هذا وذاك عندها، مما أضفى عليها كرباً وكآبة وانكساراً، أخذ كل ذلك بزمام نفسها أياماً.. أزعجتهم، فشلت عوان أن تسرد عليهم قصة ضُبْعها.. وكيف أن شجاعة أبي عبد الله منعتها من أن تكون^(١) اللقْمَ لذلك الوحش الكاسر.

المحيطون بعوان راقبوها مدة شهرين متتابعين.. كانت فيها صريعة للقلق ولإفرازاته: خوف وتشاؤم، إحباط وكآبة، حذر وأرق، لازمها البكاء.. لم يعد لديها تركيز.. عاشت حالتين متناقضتين تعيشتين: تبلد عاطفي، ونزق وانفعال!

أوقفت تلك القصص، بل وأنذر أصحابها من قبل أحد الكبار في دار حمولتها، وهو الشيخ أبو العطايا المخاليفي.. من أصحاب الرأي في أهله وحمولته، يحظى باحترام أهل القرية لبعده نظره، واعتداله في كل أموره، ولجراته في قول الحق..

أخذ ذلك الشيخ على عاتقه معرفة الحقيقة ممن صنعها وعاشها، فزار الشيخ العُسلي بن سلامة في عَليَّته ومعه والد عوان - أرسل الشيخ العُسلي إلى أبي عبد الله - يطلب منه الحضور - الذي هرع إلى مكان اللقاء

(١) اللقم هو سرعة الأكل والمبادرة إليه.

مع عمه الشيخ.. فسلم على الجميع أحسن السلام وتغاضى عن وجود صديقه أبي عوان ولم يمد له يداً..!

وعلى نحو ما طلب الشيخان سَرَدَ أبو عبد الله قصة عوان من ألفها إلى يائها وهما ينصتان أعمق الإنصات تدبراً وإدراكاً.. وخاصة الموقف الذي تم فيه ضُبْع المرأة المسكينة، وما تبع ذلك من سلوكيات وتحركات ضُبُطت وتم السيطرة عليها بروح الشهامة والنخوة عند أبي عبد الله.. حدث كل ذلك ووالد عوان لم ينبس بكلمة، بل ظل مطرقاً برأسه إلى الأرض لا يجرؤ على النظر في عيني أبي عبد الله.. وعندما أتم أبو عبد الله سرد قصته أثنى الشيخان عليه، وشكراه على جهده وجهده، وقوة تحمله وصبره..

وعلق الشيخ بجملته مقنُضَةً وجهها إلى أبي عبد الله مخاطباً:

"يا أبا عبد الله! إن ما قلته - أمانة - هو نفس ما قالته رفيقتك في سفرك، فبارك الله فيكما الاثنين، ونحمد الله على سلامتكما بالعودة وبالوصول سالمين مستورين.."

أشار أبو عبد الله للشيخين بالتريث.. ثم عمد إلى - وعلى عينيها - معاتبة أبي عوان، عاتبه كصديق له - ذي موده - ذكره بما فرط بكلام صدر منه ومن أقربائه إليه من الإساءات التي آذته في الصميم! وبعد أن نجح الشيخان - بكياستهما وحسن تصرفهما - بتهديئة خاطر لأبي عبد الله الذي واصل حديثه مذكراً الشيخين - وأبي عوان أنه

سيظل الوفي لهذه الرفيقة وحامياً لها، حتى تستقر أمورها في بلدتها الجديدة، وانصرف... وانصرفوا.. وعادوا إلى منازلهم..!

مضى أسبوعان على ذلك اللقاء.. وبدأ أبو عبد الله يرتاد مضافة العائلة تارة، ومضافة البلدة ولقاء أهلها تارة أخرى.. حتى كانت تعليلة على غير ميعاد في دار الضيافة العامة للبلدة..

كان ما ميّز تلك السهرة حضور مجموعة من أفراد عائلة دار الصباح من "آل المراس".. كان حديثهم عالياً في طبقاته الصوتية، يصل ما يقوله الواحد منهم - وهو يُناجي الآخر - إلى الرجل الجالس في مؤخرة المجلس مهما كانت المسافة فيه بعيدة بينهما..!٩

كان الصوت العالي يميّز عدداً كبيراً وبشكل واضح للأذن وللعين - من أفراد تلك الحمولة حتى لتبدو أصواتهم عالية الجرس، قوية، صلبة في مخارجها وسريعة أحياناً!

في تلك السهرة كان يتواجد من الحاضرين، عدد محسوب منهم كانوا يتحدثون بالصوت الموصوف..!

بدى الأمر عادياً عند أبي عبد الله - أمر الصوت العالي وأصحابه، وخاصة أنه قد خَبَر وعَرَف الناس على الطبيعة في علاقاتهم في التخاطب وفي التنادي عبر المسافات التي تفصل بينهم في الحقول والحواكير والبساتين وعلى قمم الجبال.. وعبر الوديان بل في الحارات وبين البيوت، وفي التعامل مع الحيوانات الضالة والنداء عليها، وعلى تلك التي تذهب إلى

أماكن مجهولة.. ولولا معرفة أبي عبد الله بذلك وبأمر الحياة البسيطة حينذاك، من غير تقصير، لظن السامع أن القوم يتعاركون، أو أن خلافاً بينهم قد وصل إلى طريق مسدود، وإلى درجة من الحدة، لا بد أن تعقبها أمور أخرى أشد خطورة..

سمع أبو عبد الله متناجين من "آل مراس" يعلنان في مناجاتهما أن عوان سوف تزف إلى ابن عمها في البلدة.. وقع الخبر على رأس أبي عبد الله كصاعقة كادت أن تغشيه، وعلى أحاسيسه وإن لم تذهب بعقله..!!
أنتزّج وهي لا تزال على ذمة رجل آخر لا يزال حياً! أعني ذلك أنهم يستييحون زواجا يُعدّ من الكبائر..!٩

"غريب أمر هؤلاء الناس.. واستمر يحدث نفسه بين تساؤلات لا عدّ لها وأجوبة يحاول أن يقنع نفسه بها أو يتجاهلها.. ولكنه فطن آخر الأمر أن ما قام به من عمل شريف.. لا يقوم به إلا الجسور المقدام من الرجال، هذا العمل يُحتم عليه احترام نفسه واحترام عمله، وأن يأخذ موقف أهل عوان منه بعد أن نجح في إحضارها إليهم.. على مأخذ السماحة والعفو، وما بدر منهم لا يتعدى عن كونها إهانة صغيرة، صمد أمامها كالسندانية.. فقرّر أبو عبد الله تجاهل الأمر.. معاهداً نفسه ألا يصدر عنه عتاب أو يبدر منه ضدهم لوم أو هجوم.

أما: الإهانة - فسوف لا محالة تتلاشى في تلافيف الزمن، وفي أعماق النفس، فلا يبقى منها إلا ندبة باهتة تتحوّل إلى شامة جمال أو وملاحة حسن.

يُت أبو عبد الله لعوان أمراً يجري في صالحها. عندما يجيء أوانه. فأسرّها في نفسه ثم عاد إلى بيته، وقد حسم أمره أن يجاري ما يفرضه الفكر المسلم ويطلبه حسن التصرف، وجمال الذوق، ودوام النظام وفاعليته في الوجود.

مضى على الرجعة إلى القرية ثلاثة شهور، وتناست عوان ما حدث معها: وما أصابها أثناء رحلة العودة. فسارت تختال مع صبايا القرية. ذاهية أو قادمة. معهن. بثوبها الفلاحي الجديد، المميّز عن مطرقتها القديمة. تشمخ في ثوبها، وتفرح بألوانه الزاهية. والوردية التي تُحاكي انطبيعة وأزهارها.

تأكد عند أبي عبد الله خطوبتها لابن عمها. وظل ينتظر - على نار - مراسيم الزواج حتى بدأت. وفي ليلة من ليالي قرية 'الفلمستينية' القديمة غنّت النسوة في دار العروس كلمات غير تامة من أغنية مبتورة. كلمات بسيطة، ومعاني ساذجة. تتردد وتتطلق من حناجر نسوة أهل

العروسين. كلمات الأغنية تمس الألفة والكبرياء عند من يظهر ته أنه المقصود بها. كانت الكلمات تقول:

زوعنا ققوس... وأنت يا متعوس... شو باطلع بيدك!

زوعنا إختيار... وأنت يا هشار... ما، طلع بايديك!

ردّد أبو عبد الله في نفسه: أيها المتاعيس، سوف تعلمون ما أنا قاعل معكم. كم أشفق عليكم. في القريب سوف تعلمون. في الغد. والغد... لامحالة. آت!

انتهت ليالي الفرح والتهور واللعب والفضلة في دار أهل العروس. وفي عصر يوم خصّصوه لعقد القران: قران العروسين: تجمع القوم في ساحة الدار، دار والد العروس الذكر. فانتقوا حول رجل الشيوخ يشهدون معه على الزواج: وما هي إلا لحظات حتى افتتحهم أبو عبد الله في تجمعهم. فياشر رجل الشيوخ بكنمات مقتضيات. بعد تحية السلام.

أبو عبد الله: أيها الشيخ! إلقي كل شيء يخص هذا الزواج والذي أنت مقدم عليه!

الشيخ: ماذا تقصد أيها الرجل! ومن أنت؟

أبو عبد الله: هم يعرفونني. إسألهم! أسلك بدوري: ألا يوجد ما يبطل هذا الزواج...!

الشيخ: نحن في سبيلنا للتأكد من ذلك أيها الرجل أو هكذا كما تخيل إلي. وقالوا يشهدون.

أبو عبد الله: تباً لهم. أنت لا تصدقهم بكل تأكيد! فلن تقبل أن تهين نفسك بالإثم.. أو أن تخرج عن حدود الشريعة الملتزم بإجراءاتها الآن مع هذا القران..!

الشيخ: حاشا الله يا ولدي.. وأعوذ بالله من كل فعلٍ شيطاني رجيم..

أبو عبد الله: قم أيها الشيخ.. عروس اليوم امرأةٌ لزوج وعلى ذمته حتى الآن، وعلى حد علمي لا يزال حياً يُرزق، في بلدٍ بعيد من بلاد الله الواسعة.. سل أباهَا واستفسر منه عن ذلك.

الشيخ: بلا نداء ولا تلبية.. أستعيز بالله منكم ومن سوءاتكم.. قالها وهو يشير إلى القوم بكل ذراعه الممدودة.. وخرج الشيخ مهرولاً لا يلتفت وراءه. حدث كل ذلك وكأن الحضور في غيبة حجبتهما عما جرى.. فقد سكن القوم من هيبة القادم عليهم منذ لحظة دخوله واقتحامه لتجمّعهم.. سكنوا وكأن طيور الأرض كلها وجدت الأمن والاستقرار فوق رؤوسهم ولم تتفرّ عنها.. ونظر أبو عبد الله بكل هدوء نظرة فاحصة معبرة عميقة تحمل كل معاني الألفة والود والرفقة الطويلة والمصير الواحد في عيني صديقه وعيني زوجته.. "ثم انصرف - بلا حديث.. مطمئناً.. لما قام به..

لم تمض سوى ليلة واحدة على اختفاء عوان من بلدة "الكواكب" وفي الليلة التالية اجتمعت جماعة الزوج "بشر أب صخر" ورأت أن ما أقدمت عليه زوجة رجلهم، قد خرج على كل المعايير المألوفة.. ليس في بلدتهم وحدها بل على قوانين الجماعات والعشائر والقبائل في البلدات المجاورة وغيرها..! ما فعلته الهاربة عن زوجها أثار حنقاً عاماً عند رجال الجماعة الفاهمين للأصول والأعراف والتقاليد.. فاعتبروا هذا الأمر الخطير خارقاً يصيب الكل، بحيث ينفذ إلى دخائل حياة كل فرد في الجماعة.. فدرأً للفضيحة، ومنعاً للشماتة، قرروا التحرك بسرعة.. فنشروا خبراً.. لم يكن دقيقاً.. إشاعة.. لم تكن واضحة:

قالوا: إن "بشر" طلق زوجته عوان، وأنه قد سرحها وسفّرها وقام بترحيلها إلى أهلها خلف الشط الثاني لنهر الشريعة في الغرب.. ردد هذا الخبر أفراد، وأفراد وجماعات.. فلاحق ذلك الخبر اتهامات من كل جانب، وتعليقات، كلها مُرّة ومختلفة، دون روية، أو تدبّر وبالغوا في كل ذلك بالذي أضافوه للإشاعة من نسج الخيال أو واقع الحال.. دون تمحيص ودون وزن ذلك بميزان الحق والباطل.

وجد والد عوان، نفسه في مأزق اجتماعي، لن يتخلص منه إلا بالسفر إلى بلدة الكواكب.. فركب جناحي نعامة، وطار فوصل في أيام قلائل، في أربعة أيام بدلاً من ثمانية في أحسن الظروف! وفي الكواكب كان لقاءه بكل سرية - وفي غلس الظلام.. ظلام آخر الليل - مع أصدقائه يستطلع الأخبار منهم فساعده.. ودار الحديث بينهم:

الصديق الأول: قال مماًزحاً: "إحنا قلنا ماتت الحماره وانقطعت الزيارة! نحن نعرف سبب مجيئك إلينا".

النتشه: العين ما تعلی علی الحاجب یا جماعة الخير، وكل عشرة لا بد لها من فراق والمثل يقول: الي ما يريدك ما تريده شيله، لا بارك الله في العشرة العصبية.

الصديق الثاني: زوجها طلقها يا أبا أحمد.. والبلدة تعلم هذا الكلام وتشهد على طلاقها.

الصديق الأول: تروح على المدينة وتسأل عن ديوان الشرع.. الزواج والطلاق.. وتستفسر من الكتبة في الديوان ومن خدمها.. وتنطلي الواحد منهم اللي فيه النصيب! هذي الأيام: أي سند صرف تاخذه بنص مجيدي أو بضعة قروش.. هذي بلد "بلد كل من بيده إله".. حكومات كثيرة.. في كل مدينة حكومة مجموعة من القرى حول مدينة لها حكومة.. فوضى وماشية..!

والد عوان: بارك الله فيكم.. وما قصرتم..!

عاد والد عوان إلى قريته غرب النهر وبحوزته ما تمناه حسب الأصول.. وفي بيته زغردت "منعام" أم العروس وغنت ورقصت وشاركتها نسوة حملتها اللاتي تجمعن بعد أول زغروته.

وفي يوم عقد القران، أبدى رجل الشرع حنكة وذكاء وحذراً، فأرسل وراء أبي عبد الله وأطلعه على الأسماء كلها في مستند الطلاق.

وتمنى للعروسين السعادة والخير.. وتم القران.. والزواج..

كان لأبي عبد الله نصيباً ظاهراً في غناء نسوة ذلك الفرح: أم العروس - ولأكثر من مرة - غنت له: وتباهت من خلال مهااة خاصة ولأجله - غنت فيها فخرها بأخيها أبي عبد الله.. وكان لزوجته ولابنتيه (مدلول ودلال) المكان اللائق يجلسن فيه يتمتعن بالمشاركة في بهجة الفرح وقتذاك.. كل ذلك حسب نصيحة وتحذير.. لطمر الهوة البسيطة التي حدثت بين العائلتين: عائلتي أبي عبد الله ووالد عوان..!

(١)

فطرة القرين.. وحديث النفس

فطن "حجر الصخري" أن أبا عبد الله الغرباوي قد رحل من "قرية الكواكب" هارباً خائفاً، وسأيره في ذلك رجال عشيرته، فأمن وأمنوا - حتى أنهم قالوا بصوت رجل واحد، بصوت غباوة: "لا يرجع الغرباوي إلى عزه عندنا أو يرجع إليه شقيقه "رشدان".

كان اعتزاز "حجر" بنفسه عزة آثمة أوصلته حداً جعله يظن أنه بقتل فرد واحد ولو غدرًا، كما فعل مع "رشدان"، قد قتل قومًا لا قبل لأحد منهم أن يواجهه.. ظن مغروراً أنه قد قام بقتل كلاباً وقبائلها العشرة.. قتل غثها وسمينها.. وقد غاب عن حسه أن كبره قد أعمى بصيرته، وطمس بصره، وأن من قتل، قتله غدرًا وجبنًا وهو في أشد مراحل النوم ثقلاً وعمقاً، يكون فيها النائم في غيبوته أو تحت التخدير.. كأنه الموت.. هلك "رشدان" على يد "حجر" ولم يبق في العائلة البسيطة الصغيرة سوى شقيقه "ماجد" الذي لم يأخذ له في حسابه أي اعتبار أو شأن أو حق.. فألحق به الذلة والهوان، وأذل معه سهول الأرض التي سار عليها، والجبال التي صعداها ونزل عنها.. مما أورث ماجدا الحزن العميق الذي لم يُبارحه منذ أن ثوى أخوه في لحد..

لقد كان في تأخير حجر وقومه لطلب العطوة والاستئناس بالوسطاء والمصلحين.. لقد كان في تأخرهم وبل في تقاعسهم عن ذلك، إذلال من نوع حقير نزل بصاحب القصاص..

"والله لن يكون هناك أبداً صلاحاً ولا دية، ولا شفاعة ولا عفواً.."

ظل الغرباوي يردد هذا القسم مع نفسه في كل وقت يتذكر فيها أخاه المغدور به..

وكان أبو عبد الله شديداً في إيمانه بحقه في القصاص يستوفيه بنفسه، ولا محل لقصاصه في غيره أبداً.. بل لا بد أن يُعجل بتنفيذه، قبل أن يضره الدهر بضرته الهالكة.

وظلت مدارات الذاكرة عند أبي عبد الله تعيد عليه، وتحيي فيه ذكرى مواقف الإذلال التي صبها موقف قاتل أخيه فوق رأسه منذ أن قتل شقيقه.. تذكر كيف بقى جميع الذكور الشباب والكهول في عائلة الجاني وهم المعرضون للانتقام.. ظلوا في البلد مقيمين غير خائفين.. وغير مباليين.. أو معترفين بأي وجود له.. في البلدة. وقد كان الغرباوي قد قطع على نفسه عهداً أن لا يقتل أحداً غير قاتل أخيه، ولا أحد غيره.. مما أضاف لأبي عبد الله احتراماً فيما بعد.. عند أهل "الكواكب" عامة بل وعند أهل الجاني خاصة..!

لقد تنكّر "حجر" لأبسط العادات في تلك المواقف عند أناس تلك الأيام.. فقد عمد بكل خبل وهبل.. ألا يطلب كفيلاً يحميه من خصومة، بعد اليمين وإعلان براءته.. كل ذلك إستهانة واستخفافاً بالآخر..!

وذات يوم.. وقد سيطر هاجس الانتقام السريع على أبي عبد الله.. تحدث مع نفسه، واستمع لصوت آتٍ من بعيد، من أغوار نفسه السحيقة يناديه ويقول:..

الصوت (وهو القرين): يا ماجد! أخالك تشعر يا قريني بشرفك شعوراً مُغالٍ فيه، شعوراً لا وجود له بين لِداتك أو بين غالبية الرجال من الناس!

أبو عبد الله: حاجتي للقصاص من قاتل أخي تفوق كل حاجاتي النفسية.. والدنيوية. فلا نيّة عندي التعايش أو المسايرة مع المساس بالشرف أبداً..

القرين: كبرياؤك يقتلك.. ويجعلك تؤوّل الحقائق.. شرف..! شرف..! شرف.. تستند معانيها وما يمسّها من تشويه إلى أمور جاهلية لا قبيل لي ولا لغيري قبولها أو فهمها..!!

أبو عبد الله: الانتقام وحاجتي إليه حافزان يسيطران على ذهني ما حييت، ولن يفلح شيء في إقتلاعهما تحت أي ظرف من الظروف أو يصبح الانتقام نافذاً.. وعندئذٍ فقط يعود لي: صفاء النفس، ورضا الضمير، وهذوء البال.. وقرة العين..!

القرين: واللّه يا "ماجد" لا أرى الإنتقام إلا وهماً خادعاً.. يخدعك.. ويولقنك أفكاراً خرقاء، وألفاظاً جوفاء، تسترجعها وراءه.. ثأر، عار، شرف، ذل، كرامة.. ما رأيك يا ماجد.. إذهب إلى شيخك.. واستصحه.. إذهب إليه!

أبو عبد الله: ما بالك يا صوت؟! وما أنت إلا جزء مني، تستتر وتقدم النصح..! كل البشّر، وأنت تعرف ما سأقوله لك.. كل البشر يميل واحدhem إلى الانتقام من المعتدي. ألا ترى الطفل الصغير كيف ينتقم لنفسه من الجماد.. من حائط اصطدم به فأدماه، أو من مصطبة سقط عليها فألمته.. يُوالي شتائمه ولعناته عليهما مع ضرباته وركلاته.. في الحيوانات.. تجد هذا الميل الطبيعي للإنتقام..!

الصوت: صه.. صه! يا ماجد! واللّه إن غضبك وكبرياءك وغيرتك وحقدك قد سوّلوا لك الانتقام بأنه أسلوب شجاعة، تنهض به ليس باعتباره حقاً بل بوصفه واجباً كذلك! لك اللّه.. يهديك.. إلى.. الأقوم.. يا ماجد!

استفاق ماجد من حديث النفس فزعاً، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة.. وخشى أن يكون قد سمعه أحد أثناء حوارهِ مع القرين! ثم اتجه لفوره إلى منزل شيخه.. الشيخ ابن سلامة العسلي.. وكان الوقت ليلاً، وقت السهر: ماجد: السلام عليكم يا عماء..!

الشيخ : وعليك السلام يا أبا عبد الله، مَالِكٌ^(١)! والتجهم يكاد يخفى قسّمات وجهك التي عَرِفْتُ..! ماذا بك.. وكأنك عازماً أمراً تتفذه! وجئت مخبراً بالخبر، لا مستشيراً..!!

ماجد: نعم يا عماء.. أعرفك رجلاً فطناً، بارك الله لك في فطنتك وتمام عقلك..! تعلم يا عماء.. أنني قد حوربت، وسُفِكَ دُمُ أخِي.. والآن أعد العدة للحساب.. جئت أعلمك أني نويت..

الشيخ (مقاطعاً ومحدراً): إياك أن تفكر بذلك.. عيالك يا ماجد! ابنتان رفاق الريش.. وزوجتك.. لا مال ولا ولد.. كيف تتركهم.. وعلى من تُعَوِّل؟ ليس لهم غيرك.. نخاف عليهم وعليك يا ماجد.. تذكر أن الله يحب العافين عن الناس. أنا أعرف أنك قادر على الإنتقام.. وأتمنى أن أعرفك رجلاً قادراً على العفو أيضاً.. فهل أنت قادر عليه..؟ إتق الله يا ماجد في نفسك.. أو في عيالك..!

ماجد: والله لقد تساءلت كثيراً قبل القدوم إليكم من "الكواكب".. تساءلت: من يُرَجِّي بعدكم - يا عماء؟.. عيالي لهم الله، وهم مكتفون حتى أعود.. وما دام الأمر كذلك.. فلا أقلّ من أن تدعو لي بالنجاح في مساعي وبالعودة سالماً لهم!

الشيخ: إسمع يا ماجد.. (ولم يسعه الحظ والوقت أن يقول ما أراد.. إذ أتم ماجد حديثه بسرعة):

(١) أي شؤون من شؤونك قد غيّرتك.. ١٩.

ماجد: يا عماء: أما وديني الذي هو دينك ودين آبائنا وأجدادنا حتى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لا أحلّ حلالاً ولا أحرم حراماً حتى أدرك ثأري أو أقتل غير مأسوف علي! فبغى الباغي أقرب في السلوك إلى السفال. أما أنت يا عماء فقد أستوجبت المنّة علي.. السلام عليكم..!

وغاب ماجد غياب البرق قبل رعد.. عاد إلى زوجته.. فارتعدت فرائصها وهي تنظر إلى قسّمات وجهه التي حفظتها عن ظهر قلب، وعرفتْها وخبرتها في تغيراتها وفي استقرارها! وبادرتَه فزعةً باكية.. مَا لَكَ يا ماجد.. ماذا جرى؟

ماجد: سأسافر، وأنتي.. تعرفين الوجهة والهدف..! الزوجة: والله لا أرى لك الدهرَ إلا هَمَّ سَفَرٍ! واغتراب.. وطلباً للقتل والحراب..!

ماجد: الحرب لا تقرب موتاً يا عزيزتي، ولا قعودي في البيت يدفع حذراً، أو يأخذ ثأراً.. سأفرغ أيتها الزوجة من ذلك الكلب العقور حتى تصفو حياتنا.. وما وراءنا..

الزوجة: (منتحبة).. وماذا؟ أنا وابنتاك.. حتى متى نظل عيالاً.. ومن يرعنا.. من يحمنا إذا حدث المكروه..

ماجد: (مقاطعاً) الله يكلّكم ويحفظكم.. وعسى من الله أن أعود مكتسباً ومتزناً بجمال القصاص ولباس السلامة! فلا تبكي، والله لا

يمس رأسي غُسل.. ولا أقربك منذ اليوم.. ولا أتطيب ولا يعلّق بي عطر.. ما
لم أدرك تأري..! تعالي نستريح ونخلد للنوم..

وناما.. ونام ماجد تلك الليلة نوماً لم ينم مثله من قبل، من حيث سرعة
استجابته له.. نام كمن يستعجل أحلاماً موازية - في مغزاها وفي محتواها
وفي رموزها - لاتجاهاته، ولرغباته الشعورية.. قبل أن تتحوّل إلى واقع..!
ظلّ ماجد في الأيام التالية يُناجي النفس مختلفاً معها.. يتحاوران بما هو
مقدم عليه من أمر جَلَل.. وكان الحوار سجلاً بين "لا للتأثر" وبين "نعم"
تطالبه به. حوار عنيف شهدته الساحة الوجدانية فيه، حوار بين غرائزه
وخصائص الروح والفطرة فيه.. حوار وما هو بحوار،.. بل هو إلى الحرب
أقرب..

أسفرت الحرب الدائرة في نفسيته عن إخفاق شديد لـ"لا" وخصائص
الروح.. فقد أخفقت في أن تقصمه، وتمنعه عن تنفيذ ما انتواه وبيّته.
اقتحمت "نعم" داخلية أبي عبد الله من كل مدخل خفي حتى لبس
عليه الأمر، وعمّي عليه وجه القدرة على العفو، ومن هنا انهزمت جُند "لا"
وولت جيوش الفطرة السمحة مدحورة، لا تلوى على شيء..!

وقبل مغادرة ماجد.. قال لزوجته متصنعاً الابتسامة والمرح..!

ماجد: عند عودتي يا حبي إن شاء الله.. إذا لمحتني متجماً ومتزيناً،
مكحول العين بلون فحمة الليل وسواده.. ورأيتني قد جمعت شعري في
ضفيرتين مرسلتين على طرفي صدري.. فأطلقني الزغرودة.. مدوية عالية
الطبقة.. تسبح موجاتها عبر الأثير في كل البلد.. يسمعها من في الزنانير..
شرق البلدة ومن في الوادي الغربي.. في غربها..

طار أبو عبد الله إلى هدفه على جناحي عنقاء^١.. جاداً مسرعاً.. ولم
يطل به المقام هناك.. وكان قد أخذ العدة واتخذها لكل أمر.. ثم عاد
بنفس سرعة قدومه.. فلما رآته زوجته ممتشطاً متزيناً مكحولاً أطلقت
الزغرودة المتفق عليها مع زوجها العائد بالسلامة وبالنصر! أطلقتها مدوية
مكررة فسمعها الغريب في البلدة والبعيد فيها..! أطلقتها لتعلن فرحتها
بعودة رجلها وأب ابنتيها الصغيرتين.. عاد لهم سالماً وقد طابت نفسه
وشفيت.

١ هو طائر كأعظم ما يكون لم يبق في أيدي الناس من صفتها غير اسمها (لسان العرب)

تبلغ مساحة أرضنا في قريتنا خمسة وثمانين دونماً تتوزع في أماكن متفرقة في البلدة، وهي في توزعها ذاك تجاور كل قطعة منها أرضاً تعود لأحد أبناء عمومة الوالد:

ففي الشمال: تقع منطقة الجفير التي تبلغ مساحتها خمسة وأربعون دونماً تجاور جفير إبن عمه الشقيقين "محمد" و"سليمان" أبناء النجيب العسلي. وفي قرنة "الشعار" في أقصى شمال البلدة جاورت أرضنا - ومساحتها ستة عشرة دونماً - أرض ولد عمه الحاج مصطفى الشاويش.

وفي منطقة الغرب تقع منطقة "الزحيلة"، وفيها أرضنا البالغة ستة عشرة دونماً أيضاً تجاور أرض أبناء عمومته من دار النجيب. وفي شرق القرية، أرضنا في حريقة السلم، - مساحتها ثلاثة دونمات استولى عليها ابن عمه "مذؤوب بن محمود" بعد والده محمود! كما ضم إليه - أيضاً - أرضنا في جنوب القرية، وهي عبارة عن شرائط من الأرض مستوية ومنبسطة مجاورة للوادي الكبير، كانت تلك الشرائط "حبائل" متدرجة، الحبلة منها على شكل مصبغة، تامة الاستواء حيلة أي ممثلة بأشجار الفواكه المثمرة دوماً. والحبلة تعني هنا الممتلئة، ومن هنا جاء اسمها

وفي بداية عام ١٩٢١ عاد صاحب العينين الكحيلتين، عاد وهو صاحب الشعر المرسل خلف ظهره في جديلتين اثنتين على عادة رجال البادية البارزين في ذلك الزمن.. ومن ثم اكتسب اسماً جديداً. "ماجد البدوي"، وتوقيراً واحتراماً نادوه بكُنيتة "أبا عبد الله: وظلّت كنيته تلك دارجة على ألسنة الرجال والنساء في البلدة حتى وقت متأخر في عام ١٩٥٥ عند أفراد جيله ومعاصريه الذين شاهدوا له وشهدوا من أجله كل ما يدعو إلى الوفاء والتبجيل..

عاد إلى بلاده.. إلى فلسطين.. مسقط رؤوس آبائه وأجداده والأهل والعشيرة، رجع ومعه بندقيته "السواري" رفيقته في سفرياته - على الأقدام - بين الشرق والغرب.. يسير الليل، لا تبرحه في نومه ولا في سيره، ينام بعيداً عن الأنظار في النهار ويسافر في الليل برفقتها يختار مخبئاً في الأحرش.. يتحدى ضبعاً أو يُداعب جرو دُبّ أو فهد.. يختبئ مع بندقيته في حقول الزرع في الأغوار.. أو في بساتين الأشجار على سفوح جبال القدس وقممها.. يلف كتفيه وخاصريه بجَنَاد ذي عراوي عديدة تحوي ذخيرة بندقيته من الطلقات.. كان يحدث ذلك في الوقت الذي كانت تصل فيه عقوبة من تضبط عنده رصاصة فارغة في السجن لمدة ثلاث سنوات..

عاد أبو عبد الله.. فزادت هيئته عند الشيخ العسلي، وبين أفراد حملته، وكل من عرف قصته.. فكان موضع إعجاب واحترام.. من قبل الرجال والنساء.. على حد سواء.. في قريته "الفلسطينية".

وجمعها حبال - أي مصاطب ممثلة بالأشجار. (والحبل بالفتح وبالكسر).

كانت قصة الأرض بين ماجد البدوي - كما أحبّ أبناء عمومته الإصرار على مناداته - وبين أبناء عمومته من حمولة العُسلي تشكّل منعطفاً خطيراً في حياته وحياتهم على حدٍ سواء في مقبل الأيام فيما بعد:

طالب أبو عبد الله بأرضه من أبناء عمومته.. رفض الجميع إعادة أرضه إليه أولاً! وصمّوا آذانهم عن سماع صوت الحق في أرضه. لم يأبهوا باحتياجاته.. واستهانوا به. ولم يقدّروا محاولاته في التقرب منهم أو في إحياء انتمائه إليهم.. عاملوه كدخيل جاء يسلبهم الأرض.. حتى بدت زرقة اللؤم في عيونهم، وكثرة العقد في نفوسهم، واشتدت الصفرة في وجوههم المَقشورة! حاربوه أعواماً طويلاً، أرغموه على ارتياد المحاكم، واستمروا يرفضون الوساطات الخيرة.. ويضيقون عليه الخناق حتى أوقفوا الإتصال به، والتواصل معه! يتحاشونه في الطرقات، ويرفضون لقاءه في البيوت.. حتى بلغت مأساة ظلمهم له وجهها الشيطاني.. ثلاث عشرة سنة، يعيش بين ظهرائهم، وكأنه يعيش في البؤرة من جنهم.. غريباً رغم أنه في وطنه.. في قريته.. بين أهله.. وعشيرته!!

عاملوه كدخيل، تصنّعوا الشك في نسبهِ وأصله، جاء يسلبهم الأرض..! اشتد بغضهم، لقد رأوا فيه شاهداً غليظاً على اغتصابهم لحق

ليس لهم، فمقتوه وحقدوا عليه لأنهم لم يستطيعوا أن يتحملوا سماع قيم الحق والعدل داخل شخوصهم وهي تصرخ فيهم!

أبو عبد الله الغرباوي بين أهله أصبح الهمّ الوحيد الذي يجب أن يقاوم،.. وهو الوباء المستفحل الذي يجب أن يُكافح.. رأوا فيه الضمير الحي الذي يُمرّقهم، والذي يُقرّمهم، ويذكرهم بتقصيرهم معه في الوقوف إلى جانبه ومساعدته في استرجاع حقه المغتصب!..

ظل ماجد البدوي أو عبد الله الغرباوي - كما حلا لهم - يظهر في كل مكان، وفي أي وقت: في القرية، في المدينة، في الأعراس والأفراح والجنّازات.. في مواسم الزرع والحصاد.. يظهر في كل مكان وفي اللامكان.. في الأحلام والكوابيس! جعلوا منه المشكلة الكبرى لهم، ماذا يفعلون إزائه!.. أما هو فقد تعمّقت حيرته! فلا هم يعطونه حقه، ولا هم يتركونه يستقر وينعم بحال!.. لا أحد يرغب في قبوله، ولا في مصاهرته.. في الوقت الذي كان فيه عزّاب حمولة دار العُسلي - على الأقل - يبحثون عن زوجاتٍ لهم من بين نسوة القرى المجاورة، فاضطر أبو عبد الله أن يُصنّر إلى شباب - وما كانوا يوماً شباباً مرّجوا بالمرّة - من حمولة "بني الفتيلة"، إحدى حمائل البلدة التي لا تمت إلينا بأية صلة أو قرابة!.. فزوج ابنتيه "مدلول" و"دلال" لشابين من دار أبناء تلك الحمولة بعد أن اقتربت ابنته الثانية من العنوسة!

ظل ماجد الغرباوي ينفق كل ملهم يحصل عليه على استرجاع الأرض حتى وصل به الحال إلى أن يشتري طحين خبز اليوم الواحد في المرة الواحدة.. يشتريه بالكيلوجرامات، في الوقت الذي كان فيه مذؤوب بن محمود وغيره من أهل حملته "العُسلي" يخزنون قمح العام كله - زرعوه في أرضه وحصدوه منها - في خوابي الشتاء وبراميل الصيف رغم رخص نفقات المعيشة في ذلك العهد، حيث كان الكيلوجرام من الطحين يُشترى بعشرة مليمات أي بقرش فلسطيني واحد!!

لم يقف أحد بجانبه لمساندته في محاولاته استرجاع أرضه سوى الشيخ ابن سلامة العُسلي.. الذي لم يكف أبداً في محاولاته المتواصلة ولسنين عدة عن إقناع أبناء حملته بإعادة الحق إلى نصابه. والأرض إلى صاحبها، وظل الشيخ ملتزماً بذلك الموقف الصادق إلى جانب ابن عمه ماجد بن السيدين، بنية صداقة.. حتى نجح بعد سبع سنين في إقناع أولاد "النجيب" بالموافقة على إعادة أراضي منطقتي الزحليقة والجفير إلى صاحبها، ولم يطل الأمر حتى رضى الشيخ مصطفى الشاويش فتصرف تصرف أولاد النجيب. وفي لقاء "لماجد" أبي عبد الله بعمه الشيخ، جرى - بعد عودة الأرض إلى الأول الحوار التالي:

الشيخ ابن سلامة : يا أبا عبد الله! مبروك عليك أرضك - وكنت أظن أن الزمن لا يعود إلى الوراء.

أبو عبد الله : ولكن الأرض لا تزال ناقصة.. ولست أدري إن كان مذؤوب بن محمود ناوياً معي على الخير أم على الشر..!!
الشيخ: المهم أنت..! لا تبدأ الشر معه! فالردُّ على الشر أقوى من البدء به، والمثل يقول: الشر بالشر والبادئ أظلم! قل لي يا ماجد ما قصة مدلول والنُصية^(١) ومذؤوب!!

أبو عبد الله..: هو موقف قام به مذؤوب مع ابنتي مدلول ابنة التسعة أعوام.. أحببت على طريقتك أن أبعث حياة في وشيعة القربى التي تربطني مع "مذؤوب"، فأرسلت الصبية بنصية تنكة ليملاًها بثمار التين الشوكي^(٢) - مهما كان عددها.. فبدلاً من أن يكرمها! عمد إلى خطف التنكة منها، وطوّحها بيده الطويلة بعيداً حتى ضاعت في الهواء.. وفي الأرض..! حدث ذلك في لحظات كانت كافية لأن تعصف بنفسية الصبية! فعاشت أياماً باكية منهاراً كانت فيها مهيضةً، منكسرة في حزن.. وكانت في الأسوأ من الأحوال.

(١) نصف التنكة يقال لها نُصية .

(٢) فاكهة الصبر .

لم يتوقع أبو عبد الله من ابن عمه "آل مذؤوب" أن يقف موقف الخذلان مع طفله "مدلول"، فأصرها في نفسه، بعد أن أصابته هدة شديدة أحسَّ وكأن خناجر اللثام تتسابق في طعن قلبه المرزأ، وأن حرائق الحساد تحيط به.. وتلتهمه مشوياً..!

وفي صباح اليوم التالي، استيقظ من نوم متقطع عند انسحاب خيوط الفجر أمام شروق شمس يوم جديد.. وكانت شمس ذلك الصباح استثنائية في رسائلها وهي ترسلها عبر أشعتها الذهبية تنشرها بين عناصر المنظومة الكونية. أدرك أبو عبد الله رسالته الخاصة منها.. فامتثل لأوامرها. وأخذ يتمتع ناظره برؤية ضوء الشمس الذهبي وهو ينسكب فوق الطبيعة، فيرتد لمعاناً يتفاوت بريقه هنا وهناك، فانتقل أبو عبد الله إلى متعة العقل وبدأ يسرح في عالم الألوان والخيال والإبداع.. يستمع إلى غناء العصفير تحت أخواتها على رحلة اليوم لجمع القوت وترسل إليها إشارات واضحة بأن الطائر الباكور يصيد دودته في أمان وهو بعيد عن الإنسان.. إشارات وإشارات التقطها أبو عبد الله..! فهمها. فبادر إلى تنفيذها.. وخاصة تلك الإشارة الخاصة التي تهمة بالضرورة في المقام والحال.. فقرر قبول التحدي.. قرر أن يواجه مذؤوب، وجهاً لوجه، وفي نفس المكان الذي نال فيه من خاطر ابنته وبراءة الطفولة فيها.. وفي عصر ذلك اليوم، ترصده أبو عبد الله في أرضنا في "الحريقة" فحضر مذؤوب والكبر يغشاه، يئترز الخيلاء البادية في مشيته وفي وقفته، وفي لفتته اليمنى واليسرى في حال

لم يكن يرى فيها من السماء قدر تُقب دبره..! وقد حرص أبو الصبية أن يبني له قبراً وهمياً شكله من حجر وتراب تحت شجرة مشمش.. فلما وقف عليه مذؤوب نظر القبر طويلاً صامتاً. وأطال سكونه حتى بدا لأبي عبد الله أنه قد فهم المغزى وما رمى إليه الموقف.. لم يتعد رُد فعله الرجوع إلى الوراء بظهره والإنصراف من الحقل بسرعة.. كمن يعرف أن باني القبر قريب في الجوار.. تعجب أبو عبد الله ولم يصدق عينيه وهو يراه يتراجع وينصرف لا يلوي على أرض. وهو صاحب بسطة في الجسم وضلاعه في الجسد، ظاهرة للعيان.. ولو حاول معه تعاركاً لتمكن مذؤوب - بكل هوان - من بطحه صدرأ أو سلكه ظهرأ.. هذا إن لم يصصره صرعة لا يقوم منها..! ولكنه الجبن يعشعش عادة في ثايا نفوس الظلمة وفي أباطيلهم.. كان مذؤوب يرى في ابن عمه مارداً رغم قصره! يتمطق دائماً بخنجر طويل النصل، يترصد الواقف بمرصاده.. خنجر يبعث الخوف في نفس الراقب^١ له - في قربه وفي بعده - إذا ما حدثته نفسه بالشر، من خلال عين وردية حمراء كالدّم، تتمثل حمرتها القانية في خرزة كبيرة تتوسط يد الخنجر..!

وكرر أبو عبد الله موقفاً آخر للتحدي، بل للتقابل والتحارب.. عندما صادف - بعد أيام فقط من حادثة القبر الوهمي - زوجة مذؤوب بن محمود "أمنة خضر الفتيل"، صادفها في أرضه في منطقة الحبايل.. تناولت

١ المراقب له والناظر إليه.

آمنة عليه بالسباب.. سبّته مراراً حتى فُسِقت..! وشتمته بغلظة، وهو ساكت، ما نوى شراً ضدها يوماً، ظل صامتاً لا يعيرها الإهتمام.. حتى بدرت منها كلمة اشتم فيها رائحة الغمز: تُعِيرُهُ بموت شقيقه قتلاً! فطار فؤاده، وضاع رشده، وغاب عقله، فصفعها صفعه واحدة فوق وجهها، كانت القاضية على حاسة البصر في عينها اليسرى.. فقد عُوِرَت وكفّ بصرها منذ تلك الضربة..! وعاشت عوراء بعين واحدة.. حتى وافاها قدرها..!

ومع كل ذلك بقيت أرضنا في "حريقة السلم" وفي "الحبائل" ممنوعة عنا، مباحة لمذؤوب يعيش فيها كيفما شاء.. فضلت الأرض الشغل الشاغل لأبي عبد الله، وهو لا ينسى ذكرياته مع والده عبد الله، وهو يجالسهم حول كانون النار في الشتاء.. يجالس ولديه ماجد ورشدان، وهما غلامين صغيرين، ثم شابين راعيين.. كان أبوهما يحكي لها عما في ذاكرته من القصص والروايات حول وجوده، ووجود أجداده وآبائه وأهل حمولته في بلدته.. حدثهم كثيراً وبشكل متواصل لا يَفْتر - من حديثه ذاك عرفاً البلد والأرض.. وكان الجد عبد الله - رحمه الله وغفر له - لا يفتأ يردد على مسامعهما مقولة حميدة.. "إن مات الكبار... فلن ينسى الصغار أرضهم".

فكرة واحدة ظلت مسيطرة على الجد عبد الله ثم انتقلت الفكرة إلى ولديه.. نفذها ماجد: وهي فكرة العودة إلى الديار.. العودة إلى الأرض..

وقد غرس الجد في ولديه مقولته الصادقة وهي: "إن هجرتنا إلى أرض الغربة يجب أن تكون ذات طبيعة مؤقتة". وبهذه الطريقة حفظ ماجد البدوي درس الأرض جيداً.. يعرف تفاصيلها: حدودها وما جاورها وأصحابها، ومتأكد من مواقعها.. ويقدر ما تتميز به من عطاء، ثماراً كانت أو حبوباً أو خشباً للتحطيب. وقد حدث ماجد - رحمه الله - أبناءه كثيراً بدوره - على غرار حديث الجد إليه - عن الأرض وعن كل شيء في حياته.. وكان يوصيهم دائماً أن نُعلِّم أبناءنا وأحفادنا درس الأرض.. نعلمهم جغرافيتها الكاملة حتى الحاكورة الصغيرة.. والأشجار.. ونظل نكررها على مسامعهم حتى تبقى الأرض مصورة في وجدانهم كما وصفها الجد أو الأب للولد أو للحفيد..!

بقيت الأرض الهاجس الموجه لأبي عبد الله طيلة صراعه من أجل استرجاعها، كانت همّة الأكبر الذي ينام معه، وحريره، يرافقه في غدواته وروحاته بين القرية والمدينة.. يزور ويتردّد على المحاكم في القدس، يحضر المحاكمات يستمع إلى القضاة حول الأرض ويجالس الشكّي والمشكّو، أثناء الاستراحات، فيزداد معرفة واطلاعاً على ما يدور حول الأرض، وبين الناس بسببها.. يسمع ألواناً من التهم غريبة عن

منطقه وليس له معرفة بها على الإطلاق.. يسمعا في قاعات المحكمة،
وما يعقب ذلك من دفاعات.. ومرافعات.. صور جديدة..! لضياع الأرض..!
تطبع في وجدانه..!

(٣)

واقع البلد

لقد كان واقع البلدة أمام الوافد أبي عبد الله مرأً كالحنظل.. لقد
تكشف له بشكل فاضح من غير موارد.. مساحة بلدته كانت نيماً
 وخمسة آلاف من الدونمات، تسرب منها خمسها إلى يهود.. خمسة من
أبناء البلدة ينتمون إلى كل عائلاتها.. عرفوا بأسمائهم.. خمسة من المغفلين
 أولهم تاجر باع أرضه لتتسع تجارته! لا بسبب عوز أو حاجة.. وثلاثة آخرون
 من قصار النظر، لا يفهمون الشر! بل غافلون، لا تشفع لغفلتهم سلامة
الصدور ولا حسن الظن بالمواقف والأمور. باعوا الأرض وقد فهموا
الفكرة "اليهودية الأممية" - التي كانت سائدة أواخر القرن التاسع عشر
 - فهماً.. فهماً مغلوطاً.. كأن ينظر لعمله ببيع الأرض لليهود عملية تحفزها
وتباركها حوافز إنسانية بحتة.. باعوا من أجل أن يزوجوا أولادهم..! ولدان

منهم كانوا من المعوقين (Exceptional).. باعوا إلى يهود، إستوطنوا
الأرض التي اشتروها.. باعوها إلى آرييه مكلف، وشموئيل بروزة.. باعوها
لن قاد عملية طردهم من قريتهم قبل أن يجعلوها قاعاً صفصفاً عام
١٩٤٨م.

ولقد عرف أبو عبد الله مزيداً من قصص الأرض في مناطق "الجنانين"،
والسفحة، والقصبة والدباغة والبزونيا وفي منطقة الشعاب والحصاميص
والجبل، تريض فوقها مستوطنات.. قد تسربت إلى يهود.. باعها أصحابها
من أهل القرية أولاً إلى ملاكين متنفذين من عوائل مقدسية شهيرة..!
باعوها لهم أو انتقلت إليهم بالإكراه ومن ثم انتقلت منهم إلى يهود..
فامتلكوها!

ويذكر أبو عبد الله قصة بهذا الخصوص فيقول: "كان لقصر
الحسيني في البلدة.. وصاحبه سعيد الحسيني خال مفتي فلسطين الأكبر
حينذاك - القصر القابع فوق ربوة تحيط بها أشجار معمرة ضخمة من
السرو وغيرها تتخلل المنطقة آبار ضخمة حول أنقاض بنيان روماني
معقود، يطل هذا القصر على مستعمرة مقامة فوق أرض القرية كان قد
اشتراها يهود من أصحابها من أهل البلد.. ومن ثم تحكموا بطريق القدس
- يافا قبالة البلدة - ولهذا القصر ولأهله في لقاءاتهم بأهالي البلدة ورجالها
ذكريات: يتحدث أهل القرية حول لقاء تم بين ابن اخت صاحب القصر
وبعض من رجالات بلدتنا كبار السن، يهمننا هنا الشيخ مصطفى

الشاويش.. وكان موضوع الحديث بينهم حول زحف اليهود وشرائهم للأرض وبناء المستوطنات فوقها.. وكان قد تساءل المتحدث وهو صاحب القصر عن كيفية وقوع كل هذه الأرض (وهي أكثر من ٢٠٠ دونماً) بيد يهود.. فيقيمون عليها مثل تلك المستوطنات الفضة! فيجيبه الشيخ مصطفى خليل الشاويش رحمه الله بحدة وعصبية وهو يقاطعه "مهو سيدك إنني باعها" - وكان أخفأ - أي جدك هو الذي باعها إلى اليهود.. وفي رواية أخرى عند آخرين من أهل البلدة "فهو خالك الذي باعها لهم".

ويعترف جمال الحسيني أن نسبة ما اشتراه من الفلاحين الفلسطينيين في أواخر أعوام العشرينات وأوائل الثلاثينات بلغ ٢٥٪ من مجموع ما اشتراه من الأرض في ذلك الوقت..

وكان أشد ما يثير حفيظة أبي عبد الله، وما يؤلم فؤاده، ويفجر غضبه في صدره.. أن الذين باعوا أرضهم من أبناء العائلات الثرية: من أثري العائلات المقدسية واليافوية والنابلسية، ومن عوائل أخرى ثرية جداً، كانت قد هاجرت إلى المهجرين في الأمريكيتين - كانوا في تمام الغنى.. لم يكونوا بحاجة إلى مال ولم يعانون من جوع أو حرمان.. وقد صدق الشاعر الفلسطيني من أهل نابلس في وصفهم.. وصفهم في مفارقة لطيفة من مفارقاته الشعرية عندما قال:

باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعاً بالمال لكأنها أوطانهم باعوا
قد يُعذرون لو أن الجوع أرغمهم والله ما عطشوا يوماً ولا جاعوا
وبلغة العار عند الجوع تلفظها نفس لها عن قبول العار رداع
قاصمة الظهر عند أبي عبد الله آنذاك كانت تتمثل في الصداقات المريبة بين أعيان العائلات المقدسية والعوائل الأخرى في المدن الفلسطينية عامة، وبين يهود، صداقات لا تفسير لها إلا أنهم أي أعيان العائلات كانوا من أصحاب فلسفة الذرائع وحصول المنافع.. مصالحهم الخاصة هي أهدافهم المقدسة وفي سبيلها يضحون بالدين وبالخلق وبالأدب وبالحياة.. كانت تلك الصداقات تتبئ بكل وضوح أن فلسطين سوف تضيع، وأن سياسة إنشاء الوطن اليهودي فوق أراضينا سوف تتجح وتتحقق على أرض الواقع.. صداقات أتذكر منها.. نقلاً عن ماجد الأشوس بن السيدين وعن غيره من رجالات البلدة الطيبين والغيورين.

كان لأحمد سعيد أفندي الحسيني ولأولاده من بعده سعيد وحسام الدين ورأفت الحسيني كرمًا واسعاً للعنب بجوار كرمين يعودان لليهوديين "رحماميم، وبيغش"، في أرض حريقة السلم بالقرب من أراضي عين طلحه، وقد دأب ولده سعيد أفندي الحسيني على تضمين أرضه تلك لليهودي "شموئيل بروزه"، بحكم صداقته المتينة به، والذي قام بدوره بقلب الأرض وبالعناية بها حتى جعلها من أجود الكروم يستغل غلتها من العنب في معصرة داخل مصنع للخمر بالقرب من منزله في المستوطنة،

إلى جانب مصنع للمربي يصنعه من فواكه بساتين القرية ومن حقول القرى المجاورة.. وساهمت مشاركة سعيد أفندي الحسيني لأبي روزه في أرض له في منطقة الحصاميص في توثيق عروة الصداقة بين سعيد الحسيني ويهود، وكانت صداقة أبي روزا وسعيد أفندي الحسيني مثلاً يحتذى عند الآخرين من أبناء الذوات.. ذوات الفطن الغائبة.. والضماير الخربة..! كما يشارك سعيد أفندي الحسيني في ملكية - تحكمها وتتحكم بها صداقة محكمة - أراضي السفحة في البلد وأرض أخرى تقع شرق البلدة في منطقة عين طُلْمَة، يشارك فيها اليهوديان رحيم وبيغش! ويشارك رشدي أفندي الحسيني أولاد اليهودي رحيم في ملكية أرض في منطقة السفحة فوق دارة الشيخ اسماعيل آل مراس في ملكية أرض أخرى في أرض البياره يشارك فيها اليهودي "داود يلن"!

ومن آل نسيبة شارك يحيى نسيبة يهوداً نشيطين من مهاجري الدفعة الأولى؛ رحيم وبيغش وشموئيل بروزا وداود يلن، شاركهم في ملكية أراضي في منطقة عين طلمة شرق البلدة وفي منطقة أرض البياره في الجنوب..!

وتحت ظروف الديون الفاحشة وضغوطها.. الديون التي تراكمت على أهل بلدتنا من جراء عجزهم عن دفع الضرائب المستحقة على الأرض الخاصة بأهل البلدة، في منطقة "دير نحلة"، شرق قرية عمواس، وغرب

قرية القباب، على طريق الرملة - يافا.. تقدم أحمد أفندي الحسيني واهتبل فرصة دفع تلك الديون من الضرائب!

ودفع الضرائب المستحقة عن تلك الأرض في سنوات ١٩٣٣، ١٩٣٤، ١٩٣٥، ١٩٣٦ و ١٩٣٧ مقابل أن يشاركهم في ملكية تلك الأرض..! في تلك الفترة الزمنية ارتفعت فيها نسبة ما باعه كبار الملاك من العائلات الوجيهة الفلسطينية من ٢٠.٨٪ إلى ٦٧.٧٪ مع أن أحوالهم كانت أحسن حالاً بآلاف المرات من أحوال الفلاحين الفلسطينيين.

ويقول الدكتور محمد خله في كتابه القيم "فلسطين والانتداب البريطاني" أن قسماً كبيراً من الأراضي التي باعها الفلاحون للملاك الكبار من العائلات الفلسطينية المتنفذة أو تآزلوا لهم عنها أو جعلوهم يشاركونهم في ملكيتها (كما هو الحال في قصة أحمد سعيد الحسيني وأرضنا في دير نحلة) هذا القسم الكثير من تلك الأرض قد انتقلت إلى يهود..!

ولجأ الفلاحون إلى تلك المواقف لحمايتهم:

١. من الديون الفاحشة وفوائدها الربوية التي تراوحت بين ٣٦٪ و ٦٠٪ في العام.

٢. من سطوات البدو وغزواتهم، مقابل حمايتهم!

٣. أو لإعفائهم من التجنيد في خدمة إلزامية في الجيش العثماني..!

وكما تسابق أعيان عائلة الحسيني إلى صداقات مع يهود وإلى مشاركتهم في الأرض، شركاء وضامنين، وأخيراً كبائعين.. فعل مثلهم وجهاء عائلات يافا وحيفا ونابلس ومدن الجليل وغيرهم.. في جميع مناطق فلسطين في الشمال وفي الجنوب وفي الشرق وفي الغرب..!

قلت أن واقع البلدة أمام الوافد أبي عبد الله كان مرأً كالحنظل.. بل وصل إلى تفانٍ غريب في خدمة يهود المستوطنة - التي أقيمت على أرض القرية والتي تسربت إليهم بطريقة أو بأخرى - وحرصهم الشديد على مصلحة يهودها..! كم كانت الصدمة التي صدمت أبا عبد الله عندما عرف أن أربعة عشر امرأة وخمسة وأربعون رجلاً يعملون عند يهود المستوطنة.. النسوة يشتغلن في خدمة البيوت وحلب البقر، وحاملات للطوب أو في تغليب عبوات المربي في مصانع المستوطنة..

كان يهود المستوطنتين القريبتين من قرية "الفلستينية" من مهاجري الهجرة الأولى الذين استوطنوا القرية في أعوام ١٨٨٢/١٩٠٣م، وكانوا لا يؤمنون بنظرية "العمل العبري"، ففضلوا استخدام العمال والفلاحين العرب ونساءهم لأجورهم الزهيدة ولخبرتهم الزراعية المطلوبة عندهم.

وكان يهود المستوطنة بالجوار وعلى أرضنا على النقيض من مهاجري الهجرة الثانية الذين وفدوا على فلسطين في أعوام ١٩٠٤ - ١٩١٤، والذين رفضوا بشدة استخدام وتشغيل الأيدي العاملة العربية مما يؤدي عندهم إلى تناقض مع هدف الصهيونيين الرامي إلى التهويد التام: في العمل.. في الزراعة.. في الثقافة.. في الاقتصاد.. في كل أمر من أمور الحياة.. وقد أفرزت تلك المجموعة الشوفينية المتعصبة الرعيل الأول من الزعماء "الوطنيين" اليهود الذين أقاموا دولة لهم في فلسطين أمثال: ديفيد بن غوريون وجولدا مائير وموشي دايان وليفي أشكول.. الذين طبقوا نظرية "العمل العبري" في المستوطنات..

كان أبو عبد الله يحاول أن يستوعب ما يسمعه وما يراه..؟ فعنه الشيخ الكبير الذي حاول أن يجعل منه قدوته في القول والإصلاح بين ذات البين، وأسوته في العمل والتفاني فيه، وخدمته في إحقاق الحق وفي النخوة ونصرة المظلوم.. يراه يرسل ولديه الشابين للاطمئنان على بقرات اليهودي "أبو عمواس" أحد سكان المستوطنة والذي يعمل عنده، يرسلهما وهما في ريعان الشباب حيثما سمع الشيخ أن نقرأ من شباب القرى العربية المجاورة - والذين ما توقفت عملياتهم الفدائية في إقلاق اليهود وزعزعتهم يوماً - قد ساقط البقر.. ولما تأخر ولداه بالعودة - اتبعهما بابن عمه وزوجته للاطمئنان على الجميع: على البقر أولاً ثم عليهما ثانياً!! كل ذلك وسط إطلاق نار غزير وكثيف غير معهودين حتى ذلك الوقت - راح

ضحيته أربعة من سكان القرية وأهلها: المسيحي يوسف مروم، وأحمد الديسي، وأنيس المالحى والشيخ عبد الرحمن سالم!

وتتحدث دموع الهوان واليأس فوق وجنتي أبي عبد الله غزيرة مدرارة وهو يرى شيخه يتباهى بأخوة الرضاة التي كانت تجمعهم باليهودي "عمواس" في رضاعته من أمه: زوجة إسحق. ولما كان الشيخ يذكر تلك الأخوة يأخذ يسرد قصة أهل المدينة المنورة وهم أنصار النبي (ص) وكانوا حلفاء يهود. وكان بينهم جوار ورضاة حتى أن الأنصار من غيرتهم على ذلك التواصل مع يهود كانوا يتمنون لو أسلم يهود..! كان الشيخ يتوقف عند هذه النقطة في القصة ١٩*

والغريب في الأمر ما أخبرني به الثقاة من رجالات بلدتي.. بل ومشاهداتي لآثار تلك المحبة والمودة التي سادت بين أولئك النفر من أهل البلدة وبين اليهود..!

إن كل من كان يعطف على يهود أو يتواصل معهم بلا حدود.. قد لا قوا حتفهم على أسوأ حال، وعلى أشد موت أو تشويه..! "أحدهم وهو نائم في دار مخدومه اليهودي وآخر رأى أمعائه في حجره قبل أن يلفظ أنفاسه! وثالث تصيبه رصاصة قاتلة أثناء قيامه بفرائض وضوئه وسننه لصلاة الفجر، قتلت معه زوجته، وجرح معه ولده.. وثلاثة آخرون ابتلوا بقطع

* كان الأجدر بالشيخ أن يتذكر قول الله تعالى في ذلك الموقف وهو يخاطب الأنصار:

"أفتظلمون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون" (البقرة، آية ٧٥)

أيديهم في مصنع ليهودي، مصنع للطوب الأحمر والكرميد بألوانه.. أحدهم قطعت يده من الرصغ. والثاني طُرح ساعده كله، والآخر جُبت ذراعاه كلها من حدّ الكتف.. ومنهم من قتله ابن شقيقه على رؤوس أشهاد! ما أجاروه ولا أسعفوه ولا ساعدوه.. وآخر تعرض لضرب مبرح من ولده وهو في أرذل عمره..!

حقاً، لقد صدق الله عندما قال في آية رقم ٦ في سورة الشورى "والله حفيظ عليهم" أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها.



(٤)

أرزاق "١" (١)

إختار أبو عبد الله من بين أبناء عمومته ثلاثة أصدقاء له، أولهم: عبد الله محمد العسلي وثانيهم محمود الرمضي العسلي وثالثهم غيث بن الصب المطري العسلي.. وكان أبو عبد الله - إلى جانب أولئك الأصدقاء - يتقرب كثيراً إلى عمه الشيخ مصطفى الشاويش. هؤلاء كلهم مميزون بين رجالات البلدة: فهم يجيدون القراءة والكتابة ويواظبون على شراء صحف ذلك الزمان وقراءتها وسماع الأخبار ونقلها إلى كل من كان يهتم بما يدور، وبما يجري في البلاد من أحداثٍ جسام.. كانت شمس كل يوم لا تغيب، ونجم كل ليلة لا يافل، إلا ويلتقي أبو عبد الله بأحدهم..

كان الأول وهو "عبد الله محمد بن سلامة" عميد عائلة العسلي، داعياً للأمور الجليلة. يقدم لها التحليل الشافي والشامل بطريقته المقتنة التي لا تتأتى إلا لمن أوتي حظاً وافراً من الذكاء والثقافة، أول من اقتنى مكتبة له في بلدته، حوَّث الكثير من الكتب: في تفسير القرآن وفي السيرة العطرة، وكتب التاريخ والأدب والقصص الشعبي، أعماله في المقالات أهلت لوجاهة المال كما أهلته مكتبته وحياته الحافلة بالتجارب والأخطار لوجاهة المعرفة والرأي السديد..

(١) الأرزاق نوعان: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنفوس كالعلوم والمعارف.

رافق الضباط الألمان في وحدة الهندسة لبناء الجسور في الحرب العالمية الأولى، الذين كانوا في حلف مع تركيا حينذاك.. أجاد التحدث باللغة التركية، وشارك في معارك جبهة قناة السويس الشرقية بالخط الأمامي حتى وقع في الأسر بيد الإنجليز.

وأما الثاني فكان "محمود الرمضي" الذي نفذ إلى قلب أبي عبد الله لجراته، يتوشح دائماً سلاحه وكأنه يعيش حالة استنفار دائمة، يواكب الأحداث في البلاد ويتربحها، تميّز بالذكاء وبُعد البصيرة وقوة الإرادة، وكان لسجنه في سجن مزرعة عكا الأثر الأكبر في ارتفاع وتيرة حماسه وفي اتساع محيط معرفته بأخبار النشاط السياسي والاجتماعي في البلاد مما جعله القارئ الأول لصحف تلك الفترة في حياة فلسطين السياسية والاجتماعية.. عشقهُ لسماع الأخبار من المذيع، جعله يسافر أغلب أيام الأسبوع إلى مدينة القدس يستمع إلى مذياع أحد أصدقائه في مقهاه.. ولم يكن في بلدته بعد من يملك تلك الآلة العجيبة التي تسمعك من بعيد بكل أخبار الأحداث ورجالاتها وأنت تجلس تَعْبُ الشاي أو تشرب القهوة أو تلعب مع أحفادك.. وبنيك!

كان معجباً بشخصية "يونس بحري" الصحفي والمذيع الرائع في الإذاعة العربية من برلين، والمتعدد المواهب، كان عاشقاً شديداً للعشق لسماعه دائماً، بوصفه مديعاً، جهوري الصوت، وتعليقاته كلها نكات لإذاعة مستمدة من الجنس اللفظي ومن الآيات القرآنية.. يتعمد الخطأ في

نطق أسماء الوزراء والحكام: فيقول عقب ذلك: "عفواً، لكن البقر تشابه علينا".. وعبد الرحمن عزام عنده عبد الرحمن هزام (بسبب هزائم الجامعة العربية المتوالية)..

كان "أبو ابراهيم"^(١) عند عودته لقريته من سماع إذاعة برلين العربية يتحلق حوله الشيوخ والشباب فيسمعون ما جاءت به الأخبار من انتصارات الألمان (في السنوات الثلاث الأولى من الحرب) ومن هزائم الإنجليز، ويضيف من عنده أهازيجاً وطنية ومواويل شعبية بصوته العذب الرخيم، يشرح فيها استلهامه لما حاولت "النازية" حينذاك تحقيقه لوطنها ألمانيا.. لقد كانت النازية تجسداً لشكوى الشعب الألماني من تغفل نفوذ اليهود في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى في جميع مرافق الحياة حتى غدت ألمانيا في الفترة بين ١٩٢٠ - ١٩٣٣ مستعمرة يهودية وبؤرة لكل المؤسسات اليهودية والصهيونية في العالم^(٢).

نصف مليون يهودي يتحكمون في حياة ستين مليون من الألمان في ذلك الوقت!!!

كان الإعجاب والترقب تجاه الألمان أصيلاً في الشعب الفلسطيني بل وفي سائر الشعوب العربية والإسلامية فلم يكن ثمة حرج في ذلك أبداً..

(١) كنية محمود الرمضي.

(٢) أنظر دائرة المعارف اليهودية ، ج ٧ ، عمودي ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

أما الثالث وهو "غيث بن الصب المطري" ، فهو خريج مدارس المعتقلات الثورية من سجن صرفند إلى سجن مزرعة عكا.. خالط في المعتقل رجالات فلسطين الذين أنيطت بهم قيادة العمل الوطني آنذاك: مئات من المناضلين والثوار والقادة.. بجميع أطيافهم.. التقى بهم وأخذ عنهم الكثير الكثير.. وأذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر: علي حسن شلق من لفتا و خليل منون ومحمد الغباري من عين كارم، وتوفيق رأفت الحسيني ومنيف الحسيني من القدس والشيخ طاهر كرمان من حيفا، والشيخ السائح وأحمد الشقيري، والأستاذ محمد عزت دروزة من دعاة الوحدة العربية، ورامز مسمار أحد قضاة نابلس وكامل يوسف وفا الدجاني.. وغيرهم كثير..

إلى هذا النفر الطيب من أبناء عمومته انتسب أبو عبد الله وأخذ عنهم الجليل من الأفكار والكثير من دروس المعرفة والمعلومة حول البلاد والعباد. وشاركت في ذلك الفضل أيضاً المجالس ومدارسها.. مجالس نخبة مختارة من وجهاء قرية "الفلسطينية" ، ظل أبو عبد الله طيلة سنوات العشرينيات منذ حضوره من "الكواكب" أواخر ١٩٢٠م... يواظب على الاشتراك فيها زائراً أو مدعواً..

مَنْ يعرف أثر تلك المجالس أكثر من أبي عبد الله الغريايوي؟ تذكر أبو عبد الله مجالس الدروز التي كان ملزماً على حضورها بحكم عمله. وهو فتى بحزم الشيوخ فيتخرج منها رجلاً فائقاً جزلاً على استعداد لتحمل كل مُلْمة.. يتذكر تلك المجالس ودروس الحكمة فيها، حكمة مميزة.. أنمرتها معاناة رجال تلك المجالس، وآلام تجاربهم.. مجالسهم كانت مفعمة بالإنسانية وبمشاهدها كاملة الاتجاهات.. رأى فيها الحياة بكل أبعادها.. والإنسانية بكل آدابها وإيجابياتها.. عرف معنى الانتصارات ومآسي الهزائم وضروريات المناورات. مجالس ضمت رجالات صفوة، يكابدون أمثالهم من الرجال، وفي أكثر الأحوال أشد منهم قوة وبأساً وأكثر لؤماً وخساسة.

في بلدته "ال فلسطينية"، أعاد أبو عبد الله سيرة المجالس.. عنده على حد تفكيره وقوله.. لم يتغير شيء.. فقط حدث استبدال الرجال برجال آخرين.. زاد استعداده للتعليم من خلال تلك المجالس.. يحضرها، ويتواصل معها.. يسمع فيها أكثر مما يتكلم، يفهم ويستوعب.. طيلة مشاركته فيها، يبقى يقظاً، لماحاً، وأهم تلك المجالس التي كان يشهدها ويحرص على التردد عليها..

١. مجالس أبي هاشم: سعيد الردي في بن خليل السالم من آل مراس

عندما كان أبو عبد الله يتردد على دور المحاكم ومكاتبها وهو في محاولات استرجاع أرضه من ذوي قرابته ومن ابن عمه المذؤوب.. تعرف على أحد وجهاء آل مراس، كان ذلك الوجيه مختاراً لحمولته، جريئاً متفذاً في دوائر الحكومة في القدس، يطالبها ويحثها على تنفيذ مطالب أهل بلده.. صقلته الحزبية وقربته من زعيم فلسطين حينذاك.. من مفتي البلاد الحاج أمين الحسيني، كان منزل سعيد الردي ملتقى رجال الثورة من جميع قرى القضاء وغيرها.

٢. مجالس أبي علي: إسماعيل خليل مصطفى الرمضي (آل العسل)

كان منزله ملتقى لجميع ضيوف القرية: كبار موظفي الدولة الزائرين، ووجهاء القرى، وقادة فصائل الثورة. يساعده على القيام بمهام الزائرين ثراؤه الواسع المتعدد: عقار، وتجارة، ومشاريع تتمثل في.. كان من العصاميين الذين كونوا ثروة طائلة بجده واجتهاده وحسّ الاقتصادى وعقله المبتكر.

١ من كان يقوم مقام الملوك بأمر الملكة بمنزلة الوزير في الاسلام

باختصار شديد وبدون هوى أو مبالغة: كان إسماعيل خليل في "الفلسطينية" هو أبو الاقتصاد الناجح في قريتنا والنموذج الأمثل للرجل العصامي..!

(٥)

البلاد.. والأحزاب.. و.. الزعماء

أطلعني ماجد بن السيدين وهو بصدد تقييمه للتجربة التي عاشها مع النفر الطيب من أهل بلدته.. مع الرجال الذين إليهم قد أشرت وعنهم قد تحدثت.. سواء كانوا في المضافات أو في المجالس الخاصة والعامة.. أخبرني أن تلك التجارب والعلاقات حوت جوانب إيجابية وأخرى سلبية.. وكانت السلبية أكثر من الإيجابية.. فأما الإيجابية:

"فقد تعرفت على عدد من الشباب في قرى القضاء ممن يجدون متعة فيما تقترن به الحركة الوطنية من إثارة للاهتمام والإنفعال، ينضمون إلى الجماهير في المسيرات ويشترون في المظاهرات ويجتمعون في الشوارع والمحطات لتوديع وفد فلسطيني مسافر أو للترحيب بوفد عائد.. كما تعرفت على عدد آخر من الشباب من صفوف الوطنيين من قرى ومدن فلسطين يتحينون الفرصة للقيام، أو للإعداد من أجل ثورة مسلحة ضد

سلطة الانتداب البريطاني، وضد الأعداء يهود.. أذكر منهم كعدد وليس كحصر.. محمد أحمد صرصر، وأحمد حامد، ومحمد عايش، وخليل منون، محمد الفباري، والأخوة علي ومحمد الشخامات، وإسماعيل الخطيب وهم من عين كارم، والسيد أبو شعبان وعبد الرحمن شحدة من قرية لفتا، ومحمد ذيب يطلق من بيت عنان، وبرهوم من بيت صفافا، قاسم الريماوي من بيت ريم، ومحمد عبد الغني من جنين.

في تلك المجالس واللقاءات، كان لقائي أولاً مع أسماء شخصيات فلسطينية هامة كانت تعمل في السياسة. ومن خلال أحزابهم وجمعياتهم.. الإسلامية والمسيحية. عرفت الكثير في مجالات العمل السياسي.. بدأت أفهم الكثير مما يدور في البلاد بخصوص القضية الفلسطينية.. وبدأت أقف كالطود الشامخ.. على أرض الحوافز الوطنية الصلبة ذات الحوافز القوية الدافعة للعمل الثوري.. ولم أكن أدري حينذاك أن كل هذه الإرهاصات إنما تقود إلى العمل - ذات يوم - معهم! ومن تلك الشخصيات، جمال الحسيني، توفيق حماد، موسى العلمي، وصفي التل، عبد الفتاح درويش، عوني عبد الهادي، راغب النشاشيبي، صبري عابدين، وأحمد الشقيري، حيدر الحسيني، ورجائي الحسيني، وصبحي الخضراء، وتوفيق أبو السعود، وعبد القادر المظهر.. وعلى رأس أولئك وهؤلاء زعيم فلسطين في تلك الحقبة: المفتي الحاج محمد أمين الحسيني.. رئيس المجلس الإسلامي الأعلى ومفتي دار الإفتاء في القدس الشريف..".

أما النواحي السلبية في هذه التجربة فعديدة:

أولاً: "انتفاء الثقة بكل من يتزعم حركة سياسية "وطنية" في فلسطين عندي، ويتحدث معي بضمير المتكلم، فيقول: "ولا زلت حتى الآن متمسكاً بعدم ثقتي بزعماء الفصائل الفلسطينية وبرئيسهم!" لو قد كان هذا اللقاء مع ماجد بن السيدين في بيته في مخيم الوحدات صيف عام ١٩٦٩ عندما زرته من الخليج]. زعماء تلك الحقبة يؤسسون الأحزاب لخدمة عوائلهم... أحزاب عائلية تقوم: فينسلخ زعيمها أو زعمائها وأتباعهم من عشيرتهم عن الحركة الوطنية مما أضعفها وسبب لها الشلل التام فيما قبل عام ١٩٤٨: فالحزب الوطني مثلاً لعائلات النشاشيبي والفاروقي والدجاني..) والحزب العربي ومن قبله المجلس الإسلامي الأعلى ودار الإفتاء لعائلة الحسيني، وحزب الزراعة لأسر عميلة في قضاء الخليل.. وحزب تعاون القرى لآل ماضي من قرية إجزم!

زعماء ورؤساء عائلات متنفذون في المدن الرئيسية في فلسطين يعتقدون أن الإدارة والسيطرة البريطانية في فلسطين - في ذلك الحين - هما خير ما يمكن أن تجعل البلاد وتجعلهم وعوائلهم أكثر تقدماً وغنى وازدهاراً وشهرة..! وعلى ذلك ارتكزت برامجهم السياسية في أحزابهم. وكانت سلوكياتهم كلها مهادنة بل وموالية للسياسة البريطانية في البلاد.. لم تتعرض تلك البرامج المتواطئة لرفض وعد بلفور، ولم يطالبوا بإلغاء الانتداب.. ولم يتعرضوا لبريطانيا ولو بكلمة واحدة تشفي الغليل من شلل

الزعامات الفلسطينية، هم من رفض مقاطعة يهود اقتصادياً عندما قرر الشعب ذلك عام ١٩٢٢، ولقد أثار طلب الشعب الفلسطيني بمقاطعة يهود، وعدم التعامل معهم تائراً كبار التجار وأصحاب المصالح مع يهود.. وكان على رأس أولئك التجار الراضين للمقاطعة رشيد الحاج إبراهيم أحد زعماء صفد وغيره..!!

تلك الزعامات الخرقاء أدت إلى خروج بعض الناس عن دينهم عندما اغتصب "آل مراد" بما لهم من جاه وسلطة ونفوذ في المنطقة، اقتدروا على الفلاحين من عشيرة الشمائل على إثبات ملكيتهم للأرض فطردوا الفلاحين والمزارعين منها، فأقدم ٢٤ شخصاً منهم على اعتناق الدين اليهودي لعلهم بنفوذ الجمعيات الصهيونية المؤيدة من قبل سلطات الاحتلال البريطاني.. لعلهم يستطيعون بذلك أن يستعيدوا أرضهم التي انتزعها منهم آل مراد عام ١٩٢٤م..!!

زعماء تلك الحقبة الكريهه من تاريخ قضية فلسطين - ما بين ١٩٢٠ - ١٩٢٩ رفضوا - المساعي من أجل المصالحة الوطنية.. مساعي في الصلح قام بها عرب مصلحون من زعماء وأحزاب فلسطين حينذاك.. أذكر منها مساعي الأستاذ "إحسان الجابري" وهو أحد أعضاء الوفد السوري الفلسطيني للدفاع عن القضية الفلسطينية في أوروبا.. قدم إلى فلسطين أواخر عام ١٩٢٧ وجمع زعماء الكتلة النشاشيبية وزعماء الكتلة الحسينية في منزل "راغب الخالدي" في القدس.. وركز "الجابري"

في شرحه لهم على خطورة الموقف ووضح لهم أهداف يهود في الفرقة والتفريق بينهم من تشيتت وتشعيب جهودهم.. وبيّن لهم أن العرب وخاصة الفلسطينيين سيخسرون كل شيء وتوسّل إليهم متضرعاً أن يقبلوا توحيد الكلمة، وأن يهجروا الحسد والأحقاد والغيرة من بينهم، ولكن أجابه "راغب الخالدي" من الكتلة النشاشيبية: "علينا وعلى أعدائنا يا رب" بالطبع يعني بذلك أعداءه من آل الحسيني والأسر الأخرى..!!

أغلب تلك الزعامات المبتورة أظهرت صلاتها العلنية - دون موارد أو خجل - مع الحركة الصهيونية ضارين قرارات الحركة الوطنية بعرض حائط القضية غير عابئين بنتائج قريبة أو بعيدة لمواقفهم المخزية، مهمّشين بذلك كل التهميش آمال الشعب الفلسطيني وطموحاته بتحقيق مطالبه العادلة في وطنه فلسطين.. فيقيم مثلاً أحد زعماء نابلس عبد اللطيف صلاح في ١٠ فبراير سنة ١٩٢٤ حفلة في مدينة نابلس للمستتر "نبتوتيش" النائب العام الصهيوني في فلسطين حينذاك حضره مجموعة من زعماء الحزب الوطني الموسوم شعبياً بالخيانة والعمالة وبينهم من زعماء نابلس العدد الكبير؟ نذكر منهم توفيق حماد، عمر زعيتر، نمر حماد، فريد العنبتاوي، عبد اللطيف النابلسي، سعيد كمال، وشافع عبد الهادي.

وفي تدشين الجامعة العبرية يشترك "راغب النشاشيبي" و"علي جار الله" وغيره في الاحتفال بإقامتها على أرض العيسوية في القدس الشريف؟!! وقبل ذلك اشترك "النشاشيبي" في حفلة تنصيب "هربرت صموئيل"

كمندوب سام على فلسطين رغم مطالبة الحركة الوطنية بمقاطعة تلك الحفلة؟

أحد كبار زعماء الحزب الوطني ذاك وأعظم ركن فيه إسمه الشيخ "أسعد الشقيري".. نُكِّسَ رؤوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وهو يهرول بجلبابه الفضفاض وبعمته الضخمة على "الكونت دي روتشيلد" يقبل يده عند زيارته لفلسطين قبل سنتين..!!

تباً لزعماء لا يُكْرَمُونَ أنفسهم.. زعماء وصفوا بالدنية والدونية في دينهم، زعماء طلبوا القرية والدرجة والمنزلة عند أعدائهم مبدين لهم شدة اللطف والود والترفق والمدارة والنفاق فلم يغنهم ذلك شيئاً ولم يُقَرِّبهم إزلاً.. كان فيهم من اللؤم ونقيض العزما يكفي أن يلعنهم الله والناس والتاريخ أجمعين.. زعماء كانت مؤتمراتهم الوطنية خليط غريب عجيب من الحضور يمثلون تناقضات في الرأي لا سابق لها شاملاً في ذلك من وصفتهم صحف تلك الفترة من تاريخ القضية "الجواسيس وسماسرة بيع الأرض لليهود" وموظفين في الإدارة البريطانية على حد قول الحسيني مفتي فلسطين الأكبر "أبي صلاح": "أعتبر نفسي موظفاً في الإدارة البريطانية".

ولما كان ذلك هو حال البلاد وحال أحزابها وزعمائها: هجرة واستيطان هددوا الفلاح الفلسطيني وطرداه من أرضه، فانقطع مورد رزقه وعيشه، عمال ومهنيون وحرفيون بلا عمل، بلا رزق وبدون كرامة.. متعلمون بدون وظائف تفشت البطالة فيهم.. وتجار في المدن قتلتهم المنافسة

اليهودية الشديدة، وتجارة يهود متفوقة على الدوام.. وخطوات تنفيذية دؤوب وعلى أرض الواقع لتنفيذ وعد بلفور وإقامة دولة يهود وهو ما تمخض عنه تحالف رسمي قوي يتمتع بموافقة دولية ملزمة، تحالف وزواج كاثوليكي لا ينفصم أبداً بين يهود وبريطانيا العظمى حينذاك! والتزمت بريطانيا إدارياً وطوعياً وبالنص والروح وعلى أرض فلسطين بإقامة وطن يهودي فيها على حساب شعب فلسطين وعلى حساب مصيره..!! وقد زاد حال البلاد سوءاً وكارثياً زعامات فلسطينية..! ابتليت فيها فلسطين في أحزابها وبلدياتها ومؤسساتها المدنية والاجتماعية.. تلك الزعامات التي كانت تعتبر مصالحها ومواقعها الطبقية فوق فلسطين وفوق طبقات المجتمع.. زعماء قال فيهم "وايزمن" أول رئيس لدولة "إسرائيل" فيما بعد.. قال في رسالة له للمندوب السامي البريطاني في فلسطين إلى "تسايسلور" "إنه يعتقد بأنه بإمكانه رشوة معظم زعماء العرب لاستغلالهم في تنفيذ مخططات الصهيونية في فلسطين"!

كل ذلك وغيره من الأسوأ، زاد من نقمة الفلاحين في قراهم، فتنادوا للجهاد، ولإعلان الكفاح المسلح! ولأول وهلة بدا أن الأمر قد انفلت من يد الزعامة التقليدية في البلاد بل أصبح أمر الكفاح العسكري والجهاد الهجومي المسلح في يد قيادات ثورية من الفلاحين في القرى الفلسطينية، نظمت نفسها تلقائياً، دون إشراف أو توجيه من أية جهة أخرى.. لأنها فقدت الثقة بقيادات البلاد التي التزمت عدم تشجيع أو إنجاز أية مبادرة

إيجابية في مساندة الحركات الثورية العسكرية الهجومية مما أدى إلى فشل عصبة "الكف الأخضر" والقبض على زعيمها "أحمد طافش" في الأردن في صيف ١٩٣٠. ففشلت بذلك ثورته لعدم تجاوب القيادة السياسية - المتمثلة في اللجنة التنفيذية مع فكرة المقاومة المسلحة! وفشلت لذلك ثورة "أبو جلد" أحمد المحمود، فلاح من قرية طمون/ نابلس وزميله صالح أحمد العرميط من قرية بينا/ نابلس، وألقي القبض عليه نتيجة وشاية من خائن اسمه محمد أبو جبرين، فأعدم أبو جلد عام ١٩٣٣م، كما أدت سياسة القيادة والزعامة الفلسطينية العرجاء إلى حل ثورة القسم واستشهاده ورفاقه عام ١٩٣٥م في يعبد.. كل ذلك جعل أهل القرى يأخذون الأمر على عاتقهم في تكوين خلايا الجهاد منهم..

نذكر من تلك القيادات على سبيل المثال لا الحصر: قاسم الريماوي من بيت ريما، وأبو شعبان والسيد عبد الرحمن شحده من قرية لفتا، و خليل منون، وإسماعيل الخطيب ومحمد الفباري وأولاد الشخامي وغيرهم من عين كارم ومحمد ذيب اليطق من بيت عنان، ومحمد عبد الغني من جنين..

أما في قريتنا - والحديث لأبي عبد الله ماجد بن السيد - فقد وفقنا الله أن نكون أول خلية وطنية سرية مجاهدة لنضرب بيدنا الحديدية ما يشاء الله بها أن نضرب على أيد الجواسيس.

كانت مشكلة بيع الأرض في فترة ما بين ١٩٢٠ - ١٩٣٠ هي المشكلة الرئيسية التي خلفت همًا لازم الفلاح. فقد نشطت الصهيونية في ابتلاع الأرض يساعدها في ذلك حزب الزراع الذي أخذ ينتشر في القرى ما بين عامي ١٩٢٣ - ١٩٢٥م مما أثار جنون الرأي العام والذي شكّل مع الحزب الوطني لعوائل النشاشيبي والفاروقي.. جبهة عملت ضد المصالح الوطنية وخدمت الإنجليز وحلفاءهم يهود..!

وتشاء الظروف التي تأخذ بتلايبب بعضها بعضاً أن يلتقي الإسكافي - قاتل موسى هديب" رجل حزب الزراع الأول ومؤسسه - بأبي عبد الله ماجد بن السيد بن غيث بن الصب أثناء توقيفهما في سجن "القشلة" العتيد في القدس قبل نقل الإسكافي إلى سجن آخر..

ويتذكر أبو عبد الله ماجد بن السيد بن غيث ما قاله ذلك البطل قاتل الخائن سمسار الأرض والذي ظل محفوراً في ذاكرتهما إلى الأبد: "ما بدنا سلاح.. نقدر نقتل عدونا بأية طريقة.. إذا ما أغلقت علينا المنافذ والمصادر للسلاح.. ليس علينا إلا أن نخلق استعمالاً أو آخر نقتل به العدو.. لقد قتلت الخائن بسكين الأحذية بحكم مهنتي حيث أني أعمل إسكافياً.. أُرثّق وأصلح الأحذية القديمة.. ولعلي في ذلك أقدم مساهمة في ردع نمط حقير من الخونة متفشياً في مجتمعنا.. لعل وعسى.."

وكان قد قبض على أبي عبد الله وابن عمه غيث الصب في القدس أثناء مظاهرات صاخبة ضد حضور بلفور إلى بلادنا وأثناء تدشينه للجامعة

العبرية عام ١٩٢٥م في القدس - اشتركا يومذاك في المظاهرات مع أن برامج العمل الوطني حينذاك كان يحذر القيام بمظاهرات ضد بلفور وضد تدشين الجامعة العبرية. واستمر سجنهم مدة عشرة ايام أفرج عنهم دون كفالة لعدم ثبوت أي تهم ضدهم: مثل توزيع منشورات أو الحض على الاشتراك في مظاهرات، أو تخريب ممتلكات أو القيام باعتداءات.

(٦)

سماسرة وعملاء

كان في البلدة "الفلسطينية" ثلاثة عملاء يعملون في سمسة الأرض لبيعها لليهود.. ويتعاملون سراً مع سلطة البوليس البريطاني يمدونهم بالمعلومات، وبأسرار الأشخاص وتحركاتهم! اشتدت نقيمتا في البلدة عليهم وخاصة عندما قام أحدهم - من أولئك الخونة - بإبلاغ مركز البوليس الإنجليزي بمخبيئ بندقية أحد شباب بلدتنا الأبطال الذي كان حميم الصلة بأبي عبد الله اسمه "محمد الناصر بالله الضبي" - وهو أحد أحفاد عمه "ماجد بن السيد بن غيث" وكان يحلو له دائماً قضاء الساعات الطوال في التعليلة عند خاله أبي عبد الله - فحضرت على الفور ثلة من

خيالة البوليس البريطاني إلى القرية وداهمت بيت ذلك الشاب المحبوب واستدل البوليس على البندقية - تحت كومة من الحطب المرصوص فوق جدار البيت وقاموا باعتقاله حاملاً بندقيته بأمرهم منكسة بعد أن أفرغوها من الطلقات، واقتادوه مخفوراً.. إلى محكمة عسكرية في القدس حيث قضت بسجنه خمس سنوات بالأشغال في سجن "نور شمس" بين نابلس وطولكرم. ويكمل أبو عبد الله القصة فيقول "وظل محمد ناصر الضبي في السجن حتى قضى مدة خمس سنوات. ولما كان البطل عالي الهمة والنخوة فقد صفح عن ذلك الوغد الواشي مع قدرته على قتله! كنّا مجموعة من شباب القرية قد كوّنّا خلية سرّية لمقاومة بيع الأرض والسمسرة عليها: ضمت الخلية أشخاصاً اقتتعت بهم وبادلوني الثقة بدورهم وهم على التوالي حسب انضمامهم إليها:

- ١- إسلام بن سلامة العُسلّي - وكان على قناعة تامة على إبداء السمع والطاعة والتعاون والتنفيذ دون جدال أو سؤال.
- ٢- غيث بن الصب المطري، وكان يتمتع على الدوام وفي جميع الأحوال - مهما تبدلت حسناً أو سوءاً - برياسة جأش وهدوء فظ.
- ٣- محمود جمعة الرمضي - آل العسل - جرأة منقطعة النظير، يجمع بين حماس الشباب وحكمة الشيوخ.
- ٤- وقد انضم إلينا فيما بعد من دار ضبة شاب وطني غيور، طيّع الانقياد، صاحب شعور وطني مرهف على استعداد للتضحية

بالنفس وهو الشاب أحمد حامد الحمود الضبي.. كنت خامسهم فرضوا عليّ حينذاك في أول اجتماع لهم - أن أكون المسؤول فيهم.. يأتَمرون بأمر يتفق عليه الجميع..!

أما الجواسيس الثلاثة فقد كانوا على التوالي: ١. شهير أبو خزيه وعرف باسم: التوم: مات توأمه قبله وهو من دار "الضبة". ٢. والثاني مذؤوب بن محمود وكنيته أبو عيسى من دار العسل. ٣. والثالث ابن حمادي الزيري من آل مراس.

ومن البداية حددنا هدف خليتنا السرية في نقطتين: الأولى بث الفرع والرعب في قلوب السماسرة والمتعاونين مع بوليس الانتداب البريطاني حتى لوبلغ الأمر إلى قتل أحدهم أو خطفه وتعذيبه ثم رده إلى أهله..

والثانية القيام بعمليات فدائية لقتل أكبر عدد ممكن من العدوين: من يهود ومن الجنود البريطانيين ومن موظفي الحكومة الذين يعملون ضد المصالح الوطنية للشعب الفلسطيني. ورغم إصرارنا على أن يظل أمرنا في طي السرية والكتمان إلا أن نظرات العيون والقلوب التي كانت تتفد بشفافية وكأنها النسيم داخل الواحد - ومستأذنة - منا من قبل أهل الدراية والمعرفة والدين في البلدة: كانت تلك النظرات المشبوبة بالحب والتقدير تتجمع في نظرة الواحد للمؤمل عنده، نظرة تأمل المرجو لعمل خطير.. كانت تلك النظرات تشي أنهم يعرفون ما نحاول أن نجعله سرّاً محجوباً عنهم. أصحاب تلك النظرات هم نفر من المتقربين إلى الله

بالطاعات ومن المتعلقين بالمساجد، أصحاب ثَقْيٍ وورع أمثال الشيوخ الأفاضل: إسماعيل سالم من آل مراس، ومحمد جوده أحمد الضبي، وأحمد موسى المعرسي.. إذا ما التقى أحدهم برجل منا جدد إيمانه وذكر كلمة التوحيد ودعا له بالبركة وطول العمر.. وكأن رؤية الواحد منا كانت عنده بمثابة عبادة..!!

دبّ الحماس - وكأنه النار في الهشيم - بين الوطنيين الفيوريين من أهل القرى وبين أهل المدن لاحقاً.. فهبوا لمطاردة السماسرة والعملاء المتعاونين مع يهود، ومع سلطات الانتداب البريطاني.. هبوا لقتلهم عقب تشكيل لجنة المقاطعة، ولاغتيال الأشخاص الذين يعملون ضد المصالح الوطنية بمعرفة المجلس الإسلامي الأعلى، واللجنة التنفيذية العليا - وهما أعلى سلطتين تولتا العمل الوطني في فلسطين حينذاك عام ١٩٢٩.

وفي البلدة أنيطت مطاردة السماسرة الثلاثة لقتلهم بالسيدان أحمد حامد الضبي والشهير "بأبي فخري"، وبغيث بن الصب المطري العُسلي، وكان معروفاً بكنيته بـ"أبي أحمد".

قام أبو فخري بثلاث محاولات لقتل السمسار شهير بن خزيه! فشلت كلها رغم شدة حرص أبي فخري على التخطيط الدقيق الذي وصل به الأمر إلى تصفيته وقتل كل كلاب البلد حتى لا تفضح التحركات الليلية لإنجاز العمليات السرية.

أما أبو أحمد، وكان قد أُسند إليه أمر تصفية السمسار، العميل الثاني مذؤوب بن محمود الأشوس. أقول أما أبو أحمد فله قصة قصّها علي أبو عبد الله وأعادها عليّ "غيث بن الصب".. ولم تختلف الروايتان.. وفوق ذلك فقد حقّقها الزمان وأثبت وقوعها وواقعيتها..

وكان من رأى الرجلين: أبي عبد الله، وأبي أحمد أن تكتب تلك القصة كاملة وأن تُسرّد حوادثها كما وقعت.. حتى يعرفها أهل أول قتيّل في البلدة منذ أن عرّفت البلدة جغرافيتها وأحداثها..!

ومن أجل أن يكون أهل البلد على علم بوقائعها الموضوعية تلك الوقائع التي جرّت على أهل البلد وعلى حمائلها الكثير من العواقب الخطيرة..

ذات ليلة.. في ليلة صيف من عام ١٩٣٣، وفي وقت الغسق بين الغروب والغشاء.. كانت تلك الليلة فريدة في عتمتها، حيث اكتملت شُقرة الافق بالسواد الشديد، مبكراً.. فكانت بُهْمَةً لا يتحقق القاتل فيها قتيله.. ولا يستطيع الرأى أن يرى قبيله.. فيختلط عليه الأمر ويشتبه، فيكون عليهما مشكلاً أبداً..

في ذلك الوقت أفرغت آخر حافلة لذلك اليوم حمولتها من موظفي وعمال البلدة القادمين من القدس في طرف البلدة.. وارتقى القادمون طريق العقبة الصاعد من الجنوب إلى صرة قريتهم تتوسط بيوتهم...

أحد القادمين شاب طري العود، فَرِحَ بفتوته، وحيد لأبويه العجوزين، كان يسير بمحاذاة السمسار مذؤوب بن محمود الأشوس يقطعان الطريق

بحديث متبادل، لم ينته أبداً.. وفجأة تتطلق رصاصات قاتلة فتقتل غدرًا الشاب البريء "صالح عيسى آل معرس".. وينجو السمسار الخائن..!!

كان القاتل كامناً تحت التفاف وتشابك أغصان وأوراق "تينة عبد الرحمن" الشهيرة في البلدة حينذاك.. حجبته تلك الليلة الليلاء^(١)، ليلة ساودت فيها^(٢) الأرض سماءها، إحتبس قمرها فاشتدت ظلمتها..

قامت قيامة أهل القتل، وهم آل معرس في قريتنا، وطالبوا بالثأر، فالقاتل - كما زعموا حينذاك - معروف لديهم.. ورددت الإشاعات بأن القاتل أحد اثنين: غيث بن الصب المطري أو ماجد بن السيدين..!

استدعت رصاصات القاتل على الفور خيالة الشرطة البريطانية من مركزها المواجه لطريق العقبة الصاعد، والقائم في المستعمرة قبالة قريتنا واقتادت الاثنين إلى سجن "القشلة" العتيد في القدس.

وتدخل المجلس الإسلامي الأعلى في القضية.. ولما كانت العلاقة بين آل الحسيني المتنفذين على رأس المجلس، وبين سلطات الانتداب البريطاني علاقة تبادل مصالح، وعلاقة ود وتعاون نجح في استصدار أمر بتبرئة الرجلين وبالإفراج عنهما.. وقد قضيا شهراً كاملاً في السجن..

(١) يقال لليلة الثلاثين من آخر الشهر : ليلاء وذلك أظلم الليالي ، أنظر لسان العرب .

(٢) ساودت : غلبتها بالسواد .

وكانت علاقة أهل بلدتنا مع المجلس الإسلامي الأعلى هي علاقة مع آل الحسيني عن طريق "صيح المصايحة" الذي كان دائم التردد عليهم بحكم مسؤوليته العريضة عن أراضي الحسيني وعن قصره في بلدتنا..

كان "صيح المصايحة" ينقل كل ما يدور في البلدة وفي القرى المجاورة إلى علم آل الحسيني.. إلى الحاج محمد أمين الحسيني نفسه مباشرة، والذي كان يحرص على كسب القرويين إلى جانبه في صراعه المرير مع المعارضة العميلة من العوائل المقدسية الأخرى..

أثار أمر الإفراج عن الرجلين حفيظة "همرج العيوشي" وهو زوج عمه المغدور.. التي كانت وراء إصراره على الأخذ بالثأر، وكانت "همرة" - عمه القتل - وهذا كان اسمها، حُرِمَتْ من خلفه الذكور فكانت ترى في ابن أخيها ولداً لها...

ولكن لم يلبث "همرج العيوشي" أن انصاع لحل ارتضاه المجلس الإسلامي الأعلى: وهو أن يحلف كل من "أبي أحمد" و"أبي عبد الله" يمينا يؤكد براءة كل منهما من دم القتل.

نزل "العيوشي" عند أمر الحاج أمين الحسيني مكتفياً باليمين.. فعين المجلس الإسلامي الأعلى اثنين من رجاله يتوليان تنفيذ أمر اليمين.. فكان

١ فيه الخفة والسرعة والوقوع في الاختلاط والفتنة

٢ دمدمة في الكلام ويفضب

الرجل الأول الشيخ "موسى العيزراوي" من قرية العيزرية، وكان الثاني "نيقولا سابا" من القدس..

حلف غيث بن الصب المطري يمينه في مسجد "النبي داود" في القدس، وحضر حلف اليمين علي صيح المصايحة آل عتاقة ومحمد جودة الضبي وكان معهم الشيخ "موسى العيزراوي".

شهد همرج العيوشي تلقين أبي أحمد اليمين، وكان يصادق على كلام الحالف علي صيح المصايحة والشيخ محمد جودة الضبي.

وأما ماجد بن السيدين فقد أقسم يمينه في مدينة الخليل، وكان يُصادق على كلام أبي عبد الله أثناء القسم: عبد الله محمد ابن سلامة (آل العُسل) والشيخ مصطفى الشاويش وجمعة الرمضي وكلاهما من آل العسل أيضاً وكان قائمقام القدس "نقولا سابا" قد اعترض على صيغة اليمين الذي طالب فيه العيوشي أن ماجد بن السيدين لم يحمل سلاحاً تلك الليلة.. فعدلت الصيغة وتم القسم..!

اشتد الخلاف بين أهل القتل حتى أن أحد أعمام القتل وهو "جميل العلني"، أعلن براءته من جماعته التي اكتفت باليمين.. وذبح شاة البراءة من أهله.. وزاد في النكاية بأهل قرابته أن دعا المتهمين ماجد الأشوس بن السيدين وغيث بن الصب المطري مع أقربائهما. والجماعة التي حضرت اليمين في القدس والخليل إلى مأدبة عنده، وكان ممن حضرها علي

صيح المصايحة، وعبد الله سلامة والشيخ مصطفى الشاويش الرمضي وآخرون.. بينما رفض أبو عبد الله حضور تلك المأدبة!!

وتمضي قوافل الهموم بحمولاتها من آلام وأحزان بني الإنسان.. فيُطرد أهل "الفلستينية" منها عام ١٩٤٨ ويلجأون إلى القدس، ويتكدسون في أحد مساجدها مع آخرين من لاجئي القرى حينذاك: في مسجد الخانكة بالذات.. وأمام أولاد آل العلني: جميل العلني وأخوته شاكر ومحمود وبقية أحفاد العيوشي من بناته.. يظهر القاتل وهو يصيح بصوت مميز يسمعه جميع نزلاء المسجد وسكانه، يعترف أنه هو قاتل الفلسطيني الشاب والبريء صالح آل معرس.. وطلب من بني آل معرس ومن أولاد آل العلني خاصة أن يقتلوه تخفيفاً لعذاب الضمير.. ولما كان قد مضى زمن طويل وأصبح القاتل - وهو العبد الأسود من سكان حارة التكارنة في القدس القديمة.. شديد العرج.. وبساق واحدة.. غضب منه جمهور أهل القتل وطالبوه بالإنصراف.. والغضب والخزي باديان لكل ناظر وشاهد منهم..!

وصلت رسالتنا إلى السماسرة الخونة في بلدتنا، فانكفؤوا على أنفسهم وعلى ذويهم وأهلهم ولزموا بيوتهم فترة طويلة حتى تناسى الناس أمرهم وأكملوا سيرة حياتهم وهم يتلفتون ويترقبون إلى أن قضى الله أمره فيهم، فماتوا حتف أنوفهم وفوق فراشهم!

أما أفراد المجموعة الخمسة فقد سلكوا طريقاً آخر في النضال المسلح ضد موظفي السلطة في البلاد من الإنجليز وضد المستوطنين الجدد والقدامى من يهود..

الجزء الثاني

لَعَطُ المدائن... وأحاديثها

(١)

بداية الصراع

ظل حائط البراق وهو أحد حيطان الحرم الشريف من الغرب من ممتلكات المسلمين المقدسة منذ أن ترجم الرسول صلى الله عليه وسلم عن ظهر دابته البراق في أرض بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج، وظل الهدوء والتفاهم حول هذا الحائط سائداً بين العرب ويهود منذ ذلك الحين، وفي خلال الفتوحات الإسلامية العمرية والصلاحية والمملوكية. واستمر الهدوء سائداً في ساحة ذلك الحائط طيلة الاحتلال التركي، وقد حظر المجلس الإسلامي الأعلى وضع أية مقاعد أو مناضد أو حواجز أو ستائر في تلك الساحة. وفي عهد الاحتلال البريطاني البغيض، الذي حل محل الأتراك في بلادنا فلسطين، بدأ اليهود يثيرون الشغب والخروج عن المألوف التاريخي والديني والاجتماعي فيما يخص ذلك الحائط. ففي يوم من أيام صيامهم في إحيائهم لذكرى تدمير هيكلهم، هيكل سليمان وخرابه مرتين: الأولى على يد الملك العربي بعيد النظر وثاقب الرأي نبوخذ نصر عام ٥٩٦ ق.م، والثانية على يد القائد الروماني الأشهر تيطوس عام ٧٠ ق.م، وفي ذلك اليوم يوم صيامهم، وفي عيد يوم الغفران عندهم من عام ١٩٢٩، في الرابع عشر والخامس عشر من أغسطس من ذلك العام،

قام يهود بمظاهرتين في تل أبيب وفي القدس تخللتها كثير من هتافاتهم وأناشيدهم الاستفزازية ضد العرب والمسلمين مثل "الحائط حائطنا" وكان قد سبق عيدهم ذاك أن أصدرت جماعة "حراس المبكى" اليهودية نداء إلى "شعب إسرائيل" في جميع أنحاء العالم وقالت فيه: "أيها اليهود المنتشرون في جميع أنحاء العالم، أفيقوا واتحدوا، لا تسكتوا أو تتوانوا، إلى أن يعاد إلينا حائط المبكى بأجمعه. وأضافوا: هلموا إلى مساعدتنا وعاونونا في هذا الكفاح العادل لاسترداد هذا الحائط ولا شك أن النصر سيكون حليفنا". منذ ذلك الحين ركز يهود على تحويل الصراع العربي الفلسطيني-الصهيوني إلى صراع ديني، وكان ذلك كفيلاً بإثارة اهتمام وحماس يهود العالم بعامة، ويهود الولايات المتحدة بخاصة، وحفزهم إلى الإقبال على التبرع بسخاء منقطع النظير، لبناء الوطن اليهودي في بلادنا فلسطين وطردها منها.

كشف يهود عن مطامعهم في أماكننا المقدسة الإسلامية وخاصة البراق الشريف، وإعادة بناء هيكل سليمان في ساحته التي هي جزء من ساحة المسجد الأقصى المبارك، فانشغل أهالي المدن الفلسطينية بالمظاهرات والتهافتات - بينما بدأ فلاحو قرانا بالهجوم والاشتباكات والصدامات وتدمير المستوطنات ومحاربة شرطة الانتداب البريطاني وقواته العسكرية.

ثم تطور الصراع، ففي يوم الجمعة ١٦ أغسطس ١٩٢٩، صادف ذكرى المولد النبوي في ١٢ ربيع الأول عام ١٣٤٨هـ، توافد فيه الفلاحون من قراهم إلى القدس، للاحتفال بذكرى المولد الشريف، فقاموا مع أهل المدينة بعد الصلاة بمظاهرة رداً على مظاهرة يهودية قبل يومين، فتوجهت جموعهم الإسلامية حتى وقفت أمام حائط البراق واستمعوا إلى خطبة شيخ المسجد الأقصى حسن أبو السعود، مما أثار حمية المتظاهرين فحطموا منضدةً وضعها يهود هناك فوق الرصيف، وأخرجوا من شقوق الحائط عشرات القصاصات والأوراق المغروزة والتي كان فيها صلوات يهود، ووصاياهم، واسترحاماتهم.. وأحرقوها.

وفي اليوم التالي، السبت ١٧ أغسطس سنة ١٩٢٩ كان بعض الشبان من يهود يلعبون في ملعب (الحاشموناي) شمال حي الشيخ جراح في القدس، فسقطت كرة القدم في حقل "يعقوب سعيد نعمة" من قرية لفتا، فدخل اليهود حقل اللفتاوي وأتلفوا مزروعات البستان وتشابك الشبان اليهود مع يعقوب الفتاوي، وتكاثروا عليه مما اضطره إلى أن يقتل أحدهم بشبريته دفاعاً عن نفسه، وفرّ الباقيون، وقامت السلطات البريطانية باعتقالات كثيرة في صفوف العرب واليهود طيلة الأيام الأربعة التالية، وفي يوم الأربعاء ٢١ أغسطس تحولت جنازة اليهودي الذي قتله يعقوب الفتاوي، إلى مظاهرة صاخبة طالبت بذبح العرب وقتلهم. وظلّ القلق والتوتر يسودان مدن فلسطين وقراها طيلة الخميس ٢٢ أغسطس

١٩٢٩، حتى جاء يوم الجمعة ٢٣ أغسطس ١٩٢٩، وكان قد فهم الفلاحون أن المفتي الأكبر الحاج أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في القدس قد أصدر أمراً بالتوجه إلى القدس لمحاربة يهود.

انتقل الفلاحون من قرى بيت المقدس الشمالية والجنوبية مع غيرهم إلى ساحة المسجد الأقصى والصخرة المشرفة وتجمعوا هناك، وخرجوا بعد الصلاة في مظاهرة صاخبة مسلحين بالعصي والمدي والخناجر والشباري والسيوف والهاويات "والنبايط"، اتجه المتظاهرون إلى حائط البراق وخربوا لليهود ما نصبوه هناك، ثم اتجهت المظاهرة إلى قرية لفتا، تضامناً مع أهل لفتا ومع يعقوب سعيد نعمة، وهناك في قرية لفتا اصطدم المتظاهرون مع يهود.

وصلت أنباء المظاهرة في القدس والاصطدامات مع يهود في لفتا جميع مدن وقرى فلسطين، وقد وصلتهم متضخمة ومبالغاً فيها، وقد ساعد على ذلك ما كان يشيعه ضباط الشرطة الإنجليز: أن اليهود هاجموا المسلمين بعد خروجهم من الصلاة في المسجد الأقصى وقتلوا المئات منهم هناك، مما حفّز أهل بلدتنا أن يقوموا بقطع خطوط الهاتف على طول طريق القدس - يافا ما بين لفتا وقرية بيت نقوبا إلى الغرب، كما قامت طيلة ساعات ما بعد ظهر يوم الجمعة ٢٣ أغسطس ١٩٢٩ إلى جانب قطع خطوط التليفونات، برشق السيارات الحكومية بالحجارة مما زاد من توتر الموقف. وفي ظلام ليلة السبت ٢٤ أغسطس ١٩٢٩، كان قد أُتخذ

قرار مهاجمة المستوطنة الكبيرة جنوب بلدتنا في صباح يوم السبت ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٩.

قام آباؤنا وأجدادنا بالهجوم على المستوطنة اليهودية قبل أي هجوم عربي آخر على أية مستوطنة يهودية أخرى في مرج ابن عامر في يومي ٢٥ و ٢٦ أغسطس وقبل هجوم أهل يافا على الحي اليهودي بين يافا وتل أبيب، قام أهل قريتنا بهجومهم الصاعق على المستوطنة قبل أن يقوم أهل "صفد" بأحداث ٢٩ أغسطس، وبذلك تكون قريتنا "الفلسطينية" أول القرى الفلسطينية التي أعلنت عملياً أن الحديد لا يفله إلا حديد مثله وأن الحق لا يؤخذ إلا عسكرياً، بل لا أذهب بعيداً ولا أكون مبالغاً إذا أعلنت أن أهل قريتنا هم أول من قام بين العرب بأخذ زمام المبادرة العسكرية، وقد شاركهم في هذا الأمر دون أن يسبقوهم فيه أهل مدينة الخليل، حيث قاموا في الوقت نفسه، بهجومهم على الحي اليهودي، وقتلوا فيه أكثر من خمسين يهودياً.

قام أهل البلدة بهجومهم في الساعات الأولى من شروق يوم السبت ١٩٢٩/٨/٢٤ على محورين اثنين: أحدهما عن طريق "الحبايل" في الجنوب والجنوب الشرقي، والطريق الثاني من ناحية "الجسر وعين الجسر" في الجنوب والجنوب الغربي. وتركز الهجوم أولاً على منزل "بروزة" وعلى مصنع الطوب والقرميد، ومنزل صاحبه مختار المستوطنة اليهودية حينذاك "ميخائيل شتاينبرج". ومما هو جدير بالذكر أن يهود المستوطنة

كان قد وصلهم ليلة السبت ١٩٢٩/٨/٢٤ نبأ الاستعداد للهجوم، مما حدا باثنين من سكان المستوطنة وهما "منتياهو بروزة" و"موشيه مكلف" أن يأخذا الأمر بكل جدية وحسبان، فتوجّها من فورهما إلى القدس لطلب المساعدة من الإدارة الصهيونية، وعادوا وفي معيتهما عشرة مسلحين من أعضاء منظمة الهاغاناه^(١) المدربين والمسلحين مدججين بالسلاح والذخيرة بقيادة "اليغازير ليرمان" وفعلاً استطاعت هذه النجدة أن تدافع عن يهود المستوطنة الذين نفذوا أوامرها بعد أن انصاعوا لأوامرهم وإرشاداتهم، فتجمعوا في مكان واحد ونجوا من الموت المحقق فيما لو ظلوا في مساكنهم المتباعدة والمنتشرة فوق مساحة ٣٠ دونماً.

والغريب في الأمر أن المهاجمين لم يكن في حوزتهم من السلاح المناسب لمثل هذا الهجوم، فكل ما كان لديهم هو:

سيف مع أحمد العوينات، وشبرية مع ماجد الأشوس الذي كان يكنيه أبناء البلدة "بأبي عبد الله": وخنجر مع مقبل بن حبيب، وفأس مع رمضان العكن، وشبرية مع نعمان عبد الله آل عتاقة، وعصا شخصية مع علي محمود الفتيل، وموس مع أحمد الضبي، وبندقية أحضرها أحمد محمود الفتيل من بلدة أخواله في آخر ساعات الهجوم، أما الباقون فقد تسلحوا بالهروات والحجارة.

(١) أوجدت الوكالة اليهودية - وقد كانت حكومة يهودية داخل حكومة الانتداب في فلسطين - أوجدت قوى عسكرية باسم الهاغاناه واعترفت حكومة الانتداب بهذه القوة رسمياً في سنة ١٩٢١ وزودتها بالسلاح وبأهم خبرائها وقوادها لإعداد أفرادها لحرب العصابات ولحرب الجيوش المنظمة.

كان نعمان آل عتاقة أول المهاجمين، وكان بحكم عمله مدة طويلة عند يهود المستوطنة على دراية تامة بدهاليز منازل المستوطنة وكان أول الشهداء من بلدتنا في ذلك الهجوم حيث أوداه "بنسيون بروزة" قتيلاً برصاص مسدسه، وكان قريباً منه سعيد خضر آل عتاقة فحمله إلى ساحة المرج ودفنوه في مقبرة البلدة الأولى في البلدة خلف جامع الشيخ حمد، إلى جانب قبر الشيخ عبد الرحمن علي آل مراس إمام البلدة وبمحاذاة قبر أنيس المالحي.

ولما رأى المهاجمون قوة دفاع النجدة "العشرة جنود" من الهاغاناه عن المستوطنة وغزارة نيرانها الموجهة ضدهم! تيقنوا أن المدافعين في حوزتهم من البنادق والذخيرة ما يكفي لإبادتهم، فتحول المهاجمون إلى الجزء الجنوبي من المستوطنة وقاموا بالهجوم على بيت "مكلف"، "النمر" وكانت عائلة مكلف قد رفضت تنفيذ أمر إخلاء البيت والانضمام إلى المجموعة من أسر المستوطنة في مكان واحد. تحول المهاجمون إلى منزل "مكلف" وقد سبقهم إلى هناك كل من رمضان العلق ومقبل بن حبيب، قُتل من سكان ذلك المنزل سبعة يهود: خمسة من عائلة مكلف نفسها: الأب الشهير بالنمر، وهو "أربيه مكلف"، والزوجة الأم "حية يحيال" والابن موشيه مكلف، والأختان منية ورفقة، وقُتل معهم اثنان من حاخاماتهم كانوا في الدار حينذاك. أحاط المهاجمون بالمنزل، وظل حاييم مكلف يطلق النار على المهاجمين حتى انحسرت إحدى الرصاصات في

فوهة بندقيته، فاستعملها كعصا قاتلة، قتل بها الشهيد "علي محمود الفتيل" الذي كان أول من وصل إلى مدخل منزل مكلف، وهو يهلل ويكبر قبل دخوله على مسمع ومرأى من رفاقه المهاجمين. وفاجأه حاييم مكلف، الواقف خلف الباب بضربة بكعب بندقيته على الجانب الأيسر لجبهته، فخر شهيداً، وظل هناك، إلى أن قام يهود بإضرام النار في جثته الطاهرة، لم يستطع رفاقه المهاجمون سحب جثته، مع حضور الدبابات الانجليزية من القدس والتي باشرت بطريقة مستمرة دون توقف في.. رش المهاجمين بوابل من رصاصها ففرقتهم ومنعت عودتهم إلى مكان المعركة لأخذه، وقد ساعدت تلك الدبابات طائرة قامت بالتحليق فوق مكان المعركة تمطر المهاجمين بزخات الرصاص المنهمر تدافع عن يهود المستوطنة.

انضم غيث الصب المطري إلى المهاجمين في ساعات الظهر بعد عودته إلى بلدته من قرية عين كارم، وشاركهم في الهجوم على منزل مكلف، انضم ليشترك في ساعة من ساعات القدر على غير انتظار أو توقع، ليشترك مع ماجد الأشوس في إنقاذ طفلين اثنين: "حنة مكلف ومردخاي مكلف" ابني الأربع سنوات والخمس سنوات على التوالي، قام بتهريبهما مع ابن عمه ماجد الأشوس بن السيدين وقد كانا على قدر عظيم من الخلق الإسلامي، فما كان منهما إلا أن أنقذا هذين الطفلين من أحد المهاجمين الذي كان يهم - لحظة إنقاذهما - بقتلهما. أصبح الطفل

"مردخاي مكلف" فيما بعد رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلي عام ١٩٥٢ ليسشارك في قتال العرب واحتلال حيفا والجليل الشرقي، ثم بعد اعتقاله عين مديراً عاماً لمصانع البحر الميت ومديراً عاماً لمجلس تسويق الحمضيات، ومات عام ١٩٧٩ أثر إصابته بنوبة قلبية.

كانت حصيلة المعركة شهيدان من أهل بلدتنا وهما: علي محمود الفتيل، الذي قتله حايم مكلف، ونعمان عبد الله آل عتاقة قتله بنسيون بروزة، كما أحرقت المستوطنة تحريقاً تاماً^(١) فهجرتها سكانها بعد قتل سبعة منهم فيها، فهجروها لمدة عام كامل، ليعودوا بعد أن قامت الإدارة الصهيونية تحت حماية الإنجليز بإصلاحها وترميمها، ليعيشوا فيها من جديد وقد أقنعت الإدارة الصهيونية للهجرة والاستيطان أحد اليهود الجدد أن يحل في المستوطنة محل "النمر" أربييه مكلف، وكان ذلك اليهودي مهاجراً جديداً اسمه "الروجاني".

على أثر هذه المعركة، كما وصلنا فيما بعد من نتائجها - قام بروزة الأب بتهريب ولده بنسيون إلى "نتانيا" وظل هناك بعيداً عن أهل القرية حتى قتله ثوار قرينتا عام ١٩٤٨ في معركة مع يهود وقعت على مشارف القرية في باب الكروم غرب البلدة، قتلوه مع تسعة عشر يهودياً آخرين في كمين نصبوه عند مطاين أبي جورج، قتلهم ثوار بلدتنا وأذكر منهم رحمهم الله جميعاً عبد الله محمد العسلي ومحمد المصايحة وإبراهيم

(١) وكان الفضل في إحراق المستوطنة يعود إلى جسارة وجرة المرحوم أحمد حامد بن الضبة الشهير (بأبي فارس) إذ استطاع مع عدد قليل من المهاجرين تنظيم وتنفيذ التحريق الكامل لها وبشكل ناجح.

مصطفى ويوسف بن ضبة، ومحمد جمعة الرمضي وشقيقه محمود الرمضي، وحسين موسى آل ضبة، وعلي أحمد سلمان آل مراس، وأحمد عبد الرحمن وغيرهم، مع جماعات من بني زيد تحت إمرة وقيادة "محمد الفايز" من بني صخر في ذلك الحين. وقد نصب أهل بلدتنا مع القرى المجاورة في الشارع الرئيسي الاستراتيجي بين القدس ويافا نصبوا عدة كمائن بالقرب من الكروم لاعتراض القافلة اليهودية - المحروسة بالدبابات البريطانية في أغلب أوقات تحركاتها - في طريقها من تل أبيب إلى القدس، لنقل المؤن والذخائر لليهود المحاصرين في البلدة القديمة حينذاك. وقع اليهود في كمينين اثنين بين فكي كماشة صنعه أهل بلدتنا من جهة وأهل "بيت سوريك" من جهة ثانية، فأبادوهم في المرة الأولى وكان عددهم ١٩ يهودياً من بينهم "بنسيون بروزة"، وفي المرة الثانية ١٤ يهودياً، ومنذ تلك المعارك صمم يهود على احتلال القسطل واحتلال القرى المجاورة وتدميرها.

قلت جاءت الدبابات الإنجليزية إلى المستوطنة من القدس لتحميها من المهاجمين وبعد أن فرقته المهاجمين ودحرتهم، أخذت تلك الدبابات عصر يوم الهجوم مواقعها جنوب قرينتا "ال فلسطينية" في نقاط استراتيجية ثلاث: دبابة قريبة من نقطة عرفت فيما بعد بطاحونة درويش، ودبابة فوق جسر الدباغة جنوب البلدة، ودبابة رابعة فوق منزل عبد الرؤوف نسيبة عند

مدخل أراضي النقاشة. أخذت الدبابات الإنجليزية مواقعها تلك وأحكمت تطويق بلدتنا ومحاصرتها ليلة الأحد ٢٥/٨/١٩٢٩م.

كان "الشيخ حسين بن سلامة العسلي وزوجته عزة محمد علي سلامة العسلي" نائمين تلك الليلة فوق سطح منزلهما كغيرهم من الناس يهربون من حرارة الصيف داخل الدور إلى نسائم الليل ورقتها فوق سطوحها، قام الشيخ وزوجته لصلاة فجر الأحد ٢٥/٨/١٩٢٩م، وبدا للجنود الإنجليز المرعوبين والمحيطين بالقرية، بدا الزوجان وكأنهما بظلالهما التي فرضتها حركة نهوضهما من نومهما وشروعهما للوضوء لصلاة الفجر بديا وكأنهما يشرعان في أخذ موقعهما العسكري لإطلاق النار عليهما. فأطلق الإنجليز الرصاص تجاههما، فقتلتهما فوق سطح منزلهما، وجرح ولدهما الصغير أحمد، وبنفس الطريقة قتل الجنود الإنجليز زريفة موسى حمدان والدة زوجة محمود جمعة العلني التي كانت نائمة حينذاك فوق سطح الطابون في منزلهما شمال البلدة من الناحية الشرقية.

شدد الإنجليز قبضتهم على القرية طيلة أيام ثلاث عقب عملية دار النمر، وفي عصر يوم الثلاثاء ٢٧ أغسطس ١٩٢٩م، كان إمام القرية الشيخ عبد الرحمن آل مراس يجالس يوسف مروم أحد مسيحيي البلدة في منزله عند جسر الدباغة، وكان يشاركهما أحمد الديسي وأنيس المالحى بن أمدة عبد ربه الفتيل. كان الجميع في حالة استرخاء، يسحب الشيخ عبد الرحمن أنفاساً من يرجيلته، مرت في تلك الأثناء دبابة

إنجليزية مسرعة وهي تطلق رصاصها عشوائياً فحصدتهم الأربعة، وقد فسر أهل البلدة الذين درسوا الحادث حينذاك أن مسؤولي الدبابة الإنجليزية، قد وقع في روعهم وخوفهم أن هذه المجموعة كانت لا بد أنها تستعد لعملية عسكرية أو أنها قد فرغت منها ونفذتها لتوها خاصة أن أنيس المالحى كان يسند بندقيته إلى الحائط خلف كتفه بصورة واضحة، ناهيك أن الدبابة الإنجليزية لم تلاحظ صليباً مرفوعاً فوق منزل المسيحي كعلامة - تميز بيوت المسيحيين - طلبتها حكومة الانتداب منهم حينذاك، لتحميمهم من رصاص جنود الاحتلال. ظل القلق يسود القوات المحاصرة لبلدتنا، فافتحمت قوات التفتيش العسكرية بلدتنا وألقت القبض على الشباب والرجال، وعاثت في البيوت فساداً، ونشرت الخوف في قلوب الأطفال واعتقلوا أكثر من خمسة وأربعين رجلاً من أهل بلدتنا منهم: محمد سلمان، وسعيد سلمان، وسليم سلمان، وسليمان سلامة عاصي، وصالح حماد الزير، ومحمد علي العسلي، وإبراهيم محمود خضر، وسليم محمد خضر، وخضر صالح خضر، وعارف خليل خضر، ومحمد خليل خضر، ومحمود سعيد أسعد غنام الفتيل، ومحمد عطوة المخاليفي وأحمد عويدات من دار الضبة.

ووجهت إليهم تهمة التخريب وقطع خطوط التليفون، كما اعتقلت معهم التالية أسماؤهم وعددهم ثلاث عشرة رجلاً وشاباً ووجهت لهم تهمة قتل سبعة من يهود المستوطنة وهم: ماجد الأشوس، وغيث بن الصب

المطري، ومحمد جمعة الرمضي. وصالح عبد ربه وولداه محمد وعلي من المخاليف، وسعيد خضر و خليل بكر وولده أحمد من آل عتاقة، وحسني بركات المخاليفي، ورمضان العلق، وجميل جمعة المعرسي. كما اعتقلت رجلاً كان يعمل راعياً لغنم المختار مصطفى الطرابيشي وهو محمد صالح القطناوي من قرية قطنا.

بعد ثلاثة شهور من عملية دار النمر، بدأت محاكمة أهل بلدتنا، في ٢٦ نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٢٩، بمحاكمة المتهمين بتهمة القتل، وكان كفيلهم عند الحكومة الشيخ "درويش الداوودي"، وكان "حاييم مكلف" الشاهد الوحيد في تلك المحاكمة التي استمرت مدة شهرين عقدت خلالها خمسون جلسة محاكمة، مثل المتهمين فيها ودافع عنهم - بمعونة المجلس الإسلامي الأعلى - عدد من مشاهير المحامين الفلسطينيين والعرب حينذاك منهم: فخري الحسيني وجورج صلاح وفايز نزال وإبراهيم كمال ونصري نصر، وفي آخر جلسة في أواخر شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٣٠ أفرج عن المتهمين الثلاثة عشر، وهم المتهمين بالقتل بعد خمسة شهور من اعتقالهم قضوها في السجون، بعد أن برأتهم المحكمة. وقد كانت الإدارة الإنجليزية تحاول دائماً أن تلعب لعبة التوازن حتى لا تغضب أياً من طرفي النزاع من العرب واليهود، إلا بمقدار ما تُمليه عليها سياستها المتحيّزة دوماً لليهود، ولذلك فمقابل تبرئة الثلاثة عشر من أهل بلدتنا، من تهمة قتل سبعة يهود برأت أيضاً ساحة شموئيل بروزة

وحاييم مكلف من قتل الشهيدين نعمان خليل وعلي محمود. كما برأت المحكمة الآخرين من تهمة تخريب وتقطيع الهاتف وتهمة السلب والنهب ورفضت المحكمة الشهادات التي أدلى بها أمام المحكمة أفراد عائلة "شموئيل بروزة"، فأفرج عن المتهمين بسند كفالة من قبل الكفيل الشيخ محمود الدجاني، بعد أن قضوا في المعتقل مدة شهرين كاملين.

وفي نهاية حيثيات الحكم حكمت المحكمة على أهالي بلدتنا غرامة قدرها عشرة آلاف جنيه فلسطيني، قام عدد من رجال بلدتي بالتبرع بجزء منها، وقام رجال أفاضل من بلدتي بجمع التبرعات من أهالي القرى المجاورة وكان على رأس لجنة التبرعات من أهالي القرى المجاورة السادة: "صيح المصايحة"، و"محمد الجودي آل ضبة"، وقام المجلس الإسلامي الأعلى بدفع ما تبقى من الغرامة القاصمة لظهر الفلاحين المعدمين، دفعوها لصندوق حكومة الانتداب.

هذا وقد حكمت المحكمة أيضاً بالسجن لمدة خمس سنوات على كل من: صالح حماد الزيري، ومحمود سعيد الفتييل، ومحمد علي خليل آل مراس.

أقنعت أحداث أغسطس عام ١٩٢٩ الفلاحين من عرب فلسطين بعد محاصرة قراهم وضربهم بالطائرات وبالمدفعية البريطانية وهم يهاجمون المستوطنات، أقنعتهم أن الوطن القومي اليهودي تحت حماية الإنجليز وفي ظلال مظلات انتدابهم في فلسطين آت لا ريب فيه، أضف إلى ذلك أن القهر الإنجليزي اليهودي، وضغطه على طبقة الفلاحين في تلك القرى قد بلغ مداه، أوائل عام ١٩٣٦م فقد ذاق الفلاحون مرارة السياسة الإنجليزية اليهودية الخاصة بإفقار الفلاح وحرمانه وطرده من أرضه ومن قريته، فقد كان الفلاح هو الإنسان الفلسطيني الوحيد الذي يدفع جميع أنواع الضرائب في فلسطين التي وصلت في نسبتها إلى أكثر من ربع دخله، وكانت أجرة العامل الفلاح في دائرة الأشغال الحكومية تتراوح بين ٧٠-١٢٠ملا في اليوم، بينما أجرة مثيله اليهودي في نفس الزمان والمكان كانت لا تقل عن ٢٥٠ملا، وقد تزيد عن ٣٠٠مل.

وكان لإعدام الشهداء الثلاثة: الزير، وجمجوم، وحجازي في ١٧ يونيو سنة ١٩٣٠م، واستمرار سياسة الود والولاء للإنجليز من قبل المفتي وآل الحسيني معه، تلك السياسة التي كانت تسعى دوماً إلى كسب تأييد الإنجليز لها، في صراعها ضد عائلة آل النشاشيبي من أجل السيطرة على المجلس الإسلامي الأعلى أو على رئاسة بلدية القدس. وكانت من نتيجة ذلك أن التزمت قيادة البلاد التقليدية المتمثلة بزعامة الحاج أمين الحسيني، التزمت عدم التشجيع أو اتخاذ أية مبادرة إيجابية في مساندة

الحركات الثورية العسكرية الهجومية مما أدى إلى فشل عصبة "الكف الأخضر" وإلقاء القبض على زعيمها "أحمد طافش" عام ١٩٣٠ وإلى حل ثورة القسام، واستشهاده ورفاقه عام ١٩٣٥، كل ذلك زاد من نفمة الفلاحين في قراهم، فتدادوا للجهاد ولإعلان الكفاح المسلح، قبل وأثناء وبعد الإضراب الشهير في ١٩٣٦، ولأول وهلة يبدو أن الأمر انفلت من يد الزعامة التقليدية في البلاد، بل أصبح أمر الكفاح العسكري والجهاد الهجومي المسلح في يد قيادات ثورية من الفلاحين في القرى الفلسطينية نظمت نفسها تلقائياً، دون إشراف أو توجيه من أية جهة أخرى تُذكر من تلك القيادات على سبيل المثال لا الحصر: قاسم الريماوي من بيت ريماء، وأبو شعبان والسيد عبد الرحمن علي شحدة من قرية لفتا، و خليل منون من عين كارم، وماجد الأشوس من الفلسطينية، ومحمد ذيب اليطق من قرية بيت عنان، ومحمد عبد الغني من جنين، وأحمد طافش زعيم عصابة الكف الأخضر، وأحمد المحمود من قرية طمون شمال شرق نابلس وصاحب شعار "رمي الإنجليز في البحر"، وفلاحو القيادة العليا الأربعة للحركة القسامية: العبد قاسم ومحمود زعرورة، وكانا يبيعان الجاز في مدينة حيفا، ومحمد صالح صاحب كارة، وأبو إبراهيم الكبير صاحب دكان لبيع الصوف والأكياس، ومصطفى علي الأحمد من صفورية وغيرهم... وغيرهم كثير.

وقد حارب هؤلاء الأشاوس، ومن كانوا يجندونهم من رجال قراهم العصابات اليهودية المسلحة مثل البالماخ، والهاجاناه، وشتيرن، وغيرها، من العصابات التي ظهرت تباعاً. وكانت حادثة تهريب السلاح لليهود، في أكتوبر سنة ١٩٣٥م في ١٦٦٦ برميلاً بمثابة إعلان مُدوّ من اليهود، يعلنون فيه أنهم يتسلحون تسليحاً واسعاً على مستوى كبير مما يكفي لتجهيز جيش كامل لتحقيق هدف شامل وهو إنشاء الوطن اليهودي في بلادنا فلسطين، مما أدى إلى غضب رعيب، وهياج شديد بين الفلاحين من عرب فلسطين بخاصة. فصار القروي يفكر في تسليح نفسه، فباع قطعة أرضه الصغيرة أو بقرته الوحيدة أو صيغة زوجته أو حليّ أمه ليشتري بقيمة ذلك سلاحاً، فقد أيقن الفلاحون أن لا فائدة ترجى على البعد المنظور من السياسة التقليدية للزعامة الفلسطينية حينذاك، كما صار الفلاحون لا يُضاربون بمليم واحد في بورصة وطنية وجهاء البلاد أولاد العائلات، وكبار الملاك والتجار الذين دأبوا على مصانعة يهود والإنجليز إرضاء لمصالحهم وحفاظاً على إمتيازاتهم. فصار كل فلاح وفي كل قرية يحاول شراء قطعة سلاح تحميه، أسلحة متعددة النماذج تجدها في القرية الواحدة، عياراتها مختلفة الصنع وذخيرتها شحيحة اعترضتها الكثير من المشاكل والصعوبات للمحافظة عليها أو لتجديدها أو للحصول على بديل لها في حالة تلفها أو - نفاذها!

ويشهد الله والتاريخ والناس من المطلعين على الأمور أن الفلاحين الفلسطينيين كانوا هم طلائع العمل العسكري الرائد سواء في منطقة القدس وقراها في منطقة نابلس وجبالها. أخذ هؤلاء الأشاوس على عاتقهم استحضر السلاح وشراءه والتخطيط للعمليات العسكرية وتنفيذها ضد قوات الاحتلال البريطاني وضد يهود. وهذا ما أشار إليه المحللون لأحداث وتاريخ الصراع الفلسطيني العربي - الصهيوني، عندما أشاروا إلى أن جماهير الشعب الفلسطيني (وغالبيتهم من الفلاحين) كانت دائماً تسبق قياداتها في مجال الثورة المسلحة وفي ميدان التضحية والفداء، مما كان يفقد تلك القيادات القدرة على اللحاق بنضال جماهيرنا أو حتى مسايرتها منذ بدأ صراعنا مع عدونا - مع يهود^(١).



(١) اعترف المكتب العربي الذي ترأسه موسى العلمي، بأن ثورة سني ١٩٣٦ - ١٩٣٩ لم يقم بها المتعلمون في المدن، بل عصابات من القرويين في الجبال وفي القرى التي كانت تقدم لها المعونة والزاد والمأوى. ويقول أميل الفوري والحقيقة الثابتة أن الفلاحين في فلسطين بصورة خاصة وإلى جانبهم من العمال بصورة عامة، هم الذين دفعوا ضريبة الدم وضريبة المال لفلسطين وحققا في الحياة ... وهم الذين تحمّلوا العبء الأكبر في الدفاع عن فلسطين خلال الثلاثين عاماً التي قضتها في مناهضة الاستعمار.

حديث الناس

كان لماجد الأشوس بن السيدين مع السلاح علاقات تتسم بقديسية خاصة، وهو ماجد البدوي صاحب الشعر المرسل خلف ظهره في جديلتين اثنتين في بداية حياته في بلدة "الفلستينية" وصاحب العينين الكحيلتين على عادة رجال البادية البارزين في ذلك الزمن، ومن ثم اكتسب اسمه المعروف بماجد البدوي، وتوقيراً له واحتراماً نادوه بكنيته "أبو عبد الله: وظلت كنيته تلك دارجة على ألسنة الرجال والنساء في البلدة حتى وقت متأخر، حتى آذار عام ١٩٥٥ عند أهل جيله ومعاصريه والذين شهدوا له عملياته البطولية عن كُتْبُ أو عن بُعد.

وعلاقات أبو عبد الله مع سلاحه قديمة راسخة، بدأت معه ولم يكمل السابعة عشر من عمره، كان يعتبر نفسه من القناصة المعدادين في عالم الرماية، ولم يسبقه في ذلك أحد من أهل بلدته، وقد تسابق شباب القرية - فيما بعد - بين يديه إلى تزكيته لهم في استعمال البندقية أو المسدس في الرماية، وكثيراً ما سمعته يشيد بالسادة: محد جمعة الرمضي وعلي أحمد سلمان آل مراس في إجادة إصابتهم للهدف، وكان يعتبرهما من أحسن الرماة وأفضل القناصة.

رجع أبو عبد الله إلى بلدته "الفلستينية"، مسقط رأس أجداده، وآبائه وأهل عشيرته. رجع عام ١٩٢٠م، ومعه بندقية السواري، يسير في الليل وبنام ويستريح مع بندقية بعيداً عن الأنظار في النهار، يختار مخبئه في أحراش مدائن الصيت^(١) وغابات دندن، وحقول الزرع في الأغوار أو في بساتين الأشجار على سفوح جبال القدس وقممها. وقد أضاف فيما بعد إلى بندقية مسدساً من فئة الطاحونة مع جناد وهو حزام عريض عليه العديد من العراوي، تتسع الواحدة لوحدة ذخيرة البندقية أو عبوة المسدس تثبت في هذه العراوي. وقد أضاف إلى هذا الجناد حزامين آخرين يبدأ كل منهما من الجناد عند إحدى الخاصرتين ماراً فوق الكتف المخالف منتهياً بالجناد من الخلف، وكان ماجد بن السيدين رحمه الله يسميه بالتركية "سلكك" كان يحدث ذلك في الوقت الذي كانت تصل فيه عقوبة من تُضبط عنده رصاصة فارغة إلى السجن لمدة ثلاث سنوات، وقد تصل أحياناً إلى خمس. أما حيازة المسدس، أو البندقية، فلم تكن تقل عن السجن المؤبد، ولربما وصلت إلى الإعدام.

كان رحمه الله عنيفاً في مواقف العنف، يركز عنفه على عناد لا حدود له في مواقف ما يراه حقاً في قرارة نفسه، وكان مع ذلك مرحاً يتسم مرحه بالرزانة والتعقل، مشهوداً له بالشجاعة من غيره، رغم أنه لم يحاول قط الحديث عنها، أو الإشارة إليها. عرفه أهل بلدنا قبل الشتات

١- وكم تحدث الناس عن قصصه مع الضباغ ومع دبية أحراج الصيت ودندن في أولى سني فتوته، وكانت حتى أوائل القرن العشرين مشهورة بأحراشها ودببها بل وبفهودها المعروفة بشراستها..

تمام المعرفة ، فكان موضع إعجاب واحترام النساء والرجال في قريته وخاصة بعد أن جعل العمل الوطني من اهتماماته الرائدة، عرفوا فيه حب التعاون معهم وروح الانتماء الحق إليهم. فتعرض النساء والرجال مشاكلهم الزوجية وقضايا الإرث أو الخلافات العائلية عليه، يسترشدون برأيه ويستأنسون به.

كان في داخل كيانه يؤمن أن الفعل وليس القول هو ما يُميّز الرجال الصادقين عن غيرهم من المتبجحين الكاذبين الذين لا فرق عندهم بين قولهم وبولهم، على حد وصفه لأحدهم، وإذا كان للكلام ضرورة عنده فإنما ذلك لا يتأتى إلا بعد تنفيذ الفعل ونجاحه، لم يكن يعرف الخوف إلى قلبه طريقاً، وكان شريفاً عزيزاً، تظهر عزّته من خلال مواظبته على صلاته وخوفه من الله، تنظر إلى ملامح وجهه فيمتلئ قلبك بالرهبة التي تمتزج بالتوقير والاحترام، تبدو عليه سمات الكبرياء، كبرياء الجبال وقممها في بلدتنا. تدور داخل نفسه جدلية الحياة بكل أبعادها في معركة صامتة، كان يعتبر نفسه جندياً من جنود الله وظيفته أن يقتل ما يستطيع من يهود ومن حماتهم الإنجليز وغيرهم ... كان كثيراً ما يُردد المثل "الدار دار أبونا وأجوا الثُرب يطحونا: ويُصر دائماً على أن السيف الطايل يعدل الحق المايل.

وقد حدثني محمود جمعة الرمضي وكان رفيقه وحامل سره، يحضر في الأمسيات عنده في منزله، يقرأ عليه الجريدة ويحدثه عن الأخبار

السياسية والعسكرية في البلاد، أخبار الأحزاب الجديدة والمنشقة، أخبار عوائل الحسيني وآل النشاشيبي وصراعاتهم التي لم تنته، أخبار طرد الفلاحين من أراضيهم، وأخبار السماسرة والخونة.

حدثني أبو إبراهيم وتلك كانت كُنيتُه بكلمات تليق بالموصوف قال: "كان ماجد بن السيدين ثورياً، وقومياً، تتأجج داخله أحاسيسه الثورية، ومشاعره القومية الحقة والوطنية الصادقة كل تلك الأحاسيس والمشاعر قد تبلورت عنده في عمليات فدائية عديدة، وقد اختارني مستشاراً له، أصف له أماكن وسكن يهود في المستوطنتين، سكن من ينوي مهاجمته من يهود. وكنت أعلمه بعض مفردات العبرية الضرورية للتواصل مع يهود اثناء عملياته عند الضرورة وكنت أجيدها حديثاً وقراءة وكتابة لطول عهدي بالعمل عندهم في مصنع الطوب والقرميد عند ميخائيل شطينبرج. كان والدك رحمه الله سباقاً في تصديه لليهود بإرادة حديدية وعزيمة وتضحية وفداء لا حدود لها، لم ينتم لأي حزب من الأحزاب الفاسدة دون استثناء آنذاك، والتي كانت تعج بها البلاد من أقصاها إلى أقصاها ولم ينتسب إلى أي تنظيم، بل قام بواجبه بما يُمليه عليه إيمانه بالله ومحاربة أعداء الله الذين هم أعداؤه، يقوم بذلك بشكل فردي فلم يمر بمطالبات تنظيمية أو تثقيفات ثورية.

كان ماجد بن السيدين يتبع الأسلوب القسامي في النضال: قبل عملياته كان يقوم بقطع الطريق على يهود وحراسهم الإنجليز بين القدس

ويافا، فمرة يكمن في نقطة معينة في حي روميما اليهودي في القدس، وأخرى يترصّد يهوداً عند نقطة يختارها في إحدى منعطفات القسطل القديمة والمتعرجة، ومرة ثالثة ينصب كمينه هناك.. في باب الواد.

يصف أبو إبراهيم إحدى روائح أبي عبد الله من العمليات الفدائية التي قام بتنفيذها بنجاح في أوائل أيام ثورة سنة ١٩٣٦: بينما كان أهل بلدتنا عصر ذات يوم يقومون بدفن المرحومة "حسنة حمد" من قرية قطنّا، وكانت في زيارة ابنة شقيقتها فاطمة محمد علي العسلي زوجة إسلم العسلي، وقد توفيت عندها، وكان من عادة أهل بلدتنا أن يشترك كل الرجال من شيوخ وشباب وفتيان في جنازة ميتهم، مرّت سيارة من نوع لاند روفر وعلى متنها خمسة من الشباب اليهود المجندين لحراسة المستعمرات، مرت سيارتهم بمحاذاة المقبرة الرئيسية لأهل بلدتنا على الشارع الكبير الذي يربط القدس في الشرق مع يافا على البحر في الغرب، مرّت وهم يرفعون راية قماشية ثبّتوها فوق مكنسة ترفعها عصا طويلة وهم يرددون هتافاً بالعبرية، سألني أبو عبد الله عن مضمون هتافهم فأخبرته أنهم يشتمون العرب ويستفزوننا ويهتفون "فلسطين بلادنا - والعرب كلابنا". صعد أبو عبد الله، وضرب كفّاً بكف، وقال كلمته الاستكارية التي اعتدنا سماعها منه في موقف النخوة والشهامة والإباء ومواقف التحدي والتصدي والوعيد والتهديد.. باطل.. باطل! وأنا أخوكي يا "خودة".

وكان رحمه الله يؤمن كل الإيمان أن فلسطين بلادنا نحن العرب الفلسطينيين، وأن اليهود كلابنا لا كما يزعمون في هتافهم في كل مرة يمرّون فيها بسياراتهم أمام العرب هنا وهناك، وهم يهتفون هتافهم العدواني الاستفزازي، ذلك الهتاف الذي أجج ضرام المشاعر الوطنية والأحاسيس القومية في صدر أبي عبد الله فقام برائعته الفدائية التي يعرفها كل أهل البلدة من معاصريه والتي وصلت أخبارها إلى من أصبح زعيماً لفلسطين وقائداً لثورتها الكبرى، إلى الحاج أمين الحسيني، الزعيم الروحي والديني للشعب الفلسطيني حينذاك. وقد عرفت تلك العملية باسم "عملية بلحة" عرف الوالد من صديقه الحميم أبي إبراهيم أنهم مجموعة من الحرس اليهودي، اعتادوا المرور صباحاً وعصراً من كل يوم من أيام العمل عندهم بين مستوطنة موصّة التحتا و "قُبْنِيّة الخمسة" خلف القسطل على طريق القدس - يافا، أمام قريتنا، وفي فجر يوم العملية تسلل أبو عبد الله ببندقيته يخفيها تحت عباءته السوداء إلى نقطة حددها في منعطف حاد من منعطفات القسطل المشهورة، اختار نقطة قريبة من منزل "طه وردة العكرماوي" في بيت ليهودي كان مهجوراً منذ أن أحرقه أهل بلدتنا في هبة أغسطس عام ١٩٢٩. ترصد هناك فوق عتبة في تلك النقطة ينتظر مرور السيارة المعنية. لم تخطئ السيارة وقتها فلاحته له وعلى متنها رجالها وهي هابطة المنعطف الحاد ذاك إلى موصّة التحتا وبسرعة خاطفة لا تحتمل التردد أطلق رصاصة واحدة صوب سائقها - ففترنح السيارة في سيرها بين هياج المجندين فوق متنها وصياحهم داخلها،

وفي هذه الأثناء وبنفس السرعة أفرغ محتويات بندقيته في اتجاه الجنود في السيارة - وما هي إلا لحظات حتى استقرت السيارة مقلوبة في قاع الطريق عند العين الفوقية، أمام منزل حافظ نسيبة في بلدة "الفلستينية". وقد عرف فيما بعد أن أربعة من ركابها قتلوا في تلك العملية، ويشهد أبو إبراهيم أنه منذ تلك العملية لم يسمع هتاف أو نشيد من يهود وهم يمرون من هناك.

"عملها أخو خودة". هكذا كان يردد أهل البلدة بعد سماعهم بالعملية ، كان ذلك بعد شروق شمس ذلك اليوم بساعة - ينسحب أبو عبد الله من مسرح العملية ويهرع تجاه بلدة عين كارم، وفي كرم يخص امرأة من عين كارم تدعى "بلحة" دفن بندقيته ثم انسحب من الكرم وهو يجرُّ فرع شجرة وراءه لإخفاء آثار أقدامه، ثم يدخل أرضاً لسيدة عكرماوية أخرى تدعى "ارقية العتمة" أم محمد. وكان أولادها محمد ومصطفى يعملون في قلب أرضهم فشاركهم العمل وأوصى أم محمد أن تصنع له رغيفاً من الخبز مع حبتين بندورة ورأس بصل في صرة خاصة تعلقها فوق شجرة، وألح لها ولوديتها بالعملية التي قام بها، وطلب إليها أن تدعي أنه يعمل عندها منذ الفجر بعشرة قروش في اليوم. وأضاف أن "أخْتُكِ بلحة عندها العروسة" لم تكد تمر ساعة على العملية حتى ظهرت طائرة بريطانية تجوب المنطقة على ارتفاع بسيط، ولم تمض ساعة أخرى حتى كانت مجموعة من جنود الإنجليز المشاة ومعهم أحد أبناء "شموئيل بروزة" واسمه

"مطا"، تدخل الكرم واستجوبوا المجموعة، وتعرف "مطا" وهو من سكان المستعمرة على ماجد، وأشار نحوه وهو يشتم ويتوعد أنه أحد الذين شاركوا في عملية دار النمر سنة ١٩٢٩، وقد قدر أنه لا بد أن يكون هو المنفذ لهذه العملية.

اصطحب الجنود ماجد الأشوس معهم إلى القدس مقيد اليدين، وأودعوه سجن القشلة التركي القديم، في قلعة المباحث الإنجليزية، قلعة الإرهاب والتي عرفت في أيامهم باسم "السي آي دي". لم تنتظر أم الثوار وشقيقتهم السيدة "رقية العتمة" مرور الزمن، فأسرعت إلى بيت أبي عبد الله في بلدته: هرولت تقطع الوادي الكبير وتعبّر الشارع العام وتصعد عقبة تينة عبد الرحمن لا تلوي على شيء، وفي نفسها تعتلج مشاعر وخواطر وانفعالات شتى، في غير اضطراب أو رعب، أو دهش، وإنما استقرار وإصرار على بث الطمأنينة في بيت أبي عبد الله وأفراد أسرته. أخبرت أم الثوار دلال والزوجة بالقصة، وأخبرت أن العروسة موجودة عند السيدة "بلحة".

ذهبت دلال على الفور إلى صديق ماجد وأحد مخاتير البلدة سعيد سلمان آل مراس وأطلعته على أمر أبي عبد الله ليذهب من فوره إلى صبح المصايحة أحد المشرفين على أرض آل الحسيني في بلدة الفلسطينية حينذاك، وبحكم مسؤوليته تلك يتمكن من إيصال الأخبار إلى الحاج أمين الحسيني في منزله أو في مكاتب المجلس الإسلامي الأعلى في

القدس. وفي صبيحة اليوم التالي كانت مكاتب المجلس الإسلامي الأعلى تعج بحركة المراجعين، وكان من ضمنهم سعيد سلمان آل مراس وصيح المصايحة. قاما بإطلاع الحاج أمين على قصة ماجد الأشوس بتفاصيلها، فانتدب المجلس عدداً من المحامين للدفاع عنه، استطاعوا وبعد أربعين يوماً من اعتقاله في سجن "السي آي دي" تفنيد شهادة مطا شموييل بروزة ضده، ومن ثم تبرئته.

وفي نهاية الأسبوع الأول من إنزال أبي عبد الله في سجن القشلة كانت ابنته دلال قد زارت السيدة "بلحة" في منزلها في عين كارم، وانتدبت السيدة بلحة صديقي "ماجد الأشوس" وهما محمد الشخامي وشقيقه علي الشخامي في الكشف عن البندقية في أرضها، فعثرا عليها بسهولة، فحضرا لزيارة صاحبها في سجن القشلة وأخبراه أن عروسته قد انتلقت عندهما في الحرز والصون.

وكما يلاحظ القارئ من أبناء بلدي ومن غيرهم أنني أجد نفسي مصراً على كتابة أحداث عملية بلحة، بكل تفاصيلها ما أمكنني ذلك، لأجعل من تلك الأحداث محوراً تركز إليه حقائق أساسية في نضالنا الفلسطيني ضد يهود - هذه الحقائق يتوخى القارئ لهذا الكتاب تقريرها بنفسه دون هوى في النفس أو غش في الرؤيا أو لبس في جدل، كما أتوقع منه أن ينجح في ذلك.

استمر الفلاحون في ثورتهم طيلة أواخر الثلاثينات في شتى قرى بلادنا فلسطين وفي جبالها وشعابها يتصدون للقوات الإنجليزية وللشرطة وللمتعاونين معها، ويهاجمون المستوطنات اليهودية يقطعون عليها قوافل إمداداتها مما جعل القيادة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية حينذاك والتي سيطرت ردهاً من الزمن على مجريات القرار في قضايانا المصيرية - أقول مما جعل تلك القيادة تخاف من اشتداد نفوذ الفلاحين، وقد ظهر ذلك جلياً في مقال لجمال الحسيني نشره في جريدة الديلي ميل البريطانية في لندن بعد ثورة سنة ١٩٢٩م وما صاحبها من ذبح لليهود في الخليل، وفي الفلسطينية.. وصفد، ختم جمال الحسيني سكرتير المجلس الإسلامي الأعلى مقالته ذاك بقوله: "إننا - أي الزعامة الحسينية أو المجلسية - أخذنا نضيع نفوذنا عند الفلاحين، فإذا لم نفعل شيئاً لإزالة الجور، فإنني أخشى من تجدد الاضطرابات والمشاكل لا محالة..".

استمر الفلاحون في ثورتهم واشتدت مطاردتهم للجواسيس والسماسرة وكان أن قامت قوة من الخيالة البريطانية وشرطتها بالقبض على السيدين غيث بن الصب المطري وصيح المصايحة في أواخر يوليو/ تموز ١٩٣٦ بعد تطويق البلدة مدة خمسة أيام يحققون ويستجوبون، حتى وجهوا أخيراً تهمة محاولة قتل أحد سماسرة الأرض ضد الرجلين اللذين أمضيا خمسة شهور في معتقل صرفند، ثم برئت ساحتها بعد ذلك.

وفي نوفمبر/ تشرين ثاني سنة ١٩٣٧ قامت مجموعة من رجال البلدة بقطع أسلاك الهاتف وبرشق السيارات العسكرية واليهودية بالحجارة ووضع الحواجز في الشارع الرئيسي بالقرب من نقطة عند مطحنة درويش ومقابل قرية خربة اللوز وعند مطاين أبي جورج بجوار قلعة القسطل، وتعرضت المستوطنتان أرزا وموصة إلى إطلاق النار بصورة متقطعة، فطوقت البلدة واعتقل من شبابها ما يزيد عن الأربعين شاباً^(١) وكانوا هذه المرة من موظفي وعمال التلغراف والتلفون الحكوميين وعلى رأسهم المرحوم محمود حسن آل مراس، صاحب لقب "فاعل خير" في البلدة، كما قبض على مجموعة من عمال فبريكة ميخائيل شطينبرج كما شملت حملة الاعتقال في تلك المرة شباب القرى على طول طريق القدس - يافا ومنهم الشهيد الشاب حسن أحمد عودة من قرية بيت نقوبا، قبضوا عليه وفي حوزته مخصص خاص بجوار بلدة قرية العنب "أبو غوش" فكان أن حوكم وتم تنفيذ حكم الإعدام فيه. أما الباقون من المعتقلين فقد أرسلوا إلى سجن مزرعة عكا وظلوا فيها مدة عام كامل^(٢) أطلق سراحهم بعده وجرح في ذلك الحصار السيد غيث المطري الذي أصيب إصابة بليغة في

١ - دخلت الشرطة تحت قيادة فايز بك الإدريسي بيتاً بيتاً ولدة خمسة أيام قامت بالتحقيقات بعد أن جمعت كل من تجاوز الرابعة عشرة من الرجال في ساحة البلد أمام دكان إسماعيل خليل الرمضي في وسط البلدة تحت الضرب والإهانة بالعصي والكراييج الجلدية ومن ثم ساقتهم جميعاً للاعتقال بعد أن عاثت في بيوتهم فساداً وتخريباً لأنهم وموئهم...!

٢ - وكان ممن اعتقلوا في سجن مزرعة عكا ذلك العام السادة غيث المطري ومحمود جمعة الرمضي، ومحمد عبد الرحمن آل مراس وعلي صبح المصايحة وكلهم من بلدة "الفلستينية"، والسادة مصطفى عديلة، و خليل منون، وعلي الفباري وكلهم من عين كرام. وفي المعتقل التقى الجميع بكثير من رجالات العمل الثوري أمثال أحمد الشقيري وشقيقه أنور، والأستاذ محمد عزة دروزة "والحسويين" على العمل الثوري، أمثال عوني عبد الهادي ! ورشيد الحاج إبراهيم..

يده، ظلت آثارها بادية حتى اليوم الأخير من عمره، وقد تسببت في اعاقته وعدم القدرة على استخدامها بصورة صحيحة، وكان ذلك أثر مطارדתه من قبل جنود الاحتلال للقبض عليه في منطقة تقع في شمال البلدة بالقرب من منزل الضبي. وقد تبادل كلاهما إطلاق النار مع الجنود الإنجليز. قامت السيدة فاطمة الحاج حسن زوجة أحمد حامد محمود الضبي بعملية الإسعافات الأولية للجرح، ثم انتقل برفقة أبي فارس رأساً إلى المركز الصحي على بعد ثلاثة كيلومترات إلى الشمال من بلدتها في قرية القبيبة، وهناك تم تضميد الجرح على أن يذهب السيد غيث الصب إلى المستشفى في اليوم التالي، ولكنه لم يستطع العودة إلى داره، فبات في دارة لابن عمه مصطفى الشاويش في بستان له في بيت مزرة، وفي الصباح: سائراً على الأقدام، بعيداً عن أعين الجنود والجواسيس، ومن طريق عين طلعة / بيت اكسا / لفتا وصل إلى المستشفى الألماني. أدرك الدكتور كنعان الموقف، فبادر الرجل قائلاً: "آه انت اللي قرصتك الحية"، وقال: بسيطة، ما تخاف، وأجرى له العملية المطلوبة وأمره بعدم مغادرة المستشفى، وأبقاه الدكتور كنعان هناك خمسة أيام يتابع جرحه، ويحرسه ويحميه - موقف نبيل تجلّت فيه، شهامة ووطنية هذا الطبيب في أنقى صورها.

ظل ماجد الأشوس يقوم بعملياته منفرداً حتى أوائل عام ١٩٣٨ يختار هدفه السلوكي في نطاق هدفه العام ويحتفظ بخططه وأساليبه وتوقيته، لا يطلع سره حتى على زره، فتتمثلت فيه السرية التامة، فكان

النجاح حليفه في معظم عملياته التي كان يخطط لها تخطيطاً جيداً نابعاً عن ذكاء عجيب، وساند هذا النجاح عنده تجاوب مساعده وصديقه محمود جمعة الرمضي، أمين سره، وموضع ثقته. كما ساند هذا النجاح ونجاح العمليات الفدائية في شتى قرانا وجبالنا، التعاون التام بين أهل القرى مع الثوار، فقد كانت بيوت الفلاحين ملجأ لكل تائر ومناضل يقدم له الحماية والطعام، وكل ما يحتاجه التائر المطارد.

توجه ماجد بن السيدين عصر أحد الأيام إلى حي روميما، وقد تنكّر بلباس امرأة مقدسية من نوع "الملاية الزم" وهو لباس من قطعتين فضفاضتين يغطي لابسته من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، فلا يظهر منها شيء، تحرك أبو عبد الله في ذلك اللباس وكان قد أحضره له أبو إبراهيم من أحد زملائه المقادسة العاملين معه في فبريكة ميخل، سار في ملابسه تلك أمام جنود الاحتلال وأمام يهود في أحد أكبر أحيائهم في القدس، حتى وصل إلى نقطة تقف عندها حافلة ركاب يهودية من باصات شركة "إيجد" اليهودية، صعدت "السيدة" عتبة الباص لتخرج يدها من تحت الملاية بمسدس تصوّبه داخل الباص وتفرغ كل رصاصاته في ركابه ثم هرولت نازلة بسرعة مبتعدة عن مسرح العملية، وظل سائراً لا يلوي على شيء منتقلاً من مكان إلى مكان، أماكن كان قد حددها ودرسها واستعد لها حتى وصل إلى مداخل بيت هاكريم، ثم يصل بعدها إلى قرية المالحة، وهناك في منزل أحد سكانها استبدل ملابسه كاملة

بعد أن قدم طاقم الملاية الزم هدية لسيدة المنزل، ثم هبط ليلاً إلى داره في "الفاستينية".

وفي اليوم التالي خرجت الصحف تتحدث عن عملية فدائية جريئة لسيدة أو لشاب متخفياً في ملابسه، وقال أحد شهود العيان أن السائق قد قتل وهو على مقود الباص من هول المفاجأة، وأن ثلاثة جرحى من ركاب الباص قد جرى إخلاؤهم عن مسرح العملية وقد صرح مصدر بلسان الشرطة أن هذا النمط من الهجمات غير مألوف ولم يسبق له نظير. وقد وقعت العملية الفدائية ضد الحافلة اليهودية تلك في أواخر شهر يونيو/ حزيران عام ١٩٣٦ م بعد مقتل أحد قادة ضباط الشرطة الإنجليزي في القدس "سكرست"^(١) على يد الشهيد سامي الأنصاري أحد مفاخر الشباب الفلسطيني رحمه الله.

روى لي أبو إبراهيم عدداً آخر من العمليات الفدائية لماجد بن السيدين أهمها محاولته اغتيال ضابط إنجليزي كان يعمل مساعداً لقائد شرطة

١ "آل سكرست" قائد شرطة القدس الإنجليزي. أقدر من عرفته فلسطين من أعدائنا الإنجليز. لم يكن له هم إلا أدلال كل ما هو عربي فلسطيني بالكلمات أو بضرب العصي و الهراوات وبتكسير العظام والجمجمات كما حدث مع الشهيد صبحي قطينة. وكان من ضمن من حاول إهانتهم بعد ضربهم شابين من مفاخر شباب فلسطين بل مفاخر الأمة الإسلامية جمعا، الشهيد سامي إبراهيم الأنصاري والبطل المناضل صديقه الحميم بهجت عليان أبو غربية. هذان البطلان استغرقا مدة شهر كامل في وضع خطة قتل ذلك الوحش الإنجليزي تكلفت خططهما بالنجاح وقتلاه بالسد سات في مكان طلوع سبتا مريم عند مفترق وادي الجوز في القدس... وهذه الرواية قصها على شيخ المناضلين بهجت أبو غربية عام ١٩٩١م في مكتبة في شارع الأمير محمد بعمان.

قرى بيت المقدس (السيد فايز الإدريسي) ترصد ماجد له ثلاث مرات في ضاحية بيت هاكميرم حيث كان يسكن، ولكن محاولاته لقتله قد فشلت بسبب مضاعفة الحراس المشددة على الضباط الإنجليز، بعد مقتل "سكرست".

كما روى أبو إبراهيم عمليات أخرى قام بها أبو عبد الله في المستعمرة المواجهة لبلدتنا مثل عملية اقتحامه لمنزل "عيش" اليهودي واصطدامه بحرس المستوطنة حينذاك وقتله لحارسين منهم في سبتمبر/ أيلول ١٩٣٧م. ظلت عمليات ماجد بن السیدین الفدائية ولفترة طويلة تثير الهلع والتوتر في قلوب يهود وبين صفوف شرطة الاحتلال وجيشه على طول طريق القدس - يافا، حتى ظنوا أن هذه العمليات إنما تقوم بها مجموعات متعددة من الثوار، وقد أكد لي أبو إبراهيم الرمضي أن مسرح عمليات ماجد لم يتجاوز المنطقة الممتدة بين محنات يهودا الملاصقة للقدس حتى نقطة عند قرية العنب "أبو غوش" القريبة من باب الواد.

(١)

أرزاق (٢) ١

ما كان أبو عبد الله علي ود مع الفلاحة والعمل في الأرض - رغم اقتتاله الشديد في استرجاع أرضه - أقول لم يكن على ود مع العمل مزارعاً فالحاً لأراضيه الواسعة التي قاربت المائة من الدونمات ! فهو يصف أعمال الزراعة أنها هي الأشغال الشاقة المؤيدة بدون حكم المحكمة.. تتأبر في العمل على وتيرة واحدة طوال فصول الحياة.. تشد فيها وتكد.. وتراقب وتنتظر.. تكون خلال كل ذلك مهدوداً في الليل والحال.. ومقللاً في الرزق.. ومصاباً في الهيبة..! والزراعة على قدر عطائك لها تعطيك..! عندما عاد أبو عبد الله إلى بلدته "الفاستطينية" عام ١٩٢٠.. كان رجال البلدة يشتغلون بزراعة أرضهم.. يستصلحونها فيزرعونها ويحصدوننها، كانت زراعتهم زراعة اكتفاء ذاتي.. بل وتؤمن البلدة مع غيرها من القرى المجاورة المناطق المحيطة بالقدس ورام الله.. بالمنتجات الزراعية التي تحتاج إليها من حبوب وخضار وثمار وألبان.. وبيض..

١ الأرزاق نوعان: الأرزاق الظاهرة للأبدان وهي الأقوات والطعام، والباطنة للقلوب والعقول كالعلوم والمعارف.

وعندما بدأ الصراع الدموي من خلال الثورات المتبادلة بين الفلسطينيين، ومهاجري يهود.. منذ ١٩٢٩م.. وما أن تطوّر هذا الصراع حتى بدأت نسبة العاملين من الناشطين في الزراعة في التدني والهبوط.. وفي تلك الفترة.. كان أبو عبد الله منهمكاً حتى قمة رأسه في استخلاص أرضه ممن كانت في حوزتهم سنين طويلة.. ولقد استغرق ذلك اثني عشر عاماً أو زيادة قضاها في محاكم القدس ووساطات أهل الخير من البلدة.. ومن القرى المجاورة..

ولذلك نستطيع أن نقول أن أبا عبد الله منذ أن عاد إلى بلده عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٣١ لم يعمل في الأرض.. لا مزارعاً مالكاً.. ولا مزارعاً شّكّاراً^(١).

وما أن بدأت موجات الصراع تشغل شباب فلسطين وخاصة فلاحي القرى ١٩٢٩م حتى انخرط أبو عبد الله في العمل الوطني وفي ثوراته.. بشكل جعل الزراعة عنده تأتي في المرتبة الثانية في جدول الأولويات عنده..

وعندما نجح ملوك العرب ورؤساؤهم في خداع الشعب الفلسطيني الذي تمثّل بحملهم على وقف إضرابهم الكبير عام ١٩٣٦، عندما حدث إبطال مفعول ذلك الإضراب الذي امتد إلى ستة شهور متواصلة، مما دفع

(١) أجيراً في أرض الغير يعمل فيها.

حكومة الانتداب البريطانية إلى المسارعة بطلب النجدة من الملوك العرب ضد الفلسطينيين..!

عندما حدث كل ذلك فوجئ أبو عبد الله أن أصحاب الأرض وملأكيها من أهل بلده قد هجروا العمل كلية في أراضيهم.. وبدأوا موجات نزوحهم إلى المدن.. إلى القدس.. إلى يافا.. إلى غزة..! وتصاعدت حركة النزوح إلى تلك المدن خاصة حتى بلغ عدد الشباب النازح ٧٠ شاباً عام ١٩٤٢م من واقع تعداد سكان البلدة البالغ عددهم عام ١٩٤٥ (٦٣٣) نسمة.

وهذه نسبة قاتلة، قاضية فهي تمثل أكثر من ٥٠٪ من الأيدي الزراعية النشطة!

وكان هذا النزوح المخيف من أجل العمل في وظائف المدن.. في الحكومة، والدوائر، والبلديات والأشغال العامة، والشرطة وقوة الحدود، والفنادق والتجارة.. كل ذلك على حساب أرضهم في قريتهم.. التي تركوها تحت رحمة نساءهم اللاتي حلّكن مكانهم في العمل في الأرض.. يقلبن الأرض، يحرقنها، يزرعنها.. يحصدنها.. يقطعن الثمار.. يحملنه على رؤوسهن.. ثم يذهبن به إلى أسواق المدينة.

لكل تلك الظروف اتسم النشاط الزراعي لأبي عبد الله في أرضه كغيره من أصحاب الأرض في البلدة بعدم الانتظام.. ورغم ذلك أذكر

بعضاً من نشاطه المحدود الذي تمثّل في قلب مارس في منطقة "الجفير" لزراعة البندورة..!

وهكذا نرى كيف أن الأرض لم تكن - بدورها - تُدرّ على أبي عبد الله غللاً أو دخلاً يكفيه وعائلته التي ازدادت وكبر حجمها! وازدادت طلباتها.. فانصرف عنها يعمل في مجالات أخرى..

عمل في أشغال البناء والعمالة الشاقة زهاء ثلاث سنوات.. مارسها في القرى المجاورة.. في لفتا.. وفي دير ياسين.. وفي بلدته.. ظل يشغل تلك الأعمال الشاقة حتى التحق في خدمة حراسة مقر الحزب العربي، وقادته، عام ١٩٤٢م.

عمل في حراسة الأدوات والمهمات التي كان يستخدمها عمال الدوائر في الأشغال العامة في شق الطرق والشوارع والأنفاق والجسور.. ليلاً ونهاراً.. عمل في نظارة الزرع: زرع الحبوب، القمح، الشعير، الذرة، الكرستة.. في مواسم الزراعة والحصاد.. وكان شديداً على أصحاب المواشي وعلى الرعاة الذين يعتدون على إتلاف المزروعات.. كما كان لا تأخذه في النسوة القريبات لومة لائم عندما تنتهز إحداهن فرصة غيابه... فتتظاهر بجمع الحشيش مخلوطاً بسنابل القمح الخضراء طمعاً في الحصول على كمية من الفريكة فيها.. ولقد مارس ماجد بن السيدين في هذه الحرفة "سلطة الشرطي".. خولتها له اللجنة المحلية في البلدة.. لجنة الإصلاح في الفلسطينية "وهي لجنة تضم تسعة من رجالات ومخاتير البلدة

الأجلاء.. سبق وقد انتخبتهم حمائلها.. ومن ثم يمثلون أهل بلدتهم أمام السلطات الحكومية القضائية في مدينة القدس..

وأذكر هنا موقفين: أحدهما لأبي عبد الله وهو يعمل ناطوراً للزرع، وثانيهما مع ناطور آخر من أهل بلدتنا اسمه محمد سلمان آل مراس..

أما الحادث الأول فقد ضبط الناطور أبو عبد الله أحد أبناء البلدة من حمولة "أبي ضبة" متواطئاً مع شياحه ترعى في أحد الحقول المزروعة بالذرة البيضاء.. عاقبه أبو عبد الله عقاباً وصل إلى حد سحله على أليته وظهره فوق أشواك النتش والبلان في الحقل.. ظل يسحله حتى كشط شعرها، ونزع عنها أدمتها!

كان لهذا الحدث صدى تباينت المواقف تجاهه - عند أهل البلدة برمتها.. أدى أخيراً ذلك التباين أن أحجمت لجنة الإصلاح في البلدة عن تعيين أبي عبد الله مرة أخرى حافظاً للزرع والكرم.. فمثل من كان قد مرّ بتجاربه لا يمكن أن يرضى بأن يكون حفظ الزرع بالعينين فقط مكتفياً بإبلاغ اللجنة بأسماء المتطفلين على الزرع والحقل..!

أما الحادثة الثانية: وقد كان فيها الناطور تلك المرة هو محمد سلمان آل مراس:

يطوف الناطور عادة في أرجاء البلدة ومناحيها مهما بعدت طالما فيها زرع أخضر للحبوب. ويكون طوافه خاصة وقت الظهيرة وعند المغيب .

حضر الناطور - في يوم من أيام كربة القمح وغربلته عن الرمل والحصى وبقايا القَصُول من الحشائش والقش.. جاء الناطور محمد سلمان ليأخذ أجرته تبناً وحباً حسب الإتفاق.. حضر إلى البيدر الخاص بالحاج سلامة العسلي، وقد كنت أنا كاتب هذه السطور عنده في ذلك اليوم على بيده شمال أرض النقاشة بمحاذاة منزل إبراهيم الهتيكة، بدأ الناطور بإلقاء التحية:

"السلام عليكم"، "حلت البركة" فيرد عليه سلامة العسلي تحيته، ويبارك له أيضاً.. وعندما تحين عملية الكيل.. يبدأ الحاج سلامة بذكر الله وبالبسملة، ثم يملأ الصاع بالقمح.. الصاع تلو الصاع وهو يعدّها بالطريقة التالية:

الله واحد، ملشّي ثاني (أي لا شريك لله معه).. ثلاث.. أربع، خمس، ست، ثم يقول سمحة متجاوزاً العدد سبعة، ثم يُكمل بالله الأمانة بدلاً من ذكر ثمانية وأخيراً تسعد من الله بدلاً من ذكر العدد تسعة.. وذلك إمعاناً في البعد عن ذكر العدد (٧). لأن عدد سبعة عند الحاج سلامة وعند أهل بلدتنا.. شأنهم في ذلك شأن عباد الله في القرى والمدن - عدد يتطير منه الناس ويتشاءمون من ذكره فيتجاوزونه بعددين إمعاناً في تجنّبه وفي البعد عنه.

كان أبو عبد الله كغيره من الملاك في البلدة يراقب من عليّته تحركات الواويات والحصينيات - وكلها من فئة الثعالب - في أرضنا في

جبل الزحليقة: المقابل لبيته، في جنوب غرب، حيث كانت الحيوانات تعيش في أرضنا فساداً، فتأكل ما تأكله من العنب وتتلف الباقي وخاصة أن دوالي الكرمة في تلك الأرض كانت زاحفة، أو متكئة على صخر.. وأبو عبد الله وهو يمارس هواية الصيد - استطاع أن يرى "الحصيني" المسمى "أبو نواره"، وكان رحمه الله يتمتع بقوة بصر حادة حتى آخر أيامه، رآه من عليّته وقد تم انطباق الفخ المنصوب على إحدى قدميه، فلم يستطع "أبو نواره" منه فكاً فأنطلق يعوي عواء هو أشبه ما يكون بالعويل، فيذهب ماجد بن السيدين ليذبحه وليكون طعاماً للأسرة ذلك اليوم - ولحمه لذيذ طيّب: في مذاق لحم الأرانب. وقد عرفت حينذاك أن هذا النوع فقط من فئة بنات آوى الذي يستطيع الفلاحون لحمه:

تذكّروه! "أبو نواره" في أرضنا، والذي ينتهي بكتلة متجمعة مكدّسة من الشعر الأبيض فسّمي بها.

ومن صيده تذوقنا طعم لحوم الأرانب البرية والغزال ولحوم الطير.. كالشنّار والحمام البري والزرزور.

اشتغل في تجارة الماعز والغنم، أسودها وأبيضها.. ولا زلت أذكر اشتراكي في قيادة جلب من الضأن بلغ عدده خمسمائة خروفاً من الحملان الصغيرة، سرت أمامها أقودها إلى غرب البلدة ومعها أصحابها

الثلاثة: إسماعيل خليل الرمضي، ومحمد مصلح الجمزاوي^١، وماجد الأشوس.. خلال أسبوع باعوا ذلك الجلب في القرى المجاورة..

وكان ماجد بن السيدين ينعم بخيرات تجارة الأنعام.. شاركته بنفسه- في التنقل في القرى المجاورة لشراء المطلوب من الماعز أو الضأن.. بل لقد رعيت^(٢) على أبي عبد الله كثيراً ولشهور طويلة ولأكثر من مرة.. التمسست الكلاً، وأحسنرت ارتياده مع انعامنا. أرهاها وأحافظ عليها في مراعي بلدتنا الممتدة هنا وهناك.. على سفوح الجبال فيها.. وعند حواف وديانها في الشرق وفي الغرب، وفوق سهولها.. وفي أراضي الغريبات.. وفي الكروم، وفي الشعاب، وعند مغاور وكهوف الزنانير وأراضي عين طلمه، وبجوار أراضي دير ياسين.. أجوب مع الرعاء^(٣) أو بمفردي أراضي البلدة من أقصاها إلى أقصاها مع حلالنا^(٤).. وكان لعملي هذا في الرعاية الفضل الأول لتفوقي في معرفة أسماء الأرض وأصحابها في القرية..!

١ من قرية جمزو على بعد أربعة كيلومترات من مدينة اللد غرب القدس.

(٢) أي قمت برعي غنمه .

(٣) جمع راعي .

(٤) من أسماء الأنعام والماشية (الحلال).

وإلى جانب عمله كـ "جَلَّاب"^(١)، عمل في تجارة الحبوب وخاصة القمح والذرة البيضاء.. كنا نصحوا فجرنا على هدير الجمال اثنين أو ثلاثة وهم ينيخونها في الساحة السماوية أمام الدار التحتا في بيتنا في القرية.. ليَزيلوا أكياس القمح الكبيرة الحجم ذات الخطوط الحمراء، خطوط تميز ضخامة تلك الأكياس!

وكان يذهب ماجد بن السيدين إلى مدينة يافا.. يشتري ويبيع.. وكانت بضاعته في أغلب الأحيان تضم علب السردين، والناكيدة^(٢) والبقالاة^(٣).. وقد اشتركت أكثر من مرة في توزيعها على من يشتري منها في البلدة..

وإن نسيت فلا أنسى رأس الفجل الأحمر الذي اشتراه ماجد الأشوس من يافا في إحدى سفرياته إليها ضمن بضائع أخرى.. رأس فجل في حجم بطيخة شمام مدورة تزن كيلوجراماً واحداً.. يزينه بياض في الداخل واحمرار في الخارج وهو بين هذا وذاك يعطيك ألد طعم لفجل تعرفه..!

كان ماجد بن السيدين بلا حرفة، فأنت لا تعرفه فلاحاً يعمل في الزراعة، ولا يمكنك أن تعطيه مهارة في البناء.. كما أنه لم يكن من أولئك المحظوظين إذا ما حاول جهده الجهد أن يكون تاجراً ناجحاً أو رابحاً.. فقد بدأ حياته في الرعاية، وفي الأعمال التي لا تتطلب مهارة مطلوبة أو استعداداً خاصاً.. ولذلك اشتغل في كثير من الأعمال من

(١) تاجر غنم أو ماشية .

(٢) فيليه أسماك مملحة كبيرة جاهزة للأكل.

(٣) فيليه أسماك مجففة صلبة تنقع في الماء عشر ساعات على الأقل قبل القلي أو الطبخ.

ضمنها الزراعة، حَدَّ أنه هجرها وهجر الأرض^(١) عندما استعادها وأصبحت له!.. وعمل في أعمال البناء: حرفة كان اسمها "المصانعة"، ولست أعرف أصل مصدرها لغوياً.. وآلياتها هي أن يقوم الشغيل أو "المصانع" بأخذ مساحة الحجر المطلوب طولاً وعرضاً، ومن ثم ينزل إلى الأرض، ويقوم بالبحث عن ضالته.. عن الحجر المطلوب من بين تجمعات أكوام الحجارة، حجارة البناء فيلتقطه ويحمله فوق كتفه ماشياً صاعداً.. وقد كانت حجارة كبيرة ثقيلة حينذاك.. حتى يضع الحجر في مكانه المطلوب ليجري خبير البناء لمساته الأخيرة عليه في التسيق والتثبيت..

وعمل أبو عبد الله في الغفارات المختلفة.. ينظر حقول الحبوب في البلدة أيام مواسم الزراعة والحصاد.. أو يحرس خيمة من أن يسطو عليها اللصوص فيسرقوا معدات تعبيد الطرق وإصلاحها. وقد لازمته مهنة الغفارة.. فهي تتيح له السهر في الليل مما يشبع في نفسه حب المغامرة والتحدي، لم يخل منها زمانه ومكانه في تلك الليالي.

ولما كانت تلك الأحوال هي أحوال مَهَن أبي عبد الله البائسة.. فإني لا أذكر أبداً أن سَنَةً من سِنِي عمري الأربعة عشرة عاماً التي عشتها مع أسرتنا في بلدتنا قبل نكبة ١٩٤٨ كانت سنة خير أو أيام كفاية ورضى..

(١) أصبح ماجد بن الاشوس في هجر الأرض وإهمال إصلاحها للعيش منها وعليها .. أصبح شأنه شأن شبان وكهول البلدة، فعاقبهم الله مع غيرهم من فلاحي أرض فلسطين بأن أورثها ، أورث الأرض بني إسرائيل . لقد صدق الله تعالى حين قال : " كذلك أورثناها قوماً آخرين " . سورة الدخان آية ٢٨ ، وقوله جل من قائل : " كذلك وأورثناها بني إسرائيل " سورة اشعراء آية ٥٩ .

بل على العكس من ذلك كان مجرد تغطية احتياجات الأسرة من الخبز والخضار يعتبران إنجازاً كبيراً.. ناهيك عن اللحوم الحمراء والبيضاء في السنوات الشداد، وقت إصابة الأغنام من ماعز ونعاج بداء الجُعام.. كانت تبدو فيه الغنم والخراف وقد أصبحت مُسِنَّة في غير وقتها.. هرمت وقد أنكرت عقلها.. بلهاء في تحركاتها تآكل العظم.. وتتهافت على خُرء الكلاب وتشتيه.. ترفض أكل الحشيش والبقول والشجر وكل ما عتادت عليه قبل مرضها!! فتُصاب بلين في البطن، يطارده ريح متواصل وغائط مع ماء هراق لتصاب بالجفاف والهلاك.. فنذبها الواحدة تلو الأخرى لعلنا نلحق بها رَمَقاً.. فتكون وليمة وطعاماً للمنتظرين والمشتين.. وللمقروحين^(١)!

(١) جمع مقروح وهو المحروم أشد الحرمان مما هو مقبل عليه ! (لسان العرب) .

(٢)

مائت^(١)... وميت^(٢)

كانوا ثلاثة أشقاء قد كُتبت لهم الحياة بعد أن اختطف ملك الموت أرواح أربعة إخوان لهم.. غادروا الحياة سراعاً وتباعاً دون أن يحظى أحدٌ منهم بالحياة ولو لعام واحد.. أطل أولهم وهو "ناصر" على هذا الوجود الخالد إلى أن يشاء الله.. عام ١٩١٥ في جبل الدروز. وتلاه شقيقه "عبد الله" في الفلسطينية عام ١٩٢٢، وثالثهم "عودة" عام ١٩٢٥ في البلدة أيضاً.. وبعد عامين جاء "شيلي" فموت في شهره الخامس..

ولقد لعبت هذه الفواجع أدوارها المؤثرة الفظيعة في الأم وفي حياتها إلى درجة يصعب الكتابة فيها، وهي ترى أولادها الذكور يرحل الواحد منهم - عن هذا الوجود - تلو الآخر وسط جهل الأهل والناس، وإن كان الثالث قد مات بسم عقرباء لدغته!

وبين ولادتي "ناصر" و "عودة" رزقت الأم بثلاث بنات: "مدلول" عام ١٩١٩ و"دلال" عام ١٩٢٠ أما الثالثة فكانت ولادة "نعمة" في "الفلسطينية" عام ١٩٢٤.

(١) الذي لم يميت بعد.

(٢) الذي مات.

ذات يوم معلوم من أيام حصاد عام ١٩٢٩ - وقد أنضجت حرارة الشمس المجيدة زرع الطبيعة، فأجنت الأرض وكثر خيرها، وخدمت بذلك الإنسان والطير وجماعات النمل بعد أن اجتتوا خيراتها من حبوب القمح والشعير والفل والعدس والحمص والكرسنة..

في ساعة من ساعات ذلك النهار.. وبين خرائب الحارة الشرقية في بلدتنا، وقد بدت تلك الخرب وكأنها تهزأ بالقادمين الجدد إلى دنيا الحصاد.. إلى دنيا كل ما فيها إلى حصيد: أناسي.. وآنام.. وحبوب وبقول إلى دنيا برسم القطاف والجُداد..! في تلك الساعة انبثق صدى لصوت مجهول، خفى خائف وخجول.. كان الصدى يقول: "وُلد طفل جديد لأم تكلى ولأب كهلٍ مفجوع" ليبدأ حوارهما حول تسميته:

الأب : إفرحي أيتها الزوجة الحبيبة.. بشراك! فقد وضعت طفلاً ذكراً.. سيظل لنا أملاً فيه "الرجية"^(١).. يخلق للأسرة شرفاً وللعائلة فخراً وللأمة مجداً..! وارثاً خصال الآباء الكبار، وصفات الأجداد العظام.. إفرحي يا أم "وفاء" فمستقبلنا مضموناً بفلامنا "وفاء".

استبشرت الأم خيراً ولم يُسففها الفرح بكل أهازيجه وأحاسيسه، وألحانه وصوره.. فظلت صامتة أمام حديث زوجها المتسارع..! حتى سكنت نفسها، فوضعت طفلها في حجرها ونظرت عينيها اللامعتين.. فبكت بكاء الخوف والرجاء.. والمجهول! ولم تكن تدري إن كانت تلك

(١) ما نرجوه ونتمناه في حياتنا الصعبة.

الدموع السخية دموع فراق أبنائها الأربعة الراحلين أم دموع اللقاء به في هذه الحياة القاسية التي لا ترحم! فزادت من ضمة الطفل إلى صدرها وكأنها تروم إعادته داخل رحمها لتظل معه جسداً واحداً.. حينذاك رفعت صوتها بنبرة أنوثية غير معهودة في الجهر والبيان:

سوف أسميه "عفانة".

الأب: (وقد صدمته المفاجأة) ويحك يا امرأة..! ماذا تقولين: "عفونة"! ألا تحسین برائحة التحلل والفساد! ما الذي تفعليه في حق ولدك وأنت تطلقين عليه اسماً من أسوأ ما سمعنا به..! ألا تدركين المطلوب في الأسماء عند بني الإنسان.. ومن قبل ذلك عند البشر! العظمة والانسجام والخشونة أو اللين..

الأم: تمام الإدراك! وما قصدت إلا تلك الرائحة، راحة التحلل والعفونة والفساد المقززة! (أجابته بسرعة وكأنها لم تكن بحاجة إلى ثمة تفكير!)

الأب: تلك العفونة! ما ذ تقصدين (قاطعها الزوج مستكراً).

الأم: اخترت هذا الاسم القبيح كي أبعده عن عيون الحساد ولا يصيبه مرض ولا يداهمه موت.. ولا يغيب عنك يا رجلي أننا قد أطلقنا أحسن الأسماء على أبنائنا الأربعة الراحلين.. اخترنا لهم أحب الأسماء: فمن النصر والفوز سمي "ناصر".. ومن خيار الأسماء سمي "عبد الله"، ومن العودة سمي "عودة".. ومن الجسارة والقوة والأسودية سمي "شبلًا" ونسبناه إلينا

"شبلًا".. ماتوا كلهم خلال شهور من ولادتهم! فلنجرب الآن ما درج عليه الناس في الفيا في وفي الببداء وفي الصحراء.. بل وفي الحضر والمدن، ففعل هذا الاسم - وبما يوحي إليه من عفونة فيه وتقرز في معانيه! يحمي ولدنا الجديد من كل مرض.. ومن الموت..!

الأب: خالقه هو الذي يحميه إن شاء..! وإنما علينا أن نختار له اسماً يناسب ظنوننا، ومعتقداتنا ورغائبنا..! اسماً لا نجعله مدمكاً أول في بناء فشل حقيق لولدنا في مقبل الأيام! اسماً يثبت في نفسه وفي الآخرين ثقة متبادلة. اسماً يعطيه قيمة بين الناس وقوة تثير طاقاته الكامنة وتدفعها في الطريق السديد. اسماً يتفاخر به بين أقرانه ولا يخفيه عنهم. اسماً يبعده عن كل انفعال مشيت، عند كل مناداة..! أتدركين ما أقول.. يا امرأة!

الأم: تمام الإدراك ورب الأبناء والآباء.. ولكن هل تظن أنه سيعيش! ويكون له أيام مقبلة، وأقران.. وآخرون.. (وهنا قاطعها الأب بعد أن عيل صبره) كفاية.. كفاية يا امرأة..! ثم تركها وخرج من الدار قاصداً مكاناً أخفاه عنها.. وفي الطريق أخذ يفكر بصوت عالٍ:

الأب: "وفاء" اسم جميل فيه راحة وسعادة، هذه الأم المسكينة تتجاهل بل وتتناسى الآثار البعيدة للأسماء القبيحة على أصحابها..! وعند ذلك كان قد وصل إلى قصر أحد شيوخنا في البلدة، فاستوضح عنده نظرة الإسلام حول الأسماء..

الشيخ إسماعيل سالم آل مراس: "الجمال في كل شيء مطلوب شرعاً"..
 (هكذا استهل الشيخ حديثه مع أبي عبد الله بعد الترحيب به) إن الله
 جميل يحب الجمال يا ولدي! الجمال في الملبس؛ الجمال في ترتيب الشعر
 أو غطائه.. الجمال في النظافة.. الجمال في الكلام وفي المعاشرة
 والسلوك.. الجمال في الأسماء.. الجمال في كل شيء.. أنظر إلى الجمال في
 نفسك.. وفي صورتك.. أنظر إلى الجمال في معالم الوجود.. أنظر إلى جمال
 الشمس والقمر، وجمال السماء والمطر، وجمال الزهر والشجر، وجمال
 الفجر والسحر.. إلى الجمال في كل مخلوقات الله، تجد الجمال فيها
 كما هو فيك.. تناسق يسود كل جمال.. تناسق جمالك مع جمال
 الكون.. مع جمال السماء في كل أطوارها: في الليل والنهار، في الصيف
 والشتاء، مع جمال الطبيعة في الحقول والبساتين، وفي الأشجار والثمار،
 وفي الأغصان والأوراق، ومع جمال الطيور في طيرانها، وفي غدوها
 ورواحها، وفي شجوها وغنائها، وفي بحثها عن غذائها، والحنو على
 صغارها..!

من هذا المنطلق، يا ماجداً يجب المحافظة على جمال الأسماء
 وتناسقها..

غادر الأب مقر الشيخ، وقد ارتاحت نفسه، فقرر أن يسير في إجراءات
 تثبيت الاسم بعد أن عزم على أن يكون بلفظ "وفا" بدون همزة للتخفيف،
 "وفا" ثلاثة حروف فيها خفة وليونة.. فيها أمل وانسجام.. اسم له نبرة
 موسيقية سلسلة، فيها ذوق وفيها الحجا.. اسم شجي بل إلهي زكي.. يزهو
 به صاحبه إذا ما عاش، كزهو الربيع بعد قحط احتبس مطره في سنوات
 عجاف طوال.. وبهذا الاسم استخرج لطفله شهادة ميلاد باللغات الثلاث:
 العربية والإنجليزية والعبرية. سبق أن شرح لنا الوالد - في إحدى جلساته
 التعليمية الإرشادية - أنه كان قد أقسم على أن يسمي أبناءه بأسماء
 جديدة كل الجدة لم يسبق لأب أو لأم في "الفلسطينية" أن نادى بها
 أبناءه، وذلك بعد أن عرف ما عرف عن واقع الحال في بلده في السنوات
 التسع الأولى منذ حضوره من منفاه إلى بلاده فلسطين عام ١٩٢٠..

عاشت أم "وفا" طيلة العام الأول من عمر وليدها في خوف متواصل من فقدانه.. ترصده على مدار الساعة، تحرسه وتحفظه، دائمة الدعاء في حديثها مع نفسها - وهي الأم الرقوب - ^(١) أن يظل ولدها حياً طيلة أيام السنة الأولى كلها، ولما تحقق ما رغبت فيه من الله، ولم يلحق "وفا" بأخوته الأربعة الراحلين، هداً بالها، وارتاحت نفسها، فوقع في روعها، واستقر في خلدتها، أن ولدها سوف يعيش حتى يستوفي رزقه كاملاً! فرضت الأم المسكينة على نفسها معاناة جديدة من نوع جديد، وصلت إلى حد عزوفها عن تناول أنواع من الطعام وأصناف من الفاكهة، ظناً منها أنها قد تسبب تأثيرات سلبية في تكوين مركبات حليب رضيعها!

ويشاء القدر أن يُصاب طفلها بمرض طفيلي معروف عند الجميع باسم "حبة بغداد" أو حبة حلب. واسمه العلمي Cutaneous Leishmaniasis أي داء اللابشمانيا الجلدي. انتشر هذا المرض في بلدنا عام ١٩٢٩م، وأغلب من ابتلى به ذاك العام كانوا أطفالاً، أصيبوا به في وجوههم من بينهم وفا بن ماجد بن السيدين، وابنة عم له اسمها بهية.. وآخرون.. أصاب

(١) التي لم يعيش لها ولد حتى الآن.

ذلك المرض الجلدي "وفا" في خده الأيسر، وهو في الشهر السادس من عمره على شكل "حطّاطة" ^(١) تضخمت بعد عدة أسابيع فشكّلت لوحة مدورة ذات قطر غطى ٣ سنتيمترات من خده..! مسببة تشوهاً جليداً بني اللون، واصل بقاءه أثناء سيره المزمّن الطويل في حياة الطفل.

شفاء "وفا" في خده كان شفاءً عفويًا.. حدث الشفاء بعد أن ترك المرض علامة حمراء واضحة في وجهه.. وقد عانى الطفل من ذلك المرض آلاماً حسية لا توصف على حد قول أمه.. ثم امتدت هذه الآلام وطالت حتى ترسبت في لا شعور الصبي فيما بعد على شكل آلام نفسية لم تبرحه وقد تعدى مراحل الطفولة والصبا والشباب..

ولقد عاد هذا المرض فأصاب "وفا" في خده الأيمن هذه المرة، وكان ذلك في السنة التاسعة من عمره وهو في لبنان فيما بعد.. مما شوّه الخد الآخر وإن كان ذلك دون تشوه كبير كما في الخد الأيسر..! لقد كان في لبنان.. في وقت تقدم فيه الطب والعلاج.. وازداد إقبال الناس فيه على العلوم والمعارف..

خرج "وفا" من سنوات عمره التسع الأولى بعلامتين في وجهه على خديه، أوجدتا حراكاً نفسياً تشتعل نيرانه في أعماقه، اكتوى بجذله الدائم في أغوار اللاشعور فيه.. فظهر عنده فيما بعد في تعويض ^(٢) شعري

(١) بثرة.

٢- نظرية التعويض في علم النفس معروفة Compensatory Theory وهي وظيفة تعيد الاتزان لصاحبها في إحلال فكرة عظيمة وإصباغها عليه محل فكرة مشوهة متسلطة عليه.

يصف فيه وجهه "الجميل جداً" الذي اكتشفه عام ١٩٦١ أي بعد أن عاش معه أكثر من ثلاثين عاماً..!

يقول في قصيدة له بعنوان: في المرأة:

نظرت إلى المرأة يوماً فسرّني ملاحه وجهي فانطلقت مغمغماً
أرى لي وجهاً جلّ من صاغ خلقه وبورك من وجه أراه مُسمّماً
له أنف كليوباتره وعيونها وثغر حتشبسوت ووجنة مريما
شعر جميل من شاعر كبير...!!!

الفصل الثالث

(١)

حصن^(١)... وقلق

كان الهمّ الذي أقلق منام أبي عبد الله، ولازم خاطره، وظلّ يدور ويدور في خلده، هو أمر زواج ابنتيه.. وهو يرى شباب العائلة يتزوج الواحد منهم تلو الآخر من القرى المجاورة.. مما جعله مضطراً مغلوباً أن يزوّج ابنته الكبرى "مدلول" من أحد شباب عائلة الفتيل عندما تقدم والد الشاب خليل صالح عليان يطلب يدها لولده "عارف" الذي لم ينعم بخطوبته منها إلا شهوراً معدودة.. فقد تردّى من فوق بلكونه دارهم ليرتطم رأسه بالأرض الصلدة فيلقى حتفه.. ومن ثمّ تنتقل الابنة خطيبة وعروساً وزوجاً لأخيه "محمد" الذي ارتضى به الجميع على مضض.. وخاصة أنه لم تكن هناك أية فرصة للمقارنة بين الشقيقين من حيث الوسامة والطلعة..! وكان المهر الذي اشترطه أبو العروس أكبر مهر تعامل به أهل القرية حتى ذلك اليوم:

(١) المعجل: تسعون جنيهاً فلسطينياً.

(٢) أرض مساحتها ٢٥٠٠ م^٢، دونمان ونصف الدونم من أرضه في منطقة "الخور" في البلدة.

(١) الحصن = خوف من المستقبل دون سب واضح.

(٣) أن يُوجَّرَ العريس ويشارك بالعمل في بناء بيت العائلة الجديد.. بيتنا.. فوق الأرض المذكورة بلا مقابل حتى ينتهي البناء..! مع ضمان شَبَع بطنه...

(٤) أما المهر المؤجل - وهنا العجب - فقد كان جنياً فلسطينياً واحداً!
(٥) يقدم العريس خُلعاً^(١) وأهداماً.. الله فقط يعلم قيمتها في تلك الأيام الخوالي.

وقد قام العريس "محمد" بتنفيذ بنود الاتفاق كاملاً؟؟ ف قضى عاماً كاملاً يشارك في بناء البيت الجديد لأهل العروس.. ظل يقطع الصخرة العاتية ويفتتها بالديناميت حتى سواها منبسطة تقوم الدار فوقها.. فتزوجت الابنة الكبرى عام ١٩٣٥م وهي في التاسعة عشرة، وهن سن متأخرة في الزواج في عُرف جماعات الناس في ذلك الحين.

وسبق لأبي عبد الله أن قرّر على أن يجعل من مناسباته الخاصة: من زواج أو ختان.. مناسبة مميزة لم تسبقها مناسبة قبلها في تميّزها، وفي تألقها..

قبل عامين من زواج ابنته الكبرى جرت عملية ختان أول ولد له، فقد كان احتفال ختان "وفا" ذي الأربعة أعوام احتفالاً مشهوداً.. حيث جرت زفته فوق ظهر حصان، في موكب شبيه بزفاف العروس إلى زوجها؟؟

(١) الخُلع والأهدام: أقمشة مخاطة، وغير مخاطة تهدي للأقارب والولاي في مناسبات الزواج.

قام إثنان من أعمامه: أبو عثمان وأبو شعبان - وهما يسيران بمحاذاة الحصان من جهتيه - يُسندانه ويحميانه من السقوط من فوق ظهر الحصان بعد أن داهمه النعاس أثناء الموكب الطويل..! في ثيابه المميزة بألوانها، وبطربوشه المزين بالخيرات^(١) الذهبية وريش النعام.

(١) الليرات الذهبية.

(٢)

العُثُ^(١) أصلاً.. في القضية^(٢)

ما أن حلَّ عام النكبة والضياع والتهيه بالفلستينيين - أصحاب البلاد - عام ١٩٤٨م حتى كان هناك ١٤٤ عائلة فلسطينية من الملاكين الكبار ، يمتلكون وحدهم ثلاثة ملايين و١٣٣ دونماً أي بمعدل (٢٢٠) ألف دونماً للعائلة الواحدة من عوائل الحسيني، وعبد الهادي، والجوسي، والبرغوثي، والنشاشيبي، والتاجي والفاروقي والشوا.. وغيرهم في مدن فلسطين وفي أفضيتها...! تملكت بعض العائلات قرى بكاملها، فقد تملكت^(٣) مثلاً عائلة الجوسي (٢٤) قرية، وأسرة البرغوثي ٣٩ قرية..

من الناحية السياسية كانت هذه العائلات - بلا استثناء - متحالفة مع النظام العثماني أولاً ومع إدارات الانتداب البريطاني من بعده عبر علاقات متشعبة ومتشابكة من المنافع والمصالح .. فكان الأمر في أغلب الأوقات بيد زعماء وأفندية ومشايخ تلك العائلات، فكان العثمانيون يرجعون إليهم في الأمور الكبيرة والصغيرة على السواء، فسيطرت تلك العائلات على مناصب الدولة الهامة، وشددت القرارات العثمانية الكثير

(١) العُثُ = وهو الدود الذي يأكل الحب أي (السُّوس).

(٢) القضية الفلسطينية.

(٣) امتلكوا كل بيوت القرى التي اشتروها ، كل عرصاتنا ، وأبنيتها ، ومساحتها ، امتلكوا ينابيع المياه فيها وعيونها ، ومياهها الجارية في وديانها والمحفوظة في آبارها وفي بركها ، امتلكت شجرها في أرضها ، تملكت البيادر والجرون والدواب.. والإنسان..!

من قبضة تلك العائلات الإقطاعية على مصادر رزق الفلاح الفلسطيني، فانتشر أبناء العائلات المقدسية، ومن أهل المدن الأخرى في قرى فلسطين، يشترونها أو يشترون فيها..

والى بلدتنا "الفلسطينية" جاء نفر من أولئك الناس، من العائلات الغنية، فاشتروا الأرض ونزلوها.. ومن تلك العائلات.. : الحسيني، ونسيبة، والداوودي، والمُوسُوس، و"البك"، والنابلسي، والفاروقي..

ومن هؤلاء الأغنياء من احتفظ بالأرض وأقام عيلاً قصرًا أو بيتاً أو دارة له سكنها طول العام، ومنهم من سكن فيها فترات معينة ومن أبناء تلك العائلات من جعل من الأرض التي استملكها في بلدتنا متاعاً يُباع، فيجني أرباحاً جعلت حاضرم ذهباً ومستقبلهم خزياً وعاراً.. ومنهم من جعل من أرضه الجديدة في بلدتنا مزرعة له جعلها تحت وكالة أحد الفلاحين من قريتنا أو من غيرها.

تهمني في هذه العجالة "عائلة الحسيني": أحمد أفندي الحسيني وأولاده، ورباح الحسيني، وصالح الحسيني، ورشدي وشقيقه راجب الإمام الحسيني... كانت هذه العائلة من أكثر العوائل الوافدة استحواداً لأرض اشترتها في بلدتنا.. اتخذت هذه العائلة من الحاج "صيح المصايحة"، وكُنيتة: أبو علي" وكيلًا لها في أرضه الجديدة في بلدتنا وحافظاً عليها، يقوم بأمرمهم فيها.. ثَقَّةً بكفايته.

إرهاصٌ للشّتات.. وإصرار على الضياع

ظلّ الزعيم "الأوحد" لفلسطين الحاج محمد أمين الحسيني طيلة مسيرته السياسية - وفيّاً لسياسة الوُدِّ متمسكاً بها - حتى القتل والاغتيال - في علاقاته بحكومات الاحتلال البريطانية في فلسطين، وقد أقنعتني كلمة أحمد الشقيري عندما وصف هذه السياسة في كتابه (أربعون عاماً صفحة ١٢٧/١٢٨) عندما قال: "وأحسب أن الحاج أمين كان - إلى ذلك الوقت - يمسك العصا من وسطها: يدٌ مع الحكومة... ويدٌ مع الشعب!"

وقد حفلت مراسلات المندوب السامي البريطاني في فلسطين "واكهوب" إلى وزير المستعمرات "أورمسي" حفلت بكثير من التقدير والامتنان لمواقف المفتي المعتدلة!

تسارعت الأحداث التي كشفت عقم وتفاهة مواقف المفتي المهادنة للاحتلال إزاء بطشه واعتقالاته وقتله وإذلاله للفلسطينيين، في وقت كانت محاباته وتحيزه ليهود تتكرر بحيث يدركها الأعمى والأصم!

كان الحاج "صيح المصايحة" أحد وجهاء البلدة حينذاك، وعميداً لحمولة آل عتاقة.. فهو المؤتمن الأول والأخير على أرض عائلة الحسيني في بلدتها، وانسحب ذلك إلى أن أصبح الحاج همزة الوصل، والاتصال الدائم والتواصل الملئ بين سادة تلك العائلة بدءاً بالحاج محمد أمين الحسيني زعيم فلسطين في ذلك الوقت وانتهاءً بإبن شقيقته توفيق رافت الحسيني الذي عينه الزعيم مستشاراً له ومعاوناً في شئون الوافدين على قصره من "الفلاحين".. سواء كانوا من العاملين والفاعلين في الحركة الوطنية، أو من العاملين على أراضهم المنتشرة في قرى أفضية فلسطين...!

كان للحاج "صيح المصايحة" الفضل الأول في إيصال المعلومات كاملة عن عمليات ماجد البدوي: "أبي عبد الله" ضد يهود، وضد قوات الاحتلال الإنجليزية: أخبر الزعيم عن سلسلة بطولاته، وعن كمائته مع زملائه ضد الدوريات الإنجليزية واليهودية...

• أخبره عن دور "أبي عبد الله" الكبير في الهجوم على مستعمرة "موتزا" في ٢٤/٨/١٩٢٩.

• أخبره عن عملية "بلحة" في أوائل ثورة ١٩٣٦م.

• أخبره عن عملية "حي روميما" أواخر شهر حزيران/ يونيو ١٩٣٦م.

• أخبره عن عملية "عيش" في أيلول/ سبتمبر ١٩٣٣م.

أذكر من هذه الأحداث بعضاً منها..:

الحدث الأول: ثورة الشيخ العظيم والمجاهد الكبير والشهيد الحي "عز الدين القسام"

الدين القسام

يروى الشيخ موسى^(١) العيزراوي لصديقه ماجد بن السيدين القصة بين الزعيمين في ذلك الوقت؛ وقد وثّق قصته في كتاب "تاريخ فلسطين الحديث" عبد الوهاب الكيالي ص ٢٩٣.. يقول الشيخ موسى:

"اتصل الشيخ^(٢) عز الدين القسام عام ١٩٣٥ بالحاج أمين الحسيني، فأرسل إليه "محمود سالم المخزومي" - أحد تلامذته - ليُعلمه عن عزمه القيام بالثورة.. وفعلاً اتصل رسول الشيخ بالحاج أمين دون أن يحظى بمقابلته"، فقد أنابني المفتي عنه (والكلام للشيخ موسى العيزراوي) لمقابلة رسول القسام!.. "نقل رسول الشيخ رغبة القسام وهي: "أن يشرع الحاج أمين في الإعداد للثورة في جنوب فلسطين حيث الشيخ (القسام) يعد للثورة في شمال فلسطين. فأجاب المفتي الزعيم: - بواسطة العيزراوي - "إن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل وأن الجهود السياسية تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم..!!"

(١) الشيخ موسى العيزراوي: أحد مستشاري الزعيم طيلة سيرته في فلسطين وسوريا ولبنان ومصر، ومن سكان قرية العيزرية شرق القدس... وكان من أصدقاء المناضل ماجد بن السيدين طيلة مسيرتهما في خدمة زعامة الحاج أمين.

(٢) من القادة البارزين في الثورة السورية ضد الاحتلال الفرنسي، اضطر لمفادرة بلاده سوريا وللهجرة إلى حيفا بعد انهيار الثورة السورية عام ١٩٢١م.

وللقارئ الكريم أن يستتج ما تشي به مواقف الزعيم الحاج أمين الحسيني من زعيم وقائد مثل القسام في تقواه ووطنيته وثقافته وعظمته في التضحية بنفسه..! فالمفتي رفض ولعدة مرات وبإصرار طلب الشيخ العظيم تعيينه واعظاً ومأذوناً شرعياً في قضاء حيفا حتى تُتاح له الفرصة ليتجول بين الفلاحين متخذاً (المأذونية) ستاراً لعمله في تجنيد الفلاحين للثورة.. معتذراً له - أي المفتي: "إننا نعمل لحل القضية سياسياً".

والبلية تتمثل عندما لم يكن في صندوق حركة القسام سوى مائة جنيه فلسطينياً وقد بدأ ثورته.. مما حدا بالزعيم عز الدين القسام أن يطلب معونة مالية مستعجلة من المفتي.. فعاد رسوله خالي الوفاض خائب الرجاء لضيق ذات اليد - كما زعم الحاج أمين - في المجلس الإسلامي الأعلى، وفي الهيئة العربية العليا المفوضة به رئاستهما معاً..! وفي نفس الوقت الذي كان قد قدم فيه إحسان الجابري مقدمة من موسوليني لإعلان الثورة ضد الإنجليز في فلسطين مقدارها سبعة آلاف جنيه فلسطينياً من الأموال الإيطالية..! هذا إلى جانب أن سماحته يتقاضى مرتبات شهرية عديدة بعد أن قررت جميع الدول الإسلامية منحه من كل منها راتباً سخياً لا يعلمه إلا الله يردفها تبرعات وهبات وهدايا من جميع أنحاء العالم العربي وغير العربي من الدول المتعاطفة معه والتي تشجعه على الاستمرار في سياسته "العرجاء" ضد الاحتلال والصهيونية..!

والأشد غرابة من كل هذه المواقف أن الحاج أمين الحسيني - وهو يتجاهل التاريخ وما في طياته من الوثائق والشهادات تقدم المعلومات - لم يُشر ولو بكلمة واحدة إلى الشيخ القسام أو إلى حركته في كتابه الذي طُبِع عدة مرات [حقائق عن قضية فلسطين]، كما أن كل ما أصدرته الهيئة العربية العليا - تحت رئاسته من كراسات أو مذكرات أو تقارير - تجاهلت الإشارة إلى الشيخ العظيم وإلى حركته الرائدة لشعب هذه الأمة - المنكوبة بزعمائها - حتى اليوم!

ونكاية بكل شرفاء هذه الأمة ومغاويرها يستكف سماحته مع غيره من الزعماء المصنوعين عن السير في جنازة الشهيد القسام.. لقد اكتفى "زعمائنا" - قصار النظر والإدراك - ببرقيات فاترة تكشف نفعيتهم.. وأنانيتهم:

يميناً لقد نال الزعامة فيكم أناسٌ تَفَشُّوا في العروبة كالوباء

وقد سبق للمفتي - وهو يقوم بحرق القيادات الميدانية المقاتلة، والوجاهات التقليدية المنافسة - أن تَغَيَّبَ أثناء هبة أكتوبر وأحداث عام ١٩٣٣.. تغيب في الهند وفي العراق على رأس وفدٍ يطوف البلاد يجمع التبرعات لتعمير المسجد الأقصى!!! لا لتعمير الثورة وتثبيتها!!! تغيب وتلكأ بالعودة ولم يُسارع بها وخاصة أن أعدمت قوات الاحتلال البريطانية القائد الثائر أحمد المحمود (من قرية طمون) والشهير بـ"أبو جلد".

الحدث الثاني: الإضراب العام الكبير:

في ظل زعامات واهية، وحركة وطنية غافلة عما يُحاك ضدها - جهاراً عياناً - وهيئات وأحزاب ولجان لاهية بمصالح زعمائها من أبناء العائلات والذوات.. في ظل سياسات حسينية ونشاشيبيية.. تتنافس في التقرب من السلطات البريطانية ومعاونتها.. في دُجى ظلمات تلك الظلال، أجمع الشعب أمره في مدينة نابلس في العشرين من نيسان/ إبريل عام ١٩٣٦ فقام بتشكيل اللجنة القومية العربية، وقررت إعلان قيام الإضراب العام في البلاد كلها إلى أن تعلن حكومة الانتداب موافقتها على:

١. منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

٢. منع بيع الأراضي لليهود.

٣. إنشاء حكومة وطنية دستورية في فلسطين.

وتلى مثل ذلك في اليوم التالي في كل من مدن حيفا وبيافا وغزة... أي أن الإضراب بدأ بصورة مستقلة وعفوية في مختلف أنحاء البلاد بأمر لجان وجماعات مختلفة... وهذا يوحي أن الإضراب هو عمل شعبي لم يكن بتوجيه من المفتي أو غيره.. بل أن المفتي وصل به الأمر أن رفض أو تردد في بادئ الأمر تولى رئاسة اللجنة القومية العربية لمواصلة الإضراب لتحقيق أهدافه المعلنة الثلاثة.. تردد في القبول حتى لا يصطدم مع البريطانيين.

خلال هذا الإضراب (١٧٥ يوماً) عمّت الثورات العارمة بلادنا فلسطين.. وفي تلك الظُّلُمات ظهر فرحان السعدي^(١)، وأعلن حرب العصابات ضد الصهيونيين والحكوميين من خدم الاحتلال في المدن والبلديات والوزارات.. ثورات ما شهدت البلاد مثلها قبل ذلك.. ثورات ضد أعتى الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ، تجلّى فيها أعجب صمود بطولي فلسطيني قدم فيه الفلاحون^(٢) والعمال آلاف الضحايا والشهداء.. استخدمت بريطانيا ضدهم الأساطيل وسلاح الطيران وخيرة قادتهم في محاربتهم.. القوى المحركة لتلك الثورات ليست هي الزعماء التقليديين.. وإنما رجال من طبقات المزارعين والعمال أمثال السعدي، يخاطرون بحياتهم لئسّ لهم بيوتهم وقراهم وأهلهم.. لم يُعجب القيادات التقليدية البالية الإضراب بل استكروا طول استمراره ونمو قوة الثوار فهرب الأغنياء الفلسطينيون وسماسرة الأراضي والوجهاء الموالون للحكومة من البلاد بأعداد كبيرة.. مما حدى بالزعامات المتعاونة مع الاحتلال إلى البحث عن وسيلة لوقف الإضراب والثورات الكاسحة.

وفي سبتمبر ١٩٣٦ - أبرق "وايكهوب" المندوب السامي البريطاني إلى وزير المستعمرات في لندن يخبره أنه قد قابل المفتي، وراغب النشاشيبي، وعوني عبد الهادي.. كلاً على حده!! وطلب منهم إيقاف الإضراب، وقد أجابوا بأنهم سيقومون بذلك بدون أي شرط سابق إذا طلب الملوك العرب

(١) أحد أعوان القسام رحمهما الله.

(٢) سميت بثورة الفلاحين: أنظر إميل القوري، ص ٢٠٥ - المكتب العربي.

إليهم ذلك.. وهناك بدأت المراسلات بين المندوب السامي البريطاني وبين ملوك وأمراء العرب للتدخل لوقف الإضراب.. كما بدأت وبشكل جاد مراسلات وزيارات المفتي إلى السعودية.. وحدث تدخّل الزعماء العرب: عبد العزيز آل سعود، والملك غازي والإمام يحيى والأمير عبد الله بأن وجّهوا نداءً مشتركاً في الأول من تشرين أول/ أكتوبر عام ١٩٣٦ يوم الإثنين.. إلى حل الإضراب ووقف الثورة والاعتماد على النيات الطيبة بصديقتنا بريطانيا العظمى^(١).. وهكذا شارك الجميع في إجهاض أعنف ثورة عرفتها فلسطين وفي وأد طموحاتها، وسمح لعصابات الثوار بأن تحل نفسها بنفسها، كما سمح للثوار القادمين من الدول العربية المجاورة باجتياز الحدود تدريجياً!

الحدث الثالث: موجة الاغتيالات التي نفذتها الثورة ما بين يناير ١٩٣٧

وسبتمبر ١٩٣٨.

كانت هذه الموجة قد وجهت إلى عملاء المخابرات البريطانية وإلى سماسرة الأراضي. قام بتلك الاغتيالات التشكيل الثاني من تشكيلات الثورة الفلسطينية في الفترة الممتدة بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩^(١) وكان هذا التشكيل يتألف من ثوار المدن يمارسون حياتهم الاعتيادية يومياً ويقومون بمهام محددة ينجزونها بناءً على طلب القيادات في المناطق، وأثرهم كان

(١) التشكيل الأول هم المجاهدون المتفرغون للجهاد معتمسون بالجبال يحاربون قوات الانتداب والتشكيلات الصهيونية. التشكيل الثاني: رديف الثورة من الثوار الفلاحين في القرى ينجدون المجاهدين وينضمون إلى صفوفهم عندما تنشب المعركة في منطقتهم.

واضحاً في تصفية الأعداد الكبيرة من الخونة والسماصرة والعملاء العرب المتعاونين مع السلطات البريطانية.

بعد أن أجهض الملوك العرب والقيادات الفلسطينية الفاشلة والخونة من رؤساء عوائل البلاد وأحزابها.. بعد أن أجهزوا على وحدة الشعب الفلسطيني وإضرابه الشهير ظل التوتر يسود كل البلاد الفلسطينية بسبب استمرار حكومات الانتداب البريطانية في فلسطين في تنفيذ سياسة القمع والإرهاب ضد العرب واستمرار الهجرة الصهيونية إلى فلسطين وبناء وطن قومي لليهود فيها، ضاربين عرض الحائط بعواطف العرب وطموحاتهم القومية... فاجتاحت البلاد موجة من الاغتيال السياسي، ابتدأت باغتيال الدكتور طه خليل طه في حيفا في ٢٧ كانون ثاني/ يناير ١٩٣٧. وانتشرت الاغتيالات بشكل سريع، فاغتالت الكونستابل حسن فارس في حيفا وهو من الشرطة الذين كانت لهم اليد الطولى في اكتشاف جماعة القسام ومطاردتها ومن الذين استخدموا الشدة والعنف مع المعتقلين العرب... وفي ١٥ نيسان/ ابريل قتلوا حليم بسطة مساعد مدير دائرة المباحث الحنائية في حيفا، وهو مصري الجنسية، وفي ١٣ حزيران/ يونيو فشلت محاولة اغتيال مفتش البوليس العام في فلسطين مستر سبايسر Spicer. كما سبقتها محاولة اغتيال مساعد مفتش البوليس في مدينة حنين في ١٨ أيار/ مايو سنة ١٩٣٧. جرى اغتيال "أندروز" حاكم لواء الحليل الذي استغل منصبه بنذالة لإرغام

العرب في الشمال على قبول التقسيم، وعلى أثر هذه... جرّدت السلطات البريطانية المفتي من كافة مناصبه: رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى ولجنة الأوقاف العامة بما فيها الإفتاء العام..

اشتدت الثورة وتعاضم تعاون الشعب معها في البلاد.. فاحتلت سلطات الانتداب القرى وحملتها مع مخاتيرها مسئولية ما يقع في قراهم.. بل قاموا بتفتيش كل قرى لواء الخليل والسامراء لنزع السلاح مشجعين الخونة على تزويدهم بالمعلومات وتعريفهم بالثوار... وكان يساعد القوات البريطانية في ذلك الوقت قوة يهودية قوامها ستة آلاف جندي وفرقة من الهاجاناه تقوم بالهجوم على العرب.

ويبدو أن امتداد الثورة إلى هذا الحد دفع بأغنياء البلاد والسماصرة والخونة والعملاء للهرب خارج البلاد، كان هذا الهروب أحد المظاهر التي استغلها حزب الدفاع المعارض للمفتي وحزبه لتشويه سمعة الثورة تحت إمرة راغب النشاشيبي ورفاقه عادل الشوا والشيخ عبد الله القلقيلي وفخري النشاشيبي... وقد بلغ الأمر بالشيخ عبد الله القلقيلي أن كتب في جريدته "الصراط المستقيم" في ١٨ أيار/ مايو سنة ١٩٣٨ يحض فيها الإنجليز على القضاء على الثورة... كما أرسل فخري النشاشيبي رسالته بتاريخ ١٤ تشرين أول/ نوفمبر ١٩٣٨ إلى المندوب السامي البريطاني قال فيه أن الزعماء وأغنياء البلاد هربوا منها خوفاً من بطش المفتي وجماعاته بهم!! ووقفت مع فخري النشاشيبي خمس وأربعون قرية اجتمعوا في بيته،

إلى جانب أن قامت خمسون شخصية فلسطينية بالاحتجاج على المذابح التي يقوم بها المفتي وفي هذه الأثناء عقد حزب الدفاع برئاسة راغب النشاشيبي مؤتمراً في قرية بطة، الخليل؛ حضره ثلاثة آلاف شخصية عربية ألهم فيه مختار قرية بطة خليل الشريفة إتهم رجل المفتي وأحد قواد الثورة في الشمال القائد عارف عبد الرزاق بأنه قد اغتال وقام بتصفية (٢٠٠) شخصية... كما اتهم الحاج أمين بجميع الاغتيالات السياسية وقد حضر هذا الاجتماع فخري النشاشيبي!

استغلت السلطات البريطانية زخم نشاطات المعارضة النشاشيبية وعملاتها ضد سياسة المفتي فقامت بتشكيل ما أسموه بـ 'فصائل السلام' لضرب الثورة والثوار في البلاد... من خلال حرب أهلية داخلية تلك الفصائل كانت تعمل بتوجيه تشارنس تيجارت^(١) وإشراف فخري الخالدي!

وكان أشهر فصائل السلام هي:

- فصيلة فخري عبد الهادي وفريد رشيد في عرابية وجنين.
- فصيلة حافظ العبد الله في عنتابا.
- فصيلة عائلة عمرو في الخليل.
- فصيلة عبد الفتاح درويش في الماتحة.
- فصيلة نمر أبو غوش في قرية أبي غوش.

(١) اسم عائلة محبرة الإيزاء - إيزاء البعاجنة السكينة - سكان الاعقاب السهل في نابلس.

• وهناك فصيلة أخرى تولى قيادتها إبراهيم عبد الرزاق من بيت ريماء/القدس، مؤلفة من عشرة أشخاص، وقد ارتكبوا في قرية 'نعين' أعمالاً مشينة من السلب والنهب وتمكّن الثوار من إلقاء القبض على إبراهيم وعصابته، واعترف بأن 'فخري النشاشيبي كلّفه أن يصنع ما صنع، وأنه أحضر لهم البنادق والعتاد من الحكومة وأنها خصصت لهم المرتبات الشهرية'. وقد حكمت عليه الثورة بالإعدام، أما أفراد عصابته فقط حكم عليهم بالجلد والتجريد من السلاح كما أعدموا معه قائد فصيل آخر اسمه (أبو نجيم انشيطي).

ويعد هذه الحادثة حدث قرية نعين أمر عارف عبد الرزاق^(٢) - أحد قادة الثورة في لواء نابلس (طولكرم الغربية) - بإعدام فخري النشاشيبي بسبب خروجه على 'أجماع الأمة' وتعاونيه مع البريطانيين والصهيونيين!

(٢) عن طريقه في مجلس القضاء، طولكرم.

(٤)

عند ... الزعيم

وسط دوامة الاغتيالات السابقة، تعرض المفتي سماحة الحاج محمد أمين الحسيني، هو نفسه لمحاولتي اغتيال: الأولى في النصف الأول من نيسان/ إبريل عام ١٩٣٧، والثانية في ٢٩ أيار/ مايو سنة ١٩٣٧، مما حدى بالمفتي - ومن أجل سلامته الشخصية أن يطلب من رئيس دائرة التحقيقات الجنائية - وهو بريطاني تزويده بعدد من أفراد البوليس لحمايته! وسعى للحصول على معطف واقٍ من الرصاص في خضم الأحداث الدموية التي أشرت إليها، طلب المفتي من أنصاره في بلدنا: من "سعيد سلمان آل مراس"^(١)، ومن الحاج صيح المصايحة، طلب منهما استدعاء المناضل: "ماجد البدوي، أبا عبد الله، أبا وفا، وكلها أسماء عُرف بها عند الزعيم من قبلهما كما عُرفت جسارته وعظمة خطره في النضال والتضحية، والغربة هنا أن أبا عبد الله مَرَد على الأمر ولم يعبأ بالذهاب بصحبة الحاج صيح المصايحة إلى بيت الزعيم! فهو أي أبو عبد الله لم ينسَ بعد موقفاً كان له مع الزعيم من حيث لا يدري! حدث أثناء عملية بناء المنزل الجديد لعائلة أبا عبد الله أن قام "الزعيم المفتي" بزيارة خاصة

(١) من وجهاء القرية الأوائل، وطني عنود من أوائل المقربين في البلدة من المفتي - وصديق المناضل صاحب السيرة، كان عضواً فعالاً في الحزب العربي، حزب الحاج أمين والحسينية، كان منزله ملتقى رجال الثورة في القضاء، اعتقله الإنجليز في الثورة الفلسطينية ١٩٣٦ - ١٩٣٩ وأمضى ستة أشهر في سجن عكا.

للبلدة الفلسطينية يستجم فيها ويجمع شتات وجدانه وفكره للقادم من الأيام، الحبلى بالسياسة والأحداث الجسام..! كان برفقة واحد من أخواله "سعيد الحسيني" كل منهما فوق حصانه، يُمتّع ناظره بخضرة الربيع وجمال الكون في القرية ذاك العام.. يتفقد الأرض والناس والأنصار والعاملين.

الزعيم: "السلام عليكم".. فيرد العمال ويهرعون لمصافحته وهو فوق حصانه إلا رجلاً واحداً.. استمر في عمله ولم يفكر في التقرب إليه.. وكان ذلك الواحد أبو عبد الله! لم يكن قد أدرك بعد قدر الفارس وخطورته كما يجب..!!

لقد احتاج الحاج صيح المصايحة إلى طاقة جهيدة من فكره وأعصابه لإقناع "ماجد" بضرورة مصاحبته لمقابلة الزعيم.. فانصاع أخيراً ورافق مضطراً ابن بلدته إلى مدينة القدس.. وهناك في مكتب المجلس الإسلامي الأعلى - وبعد أن قابل المفتي الوافدين عليه من جميع أنحاء البلاد من العاملين في الحركة الوطنية.. كان اللقاء بين سماحة الزعيم.. وبين من توسّم فيه شجاعة الزعامة^(٢) في الرجال!

بعد ستة أشهر من انتهاء الإضراب الكبير، أرسل الزعيم في طلب المناضل ماجد بن السيدين، أي بعد أن جرت محاولة اغتياله الأولى بشهر واحد. وبالحاج طلب الزعيم ضم المناضل أبا وفا^(٣) - يطلب حضوره على

(١) أفضل الرجال شجاعة وشرافاً.

(٢) أصبحت كنيته الجديدة الخاصة بصاحب السيرة وبعد أن وهبه له ولداً عقب طول انتظار: "أبو وفا".

عجل..! ولا عجب في أن يسلك الزعيم هذا المنحى في طلب المناضل القروي، فالزعيم الحق هو من عرف مأمنه ورسم حذره وجعل من كل ذلك هاجساً له لا ينفك عنه أبداً. أولى بالزعيم أن يقوم باختيار حفظة حياته.. ينتقي بنفسه طباخه، ويصطفي حرسه الشخصي.. يتعرف على تفاصيل حياتهم، ويهتم بمعرفة كل شيء عنهم ويلبي طلباتهم..!

والحقيقة - كما حدثني أبو عبد الله - أن الأمن الشخصي كان الشاغل الأول للزعيم الحاج أمين الحسيني منذ أن بدأت الثورة الفلسطينية.. واشتدت بين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٩م.. منذ أن كان في القدس وسافر إلى دمشق واستقر في بيروت قبل أن يهرب إلى ألمانيا من بغداد ليحط في القاهرة أخيراً.. وماذا يفعل مثل ذلك الزعيم - وفي أشد الظروف قسوة - وقد وصل خلافه مع خصومه من تنظيمات العوائل والأحزاب إلى حد الحراية والإغتيال؟! على مرأى وعلى مشهد من الأعداء.

أصبح "أبو وفا" حرسية اللصيق من حيزران/ يونيو عام ١٩٣٧م. قبله.. يأكل لقيمات^(١) من طعامه الخاص! يجرب مخابئه السرية بنفسه.. يختبرها فعرفها..! يصحبه في غدوه ورواحه إذا أوفى بطله^(٢) على الجموع المحتشدة والعامة المنتظرة - أشرف الزعيم من بعده.. وظل الحرس الجديد للزعيم على هذه الحال متسماً قمة الثقة عنده حتى توحد فيهما الوجود والمصير..!

(١) في الحالات الاضطرابية والسفر المفاجئ دون صحبة طباخه الخاص.

(٢) أقبل بهيته الحسنة أمام الجمهور المتجمع.

تحت ضغط الظروف الداخلية وازدياد الغضب الشعبي في البلاد على أثر نشر تقرير اللجنة الملكية في^(١) ٧ تموز/يوليو ١٩٣٧، اضطر المفتي، ولم يمض على محاولة اغتياله الثانية سوى ثلاثة وعشرون يوماً.. اضطر أن يتخلى ولو إلى حين عن سياسة الود والمجاملة مع حكومة الانتداب.. فسافر إلى دمشق في ١٩٣٧/٦/٢٢.. وهناك وأثناء انشغاله بعقد الاجتماعات مع زعماء الحركة الوطنية البارزين.. سياسيين وقتاليين.. سوريين وفلسطينيين مشهورين^(٢) بنشاطهم النضالي..!

منذ رحلة الزعيم إلى دمشق كثفت سلطات الانتداب من مضايقاتها ضد الزعيم، فقامت بعد عودته من دمشق بإثني عشر يوماً أي في يوم ١٧ تموز/ يوليو ١٩٣٧ بمداومة دار اللجنة العربية العليا أثناء انعقادها بهدف اعتقال المفتي الزعيم الذي التجأ إلى الحرم الشريف.. وفي مخبائه زاد من نشاطه - من خلال رسائله وبياناته واحتجاجاته باسم اللجنة العربية العليا - اتصالاً بالثوار المناضلين.. ولما وجد "واكهوب".. المندوب السامي البريطاني نفسه عاجزاً عن إلقاء القبض عليه داخل الحرم الشريف - تخوفاً من العواقب الوخيمة التي ستصيب عليه وعلى إدارته من حيوية الشعب الفلسطيني.. ومن نبضية العالم العربي حياة حينذاك - قام بتجريد

(١) أهم بنوده: (أ) التخلي عن الانتداب. (ب) دولة يهودية في الجزء الأكبر من الأرض الطبية الفلسطينية. (ج) دولة عربية هزيلة تضم إلى الأردن. (د) تدويل القدس وبيت لحم أو إبقائها تحت الانتداب البريطاني.

(٢) الشيخ محمد الأشمر: من قادة الثورة السورية عام ١٩٢٥، خاض معركة ميسلون ومن بعدها من قادة الثورة الفلسطينية ٣٦ - ١٩٣٩م ففضى في فلسطين أربعين يوماً خاض فيها عدة معارك أهمها معركة بلما الثانية يومي ٢٠٢ من سبتمبر ١٩٣٦ التي انتهت بهزيمة الإنجليز وسقط مائة قتيل منهم وطائرتان لهم. ولما انتهت الثورة الفلسطينية على أثر نداء الملوك والرؤساء العرب عاد إلى دمشق وظل وزملاؤه من مصادر تمويل الثورة مالا وسلاحاً ومشورة.

المفتي من جميع مناصبه، وحاول إسنادها إلى غيره من عملاء
البريطانيين^(١) أو المحسوبين على الإنجليز..!

وفي ١٢/١٠/١٩٣٧ عقد المفتي مؤتمراً سرياً مع المنشقين المائة عن
مؤتمر بلودان المخيب للأمال الوطنية بقراراته التافهة... وقرروا في ذلك
المؤتمر مواصلة قتل - الشخصيات العربية بعامة والفلسطينية بخاصة -
الصديقة للسلطات البريطانية... ولليهود..!

وبعد ثلاثة شهور قضاهما الزعيم في مخبائه في الحرم الشريف، في ١٤
من تشرين أول/أكتوبر استطاع المفتي - على الرغم من الاحتياطات التي
اتخذتها سلطة الانتداب - الهروب إلى لبنان عن طريق البحر...

(٥)

امتلاء التجربة...!

وفي حديث طويل جرى تسجيله في الخليج بين الشيخ الوقور ماجد بن
السيد بن ولده الأوسط وقد كان في زيارة أبنائه هناك عام ١٩٦٥م.. سأله
ولده وهو يعرف عشق أبيه للسرد وإجادته لسياقه:

الإبن : ما الذي أشارك إلى ما أرى.. يا والدي؟!

الوالد : وماذا ترى..؟

الإبن: تقلباتك في الحياة..! إقبال وإدبار..! تخرج من صيرورة إلى أخرى
ومن وجود إلى وجود..!

الأب: وضّح.. وضّح ما تقوله وما تعنيه..!

الإبن : كنت راعياً.. ومزارعاً.. وفلاحاً تُصْلِح أرضك.. بسيطاً.. لازمك
ضعف الحيلة زمناً أتعبك.. فقدك للسند والعشيرة.. مأساة أخيك..
واستلاب أهلِكَ لأرضك وأرض أبيك..! خرجت من كل ذلك
عزيزاً.. مهيباً.. كريماً.. وعملياتك الفدائية العديدة التي جعلت لك
وجوداً ممتلئاً.. وحضوراً مميزاً..

الأب : قليل من الناس يُولدون ليحيون.. وكثيرون يولدون ويعيشون
ينتظرون الموت.. العمر يا ولدي حفنة رمل في يدك! تفرّ من فروج

(١) راغب النشاشيبي، ومصطفى الخيري وحسام الدين جاد الله.

أصابك حياتك وأنت لا تشعر.. ما تزرعه تحصد: قمحاً أو عقيراً^(١) فالعمر بيدرك تلم سنابله بشق النفس ويعرق التعب..

الإبن : هذا صحيح.. فرق كبير بين الحياة والعيش.. الكلاب والذباب يعيشون.. وأقل من القليل من الناس يحيون.. الواحد منهم من وحْدته، وكيونته الفريدة.. ومع ذاته وخياله.. وأحلامه ودموعه.. وحبه وخوفه.. ومن نجاحه وفشله يصنع واحداً جديداً يصلو ويجول في كثرة..! وما الدنيا في الحقيقة إلا تعدد الواحد..

الأب : الآخرون من بني الناس كانوا دائماً شغلي الشاغل.. يفرضون الموقف عليّ.. فأحسب لهم ألف حساب.. ومن ثم أختار فعلي وأرسم كيف يكون الإنفعال عندي..! فأنسج لي من خيوطهم مع خيوطي قماشاً جديداً ينعم ويرفل فيه حضوري الجديد..!

الإبن : في رحلتك إلى جبل العرب أيام شبابك.. ذكرت أسماء تأثرت بأصحابها.. حتى تفاعلت مع ما كان يدور في مجالسهم وأنت تُصت إليهم أثناء قيامك بخدمتهم..! فهل لك أن تسرد علي مثلها وأنت في خدمة زعيمك وزعيم الأمة حينذاك..!

الأب : هذا حديث يطول مع ذكر الأسماء الكبيرة وهي كثيرة..

الإبن : (مقاطعاً ومشجعاً).. ولكنه ممتع..!

الأب : سياسة المفتي في المهادنة والود تجاه سلطات الاستعمار الإنجليزي وحليفته الصهيونية اليهودية في فلسطين لم تعد تنفعه.. فرأى.. وبعد فوات الأوان.. أن نهج القسام هو المطلوب.. ولا يصلح مع الأعداء طريق غيره.. رأى سماحته - وقد جرّده الإنجليز من جميع مناصبه - أن ثورة الفلاحين بدأت تسحب بساط الزعامة من تحت قدميه وساقيه القصيرتين..

الإبن : (متعجلاً).. ثورة الفلاحين.. ثورة القرويين في الجبال.. الكل تحدث بذلك.. بل والمؤرخون^(١) والزعماء في حينه أشاروا أيضاً إلى ذلك.. أي إلى أن الثورة كانت ثورة الفلاحين في أعوامها الأربعة ما بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ م كيف ذلك..!

الأب : ببساطة لو جمعنا الأسماء ذات الخطر في الثورة الفلسطينية لوجدناها على الوتيرة التالية:

١. قائد منطقة جبل الكرمل ومنطقة جنين هو الفلاح الشيخ عطية أحمد عوض من قرية "بلدة الشيخ".

٢. قائد المنطقة الشمالية الفلاح خليل محمد عيسى (الملقب بأبي إبراهيم الكبير) من قرية المزرعة الشرقية.. وقد قابلته وتعرفت عليه في بلدة قرنايل / لبنان عند زيارته للزعيم في قصره..

(١) هو ما يُترك من السنايل لضعفها.

(١) أمثال إميل الغوري، وجورج أنطونيوس وعزت دروزة في كتابه الثورة الفلسطينية ط٢/١٥/٩٦٩٩.

٢. من قادة منطقة الجليل وأحد قواد الجهاد المقدس- قائد قروي عربي جليلي صلب العود محارب عتيد جريء كما وصفه أحد قادة الأعداء، كان القائد توفيق إبراهيم (أبو إبراهيم الصغير) من قرية أندور قضاء الناصرة.. وقد تعرفت عليه في دمشق عام ١٩٣٨م.

٤. قائد منطقة جنين وحيفا والناصرة، أحد خمسة قادة كبار قادوا الثورة الفلسطينية القائد القروي يوسف أبو ذرة^(١) من قرية سيلة الحارثية، جالسته واستمعت إلى حديثه أثناء زيارته للحاج أمين الحسيني في دمشق..

٥. القائد المزارع والراعي وبين أبرز خمسة قسامين من قيادة الثورة القائد محمد صالح الحمد من قرية سيلة الظهر.

٦. القائد العام للثورة الفلسطينية 'أبو كمال' القائد عبد الرحيم الحاج محمد من قرية ذنابة/ الخليل تشرّفت بالتعرف عليه وسماع صرّفاً من حديثه في دمشق عام ١٩٣٩م قبل أن يعود إلى فلسطين وقبل استشهاده^(٢) في قرية صانور، ومن ثم فقدت الثورة إحدى زعاماتها الأساسية حينذاك..

(١) اعتقلته دائرة من الجيش الأردني وأُخذ إلى سجن الانكاف في نابلس وتوفي فيه للإعدام في ١٩٤٢/١٢/٢٠م.

(٢) قتل بوردون، مؤيد قائد القوة البريطانية في فلسطين، قتل في معسكراته في نابلس. هذه القصة لشبابنا محمد أبو جاد عبد الله. هذا القائد الذي كان يجمع بينه وبين الأعداء، جاءه خبر من أنشأه ابنه الذي أوقف على تشييد بيت له في نابلس، جاءه الخبر، فاتفق القائد في الثورة الفلسطينية في فلسطين، في بيروت ونابلس، سوريا، العراق ولبنان وهو القرب السابق، الذي هو القربى بطل القربى الدار في ١٩٤٢.

٧. قائد المنطقة الوسطى في فلسطين وحامل ختم القيادة العامة لجيش الثورة الفلسطينية في سوريا الجنوبية: القائد القروي المزارع عارف عبد الرزاق المتوكل على الله، من قرية طيبة بني صعب/ طولكرم، وكان على اتصال بالقائد حسن سلامة قائد منطقة اللد وهو من قرية 'قوية'.

وغير هؤلاء آخرون.. وهم كثيرون كلهم قرويون مزارعون وبعضهم رعاة. فرضوا أنفسهم فرضاً لشجاعتهم ولقدرتهم ولبراعتهم في تكتيكاتهم وعملياتهم الفدائية ضد العدوان البريطاني واليهودي..

الإبن : كما فرضت نفسك في منطقتك في عملياتك الفدائية..

الأب : دون أن يكون أي اتصال بين الثورة وبين أي قيادة سياسية: لا في الداخل ولا في الخارج.. أي لم يعينوا من قبل حزب أو هيئة أو لجنة أو زعيم.. وهذا ما جعل الزعيم يعمل على تحريك سياسته خوفاً وقبل أن يسحب القرويون وثورتهم بساط الزعامة من تحته..!!

فسافر إلى دمشق.. وهناك رأى أو رأت القيادة السياسية أن تسيطر على الثورة من فوق فشكّلت ما عرف وقتذاك بـ'الجنة الجهاد المركزية' برئاسة الحاج أمين في لبنان برئاسة عزت دروزة في دمشق..

(١)

في لبنان

ولما كان للحديث طبيعته الخاصة المعروفة.. مشتبكاً دائماً كاشتباك العروق يمسك بعضه بعضاً، ويتفرق بأصحابه أنواعاً وأطوالاً.. سرد ماجد بن السيدين قصة ولده الأوسط فتحدث عن طفولته المبكرة في لبنان:

دخل الإبن لبنان مع أهله وهو في الرابعة من عمره، وتركها وسنّه ست سنوات وشهور خمسة، أي أن الطفل قد عاش طفولته المبكرة هناك.. وهي فترة بدء نمو فرديته وذاته.. مرحلة هامة تشكّل العامل الأخطر في تشكيل المرء.. في إطار زمني يشتمل على تجارب وتطورات وأحداث وعبارات إلى آخر ما هنالك من وقائع لا بد وأن تترك بصماتها على طفل الأمس..! ومن هنا فلا انفصال للمرء عن وقائع طفولته وإلا كان موت الهوية الشخصية عنده..!

أصيب الصبي بحمى شديدة.. وكاد شلل الأطفال - وقد فرض عليه الحبس والعزلة والعجز عن الحركة - أن يلزمه في فترة تتميز عند الطفل بالميل إلى الحركة واللعب، وإجراء التجارب في الأشياء المحيطة مما يجعله أكثر ثقة في نفسه وأكثر اطمئناناً إلى بيئته..! ناهيك عن

حسبة شديدة الحرارة داهمته... ولم تتركه إلا بعد أن أورثته شيئاً من الضعف في حاسة السمع..! لم يؤثر على تعلم الطفل اللغة تلقائياً أو في استخدامها.. تمثّلت متاعبه السمعية في ميكانيكية النطق والتلفظ بوجه خاص بادئ الأمر..! يسمع لدرجة طيبة عندما يوجهون إليه الكلام مباشرة دون إشارات بصرية أو مشيرات سمعية، ومن هنا لم يؤثر ضعف السمع الذي أصابه في أمور التوافق العام.. المدرسي والاجتماعي.. بل لم يؤثر على مستوى الطموح عنده..! يضيف الدكتور "وفا" الشقيق الكبير للصبي الشقي في كتابه "أوراق الشتات" حالة شقيقه الذي يصغره في سنواته الأولى في لبنان فيقول:

"من الذكريات غير السارة التي تحملها الذاكرة عن "قرنايل"^(١) إصابة شقيقي بحمى شديدة أعجزته عن الحركة مدة لا تقل عن شهرين، وقد بلغ به المرض أنه قد غدا عاجزاً عن الوقوف على قدميه؟ وطول مدة مرضه ظل تحت إشراف طبي مستمر، وأخيراً منّ الله عليه بالشفاء، فنجّا بأعجوبة من شلل الأطفال.. ولكن ذلك المرض لم يتركه إلا بعد أن أورثه شيئاً من الضعف في حاسة السمع".

ويمضي الشقيق في أحد مؤلفاته.. يقول:

(١) مصيف جميل كان يقضي المفتي الزعيم صيفه فيه - ونحن معه - ويقع هذا المصيف على قمة جبل شاهق إلى الشمال الشرقي من بيروت، جميع سكانه من الدروز.

".. لقي الطفل من التدليل ما جعله يفرط في كثير من الأحيان بالعبث بطريقة كانت كافية لإزعاجنا وإزعاج جميع الجيران، وقد تمثل عبثه هذا في الصباح بكلمات غير مفهومة لا تقل عن نصف ساعة في كل يوم على الأقل دون أن يستطيع أحد إسكاته أو فهم ما يقول، وقد ذكر لنا الوالد أنه كان يسمع صوته وهو في بيت المفتي الذي كان يبعد عن بيتنا مسافة لا تقل عن كيلومتر.

ولو أطلعنا على الغيب لعرفنا أن محاولات الطفل الخطابية هذه لم تكن إلا إرهاباً بأن صاحبها سيفدو في المستقبل من الخطباء الفصحاء.."

ثم يحاول الدكتور في كتابه أن يقدم تفسيراً لتصرف شقيقه على ذلك النحو.. فكتب:

".. هل كان تصرف الطفل هذا أسلوباً من أساليب التعويض عن الصمت الذي فرضه عليه المرض طوال شهرين؟ أم كان ذلك تعبيراً عن طاقة ما لا قبيل له بكبتها؟ تفسيرات قد تبدو معقولة، ولكن الدوافع الحقيقية وراء ذلك تظل سراً من أسرار النفس الإنسانية التي لا يعلمها إلا الله.

من طريف ما أذكره عن شقيقي هذا أننا كنا ذات يوم نتحلق فوق بركة فيها نافورة وبعض أسماك الزينة في ساحة قصر المفتي في الذوق^(١)،

(١) الذوق ميكائيل: مشنئ جميل لكبار شخصيات ذلك الزمان.

وكانت ابنتا جارنا "أبو أنطون" وهما "ماري" و "أليس" قد جاءتا لزيارتنا فصحبناهما إلى تلك البركة لرؤيتها، وكان المفتي في نهاية شتاء العام الثاني قد سبقنا مع أسرته إلى "قِرنايل" وعزمنا نحن على اللحاق به بعد أيام.. أقول بينما كنا نتحلق حول البركة، إنقضّ الطفل على الانسة ماري التي كانت أجمل من شقيقتها الانسة أليس مستغلاً انهماكها في تأمل الأسماك، وطوّق عنقها بذراعيه وطبع على وجنتيها عدداً من القبلات السريعة بين ضحكات المتحلقين حول البركة واستغرابهم!!

وقد فوجئت "ماري" بما حدث من هذا الطفل الصغير، ولم تجد أمامها سوى أن تشارك الموجودين في الضحك والاستغراب، وقد علّقت على ذلك قائلة: أوليه عليك شو اللي خلاك تسوّي هيك يا أزعز..!!.. أما تعليقي على هذا الموقف فهو.. "أن الطفل الصغير يعرف كل شيء ويولد وفي عقله كل الحقائق! والموقف يذكره فقط بما هو موجود فيه".

وفي صفحات أخرى من كتابه يواصل الدكتور إلقاء بعض الأضواء على سلوكيات شقيقه الطفل وهو في مدرسة الذوق في لبنان: "لقد كان للشقيق مع هذه المدرسة قصة أخرى، كان عندما التحق بها لم يتجاوز الخامسة من عمره.. وكان في كل يوم يفقد كتاباً من كتبه أو يمزقه، ولم يكن الأمر يقف عند هذا الحد، فقد كان يلجأ إلى تمزيق أي كتاب لمن يدفع به سوء حظه إلى الجلوس بجواره من التلاميذ. ولم يكن

يمر يومان أو ثلاثة دون أن يضطر الوالد إلى شراء كتابين أو أكثر
تعويضاً عن الكتب التي كان يمزّقها أو يتسبب في ضياعها..^(١)

وأضيف هنا إلى كلام الشقيق في تحليله لتصرف شقيقه المريض
كأسلوب للتعويض في هذيانه وثرثرته.. أن الذي أصاب الطفل في تلك
الحقبة^(٢) من الزمن هو هوس^(٣) الكلام والإندفاع في الكلام المشوش
وهو من أعراض اضطراب النفس أو مجرد تشوش لغوي..!

(٢)

من قرية غَمَر^(١)

لم يكن لأبي عبد الله أن يهنأ بمقامه الجديد في لبنان، كما لم
تسغه السعادة في أي موضع قبله.. فقد حضرت ابنته الكبرى "مدلول"
لزيارته هناك! جاءت بصحبة ولديها وزوجها لتخبره بأن بندقيته
"السواري"^(٢) قد سرقها لصان، جاء إلى حرزها متخفيان ليلاً.. وسرعان
ما قاما مستخفيان ببيعها.. وأن الشاري معروف..!

وقع النبأ على ماجد وقوع الصاعقة.. فلّجَم.. ولم يَجِر جواباً أو تعليقاً..
بل بدا وكأن قد أصاب عقله طرف من الجنون، فلم يكن هناك شيء
أبداً ينافس "السواري" في حب ماجد لها..!! إلى جانب أن السارقين لم
يخطر بباله يوماً أن يقوموا بعمل مثل هذا.. وكيف حسبا أن ما قاما به من
سرقة لن تمحو الأيام مخازيهم أو تعطيها طوال حياتهما بسببها..!

سارع ماجد إلى إطلاع الزعيم على أمر البندقية، فسمح له بالعودة إلى
فلسطين لاستردادها.

قام ماجد بإكرام ابنته، واشترى لها ما وعدّها به يوم زفافها.. أهداها
ثلاثين من الليرات الذهبية "الرشادي" تعويضاً لها عن الأرض التي أخذها

(١) الغمر = رذال الرجال، فيهم صِبْرُ الشَّان والعيب.

(٢) السواري اسم لبندقية ماجد بن السيدين، اسم يدل على سمو منزلتها عنده، والسورة التي هي الرفعة والمنزلة.

(١) الحقبة بالكسر هي السنة.

(٢) الولع المرضي بالثرثرة: Logo mania.

منها - باعتبارها - أي الأرض - جزءاً من مهرها.. وعادت معززة
مكرّمة..!

اعتاد أبو عبد الله أن يخبئ بندقيته الألمانية في جُحرٍ احتفَره بنفسه،
ونقره بين صخور انتقاها في أرضه في منطقة "الزحليقة" في بلدته... وكان
من عاداته معها أن يُجري عليها عمليات الصيانة بين الحين والآخر.. وهو
بين هذا وذاك.. بين إخراجها من حجرها وإحضارها إلى المنزل.. وإعادتها
ثانية.. وثالثة إلى مخبئها، يراقبه جاره الحميم الذي يعرف أن أبا عبد الله
لا بد وأن يَمُرَّ في كل مرة أمام بيته حاملاً "السواري" باتجاه المخبأ أو
عائداً بها.. وأبو عبد الله هادئ البال مطمئن إلى صلته الحميمة بذاك
الجار الذي عاش معه أيام المصير في الغربة سنوات في نفس الدار، طالما
ودّه، وقرّبه إليه وأحبه!! ما دار في خلد ماجد، وما وقع في روعه، أن
يكون جاره ذاك أحد اللصين..!

كان الثوار في ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩م في فلسطين يسيطرون على عددٍ
كبير من القرى، مقر رئاستهم تكمن في جبالها.. وشكل الثوار فيها
لجان محلية تتبع قيادة المنطقة للإصلاح بين الناس ورد الحقوق إلى

أصحابها ولمنع التعاون مع حكومة الانتداب.. وفي كل قرية كان ما
يعرف بفرق الأنصار وفرق الفزعاءات، أفرادها على علاقة بدوائر ثورية
استخباراتية.. كما شكّل الثوار محاكم عسكرية يرأسها قضاة
متخصصون إلى جانب مستشارين من الفلاحين الأقرب إلى فهم عقلية
الفلاحين ومعرفة تقاليدهم..

لأفراد من تلك الفرق المذكورة في قرية "لفتا" كان الفضل في الإيقاع
بسارقي البندقية..!!

صفقة البيع كانت تحتم على الشاري معرفة بلدة البائع للتأكد من
صلاحية البندقية أو عدمها لإعادتها.. وأمام تلك البائع في عدم ذكر
القرية ومكان سكنه، دخل الفأر في عبّ الشاري وكان من الثوار..
التابعين لقائد فصيل ثائر كنيته "أبو شعبان".

طار الشاري إلى بلدة الفلسطينية في الجوار.. والتقى بمختار القرية "أبي
هاشم" وأخبره بالقصة.. وأن البندقية عنده.. اتصل "أبو هاشم" الذي تأكد
بنفسه على الفور أن البندقية تعود إلى "أبي عبد الله" إلى ماجد بن
السيد..! فأخبر ابنته "مدلول" وطلب منها التوجه إلى لبنان لإخبار
أبيها..!

عاد "أبو وفا" إلى بلدته في فلسطين، والتقى مباشرة بقائد أحد الفصائل الثورية - ومقره في قريته لفتا - وكنيته "أبو شعبان"، الذي قام بدوره وعلى عجل، ومعه بعض رجاله، ورفقة "ماجد" بمداهمة منزل "محمود" ليلاً واقتادوه من بين أولاده وزوجته.. وفي طريقهم عرجوا على منزل شقيق زوجه "مقبل بن حبيب الجاري" ولقبه "الأقرع".. أوثقوهما قيوداً.. كل منهما يداه خلف ظهره...

ساروا بهما شرقاً، مخترقين جدر البلدة الشرقية وأراضي حريقة السلم في منطقة "عراق الزنانير"، حيث ترتفع الصخور، بعضها فوق بعض طبقات تتأطح بها السحاب.. وتشكل قعرًا سحيقاً تنتشر فيه الكهوف والجحور، في أرض قليلة العُرض تحيطها عراق من جبال غليظة، مُنْقَادَة في الأرض، تتجاف فيها وتُنهَيطُ.. لا يسهل علُّوها ولا الإنحدار فيها..! منطقة بعيدة عن العمران.. عن القرى المحيطة بها.. منطقة لا تُسمع فيها استغاثة المستغيث..! هناك جرت محاكمة سريعة، محاكمة البائسين وهما مُقْعِيَان، وقد فُكَّتْ قيودهما... افترش كل واحد منهما إسنه، وبذل ساقيه، واستند على يديه! كان مقبل وقت المحاكمة يشكو وَجَع

عينيه وانتفاخهما.. ظلّ طول الوقت مرسلًا وجهه على صدره لا يرفع رأسه! والبائس الثاني يبدو مشدوهاً متسائلاً.. كيف حدث ما حدث..! جلس القائد أمام البائسين على حجر كبير مناسب ووقف بجانبه "أبو وفا"

أبو شعبان: لن نُطِيلَ عليكما.. اسمعوا وافهموا ما أقوله لكم.. لا أريد أن أكرر كلامي مرتين: الاعتراف بداية للتوبة التي تقود إلى العفو أو إلى التخفيف في الحكم.. (وهنا هاجت عينُ البائس "مقبل" وحاول فركها بيده، فمنعه أحد الرجال من رفع يده عن الأرض).

مقبل: الله هو الحَكَمُ.. (ويوجه كلامه إلى أبي وفا).

أنت عياذي وملجأئي..! (وهنا يشارك البائس الثاني في رجاء رفيقه..).

الأقرع: أنت معاذنا.. نلجأ إليك ونتدخل عليك.. ونعتصم بك..!

ماجد بن السيدين: الله معاذ كل من عاذ به، وملجأ كل من لجأ إليه...! فقدتكما أمكما... اعترفا كما طلب منكما القائد أبو شعبان..! البائسان معا: لا نجزع من ضرب السوط.. (يقاطعهما القائد)

أبو شعبان: (مشيراً إلى رجلين من رجاله) ابدءوا بمقبل، واجلدوه على قدميه..!

أبو شعبان: أو نحوكما إلى المحكمة العسكرية الثورية في الجبال وهناك يقررون إن كان الموت لكما خيراً.. حتى لا تزدادا سوءاً أو تنزل

بكما النكال والعقوبة اللازمة مع فضيحة تكسر قناة ظهر كل منكما...!

ويعرف الأسيران مغبة إرسالهما إلى محكمة عسكرية في الجبال.. فكان اعترافهما كاملاً.. ذكرنا اسم الذي اشترى "السواري"، وما كادا يلفظان اسمه حتى برز من بين رجال القائد أبي شعبان، وقد جرى التمويه عليه بين رجاله! استعاد الرجل ماله، وعادت "السواري" إلى ماجد بعد أن تنازل عن حقه الشخصي.. فغفا عنهما، وعادا سالمين إلى عائلتيهما..!

(٤)

البورناوي.. والغرباوي

طلب الزعيم من "أبي عبد الله" حارسه الخاص أن يختار له أربعة حُرَسٍ له من أهل بلدته "ال فلسطينية" يثق بهم، وذلك بعد أن قام سماحته بالتخلص من حارسين أفغان، على أثر قتل أحدهما لزميله غيلةً وغيره..! غيرة على زوجه الأفغانية الجميلة، غيرة لم تكن في محلّها، في سياق قصة بائسة تحدث في مجتمعات متخلفة، تُعجُّ بذكورية سخيّة، وتصيح فيها نثانة الحمق!

فامتثل أبو عبد الله لطلب سماحته واختار له أربعة من أهل بلدته وهم:

الأول: علي صيح المصايحة

الثاني: محمد جمعة الرمضي

الثالث: غيث بن الصب المطري

والرابع: أحمد بن نتشه حبيب الجاري.

الأول ابن القائم على أرض آل الحسيني في بلدة الفلسطينية. والثاني ابن عم ماجد بن السيدين بعد أن رفض أخوه محمود جمعة الرمضي - صديق ماجد بن السيدين وابن عمه - الذي كان يشغل مركزاً هاماً في مصنع "ميخائيل شناينبرج" اليهودي براتب جزيل..! والثالث من أبناء عمومته والمتميز بثقافة خاصة دون افراد جيله في ذلك الزمان والمعروف

بنشاط سياسي نضالي ... أما الرابع فهو ابن صديق عمره في العسرة
واليسرة: ابن النتشه بن حبيب الجاري!

وبذلك فقد أتم الزعيم تعريب حراسته تعريباً كاملاً، كان منهم
خمسة من أهل بلدة أبي عبد الله! كان أولئك النفر من الحرس المقرّين
من قلب الزعيم... والحائزين على ثقته الكاملة. وكان يشاركهم في تلك
الثقة رجل من جزيرة "بورنيو" في المحيط الهادي.. إحدى جزر "ماليزيا".
كان ذلك الرجل وزوجه وأطفاله سود الجلدة من قوم عبْد^(١)..! فتى
وكأنه وُلِدَ في عبودية مُلك الزعيم.. يرافقه داخل غرف القصر.. لا يخرج
إلا في حالات نومه.. يسافر معه دوماً، لا يبرحه أبداً.. وكان اسمه "محمد
البرناوي" لم نعرف له أبداً اسماً لأبيه.. ينتسب إلى الجزيرة التي وُلِدَ فيها..
أعطاه الله ولدين: صالح البرناوي، وتيسير البرناوي في عمر الولدين وفا
وشقيقه على التوالي.. يُرتَّبُهُم جيل واحد...!

لا تسأل عن الثقة التي شبكت عنكبوتيتها بين الرجلين.. بين
"البرناوي.. والغرياي"، وما أفرزته من قصص داخل القصر الكبير
وخارجه..!

(٥)

زعامة.. وطفولة

ويسلط أبو عبد الله أضواء مشرقة على إنسانية "زعيم" فيقول لي:
"كان لطفولتك في لبنان ظلالاً استظل الزعيم فيها، واستندى بها..!
ووقف إليها.. وقعد فيها، يطلب الراحة وقرة العين في ظلالها.. فترجع إليه
نفسه بعد الإعياء والتعب.. إعياء جهد الفكر وغلبة القلق وتشابك قضايا
السياسة والنضال في عقله ووجدانه.. يخرج من قصره ويتجول في البستان
الكبير ويسير في روضته الغناء وقد أهدت عشبا.. وهو في تجواله وسيره
يرى طفلين يتسابقان.. يعدّوان ركضاً فوق بساط الحديقة الأخضر.. يراك
وأنت تحاول أن تفوز في سباق العدو على تيسير البورناوي.. كل منكما
يحاول الوصول إلى نقطة النهاية قبل رفيقه.. وقف الزعيم إليكما وقد فاز
تيسير في السباق.. فيومئ إليكما بالاقتراب منه.. مسح رأس كل منكما
بدوره، فعل ذلك بحنان أبوي كبير مهنئاً ومباركاً ومشجعاً، ثم وزع
عليكما من كرمه ولطفه ما وسعت يده أن تصل إليه من إحدى جيوبه...".

ويسترسل ماجد بن السيدين في تواضع شيخ الزعامة الفلسطينية
حينذاك فيقول: "ذات مساء تواجد مصور الزعيم في القصر.. وبعد ان قام
المصور بواجباته والتزاماته حيال الزعيم والتقاط صور مطلوبة.. طلبتُ -
والكلام لأبي عبد الله - من سماحته أن يسمح لكما أنت وشقيقك وفا

(١) من قوم تكثر فيهم عبودية الرّق.

- وقد صادف تواجدكما معي في منزل الزعيم تلعبان في الساحة وفي
البستان - بصورة تذكارية مع سماحته - سرعان ما لبّى رغبتى، فقام
المصوّر بالتقاط الصورة على النحو التالي:

الزعيم الكبير على كرسيه وكأنه العرش... وفا شقيقك على يساره
يقرأ في كتاب مفتوح.. وأنت على يمينه تحمل له باقة جميلة من الورد!
كلاكما أنت و وفا ترتديان البنطلون القصير.. كان ذلك عام ١٩٣٨م.
طبعت الصورة كبيرة في مساحة نصف صفحة جريدة.. ظلّت الصورة
معلقة على حائط عليّة بيتنا في "الفلستينية" حتى عام النكبة وهدم جميع
بيوت القرية عام ١٩٤٨م.

والحقيقة أن ما حدثني به ماجد بن السيدين عن طفولتي في لبنان
مطابق لما اختزنته ذاكرتي.. ولقد اختزلت ذاكرتي منذ الطفولة أحداثاً
وأحداثاً، ومواقفاً ما أكثرها.. ورسبت تلك الأحداث وتلك المواقف
بتفاصيلها الدقيقة، وما أكثر ما تختزن الطفولة من حكايا وصور
ومشاعر..!!

(٦)

تقييم

ذات مساء من أمسيات سنة ١٩٥٦م، وفي منزل العم غيث بن الصب
المطري، وقد تزوجت اليه.. التقينا حول كانون نار الشتاء، ضم لقائنا
السادة صاحب الدار أبو الصب المطري وماجد بن السيدين وولدي الأول،
وكاتب هذه الذكريات "أبو ماجد".. جرى الحديث يومها حول حماس
- بل تقديس الشيوخ والكهول من الجيل القديم لزعامه الحاج محمد
أمين الحسيني، مفتي فلسطين الأكبر، وعدم رضى الشباب من أبنائهم
عن سياسة الزعيم الفلسطيني الأبرز في ادارة القضية الفلسطينية ايام
العشرينيات والثلاثينيات..

أبو ماجد الأشوس : تجري على ألسنة الكثيرين في العالم العربي -
أيام تواجدي في مصر - أنه حيثما يَجُلُّ المفتي، تَجُلُّ معه المصائب
والكوارث.. في العراق فشلت ثورة الحركة الإسلامية بقيادة رشيد عالي
الكيالي، وكان المفتي في العراق قائدا لقوات البادية الوطنية أواخر عام
١٩٤١م.. ثم نزل في برلين، فهزمت ألمانيا شر هزيمة، وقضى على الرايخ
وانتحر هتلر.. وجاء إلى مصر وجاءت معه الكوليرا لتحصد آلاف
المصريين..!

أبو الصب المطري : وكان المفتي يرادف شؤماً مستطيلاً يرافقه أيما حل..!

أبو ماجد الأشوس : ليته - كما قال أحدهم - ظل شيخاً واعظاً مرشداً يؤم الناس في صلواتهم، ويفقههم في دينهم في مسجد من مساجد الله الكثيرة..

أبو عبد الله: الجمل لطاح.. كثرت سكاكينه.. أنتم أولاد اليوم لا تعرفون عن المفتي إلا القليل.. لا تعرفونه ضابطاً عسكرياً في جيش الخلافة على البحر الأسود حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى..! لا تعرفون عن ثورة القدس التي أشعلها عام ١٩٢٠م والذي أورثته لقب "المجاهد الفلسطيني الأول".

غيث المطري : إن جهاده في الحركة الوطنية لم يتوقف يوماً بل تعداها وساند الثورة السورية عام ١٩٢٥م والثورة العراقية عام ١٩٤١م بل وشمل نشاطه الوطني والإسلامي مسألة المغرب العربي، وإنشاء جيش عربي إسلامي، وإنقاذ المسلمين في يوغوسلافيا.. وقرأنا عن لقاءه بالدوتشي موسوليني وبهتلر حول هذه القضايا.

أبو عبد الله: كان المفتي يعرف أن انتصار الإنجليز في الحرب العالمية الثانية يعني ضياع فلسطين وتسليمها لليهود..

أبو الصب المطري: مالنا ولكل ذلك.. مواقفه من الثورات الفلسطينية وقادتها تحكم عليه، وتقضي له.. وخاصة موقفه تجاه ثورة القسام..!

أبو غيث المطري : قرأنا أنه في ٢٦ تشرين أول عام ١٩٢٣ اجتمعت اللجنة التنفيذية اجتماعها الثاني، وحضره المفتي ومحمد علي الطاهر سكرتير اللجنة في مصر. وطالب الطاهر بإعلان الثورة في فلسطين فرفض المفتي..!

أبو ماجد الأشوس : آل الحسيني والقيادة الإسلامية المسيحية رفضوا على الدوام أن يشجعوا أية حركة ثورية ضد التحالف الانجليزي - الصهيوني.. لأن الثورة ستكون حتماً وبالأعلى مصالحهم..

أبو غيث المطري: مجرد قبول آل الحسيني - ومن ورائهم المسلمين بالمجلس الإسلامي الأعلى جعلهم - أي عرب فلسطين هم الغالبية العظمى من سكان البلاد - جعلهم في منزلة "الطائفة الدينية" ذات طابع الاقليات! أي لم تكن بريطانيا ترى أن هناك أجناساً.. بل طوائف دينية..!!

أبو ماجد الأشوس: المفتي - كما قال القائد الفلسطيني الكبير "أبو إبراهيم الكبير" أحد قادة الثورة الفلسطينية ١٩٣٦ - ١٩٣٩م - هو الذي أشار على اللجنة العربية العليا وإلى معتمدها في دمشق "عزة دروزه" بوقف الثورة، وإيقاف المساعدة المقررة للثورة الفلسطينية.. ويقول أبو إبراهيم الكبير: "ذهبت أنا شخصياً لمقابلة المفتي في قرية "الذوق ميكائيل" بضواحي بيروت.. فأخبرني المفتي أنه ينوي السفر الى بغداد.. وقد صحبته الى هناك في ١٣ تشرين أول/ أكتوبر ١٩٣٩م، مع أنني لم اكن موافقاً على إيقاف الثورة!"

(١)

عصرنا اليوم كل مافيه يبدو واضحا كالضحى بدون طلاس

كان للحرب العالمية الثانية أثر مسكّن على الشعب العربي في فلسطين، فانتصارات الالمان الرائعة والمتلاحقة قد أنست الفلسطينيين قضيتهم، وألتهت أعراب السايكس - بيكو مشاكلهم، فظل الشعب الفلسطيني - بعد هروب قيادته التقليدية الى الخارج - بلا حراك..! سياسيا وعسكريا..! فكأن الحرب قد ذبحتهم حتى سكنت ثوراتهم! والكثير من حذر النفس والاسترخاء والفتور قد غشيهم.. اخفاق.. وفشل مزين بألوان الحزبية وأطيافها الكاذبة.. وعدم استقرار.. مع احباط وقلق.. وأرق.. كل شيء بدا مظلما.. دول عربية تخاف الفلسطينيين ولا تثق بهم فتسرح جيوشهم، وتصادر بنادقهم المقاتلة.. فلا الثورة استمرت، ولابقى البيت الفلسطيني، ولاعاد البيت السليب!

وتذهب تلك الدول بعيدا فتستبعدهم عن الانضمام الى جيشها.. الى جيش الانقاذ، الذي أنشأته بريطانيا وعمالها العرب..! فقيدوا تسليحه وتحريكه.. فانجز ذلك الجيش ارباكا عسكريا وسياسيا في ساحة فلسطين..!

أبو غيث المطري (منفعلاً): لقد ضحى المفتي، ومن ثم جميع الزعماء العرب تضحية جسيمة بوقفهم للثورة..! لقد كان في مقدور الفلسطينيين الاستمرار في ثورتهم وعرقلة تحركات بريطانيا الحربية وخلق العقبات الكأداء والمصاعب الجمة أمام جيوشها في الأقطار العربية والإسلامية..

أبو ماجد الأشوس : نعم صحيح... واني أعتبر تاريخ مغادرة المفتي للبنان وخروجه إلى العراق وإيران وتركيا وإيطاليا ثم ينتهي به المقام في ألمانيا النازية... أعتبر هذا التاريخ هو نهاية الجهود الفاشلة، الجهود السياسية الفاشلة للمفتي في إدارته للقضية، بل وبداية ضياع البلاد وتشتت العباد...! لسبب بسيط: في البلاد زعامة مهادنة ضيقة الأفق.. وشعب عربي فلسطيني أصيل لم يسجل على نفسه رغم كل الضغوط ورغم تخاذل الزعامات السياسية... أقول لم يسجل على نفسه سابقة استسلام أو رضوخ للأمر الواقع: لا أمام الصهيونية حتى اليوم... ولا أمام الاستعمار البريطاني... ولا أمام يهود... كانت هزيمتا وليدة القهر لا وليدة التخاذل....!!!

وكانت مشاركة ذلك الجيش الهزيل مشاركة صورية كاذبة لامتناس غضب الجماهير العربية، ولاظهار المشاركة الأعرابية في الحفاظ على عروبة فلسطين.. جنود ذلك الجيش هم من دمشق وبيروت وبغداد والقاهرة ومن قبائل الاردن: الحويطات وبنو صخر والعبيدات وبنو خالد وآخرون من المغرب وتونس وليبيا.. وكما أشرت مع استبعاد الفلسطينيين لعلمهم أنهم لن يقبلوا ان تكون حريهم ضد الغزاة كاذبة وصورية!

عندما وقعت الكارثة الكبرى في "دير ياسين"، كان جيش الانقاذ في عين كارم، وطلب أهالي دير ياسين النجدة، فلم يهب لنجدتهم.. وحدثت نفس المأساة وكما حدث في "دير ياسين" - حدث في مناطق نابلس وطولكرم وجنين.. لصوص نهبوا المستشفيات، وسرقوا بالاكراه مئات السيارات من اصحابها الفلسطينيين.. وصلت الشكاوى الى "القاوقجي" قائد الجيش فلم يحرك ساكنا..! والقاوقجي أسد غضنفر وهو يوصي عميل المخابرات اليهودي يهوشوا بالمون بعد اجتماعه به لمدة ساعتين أن يلتقوا "عبد القادر الحسيني" قائد الجهاد المقدس حينذاك - درسا! ويطلب أيضا من عميل العدو ولست ادري من منهما ليس بعدو - ان يخبره انه (أي القاوقجي) لن يساعده..!

هذا في فلسطين! أما في دول الأعراب، فقد كانت دولا بلا جيوش، وان وجدت فهي بلا سلاح ولاتدريبات ولا قيادات ولا تجهيزات.. جيوش لا

موحدة ولا مؤهلة لقتال او لاحتلال او لتحرير، جيوش ليس لها من وسائل المخابرات السلكية واللاسلكية شيئا، او وسائل نقل الجنود لساحات النجدة او القتال.. لا مصفحة ولا سريعة.. لم تكن تعرف شيئا عن أهمية التعبئة، أو التنسيق أو عن التوجيه السياسي أو التعبئة المعنوية والشحن الروحي للجيش..!

والعداء بين هذه الجيوش او دولها فحدث عنه ولا حرج.. فضاعت فلسطين.. بل وشمل الضياع كل أقطار العرب العاربة والمستعربة، التي كانت وكأن لسان حالها يعلن بلا حياء ان كل من فيها يعمل على شاكلته.. فأصبحوا الآن جثة مسجاة على طاولة التشريح من المحيط الى الخليج، ودولة الغزاة يهود على أرضنا "باقية" وامنها مضمون على حسابنا..! دولة هدفها الآن ان تقضي على الفلسطينيين.. من اول قائد.. حتى آخر رضيع.. هذا هدف المؤامرة الكبرى بكل عناصرها من عدو.. وصديق.. وشقيق.. من يهود وعرب ومسلمين ودوليين..

وصل أبو عبدالله قريته ليلاً من لبنان.. وفي ضحى اليوم الثاني من وصوله في اليوم الأول من تشرين ثاني/ نوفمبر عام ١٩٢٩، وقبل ارتفاع النهار، يادر وهو المتعلق بسلاحه حدّ الجنون.. إلى حيث تختبئ "السواري"! سار متجهاً إلى القريب، هابطاً أرض الخور القليلة التي صادفته.. ثم أخذ يضرب في الوعر، ارتقى هضبة تتوجها صخرة بارزت كأنها القلعة، تحتفظ بصلايتها ويانتسابها الأيدي إلى المكان، وإن كانت مهجورة ومقهورة في أعماقها! وفوق الصخرة، القلعة وقف يتصفح نواحي الفلك، وآفاق السماء، وأطراف الأرض.. وكلها بعيدة، يستلهم الأفق الخزي لرسم لوحته.. ينقلها على صفحة الواقع من مكانها في عالم المثل والخيال! لوحة الاشتياك، والتناوش، والحرب..

واصل سيره وأخذ يقترب من "السواري" في حفرتها العميقة.. ولم يكدر يدنو منها حتى توقف فجأة، فقد شعر بعضلات ساقه تتمدد وتنقلص حد التمزق.. حاسته السادسة تخزّه وتطنّ في أذنيه بوشوشات توحى إليه بأخبار كئيبة رصية تبعث في نفسه الضعف والانكسار والريبة والقلق.. تعمق ذلك كله مزيج من روائح صمت البرية، وسكون المكان، ونبت الزمان وفوح الخلاء!

قطن أبو عبدالله إلى حفرة اختارها قبل سنتين.. أخفى فيها بندقيته في قعرها، ملفوفة بعناية اقتنع بجدارها حينذاك: اقترب من الحفرة وأزاح عنها كومة عوسج، حفر ثم حفر.. حتى شهدها.. حملها بشيء من الحنين! سرعان ما تحول إلى خشونة وقسوة وهو ينزع اللقافة - في خرق ومزق - من حولها.. فحصبها بدقة.. قلبها بين كفيه.. فحصب ماسورتها.. وذراعها مشطها وحزامها.. ثم سحب قبض الأبرة فلم يطاوعه، وحاول إطلاق الزناد: فلم يستجب له.. والثابة رعب مفاجيء، فتارت ثأنته.. فككها إلى قطعها.. كبيرة.. وصغيرة! وهو الذي توقف عن تنظيفها وتزيينها منذ سنين.. وعندما حاول.. تمذر عليه تركيبها.

اقتنع - بكأبة غشيت - أن بندقيته قد فقدت كثيراً من صفات البندقية وأقرّ في يقينه أن "السواري" قد أضحت خارج علم السلاح الحديث.. ويطلقوس كانت هي وليدة تلك اللعقات الكثيرة أعاد ذهنها ثم وقف طويلاً أزاء حفرتها الأعمق.. وقف والدموع الصامتة تغطي وجهه العابس في بسر وقهر! يحلق فيها تارة.. وأخرى يرنو إلى البعيد.. إلى الأفق.. ولكن الأفق كان قد تقلص أمام ناظره.. فسار عاتداً.

عائداً إلى دارته وهو يحس أن دنياه قد ضاقت من حوله، قمشى في أرض معشبة لم يرعها صاحبها حق رعايتها: دفن فيها أسطورتته ومعها أطمئناؤه المجهول.. عاد منكسراً.. اللوحة سئطل ناقصة!

(٣)

بَغْيُ الْخُلَاطَاءِ

وجيه فلسطيني من سراة القوم.. أسرته ذات ثراء وافر ونفوذ واسع منذ "مجلس المبعوثان العثماني" أوائل القرن العشرين جعلته شخصيته المتميزة بثقافته الاعلامية الرفيعة، يتربع ضمن شخصيات الصف الثاني في قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، ينافس آليات الدعايات الصهيونية للدفاع عن المصالح العربية بمجملها، وليس الفلسطينية وحدها.. صداقاته وعلاقاته الأثيرة مع رجالات الادارة البريطانية ايام انتدابها على فلسطين، ومع الرواد الأول لدولة الغزاة يهود في بلادنا مشهودة ومعروفة وموثقة..! زعيم مهادن حتى المهانة.. معتدل.. يكره العنف ويهرب منه.. مفاوضاته المتتابة والعديدة مع وزراء المستعمرات في بريطانيا.. ورئاسته للوفود الفلسطينية، والعربية شغلت سنوات عمره الطويلة في عرض قضيتنا على المسارح الدولية.. في مدن العالم طولا وعرضا.. مخلفا وراءه، في منزله بحي القطمون في مدينته القدس زوجة له.. شابة في أول عشرينياتها.. تشكو الوحدة، والفراغ، تعيش بلا زوج رغم وجوده.

زعيم آخر، في منتصف العشرينيات سنًا.. ذو هيبة وجدية، صاحب كاريزما طاغية عجلت بنهايته.. حاول ان يكون عسكريا.. او.. استخباريا فما طالهما، فاتجه الى السياسة، وسجل فيها نجاحات لم

تسعه عندما حانت تصفيته..! مواقفه المتناقضة تجاه القضايا المطروحة في حينه، خلقت منه شخصية خلافية كرجل دولة! خلص هذا الزعيم الى ذلك الوجيه، موظفا يخدمه في مكتبه أثناء تواجده فيه، ويحل محله طيلة غيابه عنه في الخارج..

توسعت واجبات الزعيم عندما تأكد الوجيه ان زوجته في حاجة الى دروس تقوية في اللغة الانجليزية، وأنيط بهذا العمل اليه، وصار زؤورا يزور بيت الوجيه وزوجته..! والمنزل ملاصق للمكتب بل هو جزء منه، في مساحة واسعة من الارض.. تحيط بها حديقة غناء.

جلسات تلك الدروس كانت بمثابة بطاقة تعارف ماسية بين المدرس وتلميذته. هو شاب.. يتجمع فيه عزم الشباب وحزم الشيوخ.. كان حاضرا فيها باستاذية فوقية، يقدم لها من خلال تلك الدروس نموذجها الجنسي الذي تشتهي، تتمناه في الخفاء أو في الحلال، يرى فيها مثاله في الجنس حيث تقدير حسية المرأة عنده هو بكونها زوجة مجرية ذات خبرة!

كان في الدارة.. شأن دارات الاثرياء والوجهاء "بيانو"، انيق كبير، صاغ بأصابعه الماهرة قصة حب جارفة بمصاحبة صاحبة الدار، كانا يتناوبان العزف، كل بدوره يجلس الى البيانو.. يتنافس.. ويستعرضان براعة اصابعهم تسبح فوق مفاتيح البيانو فتندفق موسيقاهما.. موسيقى ذات خاصية نادرة.. من الصخب والتمرد وكأنها صادرة عن مرده الجنس

فيهما! تكشف عن اتوثة دافقة بالشهوة، وعن رجولة ممثلة بالذكورية..1

في رقة وشراسة.. في زهو ومهانة.. وفي مهر وكيد.. بلا قاع ولا حدود..1

يحتضن البيانو وكأنه يحتضن ربة الدار.. يحتضن نعومة الجسد البهي

بينما صاحبه في رحلة غوص وأعدة دافقة.. في امنيات غائبة..1

ويتم الوائد قصتهما: عاد التوجيه يوما من رحلة مكوكية له.. عاد الى

بيته حزينا، متقسم النفس.. حيث سمع من احد وزراء المستعمرات

البريطاني حينذاك كلاما لا يليق.. نعت المفاوضيين الفلسطينيين - منذ

ذلك الوقت بأصعاب العقول المتخلفة..1

عاد التوجيه لعله يجد السلوى في أحضان زوجته.. ولكنها كانت قد

انسحبت من حياته! بلا وداع.. فقد سرقها الزعيم..! ومن ثم خسر وجهها

- الزوج والقضية..1

(٤)

ما للمدائن من سحر.. ولا حجر

انضم الى الحزب العربي الفلسطيني نخبة من كهول بلدنا ممن

تصدروا العمل الوطني الثوري في ايامهم: وكان منهم ابو عبدالله صاحب

هذه الاوراق وكان قد انضم الى العمل في حراسة مقر الحزب في مدينة

القدس ومقر مؤسساته وهيئاته ليواصل خدماته لآل الحسيني.. وانضم

ايضا الى الحزب آخرون منهم "ابو هاشم" من مغتير القرية والحاج صباح

المصايحة وغيث المطري واستمر ابو عبدالله في العمل مع الحزب ورجاله،

حرسيا ومراقبا.. من عام ١٩٤٢ الى ١٩٤٦.

استطاع شباب بلدنا، وبمبادرة من عندهم، ودون أي تدخل او توصية

او توجيه من الخارج او من الداخل.. استطاعوا ان ينشئوا عام ١٩٤١ اول

ناد في بلدتهم اسمه النادي القومي العربي وكان للنادي جمعية عمومية

أقرت دستورا له ينص على خط الحياد في مسيرته ونهجه.. لا ينتمي لحزب

ولا لأية هيئة.. دون ان يكون للنادي في نهجه تواصل مع مجلسي او مع

معارض.. لا يحايي حسيني او نشاشيبي، طوقاني او خالدي بديري او

زعيثري او من آل عبد الهادي..1

١- وقد برأسه عام ١٩٤٢ جمال الحسيني، الذي وضع النعش أمام الجمعية في ليلة الجمعة المباركة.
٢- مثل من واصل ان المجلس القومي العربي الذي كان تحت قيادة طائفة الجمعية ١٩٥٠. وقد رفضه جماعة الحاج الزعيم
محمد أمين الحسيني.

ولذلك فقد نجح شباب النادي وقد وصل عددهم ثلاثين مشتركاً، في انجازاتهم العظيمة للبلد، وفي وقت قياسي، بسبب سياسة النادي النابعة من ذاته دون ضغوط. ومن أعظم انجازات ذلك النادي العتيق أن قام ببناء مدرسة جديدة عند قمة القرية تتسع لأربعة صفوف، كما أضافوا صفاً جديداً في مدرسة استأجروها في صرة البلد، وهو الصف الخامس الابتدائي، إلى جانب استقدام معلمين جدد يتميزون بثقافة مغايرة ثقافة معلم المدرسة القديم سواء في العلم والمعارف أو في المناهج.

إلى جانب هذا الانجاز الاجتماعي الثقافي، كان هناك انجازاً آخر، تمثل في اجتماعات الشباب في ندوات وفي حوارات وفي اجتماعات مفتوحة ومغلقة، قام الشباب بإخراج مسرحية "واعتصماه" على مسرح اقاموه في البلدة، وقد نجحت المسرحية ونجح القائمون على أمرها تمثيلاً وإخراجاً مركزين في عملهم على بث روح الجهاد في النفوس وشجعتها بالحماس الاجتماعي وبالشهامة والنخوة.

ويفضل جهود الشباب المؤسس للنادي، أصبح للبلدة فريق لكرة القدم يملأ بس رياضية تنيه بألوان العلم الفلسطيني الأربعة.

نجح شباب البلدة في ادارتهم لتأديهم، وابداعهم في انجازات النادي الرائعة، ذلك النجاح المشهود في ابداعه لم يحظ برضى زعامة الحزب العربي الفلسطيني* أو الهيئة العربية العليا من آل الحسيني، فكان أن أوعز جمال الحسيني رئيس الحزب، ونائب رئيس الهيئة العربية العليا

حينئذ، أوعز إلى مختار البلدة "أبي هاشم" رجل الهيئة العربية العليا في بلدتنا وإلى أبي عبدالله رجل الحاج أمين الحسيني أوعز إليهما أمراً نافذاً وبسرعة أن يطلبوا من الموالين لآل الحسيني وتحريضهم ولهيتهم بالانضمام إلى عضوية النادي في البلد، فانضم عدد كبير ممن عرفوا بولائهم للامحدود للحاج أمين الحسيني.

لم يكف يعضي على اشتراكهم في عضوية النادي ثلاثة شهور حتى طالبوا بعقد اجتماع للجمعية العمومية لأدخال بعض التعديلات في مناصب الهيئة الإدارية وفي بنود دستورها^١. وتم كل ذلك بقوة نفوذهم الشامي على مر السنين بين الفلاحين فنجح "ربيع ابوصلاح" حد تعبير متحدث ساخر حينذاك - حول ماحدث بهذا الخصوص.

نجح رجال أبي صلاح في احتلال منصب رئيس النادي، بعد أن كان شاغراً منذ انشائه، كما استأثروا بأمانة سر النادي فاستحوذوا على أصوات الموالين لهم.. فتوقف كل شيء ولم يعد هناك انجاز أو ابداع.

وهكذا كانت الأحزاب والقيادات التي تولت أمور الثورة والعمل الوطني في ذلك الوقت الكئيب، كانت لاكثرية بالأعداد العسكري لمحاربة العدو قدر اهتمامهم باحتواء الموالين تحت اجنتهم.. هيزم النادي وسقطت القرية وضاع الوطن.. الحريق الصاعق.. أوته شرارة.. يسببها وقص حفير من دفاق الميدان وصغار الحطب.

* الهيئة العربية العليا للحزب أمين الحسيني أبو صلاح حار - كان له اليد في حله سلام - ربيع - صاعق

(٥)

قبس من نور

ونحن الان نتذكر في قفر من الارض، في فلاة عزلت عن كل خير، وفي حصار لا حدود له ولا قاع، في محبس قاهر، وفي محصر ظالم.. نعيش بُعْدَ الدار.. وذِلَّ الجوار.. يطيب لي ان اتذكر قبسا من نور.. جذوة من نار في طرف عود ما لبثت ان خمدت.. اكتب عن رائد من رواد الايمان الصادق في العمل والسلوك.. في اواخر العام ١٩٤١ دعت الهيئة الادارية لنادي بلدتنا عددا من اهل البلدة وعلى رأسهم الشيخ اسماعيل آل مراس "ابا محمد" رائد الخير في عمومهم، وخوّل النادي ذلك الشيخ الجليل ليرأس اللجنة الخاصة ببناء المدرسة الجديدة.

قام الشيخ بدوره بدعوة اهل البلدة الى الاجتماع في مقر النادي، والقى شيخنا كلمته وطلب فتح باب التبرعات مبتدأ بنفسه وعنهما بعشرة جنيهات فلسطينية ثم اردف "وهذه خمسة جنيهات عن ولدي محمد".. ثم تابع "وهذه عشرة جنيهات عن سيدي الشيخ حمد" وهو أحد اولياء الله المدفون في مسجد البلدة الذي يقوم شيخنا بالإشراف عليه وبخدمته.

وبعد ذلك واصل "ابو علي" اسماعيل خليل الرمضي التبرعات فقدم ثلاثين جنيها ثم تبعهما آخرون من الحضور ولما فتر حماس المتبرعين المتواجدين وغيرهم في الاجتماع.. نادى الشيخ الجليل، الشيخ اسماعيل آل

مراس أحد شباب عائلته واسمه ياسين، وطلب منه أن يذهب الى بيت الشيخ، ليحضر من زوجته مبلغا لم يذكره جهرا، قائلا للشاب "بسرعة يا ياسين وخلي الفتاوية (وكانت زوجته ام محمد من قرية لفتا) تعطيك المطلوب.. عاد الشاب ياسين وسلم المبلغ الى صاحبه الشيخ الكريم.. وبدأ الشيخ يتذكر بعض الرجال الذين لم يتمكنوا من حضور ذلك الاجتماع وصار يتبرع عن كل واحد منهم بدوره قائلا:

"وهذه خمسة جنيهات عن الشيخ عثمان حسن خليل"

"وهذه خمسة جنيهات عن أخي ابي عطية"

"وهذه خمسة أخرى عن أخي عبدالله محمد علي العسلي"

"وهذه خمسة عن محمود جمعه الرمضي"

"وهذه مثلها عن أخي أبي هاشم"

"وهذه خمسة جنيهات عن أخي أبي عبدالله"

حتى اكتملت تبرعاته عن نفسه.. وعن الآخرين مائة جنية فلسطيني أضيفت الى مجموع التبرعات واستودعت في صندوق، ونجح مشروع المدرسة الجديد.

(٦)

حتى يعم.. الخراب

بقيت الحركة الوطنية في فلسطين مشلولة في معظم سني الحرب العالمية الثانية، وأخذت تستأنف نشاطها منذ ١٩٤٤م. وعندما ادركت - متأخرة - مدى الاستعدادات العسكرية في المستعمرات اليهودية.. بدأت الحركة في تكوين منظمات شبه عسكرية، وكانت اولها "منظمة النجادة" التي تكونت في يافا أواخر ١٩٤٥م بقيادة المحامي "محمد نمر الهواري" وتسترت وراء الأهداف الرياضية العامة.. وانتشرت للنجادة فروع في المدن وفي القرى الفلسطينية وخاصة في معظم منطقة القدس معقل آل الحسيني.. التي تدين بالولاء التام للهيئة العربية العليا وللحزب العربي الفلسطيني ومن قبلهما للمجلس الاسلامي الأعلى.. وكلها تحت رئاسة الحاج محمد امين الحسيني او من يمثله من افراد عائلته..

سارع شباب نادي بلدتنا في الحال.. فانضموا الى منظمة النجادة، رغم أن ملابسهم وسلاحهم كانت على حسابهم الخاص، تقوم بها جيوبهم الضيقة..! تحمست البلدة كل الحماس وفرحت برجالها الشباب في المنظمة الجديدة، وحفظت نشيدها لكثرة ما رددته وهم يسيرون في مسيراتهم نحو مركز التدريب على السلاح في حارات البلدة:

نَجَاد يا وجهَ العُلا وخفقةَ العَلَمِ كُنْ للبلادِ الأملَ والسيفَ والقلمَ
في حالكاتِ النُوبِ لا تهبْ واهتفِ بلادَ العُربِ للعُربِ
بلادِي بلادُ الشَّبابِ الأبيِّ اذا انتابكَ الشَّرُّ من أَجنبيٍّ
فنجادكَ الفارسُ اليعربيُّ يثيرها مَدَى الشرقِ والمغربيِّ
فدا وجهك الأقدس الطيِّب

نَجَاد يا وجهَ العُلا وخفقةَ العَلَمِ كُنْ للبلادِ الأملَ والسيفَ والقلمَ
لنا وطنِ يعربي سَما ومجد تهادي يضاهاي السَما
أرقُّنا على أفقيَّةِ الدِّما فداءً ليعربي كي يسَلِّما
ويسلم جيل له انتمي

نَجَاد يا وجهَ العُلا وخفقةَ العَلَمِ كُنْ للبلادِ الأملَ والسيفَ والقلمَ

بعد تدريب امتد طيلة اربعة شهور قامت قيادة منطقة القدس باستعراض عسكري لجميع فرق النجادة في منطقة القدس، وقد جرى الاستعراض في حي روميما في القدس على شارع القدس - يافا، مشت الفرق على قرع الطبول في انضباط تام تحت إشراف الإنضباط العسكري يحملون على اذرعهم عبارة (النجادة الإنضباط).

وفي صيف ١٩٤٦م وجهت القيادة المركزية للنجادة في يافا الدعوة لجميع فرقها لإرسال من يمثلهم لحضور العرض العسكري الكبير الذي أقيم في ساحة البصة بمدينة يافا. كما وجهت الدعوة إلى جميع ممثلي الهيئات والأحزاب الوطنية والتقايات في فلسطين. وقد حضر من كبار رجال الهيئة العربية العليا السيد جمال الحسيني رئيس الحزب العربي الفلسطيني وممثل الزعيم مفتي البلاد الحاج أمين الحسيني في رئاسة الهيئة العربية العليا والشيخ ياسين البكري ورجائي الحسيني، وقد حدثني أبو عبد الله بأنه كان لفرق النجادة في معظم قرى البلاد حضوراً في ذلك الحفل الكبير، ومن ضمن الوفود كان وفد النجادة في بلدتنا. وتمثل بأربعة أشخاص:

حسين الفرح آل ضبة برتبة ملازم أول

محمد جمعة الرمضي برتبة ملازم ثاني

محمد عايش آل معرس برتبة جاويش

عثمان التجيب العسلي برتبة عريف

ويتمم ماجد بن السيدين حديثه عن ذلك الحفل ويشير إلى أن الاستعراض الكبير قد قامت به فرق النجادة الواقعة فقط من مدن الساحل الفلسطيني وخاصة من يافا. حيث بدأ الاستعراض على أنغام الفرقة الموسيقية النحاسية؛ تتقدمه فرق الأشبال وحملة الأعلام الفلسطينية بلباس التموز والفهود.

وبعد انتهاء العرض والتحديث لأبي عبد الله: قام المحامي السيد محمد نمر الهواري مؤسس التنظيم بإلقاء كلمته. وكانت شاملة قوطعت بالتهنئات والتصفيق، وقد أكد الهواري في كلمته: أن النجادة منظمة شعبية تستمد وجودها وبقوة من أبناء الشعب الفلسطيني الأحرار، ومن وجودهم: ولا تنتمي لحزب أو مجلس أو مؤسسة أو أية هيئة سياسية أو دينية. منظمة مستقلة في إرادتها وقراراتها. لا تدين بالتبوء إلا لفلسطين. وتسماحة الحاج محمد أمين الحسيني. وقد تعالت التهنئات حتى طالت غمان السماء. وضجت الأكف بالتصفيق لعدة دقائق دون توقف!!

ويكمل أبو عبد الله روايته فيقول: أثناء التصفيق ومع التهنئات. توشوش القوم بين مؤيد ومعارض، في كلام خفي لا يبين. كنت أنا الحرسى الوحيد القريب من السيد جمال الحسيني ورفيقه وكانت التوشوش بينهم ظاهرة تماماً بالنسبة لي دون أن اتبينها. تبادلنا زؤوسهم حركاتها بهمة ويسرى. تلتصق وتنترق مع حركات الشفاه في رفض وامتناع.

وفي السيارة، يأخذ القادة الثلاثة قعداتهم. بينما كنت بقرب السائق أمامهم.

يقول جمال الحسيني بصوت جلي مسموع: لقد تهور الهواري أيها الشيخ!! وأعادنا ثانية لرجائي الحسيني بعد أن دفع جزءه الأعلى إلى الامام، فألقضاً اثناهما نحوه رأساهما وأقنعاً. في حركات تبدو فيها

إشارات الاستنكار.. وعلامات التعجب.. والاستهزاء..!! وبقيت خطبة الهواري مادة الحديث بينهم، لقد رأى فيها جمال الحسيني رئيس الحزب الوطني الفلسطيني خروجاً عن الروتين الحزبي، مع أن الهواري أقر واعترف بزعامه الحاج محمد أمين الحسيني..!!

ولما كان لا يعجب المجلسيين وآل الحسيني أن يفلت زمام الأمور في قرى فلسطين وفي مدنها.. بيتوا على أخذ زمام المبادرة مغتربين الفرصة التي لاحت لهم في كلمة الهواري الشاملة.

لم يمض سوى يوم واحد حتى كانت المنشورات حول هذا الموضوع توزع وتلصق في صباح اليوم التالي على واجهات المحلات في المدن والقرى: أن الهواري قد انشق عن المسيرة الجماعية وأنه قد نحى منحى الانفصالية والإنعزال..!! كما أصدرت عائلة الحسيني عبر قنوات حزبها وممثليه ومريديهم في القرى والمدن بضرورة إعادة تشكيل فرق "الفتوة" في كل قرية^١ وبالعامل على استقطاب شباب النجادة وضمهم إلى فرق الفتوة في قرى فلسطين وفي مدنها..!!

وفي بلدتنا - شأنها في ذلك شأن القرى الفلسطينية - سارع الرجال المواليون لزعامه آل الحسيني وهم أبو هاشم مختار البلدة، وأبو عبد الله الحرسى الخاص للزعيم، والحاج صبيح المصايحة المشرف على إدارة أراضي وأطيان عائلة الحسيني في بلدتنا حينذاك.. وكان اجتماعهم في

١ كانت عائلة الحسيني قد سبق وأنشأت فرق الفتوة مع الحزب العربي الفلسطيني عام ١٩٣٥ م ثم ألغت هذه الفرق لإظهار حسن نية الحزب العربي الفلسطيني ورجاله نحو نبذ العنف واتخاذ المفاوضات سبيلاً لنيل الحقوق ؟

كانون اول من العام ١٩٤٦ م مع نائب القائد العام لقوات الجهاد المقدس.. مع كامل عريقات نائب عبد القادر الحسيني، ووضعت الترتيبات اللازمة لتنفيذ قرارات الهيئة العربية العليا بشأن فرق الفتوة الجديدة.. فأوجدوا بذلك تمرداً لم تعهد له قريتنا الصغيرة مثيلاً من قبل.. تمرداً على الوجهاء.. والمختير.. والأباء.. والأعمام.. وأصبح القوم على ضد واحد، فالأبن ضاد أباه وعتا الأخ أخاه، فتصدعت الكلمة في الأسرة الواحدة، فتق لا رتق له أصاب الناس في القرية المنكوبة.. وصارت المشاحنات تأخذ طريقها بين التنظيمين كسلوك حتمي يقع في كل يوم..!! لا في بلدتنا فحسب.. بل في كل قرية وبلدة فعم الأمة كلها كسر لا جبر له ولا إلتئام..!! وظل التنظيمان يعيشان مواقف الفرقة والخلاف في أسى وحزن عبر مواقف الجدل في حياتهما.. وقيل في ذلك أمثال كثيرة، وانطلقت أغان ومواويل في هذا التنظيم ومثلهما في الفريق الآخر.. في سخرية أو إستهزاء.. بل في تحامل مرير.. كلها هذر وسقط كلام، كثير الخطأ والباطل.. غث.. نترفع هنا عن تسجيله..!!

بسبب أمثال هذه المواقف ضاعت الأمة.. ولا تزال سادرة في ضياعها.. ضاعت الأمة.. ضاعت بين الطريوش وبين اللفة^١.

لم تمض سوى شهور على قيام الفتوة.. حتى بدأ الصراع المأساوي عام ١٩٤٨ م.. فكان الكُش الكبير.. كسح القُمام عن وجه الأرض..!!

١ لباس الرأس لزعماء المجلس الإسلامي الأعلى وأغلبهم من عائلة الحسيني.

(٧)

.. فنذر.. قتله..!

ذكرت في قصة "سماسرة وعملاء" أن "همرج العيوشي" الشهير بأبي مصطفى وزوج عمة المغدور به الشاب "صالح" ووجيه عائلة آل معرس.

لم يجد وهو ممثل عائلة القتل وزوج عمة مفرا الا ان يقبل بوساطة المجلس الاسلامي الاعلى، وهو اعلى سلطة دينية وسياسية تولت وأدارت العمل الوطني الفلسطيني في فتراته الحرجة، أن يقبل وساطته بينه وبين المتهمين بقتله.

فانصاع ابو مصطفى لقرار المجلس القاضي بأن يُقسِم كل من المتهمين يمينا على براءته من تهمة القتل، وان يقوم ابومصطفى بنفسه بتلقين اليمين، صيغة اليمين اثناء القسم.

رضى ابو مصطفى بقرار اليمين على كره منه بعد أن رأى مياه نهره قد بدأت في الانحسار.. رأى ان ابا عبدالله المتهم الاول عنده - قد خرج من القضية بشكل لا يثير تساؤلات ولا تأويلات او تفسيرات، ابو عبدالله كان يقضي سهرته قبل وقوع الحادث الى مابعد وقوع المأساة بساعات.. كان يقضيها بين افراد اسرة صديق عمره وجاره في منزل النتشه بن حبيب الجاري، وشهد رجال الاسرة ونساؤها بأنه - اي ابو عبدالله - كان يقوم بحفاوة واستئناس مميزين تجاه ضيف تلك الليلة، احد اقرباء

عائلة الصديق من بادية حوران في بلاد الشام.. واما بالنسبة للمتهم الثاني الشهير بكنيته "ابي احمد" فقد احتاج لوقت طويل لاقتناع المحققين أن حب الاستطلاع كان وراء قتل القطعة كما جاء في المثل الانجليزي: curiosity killed the cat فأبو احمد هرع عند سماعه صوت الرصاص الى مسرح الجريمة القريب جدا من منزله، بدافع حب الفضول ومعرفة التفاصيل، حتى وقف على رأس القتل، تلك الوقفة شهد بها المتجمعون حول القتل من بعده. فقبضت شرطة الانتداب عليه وساقوه وأوقفوه على ذمة التحقيق، وقضى في السجن شهرين متتابعين!

كان ابو مصطفى ابا لاربعة بنات حُرِم وزوجته من خلفه الذكور ومن ثم اتخذت زوجته ابن اخيها القتل ولدا لها تتمناه، وتحبه على الدوام.. فضلت وراء زوجها تدفعه وتحرضه على الثأر والانتقام..! وكانت تساعده في كيدها ذاك أم القتل زوج أخيها.. وقد رأت أنها قد خسرت ولدها الوحيد والى الابد.. فلا بد لها أن تعمل على حماية شقيق لها من القتل، شقيقها ذاك كان عميلا للاستخبارات الانجليزيه CID، يشي بالثوار وبتحركاتهم ويسمسر على الارض للعدو..! ذلك الخائن كان قد نجا من محاولتين اثنتين لقتله في البلد على يد أحد أبناء بلدتنا.. تجمعت كل هذه الامور فأرغمت أنف أبي مصطفى بالانقياد لقبول اليمين على كره ونقم.

ومع كل ذلك ظل على قناعته باتهام المفتي ورجاله بالوقوف - ليس فقط وراء قتل ابن العائلة، بل وراء كل تلك الاغتيالات.. التي وقعت في

البلاد في تلك الفترة. ازاء مثل هذا التحامل منه، ظل ابو مصطفى كاظما في نفسه على ما هو أشد من الغيظ، وأنكى من الحقد، وممسكا بعداوته - لابي عبدالله - ولرجل آخر حل محل أبي أحمد وكان الرجل الثاني صاحب كنية "ابي هاشم" مختار للبلدة، القريب من رجال الهيئة العربية العليا، واحد رجال الحزب العربي الفلسطيني في بلدتنا، حزب آل الحسيني حينذاك.

اقول امسك بعداوته.. امسكها في قلبه وتربص فرصتها للانتقام من الرجلين..!! فلاححت الفرصة له واهتبلها في الاحداث التي رافقت انشاء نادي البلدة، وفرق النجادة والفتوة في البلد.. تلك الاحداث استدعت كثيرا من التعديلات والتبديلات اعقبت انسلاخات وانشقاقات اشترت اليها سابقا. فتصدعت العلاقات بين الأفراد في الاسرة الواحدة وفي الجماعات والعائلات في البلد.

رأى ابو مصطفى في تلك الاحداث ما يساعده على توجيه تهمة الإفساد في البلد، ونشر الفوضى وقطع ما أمر الله به أن يوصل - كما رأى فيها فرصة لكسب الأعوان لتصفية الرجلين الا انهم خذلوه.. ونكروا عليه الأمر! وكانت محاولاته قد فضحت حقه وعرت عداوته، فدوى صدره ووعر.. فنذر قتل الرجلين..!!

مع أن قرابات الرجل وأطرافه كانوا قد رفضوا الانصياع لأمره، ورفضوا العصبية ومعاونته على الظلم، فقد ظل يجعل من نفسه وليا لأمر

القتيل الشاب، فزينت له ان عملية قتل الرجل بسيطة وسهلة.. وماهي الا عملية تبسط له وتنزله.. فجذ في الامر واستقتل..! رغم ان الظروف الزمانية والمكانية في قصة الشاب القتل قد اثبتت له يقينا أن قاتل الشاب كان قد أخطأ به وقتله مكان غيره!

ولكنه لم ينتصح ولم ينجزر.. بل لم يأته الرشد من ذات نفسه.. ومثل هذا العناد يوقع صاحبه لامحالة في الشك.. في شك حباطل فكره ومسايد مكيدته دون ان ينفعه حذر الطائر الذي يرى له في كل طريق شركاً..!

في فترة خمول الثورة الفلسطينية وسكونها - أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها - ظلت قوات الانتداب البريطاني في بلادنا فلسطين تطارد فلول الثوار وتتعقب تحركاتهم، وحدث مرارا أن استيقظ الفتى من نومه في الصباح ليعرف أن الجو الأسري في صباح ذلك اليوم هو على غير ما عهده وألفه وتعامل معه..! فتبدأ سيدة البيت في غياب الزوج "ماجد بن السيدين" الساعي في كسب رزق يومه ذاك.. تبدأ بضبط تحركات كل من في داخل الدار الكبيرة فتوحي للجميع أن في البيت رجلا غريبا لم يكن الفتى يدرك وقتذاك أن الرجل الغريب هو أحد الثوار الكبار، المطلوب حيا او ميتا لدى السلطات.. وكان الفتى يقوم بأمر من أمه بحمل الافطار الى اللاجيء الضيف.. المختبيء في زريبة الغنم، أو خلف أو تحت

تلال القش والقشول أو وراء خوابي القمح في غرفة التخزين، أو في الطابون، أو في أي مكان غيره من أرجاء البيت الريفي الرحب الكبير.

والثورات - كالعادة - تضم بين أفرادها اخلاطا وضروبا من الناس متفرقين ولا حصر لهم.. من همج القوم.. ومن رعائهم وسقّاطهم، غوغاء وسفلة ومتسرعين الى الشر.. ومن عملاء تخترق منظمات الثورة أو تندس فيها.. تقوم على تشويه صورة الثورة والثوار، ولا نزال نقرأ في أدبيات الثورة ألقابا تتردد مثل "عميل مزدوج" أو نائر تحول إلى قاتل مأجور.. نعوذ القتل بدم بارد لطول مزاولته للقتل ولكثرة منافسته للموت..!

وفي ليلة من ليالي الشتاء في شهر كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٥، جاء رجل غريب يسعى الى بيتنا، فاستقبله ماجد الأشوس - كعادته - استقبال الرجال الأشاوس الشجعان.

ابوعبدالله : نزلت في بيتك سهلا، وبين قومك اهلا.. يا برهوم.

برهوم : اما والله يا ابا عبدالله ماجئت هذه المرة طالبا ملجأ أو مرتادا مخبئا، انما هناك سرا خطيرا لا بد ان أطلعك عليه..

ابو عبدالله : (مقاطعا).. خذ راحتك يا برهوم أولا، وحدثني عن أخبار الاخوان في بيت صفافا ثانيا، ثم يكون لنا الحديث من بعد ذلك..

برهوم : لا، لا، لا.. ان الامر لجد خطير.. ان القوم يأتمرون بك ليقتلوك ويتشاورون عليك ليزبحوك، انت ورفيقك "ابو هاشم"..

ابو عبدالله : ليقتلونني..! أي قوم يا رجل..!!

برهوم : نعم ليقتلوكما معا، تألفكما يفيظهم.. وانسجامكما معا يقتلهم..!!

ابو عبدالله : من هم.. أفصح..!

برهوم : اهل الشاب القتيل.. زوج حفيدة عمك.. كما علمت..!!

ابو عبدالله : (مقاطعا) ابومصطفى و..

برهوم : نعم.. وهو رجل يتجرم عليك..! يتهمك ورفيقك بذنوب.. انا على يقين ببرائتكما منها..!!

ابو عبدالله : بنس ما أثمر الرجل لنفسه.. يتجنى علينا بغير روية ودون تثبت، ولا ينظر في العاقبة.. ويل له من ندم لن يطيقه أبدا.. (وسكت ابو عبدالله وكأنه استدرك أمرا، وتذكر شيئا) ثم سأل:

ولكن كيف عرفت يا برهوم؟

برهوم : (وهو يضحك) لقد اتفقوا معي.. على ان انفذ امر القتل.. امر قتلكما..!!

ابو عبدالله : (يشاركه الضحك على غضاضة).. والله ليكون هلاكه قريبا.. فلينتظر..

برهوم : (يتدارك تهديد ابي عبدالله).. رويدك ابا عبدالله.. وعلى رسلك
دعنا نتشاور مع عقلنا في الصواب الذي نأتيه.. بلا غضب وانفعال..
ابو عبدالله : والله اني لفي امر مريب، أكاد لا أصدق القصة يا
برهوم.. فقد عهدت في الرجل في ابي مصطفى رقة في الاحساس والشعور..
بساطة دون غلظة.. متأنيا في السلوك، في عمله، في حديثه.. عجبي..!

بعد ذلك الحوار بين الرجلين.. قاما بتنفيذ خطة ارتضيها في الليلة
الثالثة من ذلك اللقاء بينهما، وكانت ليلة محاق، اشتدت ظلمتها، وذهب
نورها كله.. لا يكاد المرء يتبين ما يحيط به او يواجهه في وهلة أولى.. في
منتصف تلك الليلة، سحب ابو عبدالله عصبه من اقاربه الرجال.. كونوا
عصابة من ثمانية اشخاص.. عصابة تتبع برهوم الصفا في واوامره التي
ستنفذ عملية اختطاف الرجلين وقتلها..!

صحبهم ابو عبدالله الى مكان اللقاء المحدد في أرض محمد جودة
وحول السروة المعمرة تبعد الارض مائتين مترا عن منزل ابي عبدالله
وخمسائة متر عن منزل ابي هاشم.. شمالا غربا مكان الارض متواريا
خلف جدر وصخور.. استقر الرجال في قعدتهم وبعد دقائق حضر برهوم

الصفا في يرافقه ابو مصطفى.. جلس الجميع بعد تحية لم تجد ردا.. وبعد
سلام لم تستجب له الجماعة..!

طلب برهوم من ابي مصطفى ان يشرح الامر لجماعته، فسرّد قناعاته
لهم حتى سألته "عبدالله محمد" ابن عم ابي عبدالله.. "الهذا تريد قتل
الرجلين..؟"

حاضر.. على راسي وعلى ط.. وأشار بكل يده المبسوطة نحو استه.
وكان ابو عبدالله أول من ارخى القناع عن وجهه.. وتبعه الآخرون
وكشفوا عن وجوههم حتى عرفهم بأسمائهم وبكلياتهم، مما جعل
الرجل البائس يفغر فاه كما تفغر فاهها شمطاء عاقر حاضت.. سقط
المسكين سقطة افقدته وعيه، واحتوى لسانه احتباس وخرس!
أقسم ابو عبدالله أن يقوده الى زوجته مقيد اليدين خلف ظهره، مربوط
القدمين بحبل لا يمنعه من السير.. فساروا به على تلك الحال..

وفي الطريق عند منزل ابي عبدالله.. اعترضته زوجة ابي عبدالله لتقول
له: ويلك يارجل.. شو اللي طلع بايدك؟ اللي يطلع بيدك يطلع ب... وحاولت
المرأة أن تصبغ إسته بالإصبع الوسطى..! فنهرها ابو عبدالله وابعدها عن
الرجل..

وصلوا ووقفوا امام الدار.. دار الرجل الاسير والمنكوب.. طرق احدهم
الباب.. وبناء على امر زوجها فتحت الزوجة الباب وتقدمت، فرأت ما رأت..

تقدم ابو عبدالله وسلمها رجلها وقال لها: "فكي قيوده.." ثم انطلقت الجماعة لا يلتفتون الى من في الدار ولا عليهم يعطفون.

(٨)

وقلب له ظهر المجنّ

بدأ قوم الرجل - بعد الصدمة التي ضربتهم في هيبتهم، بدو وكأن نازلة شديدة قد نزلت بهم: عطلت افهامهم، وصحّت أسماعهم.. لا يدرون ماذا هم فاعلون؟ فتنادوا الى اللقاء.. وتكرر الاجتماع.. وتعاضم الخصام.. واشتد الجدل حول شدة الأمر وانتشاره بين الناس.. وكأن الأمر لا يمكن اصلاحه أو تلافي عواقبه..!!

فارتأت الغالبية من رهط الرجل - وهم نفر صلوح.. العزم على الصلاح مهما كلف الأمر! فالنازلة التي نزلت بهم أمر عظيم، وما من امر عظيم الا وفوقه ما هو أعظم منه، ولا داهيه الا وفوقها أشدّ منها وأنكى..!!

تصرّف أبوهاشم على طبعه، فهو رجل لين العصا، رقيق، حسن السياسة كرجل دولة.. فنزل عند رغبة القوم دون أن يرجع الى صديقه - ولو من باب العلم بالشيء - بأية مشورة، وهذا مما أوقع ابا عبدالله في

حيّص بيّص، فاختلط الامر عليه اختلاطاً شديداً، وضافت الارض من حوله! كان ابو هاشم له نعم الرفيق، وأهل العون، يشاطر دوما كل منهما الآخر المشورة والسؤال، والفكر والعمل..؟ لا يقول شيئاً حتى يقوله، شأنه شأن الاخ الاصغر له.. مؤدب وبطاعته وأوامره يعمل، لا يخالفه ولا يحيد..!!

وأمر الصلح جدّ مختلف عند ابي عبدالله.. فقد كان يرى انه مابعد شتم الوالدين "صلوح" وكيف وقد تعدى الشتم الى محاولة القتل والتصفية..!! فاعتذر ابو عبدالله للوسطاء.. وخذل الفرقاء، رغم ما يربطه مع شيعة ابي مصطفى وحمولته من قرابات ورحم، ونسب وحلف..!!

في جلسة ضمت الفتى وأباه في منزلهم في قرية البستان جرى الحوار التالي:

الفتى : (وقد رأى أباه مهموماً، مسترخي البدن، مدلياً رأسه في تفكير عميق) ماذا يشغل فكرك يا أبي؟

ابو عبدالله : لقد خطرت ببالي ليلة خاصة عام ١٩٤٦ م

الفتى : اية ليلة؟ ولياليك كثيرة..!

ابو عبدالله : ليلة لا تنسى ابدا.. كان القمر فيها قد اكتمل امتلاؤه،
بدرا.. خرجت فيها اطلب اباهاشم رفيق عمري، وصديق حياتي.. خرجت
أطلبه وقد قضيت اياما استقصي خبر الصلح بينه وبين من خطط لقتله
وقتلي، تتبعت الامر حتى تأكدت منه! مما أوجد قلبي عليه من أجله،
وتفاقم الامر بيننا.. فجوة كالفق الواسع في الثوب الجميل، يتعب من
يروم اعادته الى حالته الاولى التي تميز بها! ولذلك قررت - وعلى طريقي
- أن أبادره وجها لوجه، أجعله في حالة أخوف القوم بها..!

الفتى : ولكن القوم كانوا قد استكروا نواياه ورفضوا خططه.

ابو عبدالله : فرض الامر عليهم فرضا، المهم اني خرجت في تلك الليلة
القمرء المضيئة اطلبه حيث ينام في شرفة عليّة منزله، تحت مظلة خشبية
تزيناها قطع القرميد الأحمر. كان الوقت بعيد منتصف الليل.. عليّة بيته
تشرف على المكان وتعلوه.. ما وراء العلية يقع منزل أخيه وامامها تقع دور
ابناء عمومته وحمولته..! بين عليته وبين منزل أخيه جدار يقفز زائر الليل
منه الى ظهر العلية فيرتقيها، ومن ثم الى سطح المظلة الخشبية الحمراء
المقرمدة..! وما هي الا لحظات وقد علوت المظلة واقتلعت عددا من بلاط
القرميد اطلّ من خلال مربعاتها على النائم، وقد كان مستلقيا على
قفاه.. كان نائما.. قذفته بحصاة صغيرة، وصوبت نحو جبهته مسدسي -
الذي سبق وقد افرغت محتوياته من الرصاص - أخذته كل الأخذ بغتة،
اشرت اليه بالسكوت وبعدم فتح فمه.. وقد رأى المسكين ان المنية لم تعد

مستورة عنه، وها هو واقع فيها.. فصمت عن الكلام.. وعن اعطاء اية
اجوبة او تعليقات على ما سمعه من زائر الليل.. مني! (وحاول ان يفتح فمه
في اشارة الى انه يريد الكلام فزجرته)

اياك.. انت ترى المسدس وباستطاعتي قتلك.. رصاصة واحدة في جبهتك
التي هي الان تحت الهدف.. ولكنني رجل قد تعودت حب الاصدقاء
والاخلاص لهم، والعفو عنهم..

قلت ذلك له ثم انصرفت بخفة يحسدني عليها الغير، دون أن أعيد قطع
القرميد الاربعة فوق مربعاتها.. وعدت الى بيتي وكأن شيئا لم يكن!

ويتم ابو عبدالله حديثه : وفي صباح اليوم التالي جاء اليّ شقيقه،
واثنان من ابناء عمومته يستفسرون عن صحة ما قاله ابو هاشم لهم
بخصوص الليلة السابقة..؟

(فصرفهم ابو عبدالله خير انصراف قائلا لهم) : "ان كان صديقي
ابوهاشم يقول ما قاله لكم.. فلكم الخيار أن تصدقوه او ان تكذبوه..!

الابن : المعاني والالفاظ في قصتك توحى بغضب وندم بسبب هذا
الموقف الذي وقفت من صديق عمرك..؟

ابو عبدالله : لا أنسى وقوف الرجل معي في صراعاتي المريرة في
استخلاصي ارض ابائي من مغتصبها.. كان دائما في الصورة حاضرا في
علاقاتي مع الثوار.. واخيرا في التحاقني بخدمة زعيم البلاد.. ابو هاشم ليس
ككل صديق.. رجل يشهد له بالوجاهة، وبالجرأة في قول الحق.. وبالفيرة

على مصلحة البلدة في مراجعاته للمسؤولين.. وبكرمه، وحرصه على راحة الثوار في مضافته، سامحه الله.. سامح الله ابا هاشم.. الرجل..! ومضت الايام.. وتوارت الاحداث.. وطواها النسيان.. لا تُذكر ولا يُلتفتُ اليها او يؤبه بها.. فعادت العلاقات بين العوائل اللدودة المتخاصمة - علاقات بدت للأغيار العارفين - غضارة ناعمة زاهية.. قد سبق وصوّر احد الشعراء امثالها:

وقد ينبت المرعى على دمن^١ الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هي

(٩)

عودة الزعيم

في ١٩٤٥/٥/٥ كان يوم الهدنة، واليوم الأخير للحرب العالمية الثانية، فيه استسلمت المانيا لجيوش الحلفاء. وفي أمس ذلك اليوم كان قد سبق لرجال الخارجية الالمانية ان هيئوا طائرة خاصة لنقل المفتي ورجاله الى سويسرا، وفي سويسرا رفضوا اعطاءه حق اللجوء السياسي.. واعادوه من حيث اتى، وعلى الحدود، وجدوا ان الجيش الفرنسي قد احتل المنطقة وانتشر فيها، فأخذوه ونقلوه بالقطار الى فرنسا.. وبأمر من ديغول في ١٩٤٥/٥/٢٠ نقل الى مكان اقامته الجبرية في احدى الضواحي على بعد ١٣ كم منها.. نقل وسط حراسة مشددة، تحيط بها وتتخللها الاحترامات الواجبة نحو مقامه الديني، والسياسي، والدولي.

وبدأت الضغوط تترى على الحكومة الفرنسية: مساعي اليهودية العالمية لمحاكمة الزعيم كمجرم حرب في محكمة نورمبرغ، بعد ان الصقوا به تهمة التحريض على اباداة اليهود في المانيا وفي تشكوسلوفاكيا.. كما لفقوا له تهمة الاجتماع بـ "ايخمان"^١، وتواصلت

١ ما ينبت في الأرض المليدة بالقاذورات من الكأ الأخطر الجميل وهو في حقيقته وبىء المرعى منقن الأصل !

١ من مساعدي هتلر، زعم اليهود بأنه المسؤول عن إبادة ملايين من اليهود أثناء الحرب، اختطفه اليهود من الأرجنتين وحاكموه في فلسطين المحتلة، وأعدموه ونزروا رماده فوق بلادنا فلسطين المحتلة.

ضغوط الحكومة البريطانية على فرنسا لتسليمه لها، كما طالبت به القيادة العليا لجيوش الحلفاء تحت قيادة الجنرال ايزنهاور..!

وأمام هذه الظروف المقلقة والمحرجة، وسط اجواء مكفهرة جويا وعسكريا وسياسيا، قرر سماحة الزعيم مغادرة فرنسا بأية وسيلة.. وخاصة كانت فرنسا قد اتخذت قرارا لتسليمه لمحكمة نورمبرج، بعد ان رفضت رفضا باتا مع بداية التجائه لفرنسا - تسليمه لبريطانيا..

كان قرار فرنسا لتسليم الزعيم لاعدائه واعداء الانسانية ضمن صفقة سياسية اقتصادية لحصول فرنسا على قرض مالي كبير من الولايات المتحدة الامريكية..!

ركب الزعيم الطائرة المتجهة الى القاهرة وهو يحمل جواز سفر فلسطيني غيور هو صديق الزعيم "معروف الدواليبي" .. وهبطت الطائرة في مطار القاهرة^١، وخرج من المطار دون ان يتعرف عليه احد يوم ٢٩/٥/١٩٤٦.. الى فندق متروبوليتان في مصر الجديدة.

وفي ٣٠ حزيران/ يونيو عام ١٩٤٦ نشرت الحكومة المصرية بيانا ان سماحة الزعيم الكبير استطاع الافلات من معتقله في باريس والوصول الى القاهرة.. فجاء هذا البيان بلسما لشعور الوطنيين والمجاهدين المخلصين، كما كان له وقع الصاعقة على السماسرة والمتآمرين.. فالتهب الشعب الفلسطيني في قراه ومدنه حماسة لافلات زعيمه من الاعتقال وعودته الى

١ وكان يعرف باسم مطار "بن قليد".

البلاد العربية.. فاحتفل ثلاثة ايام متواصلة بعد عودة قائده، واعرب خلال مظاهرات الابتهاج، ومهرجانات الفرح، والمشاعل التي بها قد اشتعلت القرى والمدن ضياء، فنوّرت ووضّحت، وبيّنت مدى تعلق هذا الشعب العظيم بزعيمه وباخوانه المجاهدين.

وفي بلدتنا لا تسأل ايها القاريء الكريم عن مدى فرح ابي عبدالله وابتهاجه..! فكانت منارته كالصرح: شامخة، رفيعة، منيفة وشعلتها نورّت البلدة.. أبصر نورها ذو العماية، ورشد بهداها ذو النواية: من اولئك الذين ظنوا ان الزعيم لن يرجع.. الى البلاد العربية!!

كان فرح ابي عبدالله مميزا: في اصراره على الاهتمام باختيار الشعلة.. اعظم قطع الخشب طولا، وبناء المشعلة بذبالة طويلة الامد.. ومروّاة بالكيروسين او بالدهن تكفل لها بقاء جذوتها تشع وتسطع الساعات الطوال.

وكيف لا يفرح ابو عبدالله مثل ذلك الفرح.. وقد أحيط علما ان سماحته قد ارسل في طلبه ليلحق به في القاهرة بنفس عمله السابق معه في القدس، وفي دمشق، وفي بيروت يتفانى في حمايته والدفاع عنه بكل امانة بالغيرة والحماس..!

كان فرحه يليق بالمناسبة كل اللياقة، وهو سيفادر القرية الظالم اهلها.. لقد منّ الله عليه بالفرح وبالمخرج.. ويكأن الله قد استجاب دعاءه أن يجعل له خير ولي وناصر.. وهو سماحته.. حين استدعاه..!!

(١)

سنة أولى مصر

وفي تشرين اول/ اكتوبر عام ١٩٤٦ لبى أبو عبدالله دعوة الزعيم للالتحاق به في مصر - ليكون له امينا حافضا.. موثوقا اليه مأمونا، يملؤ القصر بالأمن والحماية.. فكان أول وصوله أن بادر للسلام على سماحة الزعيم وعلى القائد عبد القادر الحسيني، وكان الأول مقيما في قصره في ضاحية حلمية الزيتون: شارع الكمال أما الثاني فقد كان لا يزال مقيما في حي شبرا داخل القاهرة.

وقد شهد هذا العام أحد مهازل "جامعة الدول العربية" التي دأبت على القيام بها.. حتى في أيامنا المعاصرة في القرن الحادي والعشرين..!!

في حزيران/ يونيو عام ١٩٤٦ دعى الجنرال "كلايتون" - رئيس دائرة المخابرات العسكرية الانجليزية في الشرق الاوسط - الجامعة العربية الى الاجتماع في بلودان/ سوريا لتشكيل ممثلين للشعب الفلسطيني، وقد حضر كلايتون ذلك الاجتماع الذي تقرر فيه تشكيل لجنة من عدد من الفلسطينيين المرضى، والمرضى عنهم من الانجليز اولاً، ومن ملوك ورؤساء الدول العربية ثانياً..!

وفيما كان كلايتون وعملاؤه يعدون العدة لإعلان الأسماء، اذاعت الأنباء وصول المفتي الى العالم العربي..! فاضطر مجلس الجامعة الى الاخذ بمقترحات الأحزاب الفلسطينية والشعب الفلسطيني، فتشكلت "الهيئة العربية العليا لفلسطين".. ورئيسها سماحة الحاج امين الحسيني وانشأت مكاتبها في العواصم العربية.. وفي لندن.. وفي الامم المتحدة.. وفي كراتشي.. وانطلق الزعيم من خلال هذه المكاتب يعمل على اعداد الشعب الفلسطيني للجهد وعلى امداده بالسلاح.

سافر ابو عبدالله الى القاهرة دون الزوجة ودون الاولاد.. مما جعله يفكر في السنة الأولى من تواجده في مصر - بالزواج من احدى عرائس النيل، ولما لم يفعل ذلك فهو يرى ان اكثر من نصف الطاقم الذي يعمل مع افرادة في حماية امن القصر وسلامة اهله قد تزوجوا واستقرت احوالهم، وسعدوا بها مع الزوجات المصريات..!

وفي حديث طويل كان لي معه قال: "انا انسان عارف ببشريته.. لا أغتر بعصمتي.. وما نويت الزواج وطلبته الا طلب المزيد من عناية الله ورحمته وحياطته.. يعاونني على ما يعترضني من الاغراء ومن الفتنة العارمة..! ثم أردف: انا لا أزكي نفسي ولا انزهها وكثيرا ما كان حديث النفس

المنكر طويلا يدفعني الى المرأة بمقتضى الطبيعة البشرية للمخالطة.. ثم تسأل: من يثبت على العفة أمام دوافع الفتنة والاغراء..؟

وهو - على حد حديثه معي يوما - قد فتن بالمرأة المصرية، وقد وجد فيها الكثير من الجراءة.. مما يظن وجودها مقصورا على الرجل.. فالمصرية عندها.. فتنة طاغية واغراء لصيق جريء يبلغ دعوة المراودة.. امرأة مالكة لأمرها، لا تهتم لأية ولاية عليها خارج ولايتها هي على نفسها.. امرأة متهالكة على رجلها - تميل اليه وتصبو الى اللهو دائما معه.. تقدم حسا على انها انثى كاملة مستوفية لمقدرات الانثى.. تنظر اليك وكأنها تدعوك ان لم يكن بالتصريح.. فبالتمليح.. فيها فجور ناعم محبوب..

ابو عبدالله وهو في كهولته، كان مازال اهل وسامة وهيبة.. ورجولة لها جمالها الخاص.. تمثل في اكتمال الملامح الرجولية.. ومافيه من سمات الرجال، وبمثل هذه الاوصاف بهر النساء.

كن ثلاث نساء.. على وشك ان يرتبط ابو عبدالله بواحدة منهن.. أولاهن بل أهمهن وأعظمهن كانت عنده "امرأة الباشا".. وكما حدثنا: زوجها كان من أحفاد والي مصر أيام كليبر الفرنسي عام ١٨٠٠ م.. احد احفاد والي من ولاية مصر الأتراك "نصوح باشا" الذي كانت تنقلاته في "بليس، والخانكة، والمطرية التي تقع بجوارها ضاحية القصر الذي يقطن فيه المفتي.. تملك أرملتنا تلك فيلا كبيرة في ضاحية المطرية تحيط بالفيلات مئات من الفدادين كانت مزروعة - أيام الزيارة - بقصب

السكر وبالذرة الصفراء.. بدت من بعيد لنا ونحن نستطلع الافق من فوق سطح الفيلا، وكأنها وجه بحر تتناغم بلطف فيه أمواجه، عصر ذلك اليوم قبل المغيب.

كانت أرملة تشكو فقدان الرجل، تلبس الملابس السود مع أنه قد مضى حتى ذلك الوقت خمس سنوات على وفاته، أرملة ضخمة الجسم، تميل الى القصر، ضخمة في نعمة وعلى اعتدال، دون استرخاء في لحمها، فقد كانت تحافظ على مزاوله السباحة والرياضة حتى ركوب الخيل أيام زوجها.. على الاقل.. جاوزت الخمسين بقليل..!

أرملة لطيفة في ذاتها، حسنة الصفات، بشوشة، بسومة: بشوشة مع وقار، وبسومة مع احتشام: ذكية، لاذعة في تعليقاتها.. وفي انتقادها للناس.. عليها مسحة من جمال سابق، مقتنعة بها دون زينة.. لم تعد تهتم أن تلبس ثوبا حسنا او خاصا بمناسبة.. لا تزين جيدها بقلادة ولا أذناها بحلق..! النظر اليها يسرع الروع.. تغلب النساء بشخصيتها، وتبهر الرجال بهالتها..!

لها ابنتان حلوتان في مثل سنّ وَلَدَيَّ أبي عبدالله، خطيبتان لهما.. وزوجتان في المستقبل.. هكذا كان ما تضمنه الاتفاق بين امهما وبين ابي عبدالله.. وقد بدتا الابنتان الحلوتان في أحسن زي، واجمل لباس.

كان يشوب لسانها لكنة أعجمية.. تتحرى افعال الخير، وتكثر الصدقات. في صالونها الكبير، المؤثث ارفع انواع الاثاث والرياش.. صورة

كبيرة لزوجها بالألوان يظهر فيها بلباسه الرسمي الخاص بالباشوات في الاحتفالات، والنياشين تزين صدره والطربوش يكلل هامته، وتُثم صورته واقفا بكل قامته وأبهته على انه كان شديد القوة، كبير الشأن، رفيع المقام:

أصر أبو عبد الله بعد أن استقر وعائلته في القاهرة عام ١٩٤٧ على ان يقوم بتعريف تلك السيدة الفاضلة على افراد عائلته.. وخاصة وكانا قد اتفقا - بعد قناعة تامة من قبلهما - على أنه لا قسمة لهما في الزواج.. ولكن بشرط من قبلها عليه أن "تظل تزورنا، وتأتي الى بيتنا.. مرحبا بك كأخ يزور أخته".

وفعلا قامت العائلة بزيارتها مرتين. مرة بدعوة لتناول الغداء على مائدتها الخيرة ومرة أخرى في سهرة قضتها العائلة عندها.. وكانت الزيارة الثانية بعد ان جرى تحديد الملكية من قبل ثورة عبد الناصر.. ويقول الفتى: ولازلت حتى الان حتى صدور هذه الرواية اذكر بطيخا استمتعنا بأكله على مائدتها لم استمتع ببطيخ مثله من قبل او من بعد، كانوا يسمونه في مصر بطيخ "شليان بلاك": قشرته شديدة الخضرة وباطنه حمرة مبهجة صادق الحلاوة مع صلابة تامة..! وكثيرا ما كانت تردد على مسامعنا عند الانصراف من زيارتها لاتقطعوا عنا، عودوا الينا، وطالبونا بحوائجكم ولاتكتموها عنا". لقد اظهرت تلك المرأة الفاضلة من حسن خلقها وكرم نفسها مالا مزيد عليه .

والمرشحة الثانية كنت قد رأيته على البعد مرات ثلاث تسير في حوش بيت ذويها الواسع.. وفي سيرها تحبس أنوثتها في مشية عسكرية صارمة تعزف فيه لحنا يطيش لها صوابي وتشيح بأنفها في كبرياء وعجب.. "حميدة" وذلك كان اسمها لا تلتفت ابدا بينما الاخريات امثالها يتلفتن.. "حميدة" لا يستطيع انسان ان يثيرها والاخريات من في سنها القريب من العنوسة.. يتضحكن! تلقي التحية في نزق.. طويلة.. بل افراط طولها.. اخوتها من الرجال سبعة.. صعايدة طوال القامة، يدخل طول الواحد منهم في حد ما يُدْمُ من الطول.

اما الثالثة فقد كانت عروسا.. بنية صغيرة في منتصف عشرينياتها، حلوة العينين، جميلة الانف، مليحة الفم، وكمال حسننها في بياض بشرتها وفي شعرها الاشقر المرسل وراء ظهرها فوق كتفيها وحتى ردفها، في احدى زياراته لبيت امها انتظر قدومها طويلا انتظارا اضجره.. فخرج من البيت وعند بوابة الحوش الخارجية.. دخلت بتورتها التي بالكاد تغطي ساقها وهي فوق دراجتها الهوائية.. خرج ولم يعد !

فسوق الرجال.. وفساد السلاح

الحقيقة الأكثر وجعا من حقائق صراعنا الفلسطيني - العربي - اليهودي أن جميع المواقف والقرارات بما فيها تلك التي تخرج من غرف صنع القرارات الى تلك التي تبنتها أو اتخذتها فصائل الجهاد والحروب على المستويات الرسمية والشعبية أو الشخصية.. أصحاب تلك القرارات لم يحدث ان ناقشوا الصراع بعمق وجدية، فخدمت قراراتهم الدرامية والسياسية، والحافلة بالأخطاء الغبية، غزاة بلادنا فلسطين - خدمت يهود وقدمت لدعايتهم الأساس الأقوى في دعاياتها ضد العرب بنية حسنة ومبينة بليلى..!

كل تلك القرارات قدمت.. ولا تزال تقدم حتى هذه اللحظات الحبلية بالكوارث المصيرية - الدلائل التي تؤكد يوما عن يوم على تفاهة العقلية العربية، وتفاقم حمى السخرية منها.. مواقف دون تعقل أو حياء.. وقرارات بليدة.. لصراع مجيد..!

مواقف وقرارات تتراوح بين الفساد.. والفسوق.. والعمالة والخيانة ومغازلة الأعداء.. بل والوقوف معهم ضد أنفسهم وضد شعوبهم..!

في عام ما قبل الخروج المدمر للفلسطينيين من بلادهم.. عام ١٩٤٧ والفلسطينيون يبحثون عن المال والسلاح.. اتخذت الجامعة العربية ودولها

الرسمية قرارات بقبض ايديهم عن تقديم المال والسلاح للمجاهدين الفلسطينيين، ومنعت وصول التبرعات الشعبية في العالم العربي والعالم الاسلامي - الى الهيئة العربية العليا، بل واستولت على ثلاثة ملايين جنيه من التبرعات وحولتها الى صندوق الجامعة العربية.. وقد تزامنت تلك القرارات مع قرارات صدرت عن الهيئة العربية العليا ورئيسها الحاج محمد امين الحسيني بتكليف لجنة خاصة من الفلسطينيين لجمع السلاح او شرائه في مصر.. كانت تلك اللجنة برئاسة عبد القادر الحسيني القائد الشهيد ان شاء الله، ويساعدها المجاهدان صبحي الخضراء، وعبد الرحمن شحدة من قرية لفتا.

وبالفعل بدأت تلك اللجنة تجوب محافظات مصر لشراء السلاح واخذت الوفود تتوافد من فلسطين للتخطيط والتحضير واستلام السلاح.

أما نوعيات تلك الاسلحة فهي عديدة.. المانية، وايطالية، وانجليزية، وفرنسية بل ومن سائر جيوش الحلفاء.. كلهم دفتوها تحت رمال الصحراء، وعرينا تبحث عنها ويستخرجها الاعراب بعد اربعة اعوام من دفنها.. مهترئة.. فاسدة.. لا تصلح للاستعمال..!

لم تكن يوما اسلحة صالحة او نافعة او كافية، وان حدث فبلا ذخيرة..! قرار الزعيم.. وهيئته العسكرية غير المُحترَفة - كان "المهم ان نبدأ المعركة.. فالعون لا بد آت..!"

(٣)

أغبياء

ذات زيارة قام بها ابو عبدالله لابنائه في الخليج جرت معه المحاورة التالية:

الابن : سمعت من اكثر من طرف انك طلبت من الزعيم سلاحا ما يكفي ان تستعيد به بلدتك من يهود..؟

ابو عبدالله : (مقاطعا) ما كان في مقدور سماحته تلبية طلبي.. فصرفنا النظر عن ذلك.

الابن : الى أي مدى كان ايمانك بقدرتك على تحقيق ذلك لو امدك بما طلبته من السلاح، وخاصة انك تعرف الابعاد للفروق الشاسعة من استعداد يهود، ووفرة عدتهم وبين ما عندك.. وعند زعيمك.. بل وعند العرب والعربان..؟ واطنك توافقني ان يهود في عام ١٩٤٨ غيرهم في عام ١٩٢٩ وما تلاها..!

جربوا.. استوعبوا.. واعدوا.. بينما نحن لم نستوعب.. ولم نفهم.. ولم نعد لهم اي من رباط ولو حتى من رباط..!

ابو عبدالله : بعد المذبحة في دير ياسين، وسقوط بلدتنا ماعدت احسب حسابا للحياة فأصبح باطن الارض لأمثالي ممن عرف يهود

وعُرفت القصة حينذاك "بقضية الاسلحة الفاسدة" التي قتلت كثيرا من المجاهدين بدلا من الاعداء..! ولازلت اعيش كابوس مساء ذات يوم من عام ١٩٤٧ حين انفجرت عبوات من تلك الاسلحة الفاسدة، كانت محملة في شاحنة تمهيدا لنقلها الى فلسطين عبر سيناء مصر..! كانت تلك الشاحنة واقفة على بعد امتار من الفيلا التي كنا نقطنها في شارع الكمال قبال مكتب الهيئة العربية العليا والمجاورة لقصر الزعيم.. ضحية ذلك الانفجار ثلاثة شهداء ان شاء الله وسبعة جرحى..

وفي قصة اخرى، وقعت في شقتنا بشارع النواوي في حلمية الزيتون وبنفس الفترة: بينما كان احد سماسرة السلاح يجرب أمام أبي عبد الله احدي البنادق وهو جالس على المصطبة، انطلقت رصاصة كانت فيها دون ان يضغط الزناد.. فاستقرت في حائط الباب فوق رأس زوجه على بعد سنتيمترات بسيطة!

ومن ذكريات تلك الايام الدرامية المحزنة ان جميع الرجال، والحاشية المحيطة بالزعيم دون استثناء، قد اخذتهم حمى جمع السلاح وشرائه حتى ان ابن الزعيم، صلاح الدين ورفيقه الخاص الملازم له مجدي الجاعوني رئيس المجموعة، مجموعة امن الزعيم - قد تاجروا واشتروا وباعوا.. من تلك الاسلحة.

أشرف لنا من ظهرها.. لم تعد تقلبات الحياة وكوارثها لتؤذيني

بعد.. بدا لي ان كل ما في الحياة نفاق ووهم وفناء!!

الابن : وكأن بك تريد ان تفعل فعل البيك^١.. الانتحار في المعركة!

ابو عبدالله : (صمت)

الابن : قمت بزيارتك لبلدتك بعد اسبوع من سقوطها بأيدي يهود..! ما

معنى الزيارة؟! وانت تعرف ان يهود كانت لا تزال تتفقد وتقتل

كل من يصادفهم في طرق القرية من أهلها وغيرهم.

ابوعبدالله : العودة القصيرة الى بلدي حملت لي العزاء الثقيل، هناك

عشت ونمت وصحوت.. وبين صحوي ونومي عملت وعملت،

ورجوت واملت، وثانيا انت تعرفني: لا أخشى الموت، ولا اهرب

منه اذا حان.

الابن : قال لي اصدقائي من اهل بلدة دير ياسين ممن نجوا من المذبحة،

ومن اهلها الطيبين الشجعان وبعضهم يسكن بجوارنا على بعد

امتار من منزلنا في شارع تونس في منطقة حولي.. استطيع ان

اجمعك بهم ليحدثوك - قالوا لي: ان لجنة شراء السلاح التي

اختارتها حمائل بلدة دير ياسين للتوجه الى مصر لمقابلة الزعيم

ولشراء السلاح قالوا: ان اللجنة جاءت الى القصر وطلبوا مقابلة

الزعيم، جاءوا في ثلاثة ايام متتالية، وفي كل مرة يخبرهم

١ كانوا يطلقون على الشهيد عبد القادر لقب البيك.

الحارس ان سماحته ليس في القصر.. حتى كان اليوم الثالث وقد

كانوا ثلاثة من وجهاء القرية، فأنكر الحارس وجوده في

القصر! هل كنت انت ذلك الحارس؟!

ابو عبدالله : لا لم يحدث ذلك معي.. لان مناويتي في الحراسة كانت دائما

في الليل، لا في النهار، وعلى باب القصر الداخلي وليس امام

البوابة الرئيسية للقصر مع الجنود المصريين وضباطهم.

الابن : وعلى ذكر الضابط المصري، فانه اي الضابط قد لاحظ ذلك

باستكثار مقزز، فتدخل في الامر واخبر اعضاء اللجنة - غير

مبال - ان الحاج امين دائما موجود في قصره، وان عليهم ان

يدخلوا وفتح لهم البوابة، فدفعوا الحارس الى الشارع ودخلوا

المنزل، وكان الزعيم في صالون القصر جالسا مع اخرين..

اخبروه ان اليهود قد احتلوا قرية لفتا والان جاء دور قريتهم

"دير ياسين" واخبروه انهم جاءوا لشراء السلاح ولطلب المساعدة من

الهيئة العربية العليا ومنه ايضا.

واخبرني الصديق الاستاذ فؤاد سمور على لسان اللجنة التي سمع منها

وشهدوا على ذلك: ان المفتي نصحهم بشراء السلاح فورا والعودة

في الحال الى القرية واعداء لهم انه سيمدهم بالرجال والسلاح

بالطريقة التي يراها..

يقول الصديق وهو من الذين قد نجوا في الافلات من المذبحة ومن الذين قتلوا اثناء انسحابه تسعة من العدو يهود باخر قنبلتين كانتا معه..! يقول كان وعد المفتي وعد عرقوب، لم يرسل سلاحا.. ولم يرسل مقاتلين.. وكان ما كان.. سقطت القرية وسقطت فلسطين كلها..!

ابو عبدالله : الهيئة العربية العليا كانت مشلولة الحركة، مقيدة اليدين، عاجزة عن العمل والمساعدة وعن نجدة دير ياسين، لم تقدم المساعدة المطلوبة لعبد القادر الحسيني قبل عودته الى القسطل، ولم تقدم المساعدة المطلوبة لمن طلبها من اهالي القرى الذين وفدوا الى مصر لهذا القصد، لم يعط الزعيم المساعدة كما طلبتها منه عند سقوط البلدة، لقد كان عاجزا حقا.. بل ويعيش حياة شبه محاصرة ومراقبة على الدوام.. ليس من قبل الاحزاب الفلسطينية والمعارضة.. بل من قبل نظم الحكم في عالمنا العربي الهزيل..

الابن : (في مداخلة فجائية) في بداية عملي في حراسة الزعيم في مدينة القدس، كان المفتي قد وجه نظرك الى كيفية التعامل مع المراجعين الذين يطلبون مقابلته، اذكر انك قد قلت مرة ما مضمونه: اذا كان المراجع من سكان المدن ويلبس الزي الافرنجي فأدخله في الحال، اما اذا كان يلبس اللباس القروي

فلك ان تؤجله او تصرفه او تحوله الى السيد توفيق رأفت الحسيني مستشاره في شؤون الفلاحين!
ابو عبدالله : هذا صحيح.. فهو من اهل المدن يتولهم فهو منهم كما قلت: وله في ذلك رأي وسياسة.

الابن : لجنة شراء السلاح والمقاومة من دير ياسين كانوا من سراة القوم، اغنياء اصحاب كسارت ومقاولات وتجارة، يلبسون القمبار الروزة المصنوع من الحرير الصناعي الناعم الابيض والبيج والحطة الناعمة المصنوعة من قماش المسلمين فهم وجهاء حمائلهم، على مستوى من الثراء، ومع ذلك فهم فلاحون لا يليق ان يقابلهم سماحته! وعلى ذكر وجهاء البلدة هل تتذكر السيد محمد اسماعيل سمور؟

ابو عبدالله : مختار القرية.. نعم!

الابن : استنجد مع نسوة كثر من نساء بلدته.. استنجدوا بالمناضلين في الجهاد المقدس وفي منظمة النجادة وغيرهم، وكانوا متواجدين في قرية عين كارم على مقربة وعلى مسمع من دير ياسين.. استنجدوا بكل هؤلاء ولا حياة لمن تنادي، وصل الامر بأحد قادة الجهاد المقدس ان قال للمختار وقد ألح بطلب النجدة: فلتنقص دير ياسين من خارطة فلسطين!!

ابو عبدالله : لقد أعمى موت عبد القادر ابصارهم وطمس بصيرتهم ، حتى ان الهيئة العربية العليا آثرت تشييع جثمان انسان ميت على قرية تحترق بكامل اهلها!!

الابن : قال شهود عيان حضروا الجنازة أن الرصاص الذي اطلق اثناء تشييع جثمان الشهيد وعند دفنه كان كافيا لصد الهجوم عن دير ياسين.. بل يتعدى ذلك دون مبالغة الى احتلال القدس ومستعمراتها بأكملها!!

المؤرخ عارف العارف في كتابه "النكبة" الجزء الاول قال: كان المسلحون العرب يملؤون احياء القدس القديمة والشرقية وفي شوارعها ، في باب الساهرة ، ووادي الجوز والشيخ جراح على بعد ٢ كم من المذبحة.

ابو عبدالله : هكذا كان قدر القرية ، اهل دير ياسين ظلوا وحدهم في المعركة ، لم ينجدهم احد من العرب المسلحين.. خاضوا المعركة ببسالة منذ ساعات الفجر الاولى من يوم الجمعة ٩ نيسان/ ابريل عام ١٩٤٨ وحتى ساعات المساء الساعة الخامسة ، حتى نفذت ذخيرتهم استشهد من اهل القرية ٩٦ شهيدا وثلاثة اخرون من غير اهل القرية: معلمة المدرسة من القدس "حياة سالم بلاسة"، والفران وولده من مدينة الخليل "حسن الشريف وولده عبد الرؤوف" رحمهم الله. وحينذاك كانت البداية ولم تكن النهاية

عنها ببعيد.. البداية: سقوط دير ياسين.. والنهاية سقوط فلسطين.. والامة.. في..

الابن : في حرب بدت وكأنها بين ميليشيا يهودية وسبعة جيوش عربية!! ابو عبدالله : بل كانت حربا ويشهد على ذلك رب من كانت الحرب بينهم.. كانت حربا بين جيش يهودي بكل ما تعني كلمة جيش في قواميس الجيوش والحروب.. جيش منظم جدا ومسلح ومدعم جدا من جيش بريطانيا العظمى ، وبين شراذم من الجيوش العربية ، وفرق وقطع من جماعات قليلة من المقاتلين العرب غير مسلحة ، وغير مدربة ، وغير منظمة ، تفتقر للقيادة الموحدة..!

الابن : بل عدد المقاتلين العرب في جيوشهم وجماعاتهم في فلسطين ، لم يصل عدد قوات يهود حينذاك: لقد قرأت بعضا مما كتبه البروفيسور يهو شوع بن أرييه رئيس شعبة التاريخ في الجيش اليهودي في ستينيات القرن العشرين ما مفاده: ان عدد القوات العربية التي دخلت فلسطين بدءا من منتصف أيار/ مايو ١٩٤٨ وصل الى ٢٨ الفا من الجنود ، مقابل ٣٢ الف جندي يهودي.. وبعد خمسة شهور اي في تشرين أول/ اكتوبر عام ١٩٤٨ وصل عدد القوات العربية الى ٥٣ الف جندي مقابل ٩٥ الف جندي يهودي.

رغم انوفنا.. هم الاذكياء

منذ أواخر الثلاثينات من القرن العشرين لا يشهد العالم إلا استمرار الإبادة والذبح الجماعي عبر سلسلة طويلة من المذابح التي ارتكبتها يهود صندنا نحن الفلسطينيين في قرانا وفي مدننا..

تسير على نهج سياسة التدمير الشامل للوجود الفلسطيني بالهدم والمصادرة والتهويد والتهجير والاحتلال واقتراف الارهاب السري والرسمي على حد سواء.. واصلت أجهزة الارهاب الرسمية اليهودية معتلة بالجيش بجميع أطرافه وفرقه وميليشياته، وحرس الحدود، والمخابرات والمستوطنين والمستعربين.. اقتراف المذابح الجماعية على مدى السنوات الماضية من صراخنا مع القزاة يهود..

القريب.. ان العرب.. وحتى الفلسطينيين لا يتذكرون هذه المذابح أو على الأقل منكموا تذكرها.. يركزون فقط على الاحتفال الكتيب بمجزرة دير ياسين وكأن ما سبقها وما تبعها من أنجاز لا تعنيهم أمورها.. ترى هل المجزرة تمسخ المجزرة التي قبلها..؟

في هذه المرة لن اكرر ما كتبه الصنعاويون وما بثته أجهزة الاعلام عن مذبحه دير ياسين.. وسأكتفي فقط بتسجيل شهادات أدلى بها

مرتكبوا هذه الجريمة من يهود، شهادات أفاد بها القائمون والمنفذون لتلك المجزرة:

أولا : دانيال مالك جوان ومارك اليس صاحبا كتاب Remembering Deir Yassin قالوا: كانت مجزرة.. واتجرمون كانوا يدركون انهم يرتكبون مجزرة.. الى ان يقول مالك جوان ان المجزرة في نهاية الامر تعني قتل متعمد للمدنيين والأسرى وما وقع في دير ياسين ثم يكن حربا.. ولا معركة.. بل كان مجزرة بامتياز..

ويقول مالك جوان ايضا: فان دير ياسين عمل ارهابي جاءت في سياق بناء دولة يهودية ولذلك يتعمى عنها الغرب عن قصد.. وانكار المجزرة مسألة مستحيلة.. وهي مجزرة ليس بسبب الضحايا والوحشية التي قتلوا فيها بل لأنها شكلت بداية لاختلاء أكثر من اربعمئة قرية ومدينة فلسطينية من أهلها وطرد سبعمئة الف نسمة من سكانها الفلسطينيين العرب من أجل افساح المجال لضحايا الهلوكوست والمهاجرين يهود من بولندا ورومانيا وسلوفاكيا.. غيروا اسم القرية وسموها 'كفار شاول'، وتمت تسوية مقبرة القرية بالأرض.. فتمت إبادة دير ياسين من الخريطة بعدما وزعت أراضيها على مستوطنات جيغعات شاول، وهارثوف، وبيت هاكيرم، وبيت هيجان، وافنون..

ثانيا : وفي سياق البحث في مذبحه دير ياسين يطير مالك جوان في كانون أول/ ديسمبر عام ١٩٩٦ الى تل أبيب ليلتقي الحنا ماتير

باعيل" وهو مؤرخ عسكري وضابط كبير متقاعد عمل مع "الهجاناه"، وكان عشية المجزرة في دير ياسين، وشاهد جانبا منها.. هذه المقابلة تمت في منزل "باعيل" بحضور "عصام النشاشيبي" (مؤرخ فلسطيني واحد اعضاء منظمة ديرياسين في الذاكرة) يقول الجنرال "باعيل": المجزرة كانت مقررة منتصف ليلة الجمعة ولكن "الارجون وشستيرن" لم تكونا جاهزتين، لذلك بدأت المعركة قبيل الفجر بين الرابعة والخامسة صباحا، وشارك فيها نحو ١٣٠ عنصرا من عناصر هاتين المجموعتين: ٩٠٪ منهم اي ١١٧ عنصرا من الارجون تحت زعامة مناحيم بيغن حينذاك، ١٣ عنصرا من شستيرن التي كان يتزعمها اسحق شامير، لم تستخدم سماعات لتحذير الناس من المجزرة القادمة! وهاجموا القرية من الجنوب، وفشلوا في احتلالها مرتين، في الناحية الجنوبية من القرية قتلت العصاباتان ٢٥ شابا فلسطينيا من المدافعين عن قريتهم رميا بالرصاص، بعض الضحايا القيت جثثهم في الابار، وبعضهم كان محترقا، وكان من الصعب اعطاء رقم دقيق.

ولدى سؤاله عن كيفية دخوله القرية: اجاب "مائير باعيل" .. أنه دخلها مع مجموعة شستيرن دون أن تلاحظ المجموعة ذلك.. ثم يقول: "ولأنني كنت اعلم انهم يخططون لمجزرة، قررت ان اواصل مسيرتي معهم لأرى اداءهم العسكري، اذ لم يتحدث أحدهم عن الاعداد لمذبحة، ولكنني في

النهاية وجدت نفسي أشاهد مجزرة.. ويضيف "باعيل": لم تكن عناصر شستيرن وارجون تتقن فن القتال ولكنها كانت تتقن القتل!

ثالثا : عندما ذكر الكاتب اليهودي المعروف "هاري ليفين" هذا الحادث في كتابه Jerusalem Embolted القدس في المعركة، وصف مجزرة دير ياسين على لسان قائد البالمخ/ الهجاناه " ديفيد شالنتيل " الذي اشترك في المذبحة.. وصف المجزرة انها مجزرة غاية في التهلك والفضاعة..

رابعا : مندوب الصليب الاحمر الدولي "دي رينيه" زار قرية دير ياسين إثر وقوع المذبحة ورأى كل شيء بعينه.. اكتفى دي رينيه بالقول: ان عددا كبيرا من المدنيين غير المسلحين ومن كلا الجنسين ومن اعمار مختلفة (بين الخامسة والتسعين عاما والسنة والنصف والطفل ذي الشهور السبعة وخمسة وعشرون امرأة من الحوامل..) قد ذبحوا ذبح النعاج..!

خامسا : مناحيم بيغن قائد الارجون والذي أشرف على حملة دير ياسين "ان ما جرى في دير ياسين كان بموافقة جيش الهجاناه.. رغم استنكاره للمذبحة.. لم يكن ذبح القرية ضروريا فحسب.. بل لم يكن من الممكن ان تقوم اسرائيل بدونها..

سادسا : لقد بلغ من هول هذه الجريمة وفضائعها ان وقف المستر (كريتش جونز) وزير المستعمرات البريطانية ومجلس العموم قائلا: ان جميع الحقائق والمعلومات التي توفرت لدينا تثبت هذه الجريمة القاسية

النكراء، وانني لا استطيع سوى التعبير عن الكراهية والاحتقار اللذين تشعر بهما حكومة صاحب الجلالة الملك تجاه هذه الاعمال الوحشية التي هزت العالم جميعه واثارت شعور الاسف العميق والكراهية لمثل هذه التصرفات الوحشية.

مجزرة دير ياسين كانت ايذانا بتحقيق احلام يهود، صارت دولة الغزاة حقيقة.. توالى امامها هزائم العرب والمسلمين، وتوسعت الدولة وابتلعت فلسطين كاملة.. وامتدت دولة الغزاة يهود لتحتل الارض السورية واللبنانية والمصرية.. ولا تزال.. وكأننا قد فقدنا الذات.. والذاكرة.. والاحساس.. المثقفون.. والاعلام.. والمسؤولون لا يذكرون.. ولا يستذكرون ويلات المجازر وما تلاها من بلايا ومن فضائح.. وحزن وهلاك.. وعذاب! لا يستذكرون مذابح..

- مذبحة "بلدة الشيخ" في ١٩٤٨/١/١ وتقع جنوب شرق حيفا، ٢٠٠ مسلح يهودي قتلوا جميع سكان البلدة.
- مذبحة ناصر الدين قرب طبريا في ١٩٤٨/٤/١٣، دخل يهود القرية وهم يرتدون اللباس العربي وخرج سكان القرية يستقبلونهم بالترحاب والضيافة.. فذبحوهم عن بكرة أبيهم.

- مذبحة دير داراس شرق غزة، دخلت دبابات يهود القرية من جهاتها الاربعة فذبحوا جميع سكانها.

المناهج والكتب المدرسية والجامعات لا تشير لهذه المذابح وامثالها، ولا شيء منها في الذاكرة الشعبية والعقل الجمعي لأمة العريان..! بل قد لا يعرف أحفاد من قضوا في تلك المذابح، قد لا يعرفون كيف ذبح اباؤهم ورجالهم.. هل يعرفون كيف ربط يهود ٥٢ رجلا في قرية "صفصف" في الجليل.. بالحبال متتابعين، والقوا بهم في بئر القرية احياء..! بل هل سمع ابناؤها من الجيل المنغمس في اجواء اللهو والطرب والابهار وكرة القدم واللعب.. هل يعرف خريجو الجامعات كيف ان جيش الهاغاناه الذي يدعي نقاء سلاحه او جنود البالمخ.. ان جردوا عربيا من ملابسه في قرية "بيت جمال" قرب بيت شمس ووضعوه عند "عش الدبابير" وحتى ريفائيل ايتان رئيس الاركان لاحقا وصبايا البالمخ شاهدين حادث المدبرة ذاك! وبقيت الدبابير تلسع العربي حتى مات..!!!

هل يتذكر العرب عامة، والفلسطينيون خاصة، السادرون في غيهم ويعيشون تغيب حالة العداء مع عدونا يهود.. هل يتذكرون كيف ذبح الغزاة يهود ٢٣٠ قتيلا من اهالي الطنطورة في شهر ايار/ مايو ١٩٤٨ بعد ان حفروا قبورهم بأيديهم.. وبعدها وقعت في ١١ و ١٢ تموز/ يوليو ١٩٤٨ مذبحة ٥٠٠ عربي في يومين من اهالي مدينة اللد!

تتطلق هذه المجازر من مصادر ثلاث في نظر المؤرخين والمثقفين:

١- من التوراة التي حرقها يهود.

٢- من شعارات ومحفوظات وتخطيطات بروتوكولات حكمائهم.

٣- من وصايا الزعماء الاولين والآخرين.

ترى أبناء يهود جيلا بعد جيل، وحقبا.. حقبا على ما قرأوا ما يعرف من التوراة كيف ان يوشع بن نون قضى على مدن الممالك الفلسطينية غربي النهر وذبح اهلها من الرضيع الى الشيخ ومن انسانها الرجال والنساء في مختلف الاعمار والاحوال بحد السيف. تربي يهود على عقيدة التوراة ان الانسانية جزأين: الشعب اليهودي المختار والمميز عن كل الشعوب لمجرد اختياره من الله ليكون كذلك. ونقيض الشعب اليهودي هم جميع الامم. فلذلك يؤمنون بما قالته توراتهم المحرفة: حياتك تفني الامم.. ويقاد ملوكهم.. لان الامة والمملكة التي لا تخدمك تبعد.. وخرابا تخرب الامم.. ومن وصايا الزعماء الاولين وحتى الآخرين: انه ليس من طريق حياة يهود الا باقتراف المذابح والجرائم واعمال السلب والعدوان.. وبالاختراز من ان يقطع يهود عهدا مع سكان الارض!

يوصي "ليون تروتسكي" رفيق لينين (وعدو ستالين) في الثورة البلشفية.. وقد تقلد منصب وزير الدفاع في الدولة البلشفية.. هذا اليهودي حاول استغلال الثورة لتحقيق اهداف يهود في فلسطين على حساب الروس وحاول تمرير مشروع يقضي بضرورة ائتلاف كل كهل وشيخ ومشوه وعاجز لا يستطيع ان ينفع نفسه كما تتلف جميع الحشرات او الحيوانات

الضارة.. هذا المشروع طالب به تروتسكي ليصبح قانونا لابيادة اية مجموعة ستقف دون تنفيذ مشروع دولة الغزاة يهود في فلسطين.

ومن تلاميذ تروتسكي يخرج فلاديمير جابوننسكي قائد ومؤسس عصابة الارغون ومنفذ العدد الكبير من المذابح في الفلسطينيين.. هذا المجرم اليهودي يخرج بنظرية فلسفية محورة تقول "انا احارب اذن انا موجود"!!

الفلاسفة، والحاخامات يهود امثال مارتن بوير، يحزقيال كوفمان يدعون الى الابادة العنصرية والى طرد كل الفلسطينيين.. يدعون الى العرق اليهودي النقي تماما كما ادعت النازية عرقها الأنقى!!!

لقد نشرت قيادة المنطقة الوسطى للجيش اليهودي عام ١٩٧٢ كتيباً جاء فيه "أفضل غير اليهود.. اقلته.. وأفضل الافاعي انزع فمه". وجاء في الكتاب ايضا: "الثقة بعربي غير جائزة في اي ظرف، حتى ولو بدا متحضرا، ويجوز قتل حتى المدنيين الطيبين".

هذه النماذج وغيرها كثير، ماثلة وعلى الدوام في العقل اليهودي المستقر في الارض ابد الدهر، نماذج تبين لليهودي كينونة العلاقة الطبيعية بينه وبين الأغيار في الكون.. وتظل هذه النماذج تتوارث في العقل الجمعي اليهودي مع تركيب الدماغ، مسجلا فيه تجاربه الخطيرة والمؤثرة في حياته، يختزن في ذهنه منها ومن شتى الاطوار التي مر بها هو واجداده!

بعض هذا المخزون يعيش في دائرة الشعور من حيث هو يكون لحقائق قائمة بينما يظل الاكثر منه والاطهر في الاعماق محتفظا بكل ما وعته الانسانية منذ ما قبل العصر الحجري القديم ومن حين الى حين يندفع الى السطح بحيث يمكن ان يشاهد او يقرأ..

ومن يفهم كل ذلك يدرك ان المجزرة او المذبحة او الجريمة ركن اساسي ورئيسي في العقل الجمعي اليهودي يمارسه جنود يهود ومجنداته ورفاقهم من المدنيين ممارسة مروعة في الميدان على ارض فلسطين في طولها وعرضها.. في برها وجوها.. بل وفي لبنان ومصر وتونس والعراق..!

يا قومي..! ايها الفلسطينيون.. تذكروا قتلاكم في مجازر يهود.. يهود قامت وتقوم باحياء ذكرى "الهوكوست" في كل عام يحيون ذكرى موتاهم رغم ما في دعواهم بخصوص المحرقة من اكاذيب واباطيل ومبالغات واقاموا نصبا تذكاريها لها المعروف باسم "يادفاشيم"، والذين يزورون هذا النصب لا يدركون حتى الان انه في مواجهته تماما على بعد ١٥٠٠ ياردة فقط تقع قرية "ديرياسين" حيث المذبحة، مذبحة يهود الاسطورية ضد سكانها.

ايها الفلسطينيون تذكروا ثاراتكم واجمعوا المعلومات عن المذابح التي حصدتكم، ولا تزال تحصدكم ووثقوها وارخوها: في الشعر والقصة والرسم والنحت والمسارح والسينما..

واعلموا انه ليس لنا والله سوى بأسنا وقوتنا وليس لنا من غيرنا من بني جلدتنا وديننا سوى اسناد قلبي هزيل، وميل وجداني تافه كأصحابه، من مليارين من العرب والمسلمين.. الذين لن يطلقوا على يهود رصاصة واحدة بعد ان نسوا وتناسوا ان فلسطين كانت لهم دينا وعبادة وقرآنا يتلى ويتغنى بها.. وتناسوا القدس وحرمها. ولم يعودوا متشوقين لشد الرحال اليها..

اضاعوا الاندلس

واضاعوا فلسطين

والعراق اليوم يقاد للضياع.. وماذا بعد؟!!

كل ذلك بحضور عربي واسلامي مكثف، ومقرّر، الا لعنة الله والناس والتاريخ عليهم اجمعين..

(٥)

السقوط المذوي

هاجم رجال القرية "الفاستينية" المستعمرة اليهودية المواجهة لقريتهم في تحد مقيت - صباح اليوم الخامس من نيسان /ابريل ١٩٤٨م، وحدثنا الرجال ان سكان المستوطنة قد استشعروا بداية الهجوم، فبادروا بالاختباء.. والاختفاء من فوق أرض المستوطنة، وبدا الأمر وكأن الأرض قد انشقت وابتلعتهم! فقد كان يهود - وهكذا دأبهم ومدار عاداتهم - على نموذج من النظام والتنظيم في مستوى لم يصل اليه يوما عريان هذا الزمان: فقد كانت الملاجيء والمخابيء والانفاق جاهزة في كل المستوطنات التي اقاموها في بلادنا فلسطين! كانت جاهزة ومعدة للاستعمال على أحسن هيئاتها في ظروف المناوشات والحروب.

كان المهاجمون من رجال بلدة أبي عبد الله، مجموعة لا ضابط لها، ولا قائد، كل ما بيد الواحد منهم يخصه دون غيره! يحمل شيئاً يسميه سلاحاً وما هو ذاك! ولما لم يجد المهاجمون من يطلقون النار عليه.. أخذوا يعبثون في محتويات البيوت، ويعيثون فيها فساداً وخراباً.. حاولوا اشعال الحرائق في ارجاء المستوطنة.. لم يقتلوا احدا ولم يشعلوا حريقاً.. فانكفاً المهاجمون بعد ما حملوا معهم ما تفه من الاشياء وما حقر من المواد وكان الوقت، وقت تبلور الشمس في أفق الغروب..

وما كاد الفرار يصعدون طريق العقبة العليا الى ديارهم في بلدتهم، حتى صاروا الهدف الاسهل لرصاص يهود الذين خرجوا من ملاجئهم، وأصلوهم نارا حامية، جهنم وكأنها تفور من حولهم..! سقط منهم اثنان، احدهم اسلم الروح لساعته، والثاني أصيب بجراح بليغة بسبب رصاصات أطارت احداها قلب ساعة حائط على شكل منبه كان يتأبطها مع حزمة اخرى محمولة.. وظل يحملها.. اطارا فارغاً دون ان يشعر حتى وصل الدار.. توفي على اثرها بعد ايام قلائل، وهو فوق ظهر حمار ينزف اثناء مواصلة الخروج الكبير..!!

ومن المضحكات المبكيات: احد المهاجمين كان قد غنم علبه سردين حشرها في جيبه التي بفعل شظية صغيرة اصابتها اخذت معها بعيداً جزءاً من أليته! فعاش بألية ونصف يعاني منها الى ما بعد حدوث النكبة وتلتها النكسة..! وبعد تلك العملية الفاشلة التي بدا فيها وكأننا نهزل في الحرب هزلاً، ونلعب لعباً، دون اي جدية في اعتبار الخسائر قبل المكاسب وغير ذلك من نتائج في المدى القريب.. والبعيد..!

قرر يهود المستوطنة وغيرهم مهاجمة "الفاستينية": "قريتنا" وخاصة وقد استتب لهم احتلال القسطل يوم ١٩٤٨/٤/٩، واحتلال قرية دير ياسين في اليوم الواحد نفسه واعمال القتل والذبح في أهلها مما كان الاثر الطارد لجميع أهالي قرى بيت المقدس والجليل في شمال بلادنا فلسطين من قراهم ومن مدنهم.. وأهل قرية أبي عبد الله هجرها أهلها عن بكرة

أبيهم مثل باقي القرى التي وصل عددها في نهاية الأمر الى ٤٥٢ قرية ومدينة..!

فدخل رجال يهود بلدتنا يوم ١٠/٤/١٩٤٨.. لم يجدوا فيها أحدا.. ظل يهود يترددون على قريتنا في رحلات تفقدية ودون توقف، وفي كل زيارة كانوا يقتلون من اهلها من يعترض طريقهم في القرية.

ففي زيارة أو رحلة يوم ١٢/٤/١٩٤٨، وقد خلت الديار تماما من أهلها، فاجأ اليهود أحد رجال القرية عائدا اليها لاحضار بندقية تخص احد المتفذين في البلد كان قد تركها دون أن يفطن لها اثناء خروجه..!! وكان حظ العائد تعسا حيث قتله يهود في وسط القرية وبقيت جثته حيث قتل.

وفي اليوم التالي، في ١٣/٤/١٩٤٨ قتلت يهود في يوم تفقدها للقرية شقيقتين وقد بلغتا من الكبر عتيا، ضعف وشيخوخة وجنون عند احداهن، كل شيء فيهن قد أوشك على النهاية وسرعة الفراق. ومنذ ذلك الوقت من الزمان والقرية تشكو الهجرات والخواء من الناس والحيوان بعد أن تفرق اهلها، وذهبوا أيدي سبأ.. فتفرقوا في البلاد شذر مذر!

تفرقوا في ٢٧ قرية ومدينة في العالم العربي التعس وفي بلاد الغرب النحس! فذهبوا كل مذهب في المعاناة والمكابدة.. والعذاب!

جن جنون أبي عبدالله عند سقوط قريته "ال فلسطينية"، كان أمام حقيقة مرعبة حولته بركانا يقذف حمما حارقة، ويتوعد بالويل والثبور وعظائم الامور! يزمجر جوفه.. يظهر في صوته غلظ وقسوة، وجفاء وبيس، يردده في نحره ولا يفصح..!

حاول أفراد عائلته، حتى الزوار الذين صادف وجودهم وقَعَ الخبر عليه.. حاول الكل البعد عنه.. من يعرض نفسه لحرارة البراكين..!

ومما زاد من حجم الكارثة فوق كاهل أبي عبدالله هو قتل زوج ابنته الوسطى في الهجوم على المستوطنة الآنف الذكر. تلك الكارثة أثقلتته وغمّته.. فحزن حزنا شديدا، وكانت ابنته قد انجبت منه أربعة أطفال أكبرهم في السادسة حينذاك! والأكثر كارثية على أبي عبدالله أن ابنته الى جانب كل ذلك كانت مبدورة في شهرها الخامس!

استأذن ابو عبدالله سماحة الزعيم للسفر الى فلسطين ليرى يعينيه ويسمع بأذنيه دقائق الحقيقة المرعبة وتفاصيلها والمتعلقة بسقوط القسطل، ودير ياسين ومذبحتها واحتلال قريتنا "ال فلسطينية" - فأعطى الزعيم رجله اجازة شهر كامل.

فرافق قافلة للسلاح بقيادة زميله عبدالله سميرين من عين كارم، كانت تتجه من مصر عبر سيناء الى المجاهدين في فلسطين.

تدبر أبو عبدالله أمر ابنته وايتامها أولا. ويأمر من سماحة الحاج محمد أمين الحسيني الزعيم، ومن خلال رسالة خاصة من الهيئة العربية العليا في

مصر، الى السيدة "هند الحسيني" مؤسسة ومديرة دار الطفل العربي التي أسستها جمعية التضامن النسائي لأيتام "دير ياسين" من الاطفال في بداية الامر ليشمل بعد ذلك اطفال القرى والمدن الفلسطينية المجاورة لدير ياسين. قبلت السيدة الفاضلة ابناء ابنة ابي عبدالله الأربعة على الفور. كما آوت امهم معهم تعمل في مجال حماية وتربية أطفال الدار!

(٦)

خبية الامل.. يحملها لنا جمل

تسلل ابو عبدالله الى قريته "الفلسطينية" من جهة الشمال عن طريق قريتي الجيب وبيت سوريك، وعند قبة عبد العزيز في منطقة بيت مزّة والابار الرومانية. وقف وبدأ يتنشق الطبيعة: عباً رئتيه بهواء المنطقة وروائح مزروعاتها وأبخرة ابارها، حبس الرائحة في صدره، فبدأ جسده يعبق بالنشاط..

لم تكن السياسة العامة للغزاة يهود قد قامت لمحو بيوت القرية بعد، فبيوتها الحجرية القديمة لازالت قائمة، ولم تبدأ بعد بازالة وحجب وتبديل علامات سكان القرية.. فمصاطب جبالها وموارسها لازالت موجودة..

واشجار الفاكهة أكل من ثمارها.. بل لم تكن المستوطنة الجديدة في شمال بلدته موجودة ورغم ذلك فقد سار في طرقات بلدته وفي حاراتها في حركات محسوبة عليه، مقننة في شدة وفي قلق، تقوده رجلاه المثقلتان بذكريات الماضي القريب..! فماضي بلدته مترسب ومتكدس في جسده مع تصوراتهِ الذاتية الثابتة عنه.. أحس وهو يسير أنه قوة عارمة وانه بها يزاحم المشهد اليهودي الطاريء في "الفلسطينية": "قريته".

قام ابو عبدالله في أماكن متفرقة في قريته بممارسة طقوس أذكر منها على ضوء ماحدثني به، لما كان لايملك الوقت الكافي، ذهب من فوره الى حيث بيته، وقف أمام العلية.. عليه داره، ينظر من خلال النافذة، وقد طاح زجاجها، نظر الى الداخل ممسكا بقضبان الحماية.. رأى ما بدا له خيالات أولا.. كانت صورة للزعيم ومعه ولديه الصغيرين لا تزال مكانها على حائط الغرفة.. سحب نفسا عميقا.. وأخذ يبكي.. جسدت دموعه قصة المكان الذي أقامه وعاش فيه.. سالت دموعه.. وسأل نفسه: ما أقربني الان اليكي..! وما أبعدك عني..! يا للعبث ويا للغثيان..!

أخذ ابو عبدالله من خلال تلك الصورة يعيد بناء فلسطين وثوراتها الشعبية في عملية تذكّر تتداعى فيها التأملات والأفكار والمواقف، وتتبادل فيما بينها الشكوى والأنين، والصمت الحزين: شكوى وأنين وصمت الجروح وهي تقشر قروح الوجود والعدم..!!

فطن أبو عبد الله لنفسه.. ثم تنقل في وصف أشياء بيته وهو ينظر فيه..
الكراسي وخزائن الحائض، وأشياء مادية أخرى ظاهرة في الجزء العلوي
من تلك الخزائن وتشفها ألواح صغيرة من الزجاج.. رطوبة المكان..
حرارته، وبخوره، المزروعات حول أندار وفي كل مكان في
"الفلسطينية".. كل هذه الأشياء، وغيرها الكثير، حملت إلى أبي عبد الله
روائح عديدة لا حصر لها تقذت إلى مسامات جسده.. روائح تحمل على
ظهرها خيوطاً متشابكة من التدايعات التي تعطي في النهاية مخططاً
مجسماً لفلسطين كلها، نماذج في رائحة واحدة.. رائحة المكان رائحة
القرية.. بل رائحة الوطن كله.. رائحة فلسطين..!

وبرفقة قافلة السلاح عاد أبو عبد الله إلى القاهرة بعد أن أفرغت
حمولتها.. عاد مثقلاً بالذكريات، تركت فيه أثراً باقياً ما بقيت في أبي
عبد الله حياة.

وكان أبو عبد الله في قدومه إلى فلسطين وفي عودته منها إلى القاهرة..
كان على موعد مع دخول الجيوش العربية إلى فلسطين..

اصطفت الشعوب - ولا أقول الجماهير - تحيي الجيوش الزاحفة إلى
أرض فلسطين.. اصطفت في مختلف الأقطار العربية، تظهر فرحتها
بقدمهم، وتعتز بشجاعتهم وتبدي ابتهاجها بحماستهم.. فرح واعتزاز
وابتهاج، أحاسيس شريفة تختلط بالدموع والانشيد والتهافت في
الشوارع، على جوانب الطرق، في محطات السكك الحديدية، وعلى
أسطح المنازل، تزغرد النساء، ويصفق الرجال، يهللون ويكبرون: لا إله إلا
الله، الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. كل ذلك شاهده أبو عبد الله
وعاشه لحظة لحظة وهو يعود إلى القاهرة، وكان فرحه وهو فرح الشعب
الفلسطيني بأجمعه، أقوى وأشد وأعظم من كل فرح! وقد رد في حديثه
للذات: إن بلدته "الفلسطينية" سرعان ما تعود.. أبناء الأمة في جيوشها
سوف ينتقمون من يهود.. ويمحون العار! عار أحداث ما قبل دخول
الجيوش العربية، تلك الأحداث التي أدت الأمة بأسرها، وأدمت، أدمت
قلوب عظمائها.. وحقيقتها.. وخلق في نفوسهم من الجراح العvisية على
كل اندمال أو إصلاح أو علاج..!

أطلع أبو عبد الله سماحة الزعيم على الحال المائل على صعيد الواقع
الذي لا يسر إلا كل عميل! حال القرية "الفلسطينية" التي تشدب حظها
وحال القسطل، ومذابح دير ياسين، أطلعه على تفاصيل الخبيات التي
اجتاحت عقول الرجال، على الخور في نفوس النساء والأطفال والشيوخ اثر
مذابح دير ياسين.

ومع ذلك.. لم ينس أبو عبدالله أن يبدي بهجته بدخول الجيوش العربية فلسطين، ونشر له آماله القريبة لأبد وان تتحقق في القريب العاجل على أرض الواقع.. ولكن الزعيم كان في واد آخر.. يعرف حقيقة الحال.. وما سيؤول إليه المقال..

آه.. والى آه.. بل آهات وآهات تقدحها حسرات وحسرات.. لقد كانت جيوشنا العربية لا جيوش.. لا نظامية ولا تنظيم.. لا قيادة موحدة.. لا جنود مدربين.. لا أسلحة.. لا مدافع ثقيلة.. لا طائرات.. لا قادة يقودون.. وليس ثمة أركان حرب يخططون ويديرون دفعة القتال.. جيوش.. ستة جيوش عربية يهزمها جيش دولة وليدة منذ ساعات..!!

(٧)

العظماء

يقول الفتى: اصطحبني أبي في زيارته لثلاثة من عظماء الشعب الفلسطيني، كانوا في القاهرة.

كثيرة كانت تلك الزيارات.. غير أن القليل منها ظلت أحداثها تتوهج في الذاكرة، تتحدى السنين، اذكر منها: زيارة القائد عبد القادر

الحسيني، وزيارة القائد "إبراهيم ابودية". توجت تلك الزيارات بزيارة فاتح القدس الثالث: الفريق "عبدالله التل".

كان أبو عبدالله مع ابنائه صاحب نظرة خاصة في هذه الحياة: بل نحو الكون والاحياء والاشياء نظرة غير تلك التي خُلق عليها الآخرون.. في إحدى اجاباته السريعة على استئتي الكثيرة حول جدوى تلك الزيارات بالنسبة لفتى بالكاد قد تخطى عتبة السنة السادسة عشرة من عمره: "ان تحيا ذاكرتك.. ان تظل تتعيش فيك، وتحرضك -فيما بعد- على التعرف عليهم والاقتراء بأمثالهم.. ان تتعرف بالقادة العظماء الذين دشنوا بدايات الجهاد والنضال، وامترسوا في المعارك والقتال.. كابدوا مناخات نفسية واجتماعية ودولية قاتلة.. في عروبة نقية ووطنية راسخة واعية! ومن ثم تعرف كيف يكون الرجال..!

قمنا بزيارة القائد عبد القادر الحسيني في منزله بشارع المسيري "ضاحية حلمية الزيتون" اواخر مارس/ آذار عام ١٩٤٨م كان وقتها قد اصيب بوعكة صحية حبسته في المنزل اياما على اثر حمى داهمته..

كان وجودنا طارئاً واستثنائياً حينئذ هناك، نهتني ماهية الاشياء البسيطة والمحيطه بالقائد ببساطته وعلو همته.. مددت يدي بالتحية.. سلمت عليه جالسا ونائما: يعترض اعلى ظهره ورأسه مخدتين موازيتين لجدار السرير.. تكاثفت الحواس عندي تفكر في الموقف في محاوله لتستبين حديثه المتقطع.. فقد كان يدندن.. نغمات وشعرا.. كان يطنطن

أبياتا من الشعر.. وفي خضم المعرفة الاغنى والاشمل فيما بعد.. عرفت ان قائدا كان شاعرا.. يقول الشعر الحماسي في الشجاعة.. في عدم الاحجام عن افتتاح المعامل.. في الشرف وفي الصدق وحب الوطن والخلان.. وكتبوا عنه انه كان يردد قصيدة الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود: "سأحمل روعي على راحتي" وقد حملها على راحته في معركة القسطل.. ومضى البطل يثبات للملافاة ربه الحتمية التي تفررت في يوم الخميس من ايار/مايو ١٩٤٨م.

ويستمر الفتى في حديثه: كانت زيارتنا الثانية للقائد المجاهد ابراهيم ليودية اوائل حزيران/ يونيو ١٩٤٨ لأمر السرية الثالثة من سرايا "الجهاد المقدس" التي كانت ترابط في حي القطمون في القدس. (زواجه في سكن متواضع جدا لا يليق ولا يناسب...)

فقد اسكنته ائمة العربية العليا في احد ملاحق القصر الخاص بالمفتي الزعيم! احضروه من عيدان المعركة.. احضروه من معركة القطمون التي استشهد فيها من رجاله ٢٨٢ مقاتلا ولم يبق من مجموع عن صمد معه الا ١٧ مقاتلا.. كانت جراح القائد الشجاع بالغة جدا.. الى درجة انها شلت اعصابه.. فأبعدته عن المعارك!

قلنا: السلام عليكم.. فأوما -تأثما- بالحواجب، وزوجته ملازمة له وافقة بجوار سريره على هيئة المبادرة من قبلها لعمل شيء أو أي شيء بشير به زوجها..

انضمت الوالدة اليها.. وجلسنا أنا والوالد قبالة قدميه.. قال الوالد كلاما ناسب المقام وتحالف معه.. كنت في دقائق الفرصة المؤلة - احاول ان انتقط التفاصيل المتخفية وراء ملامح الوجوه.. اثار الرجل العظيم اهتماما خاصا في وجداني وأنا مثل قبالة قدميه.. احساس عالى جواني بذكرتي - حتى هذه اللحظات - بهويتي العميقة.. ومشاعر جمّة تبهني أن أبناء الشعب الفلسطيني.. موجودون.. بل اننا نعيش خيار الوجود.. وجوداً مميزاً كريماً.. وليس أي حياة.

أمامي نمط فلسطيني مميز، فلاح بسيط.. بسيط في كل شيء الا في ارادته وفي همته.. فلاح بسيط سطع نجمه فكان أحد قادة "جيش الجهاد المقدس الفلسطيني" وهو الآن طريق القراش ينقل من القاهرة الى بيروت للعلاج، وكما مضت قوافل أبطال الملاحم الفلسطينية من بعده.. مضى امامهم ثلثاء ربه في اليوم السادس من آذار/ مارس عام ١٩٥٢م.

يظنوا انما بزعمائهم وبأنظمة بلادهم التي كانت تتظاهر بنصرة القضية الفلسطينية وبتحرير أرضها.. وما زالت تتظاهر بذلك حتى أيامنا هذه..!!

(٨)

بالله قولوا بأجمعكم ياليت ما كان لم يكن

التم شمل العائلة في مصر بحضور ولده البكر من فلسطين، وكانت فرحة ابي عبدالله والاسرة بقدوم الولد فرحة عارمة، وقد سبقت تلك الفرحة فرحة بنجاته من موت محقق من قبل مصفحة يهودية تعرض لها في طريق باب الواد وهي متجهة الى تل أبيب..!

وتوجت الفرحتان بسرعة تعيينه موظفا في مكتب "الهيئة العربية العليا لفلسطين" بوظيفة طباع على الآلة الكاتبة.. فقد رأى سماحة الزعيم اكراما لأبي عبدالله، وتقديرا وعرفانا بجميله نحوه أن يعين ولده ضمن موظفيه.

ولكن مامن فرحة تدوم، ومامن مسرة قلب الا وتعقبها غمة تزيلها..! لم يمض سوى شهر واحد في الوظيفة حتى ساق له حظه العاثر أن يشارك ثلاثة من رفاق أبيه في جلسة عصرية قبالة القصر، يوم دار حديث الاربعة

وأتم الفتى حديثه: توجت الزيارتان السابقتان بزيارة ثالثة مميزة في اوائل ايلول/ سبتمبر ١٩٤٨، إذ صحبني الوالد فيها الى بيت أبرز قائد عربي اسلامي من الاردن - في الحرب الفلسطينية - العربية - اليهودية: آمر الكتيبة السادسة في الجيش الاردني، ايام كان الجيش تحت امرة الامبراطورية الانجليزية الاستعمارية ورببتها الصهيونية.. سمحت مصر للقائد المظفر البطل الفريق عبدالله التل باللجوء اليها لمدة ستة عشرة عاما، وشاءت الامور ان يسكن هذا القائد العظيم بجوار منزلنا في ضاحية حلمية الزيتون في شارع المسيري.. لا يبعد منزله عن منزلنا سوى اربعة بيوت بالتهويات المقررة لها..

رحب بنا وخصني بنظرة حانية، ماسكا بمعصمي ليجلسني بعد ان جلس الوالد - على يساره.. مبديا حيوية تتدفق في نقاء وصفاء وفي هالة من نور تتبعث من وجدانه، في داخله بهجة روحية ونفسية تطفو على قسماط وجهه، فيشدنا اليه في انبهار.

كان ذلك الرجل الفذ عظيما في ذاته الفريدة، كشف في حديثه أشياء من الخيانات العربية، مما دفعني فيما بعد البحث والدرس في كل ما يتعلق بتلك الخيانات التي وقفت على الكثير منها تملأ المجلدات والاسفار..! وهي لا تزال تترى.. وتتوالى.

كما تحدث عن الجنود في الجيوش العربية وعن روحهم القوية وعزمهم الأكيد على حرب ظنوا أنهم حتما سيحاربون فيها يهود.. دون أن

حول احداث الساعة: الحرب، المذابح، الهزائم، تحركات القادة والزعماء.. وحدث أن أدلى ولد عبدالله بكلام أصابت تحركات سماحة المفتي الزعيم بما يشبه التهجم المغلف بالتهكم.. تناول في كلامه ذاك سفريات الزعيم المكوكية الى العواصم الاسلامية والعربية التي لا تنتهي.. وضمن أقواله تلك بضرورة حضور الزعيم الى فلسطين وادارة الثورة من هناك.. وخاصة أنه لم يعد هناك ما يخشاه بعد خروج الانجليز منها..!

تقول كتب التاريخ وتقاريره أن المفتي الزعيم أراد أن يأتي الى فلسطين عندما غادر البريطانيون في ١٤ ايار/مايو ١٩٤٨ الا أن بعضا من الوزراء العرب نصحوه بأن لا يفعل ذلك خشية أن يغضب عمله الملك عبدالله فتتفرق كلمة الدول العربية، فنزل عند نصيحتهم، وبقي في مصر.

ولله وللتاريخ: فقد كان الناس حين حسّ العرب ايام سقوط القسطل وقائدها، وايام مذبحه دير ياسين، وما تلا ذلك من سقوط مدن وقرى فلسطينية في أيدي يهود - كان الناس يتحدثون عن الوضع بمرارة ويتساءلون.. أين الزعماء؟ أين القادة؟ أين الهيئة العربية العليا؟ ولماذا تقيم في مصر؟ وفلسطين بلادها في حاجة اليها؟ تلك هي التساؤلات التي تسمعها اينما حلت واينما سرت في تلك الايام.. لا في القدس وحدها، وانما في جميع انحاء فلسطين..! ولقد ردّد صدى تلك.. ابن ابي عبدالله في القاهرة..!

وأبو عبدالله لم يكن بين أقرانه يوما الا محسّدا، دون أن يجترم شرا ضدهم.. فأراد الثلاثة وهم محمد العجوري من قرية عجور، وطه رشيد من قرية شعفاط، وثالثهم محمد رضوان من سكان القدس. وثلاثتهم من أقوام حسّد - أن ينالوا من مكانة أبي عبدالله عند الزعيم في شخص ولده المسكين..! فقدموا عريضة كتبوا فيها ما دار في تلك الجلسة! وكان سماحة الزعيم في دمشق حينذاك.. فقدموها لسكرتير الهيئة العربية العليا "حيدر افندي الحسيني" زوج ابنته الكبرى، الذي سرعان ما استدعاه ليأمر بايقافه عن العمل.

لم يصدق أبو عبدالله أن يتصرف ولده ذلك التصرف "الاحمق"، كما فوجيء بكيد الرفاق..! ولكن خسارته في ولده كانت خسارة طامة.. غلبت على كل خسران لحق به من قبل ومن بعد، وكأن صاعقة صعقته، أو داهية كبسته بالخجل وبالحيرة، حتى التبس عليه أمره.. فلا درى المخرج منه..! كان أقصى ما يتمناه في رفقة الزعيم: النصفه وحسن الصحبة وتمام السمعة والشفافية فيما تبقى له من عمر معه..!

لذلك كله كان الموقف صعبا.. حادا.. ومتطرفا بين الاب والابن. كان الاب ينظر لولده في خصام شديد وقد أثقله الغضب، فأخذ يصب حممه عليه.. في خصام ليس هو بخصام الحائق.. ولكنه خصام الملاحق من ولده.. ينظر الى الابن وقد دخل بعضه في بعضه كفأر مبلول في ركن محصور..

لم يترك له من الشتيمة شيئاً.. يسأل الاب ولده بكل حدة: أيزهـب سوء يوم واحد من أيامك بصالح أيامي كلها.. ياخيبة الدهر فيك..!!

بالنسبة للابن "الضال" لم يدر بخلده يوماً أبعاد موقفه قبل وقوعه..! فقد كان غلاماً بين الطراوة والرخوة.. لا يكف خبز نفسه.. كان لا يزال فج المعرفة لم تتضجـه حرّها.. لم يكن قد استدل بعد على صوارد، ومواضيع، وموارد العلم والمعرفة والثقافة ومن ثمّ لا مخزون ثقافي أو معرفي له.. ولم يكن قد تشكل له أي وجدان ثقافي بعد.

ما كان يدرك انه يعزّ على وعي وفهم من هم في مثل سنّه ان يحيطوا أبعاد السياسة وخلفياتها..! بل لم يكن يدرك أن أقواله في سياسة الزعيم - حينذاك - لا فاعلية لها، لا تقدم ولا تؤخر في بث الحجاج والنقاش بين مجموعة لا تحظى بأي وعي اجتماعي جمعي عندها وليست مستعدة له وهي بعيدة عن وصاية سلطوية لها خصوصيتها عندها.

ولو تطرقنا لتطورات السجال في القضية وسلوكيات الزعماء والقادة ازاءها لعرف ابن عبد الله ومعه كثر وجماعات غفر من الناس انه لا خير كان يرجى من اولئك الزعماء، او من الهيئة العربية العليا حتى لو عادوا الى فلسطين..!

فان سوء تدبيرهم في ادارة القضية جعلتهم يقضون اكثر من ثلاثين عاماً في حروب عائلية ضروس، كما ان انانيتهم جعلتهم دوماً في تناوب حزبي طحون، طحن كل ما لقيه. رأوا الخطر اليهودي بأعينهم يكبر

ويكبر، وهم في صغارٍ وصغارٍ، لم يقدموا أي عمل جدي من أجل منعه ومن أجل صرفه عنهم.. لم يسلحوا الشعب ولم يدربوه على فنون القتال، ولم يتداركوا الامور بالتنظيم والتوفيق فتفرقت الصفوف.. ركنوا الى وحي الساعة والظروف.. اعتمدوا على الغيب، وكانت الفزعة عادتهم والارتجال دأبهم في معاركهم مع العدو. تتقصهم ثقافات الحروب والاعلام، وتجارب المبادرات والريادات والقيادات.

قد لا تتقصهم الوطنية والاخلاص، الا انهم ما كانوا يوماً على المستوى المطلوب للتعامل مع القضية التي كانت اكبر منهم.. ولا على كفاءة تتناسب مع مطالبها عصريا وعلميا..! فتركوا الشعب غنماً بلا راع..

بعد شهر واحد من الاحداث السابقة، أشهر المفتي حكومة عموم فلسطين في "غزة"، وما ان بدأ الزعيم تولى شؤون الكفاح واعادة تنظيم المجاهدين حتى استدعته - وعلى عجل السلطات المصرية الى القاهرة بحجة مقابلة ومحادثة رئيس وزراء العراق "مزامح الباجه جي"، ووزير الخارجية السورية "محسن البرازي" في شؤون هامة تخص القضية الفلسطينية! لكن سماحة الزعيم اعتذر عن السفر، وأوضح ضرورة بقائه في غزة لتنظيم أمر الجهاد، مما جعل رئيس الحكومة المصرية يزيد من ضغطه والحاحه على حضور الزعيم من غزة الى القاهرة حالاً.. ولما أعاد المفتي اعتذاره للمرة الثانية عن مغادرة غزة في تلك الفترة، أصدر القائد

العام للجيش المصري "حيدر باشا" أوامره للواء "حسين سري عامر" بأن
ينقل سماحته مغفورا في قافلة عسكرية..! فوصل القاهرة راغما مقهورا
في ٢٧/١٠/١٩٤٨..!

وبعد وصوله وضعوه تحت رقابة شديدة، وزيدت الحراسة على بيته في
ضاحية حلمية الزيتون وحيل بينه وبين العودة الى فلسطين.. وجمدوا عمل
ونشاط حكومة عموم فلسطين.. بل وبعد اتفاقات "رودس" مع يهود، منعوه
من تحقيق طلبه بالاقامة في منطقة غزة، ومنع هو كما منع أعضاء الهيئة
العربية العليا لفلسطين في البلاد العربية من زيارة مخيمات اللاجئين..
وعللوا ذلك بحجة ترداد عليهم بالخزي والعار.. أن الزيارة تذكرهم
بفلسطين.. وتستثير غضبهم.. وتلهب حماسهم..

(٩)

العشاء الأخير

منذ حادثة النميمة التي قدمها الوُشاة من حُسوة الرفاق ورُذالتهم - ضد
ولده - الى رئيس الهيئة العربية العليا ومن ثم طرد الشاب من وظيفته فيها..
منذ تلك الحادثة وابو عبدالله يعيش حياة الإرباك والإحراج، نَشَباً فيه ولم
يَكْد يتخلص منهما.. يراهم.. وفي كل مرة يراهم يمتلئ ضيقاً في صدره،
وغيظاً في أضلاعه.. وإحراجاً حين يقف لأمر من الأمور أمام الزعيم أو
يقابل أحداً من أهله وخاصته.. تساءل كثيراً وهو في وحل الحيرة : كيف
المخرج وكيف اصلاح الأمر الذي أفسدوه وقد كدّروا كل شيء في
حياته..؟ لابد من الإستقالة من العمل..!!

وبينما ابو عبدالله يعيش في الحيرة في أمره.. وقع -وبواسطة ولده أيضاً
- في قبضة نصاب مصري قام بتوظيف ولده في شركته الوهمية - التي
لم تكن ابداً - نظير دفع ضماناً مالياً كان يُعتبر في ذلك الوقت تحويشة
العمر لابي عبدالله.. وما فعل ذلك ابو عبدالله الا ليجعل من ولده شاباً
عاملاً منتجاً.. لا عاطلاً صايحاً.. المهم.. طارت تحويشة العمر وعاد الابن
ينتظر المصير دون متى..؟ ومن غير.. أين؟

والداهية التي قطعت صُلبَ ابي عبدالله، وكسرت فقار ظهره كانت
رسائل ابنته الأرملة اليه: فقد أصابت ابنته أزمة نفسية حادة.. أصابت منها

مقتلاً في مواجهتها لواقعها الفجائي الجديد.. تواصل بكاءها فيه، وتلطم وجهها.. تبكي حياة كانت قد تمنّت أن تمتلأ بالحلم والحب في ظلال الزوج الشاب الذي مات.. فأفقدتها موته أبعاد الحياة وبهاءها.. أفقدتها حياة مثلى تطلعت اليها.. أكثر عدلاً وجمالاً.. وإذا بها بدلاً من ذلك: قتل.. وموت.. وضياح.. وجراح غائرة.. في النفس والأحشاء.. مزقت حياتها بين الذات، والجماعات من الناس ممن يحيطون بها.. فاستحال الانسجام مع الجميع..! أوحّت اليها نفسها المنهارة، ومشاعرها المجروحة أنه قد تم التخلي عنها.. قد تم هجرها من قبل كل الأحبة.. ومن أهل العزوة والعُصبة!! والأحبة شطر النفس ونصفها.. فإذا ذهب، تداعى الشطر الثاني وآل للسقوط ومن ثم.. للفناء!

رسالة ابنته المؤرخة ب ١٩٤٩/٩/٢٢ هدّدت فيها بالانتحار.. ولكنها عادت بعد شهر في أواخر تشرين أول / أكتوبر ١٩٤٩ تخبر والدها أنها قد اجتازت محنتها النفسية.. وانها قد استسلمت للإرادة الإلهية فيما لا تقدر عليه ولا تستطيع تغييره.. وأدركنا نحن أن ما مرت به كان بالفعل إحباطاً نفسياً شديداً الوطأة عليها.. عطل انسجامها مع ذاتها.. ومع الآخرين.. مع كل من حولها.. بعيداً وقريباً.. ولكنها قاومت الموت.. قاومت فكرة الانتحار.. وهذه طبيعة المرأة، فهي أقوى من الرجل فيما يتعلق بقوة تعلقها وتشبّثها بالحياة، وهي دائماً أطول عمراً من الرجل كما بينت ذلك دراسات علمية نفسية أظهرت مؤخراً صدق هذه الفرضية!

ورغم عودة النفس.. نفس الابنة الى اترانها، الا أنها عادت في رسائل لاحقة ولدة ستة شهور لتزخر بالشكوى من كل شيء.. من صعوبة الحياة.. ومن رتابتها..! مما اضطر ابا عبدالله ان يتقدم بالاستقالة والعودة الى فلسطين.. وخاصة وقد بدأت زوجته - كإمرأة ملّاح - تديم الطلب عليه بالاستقالة على الفور، تلح دمعاً على زوجها، ملزمة له ومصرة عليه.. فلم يكن لها بعد كل تلك المحن.. إلا أن تعيش بين بناتها..!!

فكان العشاء الاخير في بيت الزعيم.. حضرها الزعيم في البداية مرحباً.. وشاركنا الجلوس على المائدة يتحدث بالوصايا وبحديث الوداع ونحن الاربعة نستمع اليه: ابو عبدالله وزوجته وكاتب هذه السطور واخوه الصغير ذي العشر سنوات.. حضر في المائدة - قبل مغادرة سماحته - توفيق رأفت الحسيني ابن شقيقة الزعيم الذي شاركنا العشاء.. وقبل مغادرة الزعيم سحب بيديه عباءته القيمة من وبر الجمال وألبسها لأبي عبد الله كهدية أخيرة..

وفي صبيحة اليوم الثاني للعشاء الاخير، سافر ابو عبدالله وزوجته وابنه الصغير على متن طائرة صغيرة لخمسة ركاب اردنية على حساب

١ بعد مغادرة أبي عبد الله أرض الكنانة بتسع سنوات. جاء دور سماحة الزعيم وقد غادر مصر في أواخر نوفمبر عام ١٩٥٩، أما قصة رحيل المفتي والهيئة العربية العليا من القاهرة إلى لبنان فيرويها الضابط الإسلامي أبو المكارم عبد الحي من الذين جاهدوا في فلسطين عام ١٩٤٨، وكان مركزه مدينة الخليل، وكانت صلته بالزعيم قوية ...

عندما خرج المفتي من القاهرة، لم يسمح له بأخذ أي شيء من أمتعته سوى جيبته وعمامته والملابس التي كان يلبسها ... ولم يكن معه من النقود ما يكفي لدفع ثمن تذاكر السفر له ولمرافقيه من أعضاء الهيئة العربية العليا، ويسجل أبو المكارم عبد الحي موقفاً كريماً لمدير البنك العربي بالقاهرة في تلك الأيام فيقول: عندما علم مدير البنك العربي بالأمر قام بإحضار تذاكر السفر لهم وأعطاهم رقم حساب في البنك العربي في بيروت وطلب منهم أن يتصلوا بالبنك حال وصولهم ...

الهيئة العربية العليا هبطت بهم في مطار قلنديا بالقرب من قرية الرام/
القدس في ١٩٥٠/٨/٣٠ وظل الولدان بأمر أبي عبدالله وتشجيعه.. في
مصر.. للعلم وطلبه..!

وكان المخطط الذي وضع للمفتي هو أن يعيش في لبنان في المخيمات كأي لاجئ فلسطيني دون النظر إلى أي اعتبار آخر ... !
والسبب في وقوف هذا الموقف المزري تجاه المفتي من قبل نظام عبد الناصر انه كان "هاجر شول" قد اتفق مع جمال عبد الناصر
على حل قضية فلسطين خلال عشر سنوات مقابل ثلاثة آلاف مليون دولار تأخذ مصر منها ألف مليون دولار، وتأخذ سوريا مثلها
ويوزع الباقي على لبنان والأردن، وكان هذا المبلغ بمثابة رشوة للدول العربية المضيفة للاجئين ... وكانت الهجمة المصرية الشرسة
ضد القيادة الفلسطينية لتنبهها الفلسطينيين الرأي العام العربي لخطر مشروع هاجر شول، وكانت الفضائح المجلجلة لعبد
الناصر ونظامه ... ! مما دعى ذلك النظام يحدد ويركز على المساعي للتخلص من المفتي وقيادته وإبعادهم عن ميدان القضية
والمجيء بزعامة جديدة تدور - وقد دارت - في فلك المتأمرين ... جاء أحمد الشقيري، ومن لف لفه في (٢٨ أيار ١٩٦٨) ممن
تعاونوا مع الانتداب البريطاني وممن باعوا الأرض والسماصرة ... ومن بعد الشقيري ... جاء ... وجاء ... حتى جاءت فاقة القضية ...
محمود عباس ... !!

الفصل السابع

(١)

أوطان.. وأعطان

كان لأبي عبدالله رجعة - وغير مقنعة - الى فلسطين . فلم تكن
عودته تلك الى قريته أو الى بيته: الى موطنه ومحل اقامته وميدان أحلامه..
لقد أوطنَ وطناً لم يكن من وطنه.. وطناً من أوطان اللاجئين، عديدة
الشكل والتشكيل.. وبدون كراء^٢.. أوطاناً كأوطان الغنم والبقر.. بل
كأعطان الإبل.. يفرون اليها.. فينزل الناس فيها بعضهم على بعض.. من
بين هذه الثزل وجد رجلنا فيها نُزلاً له.. في مستهل الأمر نزل في الحي
اليهودي في البلدة القديمة: في القدس الشريف. قبل به راغماً.. وشاكراً
صديقه "أبو ناجي" أحد المقربين من عائلة الحسيني في القدس في تلك
الايام.. وكان قد سعى له في الحصول على ذلك الثزل. نزل فيه وما يدري
ما هو فاعله في مقبل الايام، ومن غير ادراك ما الدنيا فاعلة به في
مستأنف الزمان..!

١ العطن للابل كالوطن للناس

٢ بدون أجرة

حارة اليهود أو حارة الشرف كما كان يطلق عليها حينذاك عبارة عن حي قديم يضم فيه ثلاثة وعشرين كنساً.. منها ما هو كبير ومتسع، وبعضها عبارة عن غرف صغيرة للصلاة.. لا قيمة تاريخية أو أثرية لها.. في إحدى تلك الغرف حطّ رجلنا متاعه القليل جداً. على مقربة منه وفي غرف مجاورة تسكن مجموعات من أهل بلدته: يعيشون فيها حياة ليس فيها سوى الفقر والذل والحرمان.. وظلم التاريخ والبشر.. وأحلامهم في العودة..!!

٩٠٪ من منازل الحي اليهودي من الاوقاف الذرية أصحابها ومُلاكها من عوائل القدس وغيرها من المدن الفلسطينية.. ثمانية وعشرون عائلة تمتلك الحي بأكمله، من تلك العائلات المالكة على سبيل المثال لا الحصر: آل الحسيني.. آل النشاشيبي.. آل النمر.. والجاعوني.. والخالدي.. والعلمي.. وقطينة.. والزحيمان.. وغيرهم.

ما بين فتح البطل العظيم عبدالله التل لمدينة القدس وعودة ابي عبدالله وسكنه فيها ما يقرب من ثلاث سنوات.. اثار الحرب لا زالت ماثلة العيان حاضرة على أرضها.. خراب.. ودمار وبقايا حرائق.. مدينة جُمّدت، وتوقف العمران فيها.. فلم تفكر عوائل الوقف الاسلامي صاحبة الارض وما عليها في حارة "الشرف" ان ترفع انقاضا لتقيم بناءً.. او تجدد نشاطاً فتخلق حياة جديدة في مدينة تاريخية هامة.. بل لم تفكر الأنظمة العربية - ولو

١ جمع كنيس وهو المكان الذي يتعبد فيه يهود

لخدمة غايات سياسية ضرورية في مستقبل القضية الفلسطينية - أن ترسل رسالة للعالم.. رسالة عملية تعلن تمسكها بالمدينة.. وقد كان فيها حتى ذلك الوقت اكثر من مائة وثلاثين الفا من المقدسيين الفلسطينيين..! كانت منظمة التحرير فيما بعد، وبعد أن أنشأت، تقدم منحاً مالية لمن تسعفه الوساطة النافذة من أجل ترميم او بناء منزل..!!

كان الأجر بالأنظمة العربية.. أو بمنظمة التحرير الفلسطينية خاصة أن تقيم أحياء جديدة في ضواحي المدينة، ترتبط مع القدس داخل السور وتلتحم مع الضفة الغربية.. كما فعلت يهود فيما بعد النكسة! ألم يكن من البديهي بناء عشرات الالاف من الشقق للاجئين في المخيمات ليكونوا للقدس جداراً بشرياً.. وعمرانيا قبالة التوسع اليهودي في أرضنا. والذي يعيش داخلها يلازمه إحساسُ المحاصر فيضيق بها كما يضيق الحبسُ بالمحبوس! هي مدينة خلقت للحصار.. فكم حصاراً عانت؟ وكم هدماً لحق بها وخراب دمر من قبل الجيوش الغازية التي نزلت بها عبر العصور؟ كم من الأقوام هاجروا منها واليها..؟ مدينتنا العتيقة هي حضن المآسي الانسانية بأجمعها.. مدينة تزدهر بالتراث الأصيل الماثل في اثارها: في سورها وفي حجارتها، في مداخلها ومخارجها وفي أبوابها. في احيائها.. في حاراتها.. وفي أزقتها.. في عقباتها، وفي ادراجها. في مقابرها.. في مدافنها.. في اقواسها وفي محطاتها، في اسواقها.. وفي حرفها التقليدية.. وتسمياتها.

بل في كل اسمائها الرامزة الى أمور في التاريخ عريقة. في مساجدها..
 وفي أروقتها.. ومتوضأتها.. وفي سُبُلها. في كنائسها واديرتها واعمدتها..
 وفي زواياها. في بيوتها.. وفي مشربياتها.. في زخارفها، وفي تشكيلاتنا.
 واخيرا وليس آخرا.. في قدسيته.. قداسة جرّت عليها الشقاء والرزايا
 والمحن..! اليسست هي.. حُضن التاريخ الانساني؟!

يسير المرء في طرقاتها ويبدو له الناس وكأنهم يعيشون في بركان من
 الاحتقانات.. كل من يراه يعتريه العبوس والتشاؤم، وكأنه لايعرف الفرح
 ولايتوقع الخير.. المثل الدارج فيها وحولها يقول عنها: مَيَّتْهَا^١ لم^٢، وعيشتها
 غم، وصُحِبَتْهَا اكثر من سنة ما يَتَمَّ^٣! فغادرها ابو عبدالله، وخرج منها
 الى الخارج.. الى خارج السور.. وترك القدس الشريف داخل السور وراءه..
 عاش فيها أربعة شهور..!!

١ ماؤما
 ٢ الجمع الكثير
 ٣ لا تستمر

(٢)

نُزُل جَدِيد

كان النزل الثاني لابي عبدالله في ظاهر القدس على بعد ٥٥٥ مترا
 من باب العامود من جهة الشمال.. قريبا من بقايا المدرسة الجراحية.. ومن
 مزار الشيخ جراح في الحي الذي يحمل اسمه.. في غرفة تلتصق بغرف
 اخرى. امام الغرفة، خارج الباب، بئر مملوء بالماء على الدوام، صيفا
 وشتاء، يشرب لاجئوا الحي منه وقتما شاءوا.. حسب نظام اتفقت نسوة
 الرجال والحي عليه.

كان عدد رجال الحي من اللاجئين سبعة ومن النسوة ثلاثة اضعاف
 هذا العدد.. من اولئك الرجال، واحد.. متمرد عاتي.. كان خبيثاً تتجمع
 الشياطين، ذكورها واناثها فيه..!

لا يرى لأحد عليه حقاً / يرفض النصيحة، ولا يستمع لموعظة.. يَفْجُرُ
 في القول والفعل! لغته كلمات خبيثات يقذف بها كل نساء الحي، لا فرق
 عنده بين امرأة متزوجة، او فاتنة عانس، او صبية تنتظر من يخطبها..
 ينعتهن كلهن بالفحش والفجور، إما بهتاناً وإما صدقاً..! يتحدث عن
 نفسه دائماً بأنه قد خَبَرَ فلانة، وقذفها بنفسه! مبدياً تباھيه بمعرفة
 أحوال كل امرأة في الحي..

حول البئر تلتقي النسوة يتبادلن الشكوى ضد فاجر الحي.. ويطرحن الآراء حول التخلص منه ولو بقتله.. حتى اشارت احدهن الى رجل الحي الجديد.. وقد عرفت طرفاً من سيرة حياته.. صارم القلب، جريء المقدّم.. يقصد العدو مباشرة.. من ابناء الموت!

اتجهت منهن سبعة يُمثلن نسوة الحي - الى ابي عبدالله.. اعتصمن واستجرن به من فسوق فاجر الحي.. وكان ابو عبدالله عند حسن ظنهن وعند إكبارهن له.. فكان هو فقط الذاب عن حرمتهم..

ذات يوم انفرد ابو عبدالله بالفاجر.. وحسب خطة كان قد وضعها مع رجال الحي، تجمعوا حولهما على حين غرة، بعضهم قيد يدي الداعر من الخلف واحدهم احاط عينيه بعصابة عمياء.. القوه أرضاً مكمم الفم لا يبدر بصوت.. كُسرت ساقه كسراً تاماً. ثم القوا به خارج المكان.. مثل كيس قمامة..!

نُقل الى المستشفى الفرنسي في المنطقة.. وفيه جرى كل مطلوب في محاولة لجبر الكسر.. وخرج من المستشفى ليظل يخب نصف عام على ساق واحدة حتى انجبر العظم الا قليلاً! وارسل المستشفى اشارة بالحادث الى مركز الشرطة في "وادي الجوز".. وحضر على الفور أحدهم ليختار ابا عبدالله لمرافقته لمركز الشرطة.

بدا الشرطي لابي عبدالله ولرجال الحي رجلاً حكيماً، هادئاً في حوارهم عند حضوره واثاء استجوابهم، وفي انتقائه لابي عبدالله

لمرافقته الى "نقطة البوليس".. وفي الطريق، كان الشرطي اكثر تحفظاً، وبدا وكأنه له عند المرافق غاية.. وجرى الحوار التالي - وقد قصّه كل منهما علي ذات يوم:

الشرطي : يا حاج! هل السيدة التي ساهمت في الحوار معنا وسط تجمع نساء الحي من حولنا وكانت مشاركتها بثقة واقتدار، ويضبط وربط وهي تُسكت هذا، وتوبخ ذاك من الرجال الذين لم يسعفهم فهم او حظ في اعطاء الاجابة المناسبة على بعض اسئلتنا.. هي هي ابنتكم؟!

أبو عبدالله : وبماذا تخدمك معرفة الجواب على سؤالك..؟!

الشرطي : (وقد ادركه الحرج) بالله عليك يا حج ان تحسن الظن في الله.. فلقد وقعت ابنتكم في نفسي اكثر المواقع شرفاً وبركة مما حفزني الى الاعجاب بها!.. اريدها على سنة الله ورسوله.. زوجة لي..

أبو عبدالله : (وقد الجمته المفاجأة.. وبعد لأي واحتباس افاق واجاب)

بماذا تهرف يا رجل؟ لا تهرف بما لا تعرف..! لا تتجاوز الحد في الاعجاب بما لا تعرف! وهل هذا - في الطريق - وقته..؟!

الشرطي : نعم انه وقته.. وما أجمله من وقت.. فالله يا حاج اعلم منا بمكنونات الايام وخبايا الاقدار..

أبو عبدالله : (وقد ابطأ سيرهما في الطريق) ابنتي ارملي فوق الثلاثين.. ام لخمسة أطفال من نزلأء مؤسسة "دار الطفل العربي".

الشرطي : ما زلت كما بدأت.. انا قابل بها.. اتشرف بمصاهرتك..
وعلى استعداد ان اصبح اباً لأطفالها..

ابو عبدالله : (مقاطعا) أَجَلْ هذا الامر الآن.. وعسى ان يُحدث لنا
مخرجاً مما نحن فيه، وعند ذلك يكون لكل حادث حديث.

وفي مركز الشرطة ابدى الرجل همة عالية تجاه ابي عبدالله.. فأوصى
زملاءه به خيراً في النظارة طيلة عشرة ساعات.. فأحاطوه بالرعاية
والاحترام.. وبالفاكهة، وكاسات الشاي.. وفناجين القهوة.. خرج بعد
التحقيق وقد تفرقت الجناية على مجموعة رجال الحي ولم يبق منها سوى
الحق العام.. حق الدولة.. فدفعوه نقوداً..!

وكان العريس الجديد لابنة ابي عبدالله شاب يخطو ببطيء الى بداية
الكهولة.. قوي، وسيم، ابيض باحمرار وشقار، طويل القامة فيه
شخصية تحببك فيها.. تبدو عليه علامات رغد العيش ورفاهته.. عاش
خمس عشرة سنة في احدى جزر الموز في امريكا اللاتينية وعاد بعدها
فاشلاً الا من اجادته اللغة الاسبانية مما أهله ان ينتقل الى العمل في
"الشرطة السياحية" مترجماً للسياح أصحاب اللغة.. امضى حياته مقامراً..
يُقمّر ابداً.. رجل قد تخلّع في القمار بغير تقييد ولا حد ولا...!!!

في عمق نفسيته التي اخذ منها القهر كل مأخذ كان ابو عبدالله
يستتكر بقاءه في ذلك الحي. فمنذ اول يوم نزل فيه وهو يرى "يهود" تقيم

مبان سكنية اشبه بالقلاع على طول المنطقة الحرام في الحي، بيوت
مصممة بشكل يجعلها متعددة الزوايا لإعاقة اي هجوم بالدبابات..!
يبنون شققاً تحتوي على فتحات مستطيلة من اجل الرماة.. وفوق كل
قهر وغلبة كان لا يمر يوماً دون ان يرى او يسمع سباب يهود وشتائمهم،
مقرونة بحركات من وحي الجنس الغليظ يقومون به أمام الناس..
ذكورهم واناثهم من عرب الحي.. دون حشمة تروعهم أو حياء يحجزهم..!
فقرر ابو عبد الله الانتقال.. الى..

(٣)

عَطَنُ.. جديد

كان النزل الثالث الذي أقام فيه ابو عبدالله بهوا واسعاً/ ممتداً
فسيحاً، قُطعت مصطبته المنبسطة بأروقة: جدران حجرية بغير نظام،
كأستار ترتفع حتى دون السقف من اسفل الى اعلى.. حجارة متعددة
الاشكال والحجوم والالوان.. كدستها ايدٌ غير محترفة، تاركة فضاء
يسبح فوق الأروقة والناس الذين فيه! بدو فيه كأحفاد الانسان الاول في
محاوي وحوشه/ ومغار بشره!!

تسمع في ذلك البهو جميع أصوات الانسان! الأصوات الخفيفة والأصوات الشديدة، أصواته في جميع حالاته.. تسمع صوت اعضائه وحركاتها، وصوت اشيائه.. تسمع شخير الفم، ونخير الانف، تسمع قرقرة امعائه، وإفاضة دُبره! تسمع انينه متوجعا، وهممته مهموما، تسمع حنينه حزينا، ورنينه مكروبا.. تسمع هذيان زوجين في مخالطتهما وعند البضاع.

كل ذلك.. فيما دون الهمس وفيما فوقه تسمعه راغباً أو كارهاً متقزراً، تسمعه في صدى الليل الساكن في الفضاء المفتوح وفي النهار المكشوف تسمع بقبة الجرة والكوز.. تسمع ازيز غليان الشاي، وغرغرة غليان القدر.. تسمع نشنشة المقل، وقرقرة ابريق الزيت.. تسمع اصواتا.. توحى بحكايات وحكايات تفضح وتهتك ما ورائها!!

كان ذلك العطن خارج السور، اقرب الى القدس العتيقة من ذاك الذي هجره. دله عليه احد سكانه.. رفيق من رفاق الجهاد ايام الفتوة والشباب في الثورات الفلسطينية العظام.. وكان يُعرف حين ذاك "بقاتل الكلاب والجواسيس" يقتل كلاب القرية قبل ان يقتل الجاسوس فيها.. لم يقتل أحداً..! وكان حينذاك يأتتمر بأمر ابي عبد الله..

الا أن الغربة الطاردة، والمعاناة الطويلة قد أوهت أسباب المودة بينهما حتى قتلتها..! كانت منطقة السكن الثالث تسمى "بوابة المندلبوم".

بوابة المندلبوم

هي بوابة الحزن الفلسطيني.. حزنهم الرديف لهم.. في ملاطمة لا تتوقف ابداً..

هي بوابة الدموع الغزيرة.. دموع الأليف وحنانه لرؤية أليفه..

هي بوابة اللقاء بينهم.. بين القادمين من الغرب.. من الناصرة.. من حيفا.. من ارض الجليل.. وبين القادمين من الشرق: من القدس الشرقية، من عمان.. من اوروبا.. من امريكا.. ومن كل بلاد الناس في الدنيا..

هي بوابة التفجع والأسى.. بوابة رحلات التعب والذل، والإجراءات الطويلة المتعبة: إجراءات يهودية لا حد لصرامتها، وإجراءات عربية أكثر صرامة أمام القادمين من الشرق أو من الغرب، تمارس عليهم بأعتى مستويات التخلف، ودرجات قصر النظر..

هي بوابة البكاء المكتوم حيث تحل الدموع محل الأصوات المحتبسة في الحلق أمام تراحم الكلمات في الحناجر.. فسكتت لتستبدلها بابتسامات باهتة لا معنى لها..

هي بوابة الحكايات العديدة: في النجاح والفشل.. في الحياة والموت.. في الزواج وفي الذرية، في الجذب أو ضيق ذات اليد، في الرزق الوفير، والكسب الوفير لهذا او لذاك..

هي بوابة خيبة الآمال في لقاء كان منظوراً لأحد قضى ومات.. لم يُسِغه عدل عدو.. ولا ظلم قريب في لقاء حبيب..!!

(٤)

No Arab's Land

المسافة بين باب العمود وبوابة المندلبوم - زمنيا - عشر دقائق
يخترق الزائر ساحة باب العمود - أمام القنصصة يهود في عمارة نوتردام
- فيسير في الشارع المتجه الى رام الله والى نابلس عند نهاية الساحة،
وعلى يمين الزائر تقع كلية شמידت الألمانية، وعلى يساره كراج حافلات
نابلس في "حي المصرة".. وامتار حتى يتفرع الشارع عند السفارة
البريطانية فيأخذ الزائر طريقه يساراً ليرى على البعد المنظر برج
المستشفى الايطالي العالي، حيث يُمارس منه القنصصة يهود اصطياد
الفلسطينيين.. صغيرا او كبيرا.. وعلى الدوام!

ويرى الزائر ايضا في نفس البعد والاتجاه مقام "سعد وسعيد"،
"كنيسة الكلدانيين" على يسار تلك المؤسسات كانت تقبع بوابة
المندلبوم غرب منطقة الشيخ جراح في القدس.

وهناك وعبر خط فاصل من الأسيجة والاسلاك الشائكة يمر بالبوابة..
قُسمت المدينة الى قسمين حسب اتفاق عُرف "باتفاق الهدنة" عام ١٩٤٩ بين
الاردن والغزة يهود: قسم يهودي ويشكل ٨٤٪ من المدينة، وقسم اردني
هزيل ويمثل ١١٪ من مساحة المدينة واما الباقي فيشكل ٥٪ من المدينة
"منطقة حرام" تحت سيطرة الامم المتحدة، أطلق عليها باللغة الانجليزية

هي بوابة خيبة الآمال الكبار.. فقد انتظرنا قدوم العرب من الشرق
ليفتحوا البوابة في طريقهم إلى الغرب كما عبر محمود درويش في شعره
عن تلك الخيبة! فقد فتحت البوابة - ذات صباح يوم في حزيران/ يوليو من
عام ١٩٦٧ - من الغرب ليدخل منها إلى الشرق أبناء عواهر التاريخ،
وأحفاد بناته، وسُرَّاق أمجادهم.. فجاسوا خلال الديار وطافوا الشوارع، التي
طالما شهدت احتفالات التاريخ على مر العصور.. فتتحول مدينة بيت
المقدس "من عاصمة الله على الأرض" إلى عاصمة أبغض خلقٍ إلى الله..
عاصمة دولة الغزاة يهود !!

واخيرا بوابة المندلبوم كانت مصدرا من مصادر الالهام للشعراء..
والوحي للادباء.. فلسطينيين.. وعالميين: فكانت قصة "عائد الى حيفا"،
وقصة "الافق وراء البوابة" للكاتب الشهيد "غسان كنفاني".

وكانت رواية "بوابة المندلبوم" للروائي "أميل حبيبي".. كما كانت
رواية "البوابة" للكاتبة الاميركية "ميريل سبارك".

لقد شكل الشعراء والادباء فيما نظموه وفيما كتبوه صورا درامية
واقعية تمثل مأساة شعبنا بكل ما فيها من صور الشروخ والانكسارات..
لقومنا.. لقوم حُزناء على الدوام.. لا يتحزّن احد بأمرهم.. ولا يبالي او يأبه
بهم!!!!

No Man's land .. وفي حرب الايام الستة، في حزيران/ يوليو عام ١٩٦٧م احتل الغزاة يهود كل بلادنا فلسطين من البحر الى النهر! كما احتل اضعاف مساحة فلسطين من الوطن العربي: من مصر.. ومن سوريا.. ومن لبنان! فأزال الغزاة يهود بوابة المندلبوم واثارها ازالة تامة، وأصبحت جزءا من الماضي الذي استمر ثمانية عشرة عاما.. ذاك الماضي لا يتذكره الان احد من أحفاد او ابناء اصحاب القضية..! منطقة بوابة المندلبوم تحولت الى ما يُعرف عند اليهود المغتصبين باسم: "Central Command Square منطقة الامر المركزي".

كان المنزل الجديد الذي آوى اليه ابو عبدالله وعائلته في منطقة المندلبوم في منزل يعود الى احد افراد عائلة "قطينة" من عوائل القدس الغنية والمعروفة. يقع السكن ذاك غرب السفارة البريطانية، بينهما فقط سور قائم، وخلف جمعية الشبان المسيحية، Y.M.C.A على طريق نابلس - رام الله - القدس. السفارة غرب الدار والجمعية شمالها، وبوابة المندلبوم ونقاط تركز الجيش شرق الدار. ومن الجنوب حي المصرة، وباب العمود. اعتاد الجنود العرب في ذهابهم وفي عودتهم من والى معسكرهم ان يمروا امام الدار.

في تلك الدار ازدادت طرائق التماس بين أبي عبدالله وبين الجيش، بينه وبينهم الشرطة.. بينه وبين بعض من أوباش الناس.. بينه وبين يهود.. بينه وبين مواقف وصور ما كانت لتقع الا بعد نكبتين فلسطينيتين طامتين..

لم يهرب ابو عبدالله من قدره المحتوم.. بل ظل على تماس تام معها.. لقيها بذاته.. ولمسها بيده، لازمها ولزمته التزام السائر والخط والطريق والهدف.

(٥)

أُم السِّنِّ

كان في البهو الكبير ست عائلات منكوبة، أصابتهم بلايا النكبتين مقتلا في نفوسهم وفي ابدانهم! من ضمن هذه العوائل الفلسطينية عائلة قوامها امرأة واحدة، لا يشاركها في ركنها في البهو الكبير رجل: زوجا او ابا او اخا.. خالا او عمالا لم يعرف لها اسم.. تزورها في أحياء متباعدة نسوة في مثل سنّها الخمسيني، ينادوها بلقب اطلقوه عليها "أم السن". لم يكن لها في فيها سوى سنّ واحد.. تجمعت في تلك المرأة سوداوية المآسي الفلسطينية بكل أعرافها وابعادها.. فشلت في ان تندمج في المجتمع الزائف في البهو الكبير.. فلم يكن لها هم او رغبة في اكتساب رضا اي مجموعة من الناس او قبولها.. تعيش في غربة تامة حتى عن النفس والذات. ومن ثم لم تعد قادرة على الانتماء الى الآخرين، تتعدم فيها الحتمية النفسية التي تجعلها مسؤولة عن تصرفاتها.. شخصية

شرسة، يصعب التعامل معها.. دائما تقع في مشاكل مع الناس، تعيش هذاء اضطهادهم لها.. كما كانت تتوهمهم! امرأة صؤول تثب على النساء وتضربهن.. تطردهن أينما جلسن او تجمعن.. تطلب منهن وبأوامر صارمة وبألفاظ مكشوفة.. لا يردعها خوف ولا يمنعها حياء.. معاقبة الرجال وهجرهم في فراشهم! لأنهم في عرفها أضاعوا فلسطين.. وأضاعوها..!

تسب الرجال وتسمعهم ما لا يليق من سقط الكلام، ومما لا يحتمل من رذيلة.. تسبهم في صفات يتميزون بها عن النساء!.. لا فرق عندها بين الرجل الصديق.. ورجل السوء.

فقدت أم السن سنّها الوحيدة عندما كسر لها أبو عبدالله في نوبة من نوبات غضبها وهياجها الشديدين.. فما أن رآته ذات ضحى حتى بادرت.. ودون مقدمات: "زلة! يا هلا.. والله وطز.. أجيت من عند المفتي.. والله والسبع كَشَلات.. شو سويتو مع اليهود؟ عبد القادر مات.. قتلوه.. انتحر.. وايش يعني.. متروح تنتحر انت وتموت..!!

فبادرها أبو عبدالله دون تريث او تفكير او دون اي اعتبار لكآبتها - بادرها بلطمة لم تعهد مثلها ابدا.. فصرخت.. وولولت.. واشتد صياحها وكأنها واعية تصرخ على ميت امامها..!

استدعت الصرخة حضور مسؤول النوبة في حراسة السفارة البريطانية القريبة من الدار، ولما ادرك ما ادركه حول الموقف.. بالأمر أشار الى ابي عبدالله قائلاً في انتهار وزجرة: قم.. هلم بنا يا رجل..!

ابو عبدالله: (في صوت محبوس) الى اين؟

العزيز: عندي، تنتظر في خشبية الحارس أمام باب السفارة حتى ينتهي الدوام.. ومن ثم اصحبك الى مركز الشرطة في "وادي الجوز".

ابو عبدالله: (في استكبار واستتكاف وامتناع) روح يا ولد! روح

العزيز: (مصدوما وقد فجئه استخفاف الرجل به) .. ولد..؟

ابو عبدالله: ولد، وحمار.. وما بتفهم.. تقعدني في التخشبية؟! انو انت..؟

(وهنا سحب الشرطي الاحمق مسدسه) فيسبقه ابو عبدالله بالكلام

ابو عبدالله: والله.. أحشيه لك في إسْكَ.. قلت لك: روح لن اذهب معك على اية حال..

وقد عاد العزيز الى رشده ووضع المسدس في جرابه، وبسرعة خاطفة كان قد لوى تماما يد ابي عبدالله لوية ألصقت صدره بصدر الشرطي مما سمح ليد ابي عبدالله الثانية وهي بتمام حريرتها أن تقبض على خناق الشرطي قبضة كادت ان تحبس انفاسه، مما اضطره الى ان يطلق يده ليصارع ابي عبدالله بيديه الاثنتين، لكن بعد فوات الاوان فقد انفرست اظفار ابي عبدالله وقد تحولت الى مخالب، انفرست في جلدة الرجل وفي

رقيبته.. وليت الامر توقف عند ذلك.. فقد وقعت خوذة الشرطي عن رأسه..

خوذة صلاح الدين الايوبي المدببة بما يشبه مانعة الصواعق..!

سقطت على الارض برموزها وبدلالات وضعها لها المجتمع ليكبل بها افكاره قبل اعضائه، والى جانب الخوذة وسقوطها سقط ايضا زرّ من القميص العسكري..

انتهى الصراع بينهما بمرور جنديين في طريقهما الى نقطتهم العسكرية المتمركزة في منطقة بوابة المندليوم.. أبعد الجنديان الرجلين وفرقاهما.. احد الجنديين زبون دائم، يزور ويجالس ابا عبدالله.. وقد اطلع على طرف من سيرته.. وكان أحد المترددين على دكانة صغيرة كانت لابى عبدالله في داخل الدار.. يشتري الشاي والقهوة والكاز واشياء اخرى..

وكان ذلك الجندي من الجيش ينتسب الى عشيرة من عشائر الاردن المشهورة في الجنوب: عشيرة الشتيوي..، ودارت المحادثة التالية بين الشتيوي وبين الشاويش (اسم عائلة العريف في نابلس)

الشتيوي : شو خلاك تشتبك معاه.. يا قرابة..؟

الشاويش : رفض ان يرافقني.. وقد لطم تلك المرأة وكسر سنّها..!

الشتيوي : انا عارفك بالسفارة، وليفش ما اتصلت بالمركز يبعث من

يأخذه..؟ ثم يتم حديثه:

ابو عبدالله هون عندنا.. روح اتصل ونحن ننتظر هنا معه حتى يأتي من يأخذه الى المركز وليس الى التخشيبية..!

أفاق الشاويش من سُكر السلطان وغلبته عليه، وغادر المكان تنفيذا لامر الشتيوي.. لم يدر في خلد العريف ان يكون غريمه شديد العريكة.. شديد الجراس ممن عركت الثورات العظيمة نفوسهم وجوانبهم.. وممن دلّكه الدهر ومارسه.. لم يكن قلب العريف دليلا له على ذلك الرجل المجهول الذي ابتلى به.. فلم يأخذ في الاعتبار ان كان من نظرائه او من انداده اولداته.. فالعريف بالكاد قد تجاوز العشرين بينما ابو عبدالله يدب في الثانية والستين من عمره، يحمل في نفسه كل ما يذكره بعراقه سيرته وقدمها، ويعرف تفاهة ما حوله في المجتمع الزائف والطارىء عليه.. فهو يبدو كاشرا.. ومقطبا دائما.. ومع ذلك عندما تجالسه وتتبادل الحديث والتواصل معه تجد معه بشرا وتَهْلأاً، وطلاقة واشراقه، وظرائفة، ودمائة، وبسطا وأنسا، وعقلا راجحا، وذكاء متقدما.. ولكنه يحسن ويسيء مثل غيره ممن ابتلى بالدنيا..!

وما هي الا دقائق حتى هرعت سيارة جيب صغيرة، فيها شرطيان.. صحبا ابا عبدالله الى مركز الشرطة في مركز وادي الجوز.. ومن ثم

أدخله على قائد المركز "سعادة الجلاد" الذي ما إن وقعت عليه عيناه حتى جحظتا..

سعادة : هو انت..؟

ابوعبدالله : بعينه.. يا باشا

سعادة : (وقد اشار الى كرسي امام مكتبه، وأمره بالجلوس) اجلس، وقصّ علي قصتك!

فسرد ابو عبدالله قصة حادثة ذلك اليوم من ألفها الى يائها على قائد المركز والذي بادره :

سعادة : مجنونتك "أم السن" ألقت بحجر ثقيل في البئر.. ستحتاج الى عديد من العقلاء لانتشاله من القليب.

وبالفعل فقد تضافرت جهود شبكة تامة من العقلاء، ومن أصحاب النفوذ في حلّ المشكلة وانهاء القضية ضمت الشبكة مجموعة عشائرية برئاسة مختار قرية "بيت سوريك" "محمد عطا الله" رحمه الله مع شلة من معاونيه من وجهاء عشائر معروفة.. يساعد هؤلاء واولئك مجموعة من الجنود، اصدقاء ابي عبدالله الجدد، وعلى رأسهم الجندي الشهم "الشتيوي" - وكثيرا حدث ان انفرد هو وزملاؤه بالعريف.. حتى اقنعوه

١ في الايام الاولى من قدوم ابي عبدالله من مصر الى القدس ظل يأمر من قائد الشرطة ظل يتردد على مركز الشرطة في وادي الجوز بالقدس يوميا . دارت فيها احاديث واحاديث بين ممثلي المركز وبين ابي عبدالله ، وفي نهاية الامر عُرض على ابي عبدالله العمل والتعاون معهم ، فلم يقبل بحجة بلوغه سن السبعين وتقل المهمة عليه في مثل من كان في عمره .

بالصلح وبمساندة "عزيز قوم.." غدرت به الايام.. وكان العريف كريم المحتد وعند حسن ظن زملائه به..

والى جانب من ذكرت من العقلاء: مجموعة متنفذة ساهمت في اصلاح ذات الشقاق بين آل الشاويش وبين ابي عبدالله ومن وكلهم من وجهاء العشائر الذين ذكرت.. من المجموعة المتنفذة المشار اليها كان المحامي الوزير "انور نسيبة"، والمحامي منظر حزب البعث العربي الاشتراكي "عبدالله نعواس"، ومعهم السيد صاحب الافضال الاستاذ "ليبب ناصر" رئيس جمعية الشبان المسيحية YM.C.A فرع القدس، وقد كان الفتى ولد "ماجد" حينذاك من موظفي مدارس الجمعية في عقبة جبر بأريحا.

تنازل ابن آل الشاويش عن حقوقه وسامح ابا عبدالله.. ولم يبق الا الحق العام.. فكانت غرامة مالية مقدرة.. دفعها ابو عبدالله تنفيذا لأمر القاضي.. الذي اصّر فيه على ان يعترف ابو عبدالله انه مذنّب في حق المجتمع والحكومة معا..!

(٦)

خليلان

أصبح الشتيوي أخص اصدقاء الشيخ ابي عبدالله.. صدقا في الحديث وفي المودة وفي النصيحة، وفي سدّ الحاجة.. خليلان يتبادلان أنقى حب وأصفى ودّ وأصحّ احترام.. هو شاب، من جنود الجيش العربي البُسل، قد بكَر فيه النمو، فنما جسده وعقله بسرعة فاق بها أمثاله من أترابه الذين ولدوا معه.. كان بالكاد قد درج خطواته الاولى في السنة العشرين من سنوات عمره الحافلة حتى اكتملت رجولته وأينعت الحكمة فيه. يستشير الشيخ، ويعرض عليه مشاكله.. لا يخفي خصوصياته عنه، يشكي همومه للشيخ ولزوجه العجوز ويعرضها عليهما، فلا يتوانيا عن النصح له او عن ارشاده.

تزوج الشاب مبكرا على طريقة التزويج في العشائر: زوجوه ابنة منتقاة له، ومفروضة عليه، كحاله عليها راغما.. فعاشا الاثنان، العروسان على مضض قاهر، تحت وطأة الوسواس والقلق والنكد..

كانت الشكوى امام الشيخ وعجوزه تنحصر في ان الزوجة، زوجة الشاب أنها ترفض فراشه باستمرار، مما يجعله في دوامة اغتصابها في كل مرة يطلبها!

أشارت زوجة الشيخ على الشاب بإحضار الزوجة اليها لعلها تهتدي بهديها فيستقيم امرها معه.

جاءت الزوجة على عجلة من أمر زوجها، وقضت يومين متتاليين في ضيافة الشيخ وزوجه وابنتهما.. بينما كان يتواجد الزوج الشاب في معسكره القريب من الدار.

الزوجة بنية، فتية، صغيرة، تكعب ثدياها حديثا على صفحة صدرها البلوري! ابنة توزعت معالم الحسن على اعضائها فجمعت الجمال في الانف، والحلاوة في العينين، والصباحة في الوجه، والملاحة في الفم، والرشاقة في القد، والطولة في الشعر.. يغشى كل ذلك كآبة وحزن..!! فتبت كل شجونها لعجوزة الشيخ ولابنته الكهله الارمل.. وفي حضن زوجة الشيخ بكت كل احزانها: شابة عازفة عن الزواج تتقبض من الرجال، لا شهوة لها فيهم.. تنفر من الجنس ومن مقدماته.. فرضوا عليها على حد شكواها - شاباً ذا شبق شديد، ورغبة عارمة نهمة لا تشبع من النكاح، يتجاوز كل قدر وكل حد في ذلك!

وفي حوار بين زوج الشيخ العجوز وبين الشاب قالت له ام عبدالله :

أم عبدالله : اسمع يا ولدي.. إن الحب من الله، والبغضة من الشيطان.. ابتعد عن الشيطان وابتعد عن البغضة.. كلامها يا ولدي.. يفرع.. وتطلب على الله وعليك وعلينا انك تسرحها لحال سبيلها.. ما حتلاقي منها حُسن عشرة ولا صحبة.. (ويتدخل ابو عبدالله في الحوار..)

ابو عبدالله : ابحت عن امرأة من بين النسوان، واحدة تميل لما تميل اليه.. غُلْمة مثلك من اشباهك، من اشكالك في الشهوة والعشق.. تلاقي فيها الملاءمة والموافقة.

انقضى عامان توارت فيهما قصة البُنية العزوف عن الرجال وشهواتهم بين طيات النسيان.. حتى كان ذات يوم مطير، زار فيه الشاب وزوجه عائلة الشيخ، زوجة تحمل طفلها الاول للشاب الزوج، زوج عين، واسعة العينين، في بياض ناصع وفي سواد حالك..!

سردت أم عبد الله على فتاها ذات يوم القصة كاملة، وختمتها بقولها: امرأة بحق.. انثى تامة: "عينها بيضة"!

واخيرا وقع الطائر على شكله !

(٧)

وحرب شَطُون^١

بوابة المندلبوم، بوابة الحكايات العديدة: ومن أهم هذه الحكايات خبر يتعلق بالاموات من جنود او من شباب الحرس الوطني الفلسطيني.. ومن جنود العدو يهود.. كانت جثثهم تَرْدُ عبر البوابة في شاحنات عسكرية تمهيدا لتسليمها الى اصحابها..!

اعتاد الشتيوي - في كل مرة تحضر فيها تلك الشاحنة - ان يصحبنا لالقاء نظرة على الجثث! جثث لشباب من الحرس الوطني الفلسطيني.. باغتتهم يهود عند خطوط التماس في الخطوط الامامية.. في الليل يفاجئونهم في خنادقهم المتقدمة جدا في مواجهة العدو بسلاح غير متكافئ تافه سلحتهم به الانظمة الاتفه! فيقتلونهم شر قتلة، وعلى ابشع مُثْلَة! بحيث يجعلون الشهيد منهم بحالة يخافها كل من يقع بصره عليه^٢ حشروه داخل كيس مربوط في أعلاه.. تتحسس الكيس فتعرف ان رأسه قد استؤصل والقى في قاع الكيس! بينما الكتفان عند فتحة.

لا شنوذ في ذلك من قبل يهود ولا غرابة! فاليهودي شديد الخوف من الشباب الفلسطيني قبل غيره من بني جنسه.. فالفلسطيني عنده كائن

١ عسرة وشديدة.

٢ قال صلى الله عليه وسلم: احفظوا الهوام قبل أن تخيفكم، واحملوها على ا لخوف منكم فيهود حملتا على الخوف منهم.. وكانهم قد قرأوا الحديث ووعوه وطبقوه على العرب !

مخيف، يجيئه الخطر القاتل من قبله.. يخافه بالذات دوماً، ولا يثق به ابداً: الخوف من الفلسطيني خوف لاشعوري في اليهودي، مصاب بمرض فوبيا الفلسطيني: "falastini phobia" وفي ذلك يقول مثلهم: "لا تؤمن لابن الفلسطيني لو كائله ميت ٤٠ سنة".

"Ain Amona Legoo yeem Ailo Falastinyeem shanaihbe caiber".

ذات مرة.. رافقنا الشتيوي لنرى اربعة جثث لجنود من يهود، هاجموا موقعا عربيا في قرية فلسطينية من قرى الخطوط الامامية، وكان من سوء حظ اولئك الجنود الاربعة ان فاجأهم جنود من الجيش العربي المعسكر في تلك المنطقة.. تلك الفجائية ظلت مرتسمة واضحة للعيان في خروج مُقلّة عين أحدهم من حجاجها.. فظل وجه ذلك الجندي التعيس جاحظ العينين!.. أما الجندي الثاني فقد رسمت المفاجئة على صفحة وجه صورة كثيبة وهو يرى السلاح الابيض يبعج بطنه، فيخرج لسانه من الشفة، ويظل متدلّيا خارج فمه بعد موت صاحبه! لقد بدا اللسان طويلا في الانسان على غير ما نعهده!

كانت جراح الجندي الثالث من يهود لا تزال يندى الدم منها.. أما الأخير فقد رأيناه مدقوق الرأس من ناحية ومسحوقا.. قد تم سحقها تماما من الجهة الاخرى..! دُوساً بالأقدام.

في تلك المواقف لم يكن باستطاعة الشتيوي أن يقنع ابا عبدالله بالاكْتفاء بالبقاء نظرات.. فلا ينصرف الا بعد أن يسحبه بذراعه عنوة..

والغريب في أمر رجلنا - على حد قول صديقه الشتيوي - أنه في كل مرة كان يرى فيها قتلى يهود وعلى تلك الاحوال، كان يعود الى منزله وقد اكتمل حيوية ونشاطا، افاضاً في نفسيته رضا وبهجة.. كان يردد قولاً - في امنية ودعاء - عند رؤيته لجثة يهودي.. "ليتني كنت قاتلك"! أما انا فقد كنت في حزن من نوع يوصل للكآبة.. فقد اكتفتني الهموم، وشمّلني الوجوم.. سكّيت عن الكلام وعلى غيظ.. واجما.. عابسا.. مطرقا.. تنازعني الفكر مما اقض مضجعي وأطال ليلي..! مواقف كرهتها، وتمنيت ان لم تكن!.. فمن أين لي ثبُتُ جنان او صرامة قلب او جرأة في الصدر..!

(٨)

أخو غمرات.. علواً.. وشرفاً

وعبر بوابة المندلبوم كانت قافلة عسكرية يهودية^١ تدخل من الغرب الى الشرق: من فلسطين المحتلة الى فلسطين رهن الاحتلال القريب.. تضم القافلة تسع عربات نقل، ثنتان منها مصفحتان.. في داخلها عدد كبير من جنود البالمخ/ الهاغاناه، مع الذخائر ومواد التحصين.. كانت القافلة تستتر بستار التموين والارزاق والمواد الطبية، تنقلها عبر البوابة الى جنودها المحاصرين في مستشفى هداساه وفي الجامعة العبرية.

ذلك الحصار العربي كان حصاراً مثقوباً، حصاراً سوريا بسبب تلك القافلة.. تتطلق القافلة من الغرب الى الشرق متخطية محطات المراقبة والتفتيش والجمارك عند البوابة.. تمر بالسفارة البريطانية لتعطف عندها يسارا متجهة الى الشمال في شارع رام الله/ نابلس مارة بين بناية جمعية الشبان المسيحية وملاعبها.. حتى تمر بين قاعدة الكولونية الامريكية على يمينها وحي الشيخ جراح على يسارها..

١ وذلك حسب اتفاق عسكري ثبت في اتفاقية الهدنة في نيسان عام ١٩٤٩ بين الجيش العربي وجيش يهود وقع عليه ممثلاً عن القوة النازمة: قوة يهود القائد اليهودي "شالتايل" وعن الجانب العربي القائد العسكري البريطاني "تورمان لاش" ومعه قنصل بلجيكا في فلسطين والوسيط الدولي "الكونت فولك برنادوت". قبل الاتفاقية كان في الحصنين في المستشفى وفي الجامعة، ٤٠٠ محارب يجري تبديلهم وتجديد ذخائرهم.. عبر تلك القافلة كل خمسة عشرة يوماً.

لترتفع القافلة الى كرم المفتي في طريقها الى قرية العيسوية ومن هناك كانت تسير متخطية وادي الجثث في وادي الجوز لتسير في حي القنصليات وفنادق الدرجة الاولى ذات النجوم الخمس، والمستشفى الفرنسي لتنتهي الى جبل المشارف حيث يوجد الحصنان كل ذلك في حماية تامة من قبل الجيش العربي في القدس، وحراسة آمنة من قبل قوات الامم المتحدة.. وهكذا كان - ولا يزال - دأب العرب: ان يحملوا السيوف: سيوف اعدائهم لقطع رؤوسهم..! انها ثقافة من ثقافات الناس.. والله في خلقه شؤون..!!

اعتاد ابو عبدالله ان ينتظر موعد مرور القافلة اليهودية كل اسبوعين.. في وقت ابدأ لا يزيغ! ينتظرها تحت شجرة معمرة من اشجار الشارع الرئيسي العتيد، القريب من سكنه.. يراقبها وهي تمر رتلاً، يتفرسها عربة عربية.. مذهولاً.. مشدوها، وكأن به مسأ في اول الامر.. ومن ثم تفيض نفسه بالألم والقهر، والتسلط والصغار والكآبة والحزن!

ذات يوم من ايام القافلة، اثناء انتظاره لمرورها.. رأى صديقه الشتيوي مقبلاً، فبادره ابو عبدالله بأحسن لقاء وأطيب تحية، فحضنه ومن ثم تأبط ذراعه وسار به تجاه باب الساهرة القريب.. وقال له وكأنه يهمس اليه همساً:

ابو عبدالله : هيا بنا يا محمد! الى مقبرة الساهرة، نقرأ الفاتحة على
أرواح المجاهدين الذين اشتركوا في فتح القدس في الفتحين العمري
والصلاحى.

الشتيوي : انه لأمر آخر ايها الشيخ! ما الذي تقصد اليه.. لا بد انه هم
كبير يهرسك هرسا؟

ابو عبدالله : اي والله يا ولدي! ولا من يخفف علي من وطأته سواي
الشتيوي : لعله خيرا.. انا منصت اليك.. (وهنا وصلا المقبرة ودلفا الى
مكان يعرفانه).

ابو عبدالله : ظلم.. وظلم وبينهما ظلم! ظلم عدونا لنا، وظلم صديقنا،
وظلم البعيد وظلم القريب.. ظلم من قوفه ظلم، ومن تحته ظلم.. يغلي جوفه
منها شهرا وجورا.. لا بُرِّي له ولا ندمال كالجرح الفاجر في الروح.
الشتيوي : على رسلك.. تمهل!.. لأفهم ما تريد..

ابو عبدالله : ظلم عائلي، ظلم قومي، ظلم أممي.. ظلم عالمي ضد كل
ما هو فلسطيني! هل الفلسطينيين تشاز في هذا الكون؟ قل لي يا محمد!
الشتيوي : ايها الشيخ، الظلم الذي اشربت.. الف سبب له عندهم.. وثق
طريق له عندنا! انت وانا لا ندرك عنها الا القليل.. ولكن.. (وقد تذكر
شيئا) قل لي.. لم نقرأ بعد الفاتحة انتي جنبنا من اجلها..!

ابو عبدالله : (..وقد تغافل القول).. القافلة يا شتيوي!

الشتيوي : وحادا عنها..؟

ابو عبدالله : قافلة اليوم.. بل وكل يوم.. قافلة يهود العسكرية تمر
تحت حراستنا.. تمر امام عيوننا.. لتقتلنا في الوقت القادم لا محالة..

الشتيوي : (محتارا اي سؤال يطرح على خليله الشيخ.. و.. ما..
ذا..) (يقاطعه ابو عبدالله عنهما حديثه)

ابو عبدالله : يجب تدميرها.. عملية من اجل تحطيمها نفسا وقتلا..
عملية نخطط لها انا وانت..

الشتيوي : (مقاطعا) ويلي منك ايها الشيخ.. أصمت، فإن للحجارة..
لحجارة القبور آذان.. ولنموتى آذان.. نسمعنا..

ابو عبدالله : تحت حجارة المقبرة.. او خارج اسوارها.. سيان.. فهم صم
بكم عمي فهم لا يعقلون.. (يقاطعه الشتيوي)

الشتيوي : اصرف النظر عما تمكر فيه.. لا تعود اليه.. واستحلفك
بالله أن تخبرني إن قد سبق وتحدثت به لغيري.. قل لي..! قل لي يا عماد..
والله: الذباب الأزرق لن يعرف مكاننا.. ان كنت قد فعلت..!

ابو عبدالله : الله اكبر.. (ومصدوما).. انما أردت سرخة نهدم هذا
السكون الاكبر، ورمادة تكسر هذا الصمت الرهيب..

الشتيوي : ايها الشيخ الوقور.. اعرف والله ايمانك بحقك.. وأعرف
جبرتك فيه وصرامة قلبك في سبيله.. وما تحطيه الان كبير.. كبير.. هو
من الامور العالية تسير به الى الشرف والشهادة.. ولكن..

ابو عبدالله : (مقاطعا غاضبا) بدون لكن هذه.. لقد روضوكم..
والله.. ترويض الكلاب والغنم والفئران.. نزعوا ألسنتكم حتى لا
تتكلّموا.. وفقّثوا عيونكم حتى لا تروا.. وعطلوا عقولكم حتى لا
تفكروا!! فأصبحتم أنعاما.. بل أكثر دونية وضلالة!
(فأدار الشيخ ظهره للشتيوي.. وانصرف لا يلوي على شيء).

(٩)

أنحني إجلالا.. لأقبل يديك

دأبت يهود على ترويع العرب وغرس الفزع في نفوسهم.. في كل
أوقاتهم، وعلى امتداد لحظات عمرهم في وطنهم، في الليل والنهار.. في أي
ساعة شاءوا.. وما زال ذلك ديدنهم وشأنهم مع الفلسطينيين حتى اليوم!
يصلون عليهم نيرانهم من أوكار تنازل العرب لهم عنها، ومن حصون
أخذوها منهم عن قهر خاطر.. منها واصلت يهود محاصرة العرب خارج
الأسوار ودخلها..!

فجأة وفي كل مرة وعلى حين غرة تبدأ زخات الرصاص، ودفعات
الرميات اليهودية تنطلق من عمارة "النوتردام"، ومن عمارة "المؤقت" ومن
برج المستشفى الإيطالي وكلها مواقع استراتيجية محصنة وعالية في غرب
القدس لتسقط في وادي الجوز من أطراف القدس خارج السور. كما تقوم

بقنص القادمين والرائحين داخل السور، في كل أحياء البلدة القديمة من
القدس الشريف.

وتقوم يهود بأكثر من ذلك من الحصنين المنيعين في الشرق.. في شرق
بيت المقدس من مستشفى هدسا، ومن الجامعة العبرية.. تستهدف القرى
العربية: الطور وسلوان.. وأبو ديس من الجنوب.. وأحياء الشيخ جراح
وشعفاط والطريق الرئيسي إلى رام الله.. فيبدو الأمر وكأن جهنم قد
نقلت إلى مساح الدنيا..

ما تكاد تقع الواقعة، حتى يأمر المسؤولون العسكريون الأهالي
بالإخلاء: بترك الدور والأشياء والاحتفاء داخل الأسوار.. حتى توقف اليهود
ملهاتها..!

رأيت الناس وهم يهرولون.. يسارعون في دفع شديد كسوق الأبل
والأغنام إلى محشرها! هذا يسوق ذاك، وبعض يدفع بعضا في الطريق
المكشوفة أو عبر قنوات للسير متوارين فيه بجدر أو بحيطان أو
استحكامات عسكرية في تقاطعات كثيرة في دروب الهروب الكبير
داخل الأسوار وخارجها.. فارين منهزمين حتى نخاعات أشواكهم.. وقد
استطير لبهم روعاً، وكأن زلزالاً عنيفاً بين يدي الساعة قد ضربهم.. فزاد
في الهول على خيال كل هارب منهم.. يوم عصيب.. لا يتصور لهوله!

لا تجد أحداً من الرجال قد تخلف عن تنفيذ أمر العسكر بالإخلاء!
ولكن كان للموقف مع أبي عبد الله شأن آخر.. فهو لا يحب فرار

(١)

الى اين تذهب.. وتلوذ وترحل.. ١٩

زفّ الشتيوي ذات قَعْدَة مع ابي عبد الله خبرا عن ضباط الفرقة العسكرية في البوابة، خبرا مفاده الرحيل.. رحيل مكروور.. لجميع العوائل النازلة بعضها على بعض في نزل "قطينه" وقد طلب ذلك أمر الفرقة في الجيش هناك، كونها منطقة عسكرية خاصة.. ووافق طلب القائد العسكري هوى في نفوس قناصل وسفراء الدول الغربية وخاصة ممثلي الدول الكبار التي كانت سفارتهم تقع في منطقة البوابة: السفارة البريطانية والسفارة الامريكية والفرنسية..

موقف سفراء الدول الغربية وممثليها ليس بجديد في هذا الامر.. وقد حدث من قبل ومن بعد..: حدث انه طلب المندوب السامي البريطاني - قبل انسحاب قوات الانتداب من فلسطين - الاجتماع مع وجهاء القرى الفلسطينية في منطقة الخليل في بيته - وعندما تفقد الحاضرين، لم يشاهد وجيه قرية الدوايمه^١ المختار. فسأل عنه وانتظره حتى حضر..

١ شاركت قرية الدوايمه (٢٤ كم غرب حبال الخليل) في فعاليات الثورات الفلسطينية في ثلاثينيات القرن العشرين. ومنها أن قاموا بخطف مسؤول بريطاني يدعى مستر لوبي. فدعا المندوب السامي البريطاني لذلك الاجتماع. ولم يمض وقت طويل حتى حدثت مذبحة الدوايمه في ٢٩/١٠/١٩٤٦ عقب صلاة الجمعة فقتلوا فيها في المرحلة الاولى ١٠٠ شخص بينهم النساء والأطفال في البيوت والشوارع، وفي المرحلة الثانية في الساعة العاشرة والنصف قبيل صلاة الجمعة دخلوا المسجد واطلقوا النار على كل من كان فيه وأغلبهم من الشيوخ والمسنين، وفي المرحلة الثالثة اكتشف الجنود اليهود القتل كنهفًا تختبئ فيه ٢٥ عائلة مذعورة..

الرجال، وكان يسميهم "قلول حروب" من شرار الرجال ومن جفاة النساء.. يرفض مغادرة الدار، فيظل فيها وحيدا، دون رجالات الحي.. تكرر هذا الامر من قبله، حتى وصل خبره الى مسؤول العسكر في منطقة البوابة، فاستدعاه.. تحاورا وتحاورا، فأمر في الحال - وقد تيقن فيه نوعا آخر.. فريدا من الرجال بتسليمه بندقية مع ذخيرتها في كل مرة كأمانة مستعادة عند توقف النيران!

كان الشتيوي الصديق.. بأمر قائده يقوم بتسليمها لابي عبد الله، فيظل معها رابضا هناك.. متمنيا في داخل فكره ووجدانه لو يسمح له بالاقتراب اكثر واكثر من وكر الضبع..!!

وعندما حضر المختار، مختار الدوايمه، جلس على مقعد المندوب السامي! اندهش المندوب من تصرف المختار! وطلب من المترجم ان يقول له: " ألا يوجد سوى هذا المقعد لتجلس عليه"، فرد عليه قائلا: "انت لم تقبل ان اجلس على كرسيك ساعة.. فكيف تريد لاسرائيل ان تأخذ كل شئ؟!" سفراء الدول الثلاث تريد ترحيل العوائل الفلسطينية المنكوبة عن البوابة.. حيث لا مجال لهم ان يساكنوهم او يجاوروهم او يجالسوهم! اولئك السفلة الاوغاد من سفراء الغرب مجرمون، ملطخة أيديهم كما أيدي يهود بالدم الفلسطيني!

كان لمطرانية الكنيسة في القدس مساهمات انشائية استيطانية جديدة للاجيء القرى الأمامية، وكان من مشاريعها التي قامت على تنفيذها: مشروع القرى الثلاث: قرية القسطل، وقرية صوبا، وقرية دير أبان.. أسمت المطرانية مشروعها باسم "قرية البستان" أقامته على كتل جبلية ثلاث، تسودها الصخور وتكثر فيها الحجارة.. متجاورة في تجمعات سكانية لاهالي تلك القرى في بيوت مستقلة ومنتشرة فوق فمم التلال الثلاث..

وسط جلبة الحياة وضجيجها وسرعة تقلباتها وتحولاتها.. أثار ابو عبد الله اسئلة كثيرة، نثرها حوله، على من يلقي السمع ويشاهد..

خرجت العائلات بأمر يهودي من الكهف.. اختار يهود من بينها فتيات ثلاث يرودنهم.. وسافوا الباقيين إلى قرب بئر وحصدوهم بالرمصاص وألقوا بهم فيه..!! وذكرت صحيفة حدشوت اليهودية في ١٩٨٤/٨/٢٤ أن ضحايا مذبحه الدوايمه كانوا ٣٢٢، ذبحوا في مذبحه أشد هولاً من مذابح دير ياسين وأبو شوشة.. وبدم بارد!!!

الى اين نذهب.. ونلوذ.. ونرحل..!٩

هل التقل والرحيل من صلب عناصرنا وخلايانا.. هل هو في عمق تكويننا! وان كان ذلك كذلك.. هل ألأنا أعراب أو بدو.. أم ان هذا الابتلاء المصيري المكرور وليد النكبات والويلات التي حلت بنا..!٩
أم أن الامر هو هذا وذاك حتى اختلطا معا فتتاغما فاستمرأ الواحد منا الرحيل عقب الرحيل.. طائعا أو كارها..!٩
كلاهما رحيل.. وتغرب.. وابتعاد عن الوطن الاصيل!
ليكون له على مر الايام هو الوطن البديل..!٩

قامت المطرانية ببناء تلك القرى "الجديدة القديمة" فوق أرض تعود في ملكيتها للأديرة والكنائس شرق قرية العيزرية - قرية اليعازر الذي أحياء الله بعد أن أماته مع حمارة مائة عام - والتي تبعد عن القدس مسافة ٤ كيلو مترات شرقا على الطريق الرئيسي القدس - اريحا. أراضي تغطيها اشجار الزيتون، والحبوب الموسمية، والأشجار المثمرة.

أختير لابي عبد الله بيتا على قمة ربوة، يعلوها منتصبا في رفعة وفي اشراق، وفي جودة نبت وشجر وهواء، على رقعة أرض تبلغ مساحتها اربعمائة مترا مربعا، على شكل حبله تحوطها جدر من الحجارة الكبيرة.. تمتد بعدها حبلات في انحدار شديد نحو واد متخف في القاع.. في قاع أراضي قرية "أبو ديس" في حدودها الشمالية. وقد حظي أبو عبد

الحركة.. بركة

كان أبو عبد الله يؤمن في قرارة نفسه أن الحركة بركة.. وأن الخمول أول درجات الهوان والخساسة، وضياح المنزلة والشرف، شأن أسافل الناس وسقاطهم.. فاتفق ذات إجازة صيفية عاد فيها ولده من الخليج بسيارته الجديدة، أن يصحبه في كل إجازة في جولة استذكارية في ربوع ما تبقى من بلادنا.. من فلسطين قبل نكبة حزيران عام ١٩٦٧.

كانت الرحلة الأولى في حزيران/ يونيو عام ١٩٦٣. خرجنا من "البستان" صبيحة ذلك اليوم في سيارتنا عبر الشارع الرئيسي أريحا - القدس.. ومررنا بقرى العيزرية، ومن فوقها وبمحاذاتها بقرية الطور حيث كنيسة "أحد الشعانين" المقامة بين أشجار الصنوبر على صفحة ذلك الجبل.. وعلى امتداده يتصل بجبل الزيتون.. الجبل الذي شهد - وسوف يشهد - تحطم كل جيوش الغزاة التي غزت بلادنا فلسطين. وفوق جبل الزيتون ترى الكنائس والمساجد مقامة في انتشار جميل بين الأشجار الباسقة المعمرة على صفحته.

وفي صعودنا عقبة باب المغاربة على يسارنا انعطفت السيارة بنا غرباً أمام أبواب القدس القديمة: باب الساهرة، وباب العمود.. اتجهنا شمال القدس في الطريق الرئيسي: القدس - رام الله لنمر أولاً ببوابة المندلبوم

الله بالبيت الجديد عن طريق أناس متنفذين في جمعية الشبان المسيحية حيث كان يعمل أحد أبنائه مدرسا في مدارسها في عقبة جبر في أريحا.. كانت دارة أبي عبد الله تتوسط دور أهل القسطل من عوائل "مطر وامطير" في موقع جميل يشار إليه.. وبخاصة حين سارع بادخال تعديلات تمدنية على تلك الدار.. بإضافة غرفتين جديدتين لها ومطبخا.. وبئرا واسعا لمياه الأمطار، على شكل حبة من فاكهة الأجاص، ظل نبع مائنا ومورده. وظل أبو عبد الله يكرر على مسامعنا جملته: "من حقنا ان نعيش رغم كل الاحتمالات والاحباطات.. والخيبات. لقد كان البيت جميلا! وأجمل ما فيه "الخصوصية" خصوصية الانفرادية دون الغير.. بيت خاص بَيْن الخصوصية.

حيث ذكرياتنا الكثيرة ومن ثم بشعفاط التي تبعد ٥ كم عن القدس.
في منتصف المسافة بين قرية عناتا شرقاً وبيت حنينا غرباً.. سارت سيارتنا
في شارع بيت حنينا الجائمة بين أشجار الزيتون والتين والأشجار المثمرة
الأخرى..

كانت استراحتنا الأولى، التي امتدت إلى بياتنا تلك الليلة في منزل
العم "أبو عيسى"، ابن عم الوالد الأقرب بعد أن قامت الأيام، وتحت
سخرية الأحداث، بالترميمات اللازمة لادخال التصليحات التجميلية على
علاقاتهما.. تلك العلاقات التي هددت وجودهما، فأصابتهما كبريائهما في
الصميم.

بتنا ليلتنا في ضيافة العم الفاضل.. وكانت سهرة العائلتين جميلة
ومشوقة.. دار حديثنا فيها في كل الشجون.. وكان لفلسطين النصيب
الأكبر من الحديث.. لأن فلسطين وما أصابها ويصيبها وسوف يصيبها
بالنسبة لنا هو العذاب المقيم، والمرارة التي لن تزول إلا بالعودة.. وبطرد
الغزة أو قتلهم..!!!

لقد أدلى في تلك السهرة - التي لا تنسى - أفراد عائلة أبي عيسى بدلو
المديح للشاب "عيسى" قالوا عنه.. بل وأجمعوا على أنه في شجاعة وفي
إقدام عمه أبي عبد الله.. ويحب السلاح، وسارع عيسى باحضاره ثم
عرضه علينا: بندقية، ومدفع رشاش صغير (تومي جن).. ومسدس وعدة

قنابل ملز.. وصناديق خمسة، صغيرة وكبيرة يُحْمَل واحدتها تحت إبط
الشاب القوي.

تحدث الشاب الشجاع عيسى منتهزاً انشراح صدر عمه وابتهاج وجهه..
فقد ضحكت أسارير وجهه عند رؤية السلاح.. وبدأت فرحة جذلة عليها
وهو يستمع إلى حديث الشجاعة عند الشاب عيسى..

عيسى: أحاول ياعماء دائماً.. وفي كل مرة أن نقتل من يهود.. بل أتمنى
لو أشرب من دمائهم..

أبو عبد الله: (يُقاطعه) لا لا! إنها دماء نجسة.. اقتلهم.. إسحق رؤوسهم
ما استطعت إلى ذلك سبيلاً!

عيسى: حدث معي.. وأكثر من مرة.. وأنا أحوم حول الحمى.. حول
قريتي.. أن اعترضتني وحدة يهودية صغيرة من تلك التي تتجول وتتفقد في
القرى المحتلة الخاوية على عروشها.. وحدث أن تبادلنا إطلاق الرصاص،
واقسم لك ياعماء إنني قد سمعت شتائمهم وصياحهم أثناء إطلاق
الرصاص.. صيحاء يخفي وراءه المفاجئة والألم.. ومن ورائهما إصابات
وجروح.. رشاشي دائماً معي وملازم لي..

أبو عبد الله: بارك الله فيك يا ولدي.. أكثر الله من أمثالك.. وحماك
من كل مكروه!

عيسى: بل وأتردد على بيتنا في البلدة.. افتح الدار، واحضر إلى هنا ما
نريده من خفيف محتوياته.. ثم أعود وأغلق الأبواب.. للعودة.. بعد حين..!

ويتدخل هنا أبو عيسى العم في الحوار..

أبو عيسى: يرمى عيسى الحلال، قطع أغنامه.. في مراعي بلدتنا..
ويجمع الأعشاب والنباتات البرية من أراضيها ويحملها إلينا!

عيسى: واقطف ثمار الصيف والخريف.. الصبار والتين والعنب.. والثمار
من أشجار ١٩٤٨.. آكل منها على الفور.. واحضر الباقي إلى أهلي.

والواقع أن سكان القرى الحدودية، والذين فصلوا عن أراضيهم
بخطوط هدنة جائرة، ظلوا يحومون حول قراهم، ويجوبون حقولهم
يدخلونها أو يقتربوا منها كل حسب شجاعته.. بل كانوا يقومون بعمليات
الحصاد، وقطف ثمارهم، ورعي قطعانهم في مراعيهم!

كان رد يهود على محاولات التسلل تلك دمويًا بلا حدود، فكانت
مذابح قبية عام ١٩٥٣م، ومذابح نحالين عام ١٩٥٤م، ومجازر خان يونس
عام ١٩٥٥.. بل كان تصاعد العمليات الفدائية التي صاحبت عمليات
التسلل، إحدى الذرائع التي اتخذتها يهود لشن عدوان عام ١٩٥٦م إلى
جانب إنجلترا وفرنسا ضد مصر خاصة.. وضد الفلسطينيين والأردنيين
والسوريين.

وفي الحقيقة لم تكن الأنظمة العربية مشجعة ولا راضية بحوادث
الحدود لأنها لا تريد الحروب - وهي عاجزة أمامها - وهي تخشى
تجدها بينها وبين يهود.. حتى وصل الأمر بتلك الأنظمة أن صارت درع
حماية تحمي الغزاة المغتصبين.. وتقتل كل متسلل من أصحاب الأرض

والدور أثناء تسلله إلى بلاده فلسطين لقتل يهود، الذين قتلوا أهله،
واغتصبوا حريمه! وأخذوا أرضه وبيته وطاردوه حتى أخرجوه من قريته!!
وفي صباح اليوم التالي غادرنا منزل العم أبي عيسى واتجهنا شمالاً..
عرجنا أولاً إلى قرية "القببية" التي تبعد ٢٠ كم شمال غرب مدينة القدس.
وتقع القرية وسط الأحراش مما يزيد جمالاً، ويجعلها من المصائف
المحلية الممتازة، ومن أبهج المكنة في فلسطين لقضاء ليالي شهر العسل
الأولى في استراحتها التابعة لدير القبية الجميل..

كانت استراحتنا في منتزه الدير البديع ثم واصلنا تحركنا إلى قرية
بيت سوريك جارة قريتنا مباشرة في حدودها الشمالية، وفي "بيت
سوريك"، وعلى موعد مسبق ومرتب كان لقاءنا مع قائد إحدى وحدات
الجيش العربي المخيم هناك، وكان قائدنا ذاك - رحمه الله - أحد أبناء
الختولة لأمي.. ربطتني به صداقة مميزة إلى جانب علاقة الرحم والقربة..
سرنا معاً بعد أن ترجلنا من سيارتنا، استوقفنا أبو سمير القائد بجوار
البناء، بناء قبة عبد العزيز.. أمامها.

كانت تلك القبة آخر معالم الأرض التي تخصصنا وتخص أهل قريتنا في
تلك المنطقة. والمكان حيث وقفنا مرتفع في إشراف كامل على أراضي
البلدة في كل الاتجاهات.. وهناك اختار بقعة ووقف! وقف عليها أبو عبد
الله طويلاً.. وكأن شيئاً قد صيره إلى الوقوف في تلك البقعة من الأرض
وعلى تلك الهيئة! وقف ينظر في الأفق شرقاً وغرباً.. طويلاً وغرضاً في حالة

تذكر واستقرأ.. يستحضر محتويات فكره.. ويستقرأ مكونات تجاربه في لحظات عمره كله.. الأرض هي أفضل ما حفظته ذاكرته المصورة في خريطته العقلية.. يستذكر أسماءها ويسردها علينا في موقف إنسان وكأنه يحمل عبء القضية وأوزار أهلها على كتفيه.. مثلما يحمل مسؤوليته ومسؤولية أهله.. من غير تلك المسؤولية، ومن دون العمل من أجلها.. ينعدم وجوده!

في بداية الأمر جعل من نظراته - إلى الأرض في تلك اللحظات - عبادة حملته على كلمات التوحيد، والحوالة والاستغفار باستغراق جواني.. وهو في كل ذلك متأن، غير عجل.. هي عاداته: لا يستعجل الأمور أبداً.. ثم استغرق في مناداة كل أرض وقع عليها ناظره.. كل شعبي، كل مراح، كل قطعة، كل خربة.. يخاطبها باسمها، وكأنه في مجالسة معها.. نادى الأرض، ونادت له وكأنها تُعلمه أنها قد سمعت صوته وهلت له.. فاتصل نداؤه.. ولم ينقطع. كأن تواصله مع الأرض في الشرق وفي الغرب من القرية.. مع شعبة بيطار، وأراضي بئر غزال، وقطعة اللوح.. واستمر تواصله مع أراضي الكروم، والبص والمراح والخلة.. ومع أراضي خربة فرحان.. وهناك انحبس صوته، فانشتر داخل حنجرتة.. فسارع الخال أبو سمير إليه بشربة ماء.. وطلب منه الجلوس.. فجلس! وبعد برهة طلبت منه أن يغادر.. فاعترض أبو سمير، فقد كان في جعبته ما يريد أن يطلعنا

عليه.. فطلب أبو عبد الله من أبي سمير أن نتركه في عزلته جالساً في انتظارنا..

وعلى مقربة منه انحدر أبو سمير - وأنا أتبعه - في خندق طويل أوصلنا في نهايته إلى بناء.. بناء هو تل قد كُيسَ بالحجارة والطين في حجم غرفة بيت، طولاً وعرضاً وارتفاعاً.. تقدمني المسؤول العسكري هناك، فدخلت بعده، لأجد مدفعا رابضاً في المكان، مدفعا عظيماً، غليظاً، ثقيلاً.. ويجواره رجلان: جنديان عن يمين وعن شمال.. لصقاً به، وأقاما معه ملازمين له، يقومان بأموره.. ردا علينا تحيتنا بأحسن منها: عظموا قائدهم، ورحبوا برفيقه.. أمام المدفع ذي الأنبوب الطويل الضخم فتحة في جدار البناء، ينظر المدفع من خلالها على أهدافه خارج التل..

قربني خالي من تلك الفتحة، وانحنيت لأرى على المدى القريب جداً قرية القسطل: وبدت القرية لي وكأنها في بيات شتوي.. في موات.. لا حراك، فنبهني العارف بالأمور أن القرية بالليل لا تكف عن الحركة أبداً.. بل إنهم في تحركاتهم يتقدمون في المنطقة الحرام.. مخترقين خطوط الهدنة حتى يصبحوا قاب قوس واحد لا قوسين من ممرانا.. دون أن يملك أمراً لمنعهم أو لردعهم!

المنطقة الحرام في عرف الحروب.. تدخل في خطوط هدنة وهمية.. دخولها من قبل يهود حلال مقبول حتى لو أقاموا فيها مستوطنة.. أما اقتراب العرب أصحاب الأرض منها فذلك "خرق لليهود".

تدخل أحد الجندين الرابض مع المدفع.. وقد رأى الدهشة تذهب
بفطنتي فقال جملته الخالدة عندي: "خُلوهُ!.. هاي" .. وأمسك أذنه اليمنى
بيده "أطول من هاي"!. قالها بعد أن أرسل ذراعها كلها ممدودة في الهواء.
"هاي أطول من هاي"^٢.

خرجنا لا ننوي على شيء ولا نعطف! وعُدنا بعد الوداع.. وداع القرية
ووداع الأرض،.. ولكن إلى حين! أي "حين"؟.. هذه "الحين" قد تقصر! وقد
تطول.. تقصر فتكون شهوراً.. وتطول وتطول.. حتى يوم القيامة!

بعد تلك الرحلة، سقط أبو عبد الله صريعاً بجلطة دموية، نقلته سريعاً
إلى مستشفى "الهوسبيس"^٣ في داخل البلدة القديمة على طريق الآلام عند
بداية حارة الواد.

لطف الله به إذ ظل تحت المراقبة والتخطيطات والعلاج مدة ثمانية
عشرة يوماً.. ليخرج بعدها معافى وسط تحفظات وتوصيات عديدة من
أطبائه.. أهمها حمايته من مثيرات القلق والحزن والغضب.. ضرب بها
عرض الحائط وهو يرى نفسه مثل كهل قوي رغم وقوفه على عتبة
الثمانين..

١ نداء للخلال تحبياً... وقد قدمني القائد انني ابن عمته، فالأردنيون كلهم أخوال لي ...
٢ مثل يعطي معنى المثل القائل: "العين بصيره، واليد قصيرة" ومثلنا هنا كما عني به الجندي النشمي: إن الأذن أطول من الذراع
الضاربة "عند الجندي العربي".

٣ بناه في الأصل النمساويون نُزلاً لامبراطورهم لليلة واحدة نامها فيه!

فرحتنا به كانت كبيرة واحتفالاتنا بسلامته استمرت أسبوعاً تخللته
سهرات غنائية ورقص ودبكات.. شاركنا فيها جيراننا من أهل القسطل
الأفاضل مع أصدقائنا من أهالي قرى العيزرية وصوبا ودير ابان. ختمناها
بإحياء ليلة "مولد النبوي".

(٣)

الرحلة الثانية

طالت دورة استشفاء أبي عبد الله من مرضه.. ولم أكن لأبر بوعدي له
فأنتقل به في ربوع ما تبقى من وطننا السليب، وهو لا يزال قريب العهد
بالجلطة، ولم يرجع إليه بعد: لا كمال الصحة ولا تمام القوة.. طالت فترة
نقوه وامتدت الشهور الطوال بدى لي فيها مثل من ثقلت رجلاه في المشي:
إن تحرك فبحذر، وفي رفق وسكينة، لا يفارقه ثبات أو وقار رغم مرضه!
طيلة إجازتي الصيفية، وقبل سفري لعملي في الخليج - سهرت على
خدمته.. لا أفارقه لحظة.. وأراقبه وهو يعيش لحظات الصمت الطويلة
فأرى من خلال الشاشة فوق جبينه سمات الرجاء وبعدها علامات اليأس
والقنوط، ومن خلفهما تدور معارك الأضداد داخل ذاكرته - المزدهمة

بالانكسارات والهزائم- والمشاعر المتضاربة التي كانت تنزف بها نفسيته
تخالطها الوحشة والحزن العميق مما هو - لا بد - آت!

في الرحلة الأولى عام ١٩٦٣ إلى قريتنا غرب القدس كان أبو عبد الله
قد أكمل الثمانين عاماً من عمره.. وفي أيلول/ سبتمبر عام ١٩٦٥ - بعد
أن عادت صحته إليه - أصر عليّ أن نقوم بالرحلة الثانية، وفي إصراره
ذاك بدا لي وكأنه يهجم على لحظات عمره يقتصبها.. قبل أن تذهب عنه
فتوته إلى الأبد.

خرجنا صباح أحد أيام تموز/ يوليو عام ١٩٦٥م خرجنا في رحلة معدودة
ومميزة غطت القطاع الأوسط من منازل وربوع ما تبقى من بلادنا
فلسطين.. كنا ثلاثة: أبو عبد الله وشاب عراقي صديق لي وكان في
ضيافتي في إجازة ذلك الصيف، وهو أحد رجال التربية والتعليم معي في
مدارس الخليج.. خرجنا من منزلنا في سيارتنا الألمانية الصنع والصغيرة..

خرجنا من قريتنا الجديدة "قرية البستان" شرق قرية العيزرية:

مرت سيارتنا بين قريتي "العيزرية"، و"أبوديس"، تعلونا قريتا "الطور"
و"العيسوية" من قرى جبال القدس الدفاعية متجهين نحو قريتي "رأس
العمود"، و"سلوان" في جوار لاصق لسور القدس القديمة من ناحية الجنوب.
صعدت سيارتنا "طلعة ستنا مريم" مارة "باب الأسباط" ومن ثم "باب
الساهرة" وباب العمود على اليسار و"وادي الجوز" على اليمين.. واصلت
السيارة السير في شارع القدس - رام الله الرئيسي مبتدأة من "كلية

شميدت" وحي "المصرارة" لتخترق الطريق شمالاً ما بين "يوأية المنديل يوم"
و"حي الشيخ حراح" ومن ثم قرية "شعفاط" وقرية "الرام".. وعند قرية
"قلندية" شمالاً اتجهنا غرباً لنمر بقرى بيتونيا ثم "بيت عور الفوقا" و"بيت
عور التحتا" ثم قرية "أم الصفا" لتتحرف قليلاً ناحية الشمال نحو قرية "دير
قديس" ومن ثم "نعلين" جنوباً، ومن قرية بقلين أخذنا الطريق شمالاً إلى
قرية "قبيّة" - هدف رحلتنا - وبعدها: في نهاية الرحلة جولة لا تتسى في
قرية "يدرس" من القرى الحدودية على خط الهدنة والأقرب من العدو.. في
الليل.. وفي النهار..!!

يضيق بنا المقام أن نتحدث حول تلك القرى من خلال مرور عابر بها في
رحلتنا تلك..! ففي كل قرية، بل وفي كل مكان: تاريخ.. وذكريات..
وقصص كم مرّ بها من الأقسام..؟ سكناً ومقاماً وعمراناً.. وما نُعيده الآن
وما نكتبه ونقرأه حصيلة ما قرأناه من وثائق مكتوبة أو ما سمعناه
شفاهياً.. أو عايناه عياناً مباشراً وعشناه حقيقة في لحظات لن تتسى أبداً..

سرنا من قرية إلى قرية.. هذه ندخلها.. وغيرها نمر بها.. وعلى البعد
منهما نرى قرى بعيدة فوق الجبال.. اتخذت من قمم الجبال مواقع لها
يجللها الغمام ساعات الصباح والمساء! سرنا بجوار الحواكير، تأسرنا
مناظر سلاسلها الحجرية، يخرج من شقوقها "حردون"، فيختار كومة من
الحجارة، سبق وقد انحطت حجارتها من سلسلة الحاكرة وظلت

مكانها.. يختارها الحرذون لأداء صلاته الخاصة به، يدعو فيها أن تسعفه
أنثاه في وحدته لتملاً عليه حياته..

سرنا بجوار البساتين والحقول نستمتع بجمالياتها.. وكأن الطبيعة
كانت تعلمنا معاني خطوطها، وإحياءات الألوان فيها من خلال تنوع
أشكالها وهيئات التناسق في صورها المتجددة على الدوام..!

رأينا حركات الناس بكل حساب.. من نساء ورجال، ومن صبايا
وشباب.. وجذبوا انتباهنا في تحريكهم للدواب من أفراس وخيول
وأكداش وبغال.. وحمير.. وقد انطلقوا معاً في عمارة الأمكنة في الكون
اللامتناهي..!!!

في قرية "بيتونيا".. بدت الحياة على محيا وسمات وجوه أهلها: بدت هنية
طرية.. في نعمة وأبهة واختيال.. فالأب.. والزوج.. والأخ من أهالي القرية من
المغتربين في بلاد الله الواسعة الغنى..!

وفي قرية "صفا" وهي من الصفاء في لغتنا ومن "صوفانا" في اللغة
السريانية التي تعني مثل الكلمة العربية "التقية والتصفية".. رأينا فيها
جماهير النحل وقد أمنت الظلمة والغيمة، والريح والدخان، والماء والنار في
محيط قريتها، فانتشرت بعيداً عن بيوتها الجبلية في أسراب مأمورة
تسترعي الانتباه..!

"بيت عور الفوقا"، و"بيت عور التحتا" على بعد ١٥ كم جنوب مدينة
رام الله.. بناهما أجدادنا الكنعانيون وأسموهما بتلك الأسماء "بيت هورون

العليا" وتعني باللغة السريانية بلدة التبن والهشيم إشارة إلى أن تلك المناطق
كانت تستغل في زراعة الحنطة والحبوب.

ونحن نسير في الطريق الضيق بسيارتنا، في الطريق الذي يربط قرية
"بيت عور التحتا" بقرية "نعلين" اصابتنا دهشة التساؤل عن كثرة أشجار
الزيتون المزروعة في تلك المنطقة.. ليجيب على تساؤلنا أحد المخاتير في
نهاية نهارنا،.. قال: في المنطقة ما يزيد على عشرين ألف شجرة تملأ
المنطقة بعشرة آلاف تنكة زيت وبخمسین ألف تنكة زيتون.. يصدر منها
- ما يزيد عن حاجة الأهالي - إلى البلاد العربية المجاورة..!

طيلة الطريق ونحن نسير تارة ونتوقف أخرى: نغادر سيارتنا ونطوف
ونسأل ونتحاور مع من يصادفنا من الناس في الآن وفي المكان.. وأبو عبد
الله في عالمه الخاص، ما كان ليغادر السيارة معنا.. كان يشير بيده إلينا
في كل مرة أن نتركه وشأنه.. ما رأيناه منذ بداية رحلتنا وهو ينظر إلى
الطريق وإلى الدور والشجر وكل ما تقع عليه عيناه، أقول ما رأيناه إلا
شارد الذهن، ساهم الوجه، متغير اللون من شدة داخلية تكتف كيانه
يحس بها وحده.

وأخيراً طلبت منه أن يأخذ نفساً عميقاً وأن يشرح لنا ما يشغله،
وكانت السيارة تسير.. فقال بعد أن ملا رتتيه هواء: انظروا إلى الطريق..
إلى الشجر والدور والأرض، بعكس سيرنا تتجه إلى الخلف ونحن نسرع
بسيارتنا تجاه الأمام.. وهذه والله حالتنا اليوم وكل يوم.. نتجه إلى الأمام

أم نهرب إلى الأمام.. وتبقى الأرض والشجر والدور خلفنا.. كل ما شاهدتموه يدل على وطن ذبيح، ولا يزال ينزف والأمة تشهد.. وتشهد بلا حراك: فالطبيعة، والناس، والدواب تحمل الخوف والدم والرعب! أيهم من أبناء هذه الأمة كان باراً بما فيه الكفاية ليحفظ البلاد؟! لقد ضاع ما ضاع..! ماذا تبقى منها..؟! وما المصير..؟!!

أنظر إلى الناس وأنت تتحدث معهم في عيونهم الترحال.. الحجر ينازل القدر.. والقرى تنام تفتريش الحزن، وتلتحف الأرق.. في صدورهم خناجر القهر والخيانة والغدر..! كل قرية تشعر بالاغتصاب، منكسرة الخاطر.. لا يفركم أن أوراق الشجر ما زالت خضراء..! فقد انكسر الغصن فيها.

راقبوا أصحاب الحقول - وقد بدأ بعضهم يعود إلى بيته قبل انجاز ما يجب انجازه من العمل رغم أن الشمس لم تزل تدور في أعلى أفق المغيب.. راقبهم، ترونهم أوعية فخارية مهشمة ينتظرون أقل عتمة في الأفق ليعودوا إلى الدور، غير مقتنعين بما قاموا به من أعمال في حقولهم.. يعودون بهمة أنهكها القلق قبل التعب، والتساؤل قبل الاطمئنان: لمن العمل..؟! وما المصير..؟! بالأمس مجازر دير ياسين، وقبيه، والسموع.. ونعلين..

لمن العمل..؟! وما المصير..؟! ثم ختم الوالد حديثه فقال: كل ما عاينتموه هذا اليوم في الطريق لا يشبه ما تعودناه..!!

لم نحر جواباً ولم نحسن تعليقاً.. فإن مشاعر الرجل ووحشته وحزنه وخشيته قد كثفت حواسه فيه وحولتها إلى رادار، يلتقط إشارات الحياة دون عناء كبير في فهمها وفي ترجمتها!

ساد الصمت.. وانعدم البوح.. فقد أشرفنا على قرية جرى ذبحها بيد يهود منذ اثني عشر عاماً على مرأى وعلى مسمع من الدين والدنيا في الكون الصغير..! وقفت سيارتنا، واستقبلنا الرجل العسكري الكبير: الخال "أبو سمير".. استرحنا استراحة سريعة داخل خيمته العسكرية.. ومن ثم صحبنا في تطوافنا حول القرية.. نصف القرية قطيع من البيوت، ركام، وكذلك مسجدها ومدرستها في هدم تام..!!

ما فكر المسؤولون أن يعيدوا بناءها.. لتظل حافزاً للأجيال القادمة للنار والانتقام كما كانوا يزعمون..!! نواصل الطواف.. والخال يشير إلى هدم لا تميزه من بيوت مركومة بعضها على بعض.. يشير فيقول: هناك كان منزل "موسى أبو زيد" قتل فيه مع أربعة من أفراد أسرته، وهناك منزل أسرة "عبد المنعم قادوس" وعدد أفرادها اثنا عشرة شخصاً أبيدوا عن آخرهم، ثم تحولنا في خطوات قليلة إلى هدم وقفنا بجانبه: هنا اختبأ أربعة أطفال فوق الرابعة ودون السابعة، لجأوا إلى الدار وهم يلعبون، فاختبؤوا في المنزل مع أطفال الأسرة: أسرة محمد إبراهيم، وكانوا ثلاثة.. قتلهم يهود كلهم بدم بارد.. وقفنا مشدوهين.. والخال يسرد علينا

بعضاً من تفاصيل المذبحة: "كانت القرية في حراسة الحرس الوطني الذي قاوم في تلك المذبحة قوة يهودية نظامية من ٧٠٠ جندي من جيش الهاغاناه، قاتلوهم حتى نفذت ذخيرتهم وتحطم سلاحهم فقتل معظمهم.. بعد ٢٣ ساعة نسف اليهود في أثنائها ٥٦ بيتاً، بعضاً منها فوق أصحابها! وقتلت ٧٥ شهيداً من الأهل القرية والحرس! بعد ٣٣ ساعة استطاع قائد الحرس الوطني "النقيب محمود عبد العزيز" من الوصول إلى قرية "دير قديس" حيث اتصل لاسلكياً بالقيادة العسكرية الأردنية في رام الله طالباً النجدة والذخيرة.. لم تصل إلى القرية^٢ المنكوبة أية نجدة..!! سرد علينا الخال خطة تنفيذ المذبحة:

١- قصف مدفعي مركز (مورتر) وكثيف على مساكن القرية دون تمييز مساء ١٤/١٠/١٩٥٣ فدخلت القوة المهاجمة لـ ٧٠٠ جندي نظامي طوقت القرية وعزلتها وهي تطلق النار في مختلف الاتجاهات.

^١ جنود الحرس الوطني من أبناء القرى الحدودية ... تدريبهم ناقص، وسلاحهم قليل تهزأ به كل حرب.

^٢ خلال المدة الواقعة بين ١٩٤٩/١٩٥٢ ارتفعت وتيرة العمليات الفدائية ضد المستوطنات الحدودية التي يسكنها يهود مما حفز رئيس الأركان في جيش الغزاة حينذاك وهو "مردخاي مكلف" إلى تعيين ميجو إيريال شارون لينشئ وحدة فدائية يهودية تهاجم الفدائيين عبر مهاجمة القرى العربية الحدودية، فأنشأ شارون الوحدة العسكرية الفدائية (١٠١) التي نفذت سلسلة طويلة من الهجمات الثأرية خلال عام ١٩٥٣، واشتركت في تنفيذ مذبحة قبية في يومي ١٤ و ١٥/١٠/١٩٥٣. وكان قد بدأ بروز شارون المقرز منذ تلك الجريمة ...

^٣ اشترك في أعداد تلك النكبة ورسم تفاصيل تنفيذها على أرض الواقع مجموعة من قادة الغزاة نذكر منهم:

١- المستوطنون أو ممثلون عنهم - المدنيون من سكان المستوطنات الامامية انتقاماً من العمليات الفدائية التي تعرضوا لها

...

٢- اشترك في التخطيط للمذبحة وزير الدفاع "بنحاس لاهون"، ورئيس العمليات موشيه ديان بمباركة رئيس الوزراء

الأسبق "ديفيد بن غوريون"

٣- اشترك معهم رئيس الأركان حينذاك "مردخاي مكلف" لأخذ ثأر عائلته من خمسة أفراد أبيت في ١٩٢٩م ونجى هو بحظ إلهي ... فمن سخريرات القدر أن الذي أنقذه من مذبحة عائلته الوالد أبو عبد الله وابن عم له أبو أحمد قاما بإنقاذه من المذبحة فهربا منها وكان عمره حينذاك ٨ سنوات مع شقيقة له تصغره بعامين.

٢- وحدات عسكرية أخرى توجهت إلى القرى المجاورة شقبا ، وبدرس، ونعلين لمشاغلها وهي القريبة من القرية المنكوبة، ومنع تحرك أي نجدة منها.

٣- قوة من الهندسة زرعت الألغام في مختلف الطرق بحيث عزلت القرية تماماً. وبعد ذلك تفرغت لتفجير المنازل، وبعضها فوق أصحابها.

٤- وأخيراً حول الغزاة بنادقهم على مواشي القرية، فقتلوا ٢٥ بقرة..!!

كان الغداء سريعاً داخل الخيمة. لم يَطْعَم أبو عبد الله شيئاً، ما هنئ له طعام المعسكر.. اختصرنا وقتنا في قبية، فصحبنا الخال الكريم إلى قرية "بُدْرُس"، جنوب قبية إلى الغرب، وكان مختار القرية على موعد مع رفاق القائد العسكري أبي سمير، شربنا القهوة في منزل المختار.. في منزله الذي هو الأقرب لخط الهدنة الحدودي في تلك المنطقة.. أشار إلى بستان للزيتون فسيح يمتد أمامنا ونحن في شرفة المنزل تجاه الغرب.. غرب فلسطين فيشكل أفقاً رحباً.. تتراعى أطرافه فتتشبت فيها الأمال.. حدثنا المختار: "أن بنات يهود وشبابهم يتجمعون ليلاً بين الأشجار في ذلك البستان.. يرتعون أكلاً وخمراً، ويلهون رقصاً وغناءً، وسعياً وانبساطاً،.. وانحلالاً!.. في تحد سافر ومكشوف للعالم كله.. فهم في منطقة تعتبرها المواثيق الدولية ومواثيق اتفاقيات الهدنة.. تعتبرها منطقة حرام: لا يدخلها

١ قرية تبعد ٩ كم عن مدينة تل أبيب على شاطئ البحر والقرية أقرب نقطة حدودية من عاصمة دولة الغزاة .

(٤)

العودة.. إلى الشرق

التزمنا طريقنا نحو قرى ومدن الشرق - فقي الغرب فلسطين! وفي الطريق العام بين قريتي "نعلين" و"بيت عور التحتا"، رمقت عيناى من بعيد شبحاً من أهل الطريق وقد تكشف لنا في شخص امرأة قروية في عقدها الثالث، كانت تقف في وسط الطريق تلوح بكل أعضائها آمرة لنا بالحاح عنيد بالوقوف.. فركبت معنا راجية توصيلها إلى نقطة حددتها.. امرأة تغشاها كآبة بكل ألوانها القاتمة مجتمعة بسبب ما بها من شدة ومشقة.. على جلد وجهها علقت ظلال وسحجات، ويقع وكدمات.. تبدو لأول وهلة كومة من الكراهية انتصبت على ساقين، وتتحرك على الأرض في هيئة امرأة مشبعة بالحقد والبغض والنفرة من كل شيء.. نجحنا في تسكينها إلى حد ما!

ولكنها ظلت تهذي في كلامها المتقطع من خلال صوتها المضطرب.. ورغم ضحالة ما قالت، فقد حدثته وكأنها تقول شيئاً بالتشديد على ما تقول! كان من الصعوبة أن نفهم ما تعنيه أو ما تشير إليه.. فقد كانت في سبب مستمر وفي دعاء متواصل، ظلت تهذي وتسب وتدعو طول الطريق حتى وصلت إلى نقطتها.. فنزلت.. وهذا قدرها! تابعنا السير صامتتين، مستغرقين في الحيرة والدهشة والذهول ونحن نحاول أن نجتمع مفردات

أي من أفراد أو جماعات الأعداء الموقعة على تلك الاتفاقيات..! لقد كثرت وتعددت مناطق الحرام في بلادنا، تتواجد فيها يهود ويغيب عنها.. أصحابها..!

كانت الساعة بعد الثالثة بقليل.. وقت العصر.. وكنا نقف على سطح بناء إسمنتي بني على هيئة خاصة دون نظام. فيوضح لنا الخال قائلاً: "انتم الآن تقفون حيث وقف العام الماضي "عبد المنعم رياض" رئيس أركان القيادة العربية الموحدة وقال مخاطباً مجموعة من الضباط المصريين والأردنيين، تواجدوا معه حينذاك: من هنا نشطر دولة يهود إلى شطرين..!".

وأكمل الخال أبو سمير حديثه وهو ينظر إليّ.. تحتكم.. في داخل هذا البناء، مدفع ثقيل.. تصل قذيفته مدينتي نهاريًا وتل أبيب.. حان وقت الانسحاب والعودة.. فشكرنا مضيفينا الشكر الصادق، ودعونا لهم بالسلامة والبقاء، وسلّم علينا، وسلّم عليهم!

١ الفريق أول عبد المنعم رياض، من أشهر العسكريين العرب في النصف الثاني من القرن العشرين، مصري أصبح القائد العام للجبهة الأردنية في حرب الهزيمة الكبرى عام ١٩٦٧ م.

وجملاً مما ذكرته في هذائها. وقد غلبت على هذرها مفردات السباب والشتيم والطلاق.. المرأة كانت قد تعرضت لعنف ضدها من قبل زوجها المطلق، ذلك الزوج كان يكثر من الحلف بالطلاق لأهون الأسباب وأتفه الدواعي، وبدون ضرورة، يقحمها في نزاعاته مع الغير، يرغمها على كرهه من يكرهه، وعلى مجاملة من يحب، زوج لا يعبأ بأطفاله، ولا بحاجتهم إلى الأمن والانتفاء بين أمومة متعاونة وأبوة متفاهمة متصالحة!!

تشعب حديثنا في السيارة واستغرقنا طوال الطريق.. أبدت للرفقة موقفي من العنف الأسري بشكل عام، فالحديث عن العنف ضد المرأة من قبل الرجل لا يهمني بقدر الحديث عن ظاهرتين منتشرتين في أوساط الأسر الفلسطينية: الظاهرة الأولى، ظاهرة الحلف بالطلاق، وهي من أبغض العادات.. فهناك مدن فلسطينية مشهورة بالاعتیاد على الحلف بالطلاق وخاصة الطلاق المعلق الذي يقع إذا وقع تصرف لا يريده الزوج من قبل الزوجة.. زوج ساقط الهيبة والحرمة والكرامة يحلف بالطلاق ليؤكد كلامه أو ليحث زوجته على فعل أو عدم فعل شيء ما..!! ألا يدري مثل ذلك الزوج المطلق أن ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق.. ولو طلق بلسانه! فالطلاق - كما جاء في الأثر - يهتز منه العرش!

أما الظاهرة الثانية المتفشية بين الشباب وفتيان ورجال كثر من الشعب الفلسطيني فهي ظاهرة سب الدين أو الرب !! يسبون الله جهلاً.. بل وعن معرفة وعلم!

أحدهم، وفوق جبل عرفات، مهندس، لا زلت أتذكر وجهه الكريه، ومحياه الشتيم، يسب الله، والدين ظلماً وعدواناً وعن معرفة بعظمة الله بعد أن أمضى أكثر من نصف السنوات التي لعمره في المدارس والكلليات في الدرس والبحث والمعرفة حتى أصبح مهندساً..

كان التسابُّ من قبل ذلك المهندس التبعيس بل والطريد لسبب تافه..: فقد تخطاه الدور في توزيع وجبة الغداء على الحجاج!!

بالغ رفيقاي في انحيازهم للمرأة موضوع رحلة عودتنا ذلك اليوم، مما جعلني أذكرهم بأن لا يتعجلوا الحكم وخاصة أن طرف معادلة العنف التي كنا بصدها كان غائباً ومن ثم لم نسمع منه شكواه أو دعواه أو شهادة.. ثم حولت الحديث أقص فيه عليهما مواقفاً لعنف أسري شاهدها مرات عديدة، فضضت بعضها.. وأصلحت ذات البين فيها..

عشت في مصر مجاوراً، وأحياناً مشاركاً لأسرٍ من شرائح المجتمع المرتاحة في معيشتها، أسر لا تعرف كواتم الصوت ولا تتعامل مع آبار لطى الأسرار.. أسر رجالها لا يجدون منقصة ودلاً في مشاركة الغير لهم في آلامهم، ولا يعتبرون هذه المشاركة غضاضة أو عورة لا تليق بالرجال!! في تلك الأسر شاهدهت عنف المرأة ضد رجلها بالذات.. ضد زوجها.. تضربه

على أم رأسه، وفي وجهه، وتركه بين ساقيه، تقذفه بفردة أو بالفردتين.. ترشقه بأية أداة في تناولها.. وبالماء.. ساخناً أحياناً؟ بل وترفع عليه سكيناً إذا ما هاج هائجها! وشاهدت قبل ذلك وبعده في الأردن! أيضاً.

الكثيرات من النساء يعنفن أزواجهن بأساليب أخرى غير الضرب كالتعير، واللوم، والتوبيخ، والتقريع.. بكل غلظة وصلابة! أيهما الأقوى فيهما - الرجل والمرأة - جسماً أو معنوياً أو مادياً.. هو الذي يسيطر على الآخر.. ويعنفه على طريقته! الرجل والمرأة وهما طرفان لمعادلة عمارة الكون، أتاها يحتاجان للحرية، وكلاهما إنسان من لحم ودم، يتوجع وتتوجع، إذا ما ضرب أو ضربت.. فالرجل ليس فوق الألم، الرجل يبكي، والمرأة تبكي وما كانت دمعة الرجل يوماً إنكساراً في رجولته.. والرجل كالمرأة تستعبده نفس الأشياء.. كلاهما شهواني، يسيل لعابهما للجنس.

لماذا الحديث فقط عن المرأة.. وعن قاسم أمين.. وعن حرية المرأة، وتحرير المرأة، وعن حقوق المرأة.. وكل شيء عن المرأة.. أما الرجل فلا بواقي له، وقد أضحي من المسائل المسكوت عنها..!! لقد استهلكت مجتمعاتنا خلال مائة عام دعوة قاسم أمين لتحرير كينونة عقلية واجتماعية جديدة للمرأة، استهلكتها بحثاً ومعالجة ونقاشاً في ندوات وخطابات ولقاءات.. ماذا كانت النتيجة.. وسائل الإعلام مرئية ومكتوبة تعطينا نتيجة مشوشة عما أصاب المرأة من جراء حرقتها الجديدة -

انفلات لا حدود له.. صار تسويق أئفه السلع مهرجاناً جنسياً تهدر فيه كرامة المرأة بالذات..

سيأتي يوم - وهو قريب لا محالة تتفهم فيه المرأة ماهية وجودها.. تاركة وراء ظهرها هرطقات كارل غوستاف، يونغ وجيمس وفرويد، وترهات نوال السعداوي.. وستفهم المرأة حينذاك أنها لن تحصل على أكثر مما حصلت عليه من هدايا وامتيازات وتجاوزات.. ولا أقول حقوقاً.. وستكتشف بعدها منطق الوجود وخالق الوجود.. الخالق وهو أعلم بمن خلق يخاطبها مباشرة في سورة النساء آية ٣٢ وآية ٣٤

"لا يتمنى ما فضل الله به بعضكم على بعض" (فتمني المرأة لن يجدي شيئاً)

"اسئلو الله من فضله".. لا تسأل المجتمعات..؟

"الرجال قوامون على النساء".. نعم هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها.

من سورة البقرة آية ٢٢٨ # "واللرجال عليهن درجة" أي ميزة القوامة والإنفاق والأمرة والطاعة لهم، وهذه ميزة تكليف لا تشريف، والتشريف عند الله يتأتى بالتقوى لقوله جل وعلا في سورة الحجرات آية ١٣ "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

(٥)

سادوا .. ثم بادوا

انقضى عامان على رحلتنا إلي قريتي "قبية" و"بدرس" .. عامان وأبو عبد الله ظل على وجس وخيفة من حدوث كارثة قريبة، كان يستشفها.. حتى حدوث الهزيمة التي بطشت بالأمة: هزيمة حزيران عام ١٩٦٧م.. ذبحت الأمة العربية حتى بلغ القطع إلى النخاع! هزيمة حاضرة نعيشها حتى الآن.. وإلى أجل غير معروف، هزيمة اصطفت بجدارة إلى جانب هزائمننا التاريخية الماحقة الساحقة كهزيمة المسلمين في أوروبا أيام شارل مارتن عام ٧٣٢ م، وأمام الصليبيين حين استولوا على مدينة القدس عام ١٠٩٩م واسسوا مملكة اللاتين لمدة ثمان وثمانين عاماً، وهزيمتهم عندما خسروا إسبانيا عام ١٤٩٢م.. ولا أبالغ إذا سجلت للتاريخ أن هزيمة حزيران هي أشد الكوارث إيلاماً، وهي الأبعد أثراً على مسيرة الأمة المتعثرة، ما زالت هزيمة حزيران تعاد والأمة أضحت تراقب أوان انقطاع أبهرها، فشخصية حزيران عام ١٩٦٧ م كانت طاغية، ضربت بيد حديدية جبارة على مقولة الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج.. انفلتت بعدها شياطين القطرية البغيضة، والإقليمية المتآمرة، والفئوية الخائنة، والطائفية العلقمية المقززة..!!!

كارثة حزيران أُعدت في أربع سنوات قبل تنفيذها.. أعدت لها على أتم جاهزية حكومتان عربيتان + أجهزة أنظمة عربية أخرى + هيئة أركان جيش الغزاة يهود..!!! فكانت الهزيمة التي أصابت العقل والروح والثقة عند العرب العاربة والمستعربة.. أصابت العقل الفردي والجمعي وأعطبت الروح في الفرد العربي وعلى مستوى الجماعات والشعوب..

أطلق جيش الغزاة على الهزيمة إسم "حرب الديبلوكس" أي نزهة بالدبابات ثم العودة إلى المنازل..! أسمتها الأنظمة المهزومة نكسة، وقال المحللون العسكريون إنها حرب الست ساعات.. ومنذ حزيران الأسود، وفي كل حزيران وفي أشهر ما قبل حزيران وبعده.. ويهود تقتل الفلسطينيين في كل مكان.. قتل عاد وارم!

كل ما قيل حول هذه الهزيمة، كل ما قيل شفاهياً، من قبل شهود عيان أو مراقبين أو مشاركين..! وفضوليين.. فلسطينيين وغير فلسطينيين ومن قبل مسؤولين وغير مسؤولين.. من أفراد الجيوش أو الشرطة.. في فلسطين.. في الأردن.. في سوريا.. في مصر.. في الخليج.. كل ما قالوه شفاهياً يجب أن يدون وأن يسجل للتاريخ.. للعبرة والدراسة وغناء التجربة في أحوال الهزائم والحروب.

كل ما قالوه يندرج تحت عنوان "المضحكات المبكيات" .. قالوا أشياء كثيرة.. فيها تفاصيل، هي كل شيء.. كل تفصيلة لها قيمتها التاريخية والاجتماعية بل.. والمصيرية.. وكل جزئية هي غيرها جزئية أخرى لها

أهميتها.. بل إن أي جزئية تفصيلية تمتلك أن تعيق اتفاقاً كاملاً أو تمنع تنفيذه.

ومن هنا من حقنا أن نقول ما لم يقل بعد من أحداث تلك الحرب:

❖ كان القائد العربي في فلسطين قد اتخذ قراراً عسكرياً - قبل الحرب بأيام - لإحدى السيارات العسكرية بنقل قطيع له من الأغنام كان يملكه، ويرعاه أحد الرعاة في إحدى قرى رام الله. القائد قد أمر اغنامه ودجاجاته بالانسحاب فوراً من فلسطين إلى خلف النهر! ولحقهم في اليوم الثالث من الحرب لتسقط القدس بيد العدو يهود.

❖ تحدثني الشقيقة وكانت من سكان حارة السعدية في القدس القديمة.. قالت: في يومي الثلاثاء والأربعاء، السادس والسابع من حزيران من أيام الحرب، جاءت يهود بحافلات كبيرة إلى باب العمود، وطلبوا من الناس الرحيل إلى عمان.. وكانوا ينادون: "على عمان.. يلاً.. يلاً.. يلاً، على عمان.. روحه بلا رجعة!".

❖ أحد جنود الحرس الوطني يقص علينا قصة تلك الأيام: كنا نتدرب لمدة شهر كامل كل عام لليوم الموعود.. يوم تحرير فلسطين! كنا نتدرب في معسكرات الجيش في معسكر "نيفى يعقوب" شمال القدس على طريق رام الله، وفي شمال العيزرية شرق المدينة.. نتدرب على الأسلحة الخفيفة.. ويستمر في قصته: في اليوم الرابع من حزيران الأسود.. أي قبل اندلاع الحرب بيوم واحد، ذهبنا نحن الشباب إلى قيادة الحرس الوطني،

وطلبنا أسلحة للمقاومة.. فأعطونا بنادق قديمة وعدة طلقات، ووزعونا على مناطق مختلفة، وقالوا لنا: انتظروا التعليمات.. ولم تصل.. لم نكن على أهبة الاستعداد كما يجب، ولم ندر إلى أين نذهب، نتجول عند أسوار البلدة القديمة، ولم نشتبك مع أي عدو.. لم يكن لدينا أي أجهزة اتصال لنعرف ما يجري، فكل المعلومات التي نحصل عليها كانت من الإذاعات التي تتحدث عن النصر الكاذب..!

❖ إحدى إذاعات النصر الكاذب في مصر تعلن وصول أول قطار محملاً بالأسرى من يهود.. فاصطفت الجماهير المصرية المتعطشة للنصر في محطة باب الحديد لتتفاجأ أن القطار لا يحمل سوى أسيراً واحداً منكود الحظ..! مجندة يهودية كانت تشير للجماهير المصطفة وهي ترفع ذراعها إلى أعلى - بالإصبع الوسطى!

❖ بينما كانت إذاعة صوت العرب تبت أكاذيبها عن النصر العربي.. عن تقدم القوات المصرية إلى مشارف تل أبيب وتقدم القوات السورية باتجاه طبرية، كان البرنامج الإذاعي ينهي وصلته بنداء: أين أنت يا موشيه دايان، فتلتقطه إذاعة يهود / القسم العربي فتجيب على استفسار أحمد سعيد مدير "صوت العرب" حينذاك.. تجيبه فتقول: في القدس وتبني إذاعة يهود برنامجاً إذاعياً كاملاً على هذا النداء:

صوت العرب وبصوت أحمد سعيد إذاعة يهود - القسم العربي وبصوت يهودي

أين أنت يا موشيه دايان... ١٩
 أين أنت يا موشيه دايان... ١٩
 أين أنت يا موشيه دايان... ١٩
 في القدس
 في رام الله
 في نابلس

وتستمر الإذاعتان بشكل تهريجي ببث البرنامج الاستفساري صوت أحمد سعيد في صوت العرب يسأل سؤالاً واحداً لا يتغير: أين انت يا موشيه دايان.. ١٩ فيجيبه اليهودي في إذاعته في كل مرة عن تواجد جنرال الحرب وقائدها في إحدى المدن الفلسطينية في غزة.. في الخليل.. في جنين.. في قلقيلية.. في أريحا.. حتى تيقن الجمهور في فلسطين أن بلادنا برمتها رهن الاحتلال اليهودي كلية.. ١٩

❖ قال لي رشيد أبو شاور من سكان واد الجوز الملاصق للقدس القديمة من ناحية الشمال الشرقي، وشقيقه القاطن في باب السلسلة في القدس القديمة أنه في اليوم الثالث من أيام الحرب خرجت عوائل وأفراد وأنا منهم والحديث لرشيد.. لاستقبال الدبابات الإسرائيلية وللترحيب بها ظناً بأنها قوات عراقية ومصرية جاءت لتحل محل القوات الأردنية أو لمساندتها.. بيد أنهم سرعان ما عادوا أدراجهم إلى منازلهم..

في اليوم السابع من حرب "أيام حزيران الستة" والذي يمتد إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله له أن يطول، بدأت الأنظمة العربية وحكامها بوضع سيناريو وخلق مقومات وأسباب للهزائم في المستقبل فشطبوا الخيار العسكري، وألغوا فريضة الجهاد، وأغلقوا جهات فلسطين الأربعة

بالكامل في وجه العمل الفدائي، والتزموا بحبال الصمت المتسم بالجبن والخيانة أثناء ابتلاء ومعاناة أطفال وشيوخ ونساء الفلسطينيين في وقت الحرب والحصار والمجازر: في بيروت.. في صبرا وشاتيلا.. في المخيمات.. في تل الزعتر.. في الأحراش.. في تونس.. وفي غزة..!! وهم في كل ذلك يسددون الطعنات تلو الطعنات لقضية فلسطين العادلة ولأصحابها.. حتى جعلوا من "الخيانة" عند بني عرب "وجهة نظر" يدافعون عنها بمخارج الاعتذارات والتبريرات.. دولة الغزاة في بلادنا فلسطين أصبحت عندهم واقعاً مرغوباً فيه جداً ومطلوباً بإلحاح حتى جعلوا منها القوة العالمية الخامسة العظمى! ١٩

نشرت جريدة "الوطن" الكويتية في ٧ مارس عام ١٩٩٠.. "أن الرئيس عرفات يشكو لطوب الأرض بخل الدول العربية في تقديم الدعم المادي للثورة الفلسطينية" ويقسم يمينا: "... أنه ما حصلت عليه منظمة التحرير الفلسطينية خلال ٢٥ عاماً لا يتجاوز خمسة وعشرون مليوناً من الدولارات...!"

وتكمل مجلة "روز اليوسف" المصرية في نفس التاريخ أو ما يقاربه: أن ما قدمته الدول العربية للمجاهدين الأفغان خلال.. (تلك الفترة) هو مبلغ ١٩,٥ تسعة عشرة مليارات وخمسمائة مليون دولاراً منها ٧ (سبعة) مليارات أسلحة..

ومن هنا نقول: حمار وأمه أتاناً من قال ومن يقول.. إن فلسطين كانت
أو ستكون هي "قضية العرب أو المسلمين المركزية أو الأولى...!!".

(٦)

Exodus

أمام الصدمة القوية، والارتطام المؤلم على صخرة الهزيمة، فقد الناس
اتزانهم.. فاليقين بالنصر والتحرير الذي سبق حزيران عام ١٩٦٧م ضاعف
من هول الصدمة ومن إيقاعات كارثة الانكسار، ففرقت جماهيرنا
المهزومة في مستنقع الحزن واليأس والإحباط.. ولم يعد احد يطيب خاطر
أحد..! ولا عزاء للمهزومين.

أمام الكارثة: كان التشريد.. كان التيه الفلسطيني العظيم، خرجوا
من ديارهم لفيفاً.. لفيفاً.. في أخلاط شتى، لا يُعرف أولهم، ولا يُدرك
آخرهم.. لاجئون ونازحون، في يوم حشر.. مثال الذرّ في صور الناس،
تصاغرت إليهم نفوسهم فيه.. يعلوهم كل شيء من الصغار، والخذلان في
دمهم معهم يسير..

Exodus، أيام الخروج، أيام اللجوء وأيام النزوح، طرد الفلسطينيين
من ديارهم.. عجزنا عن تقديم كل هذه الأيام للعالم بصورها المأساوية
الفاضحة، لم نستطع حتى الآن أن نعرض قصصها الإنسانية التي طفحت
بها أيام التيه الفلسطيني الكبير..! الخروج اليهودي من مصر قام بوصفه
سفر خاص سمي باسمه، أما التيه الفلسطيني المستمر.. فلا سفر له ولا
كتاب قد وصفه!

❖ جماهير تلوك علقم الهزيمة في أفواهها في ذل ومهانة، وجماعات
تسير مطأطأة الرؤوس كمن رضوا بالضميم وأقروا به.. أفراد اعترتهم
خفة الحزن والهم فأخذوا ينشجون بكاء صامتاً، وعويلاً حتى احترقت
صدورهم.. منهم من سقط واستمر في سقطته.. قد نام.. أو قد أخذته
غيبوبة وكأنها موت..! التفت الآخرون حوله ثم تركوه نائماً.. نوم وماهو
نوم.. بل إلى الموت أقرب.. فالنيام والموتى يشبه بعضهم بعضاً، فلا فرق بين
نومهم أو الموت.

❖ زرافات، ووحداناً، وقومٌ شتات شتات داهم الفند رجالاً منهم
فخرفوا.. أصابهم الخرف من هول الموقف ودهائه، وفجائيته.. لا من هرم
ولا من مرض..! ونسوة عرّضت بأقوال لا تصدر إلا عن فساد عقل، أو
جنون!

فرادى وأزواج.. منهم من يمشي، وذاك يجد ويسير، وأحياناً يجري على
غير هدى.. ويجهل أنه لن يدرك الحياة التي يسعى إليها أبداً.

❖ أطفال وفتيان.. صِغَرُتْهُمْ - تنظر رافعة رأسها إلى أعلى - تسأل
كِبَرَتْهُمْ: إلى أين المسير؟! وإلى متى..؟! تسأل وهي في بكاء ورجاء!!
كلهم يبكون.. جوعاً وعطشاً.. وخوفاً وفقداناً.. يبكون من كل شيء
حولهم.. السيقان عارية، والأقدام حافية، مرتع للشوك والحشرات في
الجبال وفي الطرقات..

❖ أمهات لم ترفق بأولادهن بالسير ليلحقوا بها.. وصبايا ذات
أطفال، قريبات العهد بالولادة.. في طور النفاس.. لم تخرج من أيام ولادتها
بعد.. وأخريات أزلق تعبهن وإرهاقهن ما في بطونها من الأولاد.. رمت
بأجنحتها..! وبقيت وراءها تأكلها الطير والسباع!؟

❖ صوت في الهواء يصيح.. "نعمة..! يا نعمة!" فتلتقطه صاحبة الاسم..
فهي "نعمة" التي يهتف بها الصوت، فتقف واجمة فاقدة الحواس للحظات..
تنطلق بعدها عائدة القهقري.. إلى وراء! الخروج الكبير يتجه إلى
الشرق، و"نعمة" تقرر العودة نحو الغرب بعد أن واكبت مسيرة الخروج
حتى منطقة الخان الأحمر منتصف الطريق بين مدينتي القدس وأريحا!
فتعود نعمة.. وكلها بكاء وعويل وآلام ضمير استيقظ فجأة.. تعود
لتحضر رضيعها، فقد تركته في الغرفة في قريتها.. تركته في ذلك اليوم
الشديد، يوم لا يُنادى وليده! فقد كانت من هول شدته - تعيش خوف
المستقبل مشفقة - ! فانشغلت عن أحب الناس إليها.. وهو طفلها
الرضيع!!

❖ امرأة تلتقط ولداً ضائعاً.. تائهاً.. في بحار الحيرة غارقاً باكياً،
فتضمه إلى صدرها، وتأخذ بيده التي كانت برداً وسلاماً على كيانه
وعلى كينونته.. أسمته "يعقوب" فعرفناها فيما بعد بأبم يعقوب.. عانس لم
تتزوج مطلقاً، موتورة فقدت كل عزيز كان لها.. أطلقت عليه ذلك الاسم
تيمناً بالنبي يعقوب، الذي كشف الله عنه الضّرّ بقميص ولده الضائع
عندما عثر عليه.. فلعل الله يكشف عنها ضررها ببركة هذا الولد
الضائع.

❖ نسوة غصت بالبكاء فزعاً على افتراق أزواجهن، وعلى فقدان
أبنائهن. عوائل فقدت الموارد والتحويلات فاضطرب تفكيرها وعم قلقها،
وضاع مستقبل أبنائها وبناتها..!!

كانت الأعداد الكبيرة في التيه الفلسطيني ذاك تبدوا أشباحاً هائمة
بعد موات وهي تعبر نهر الشريعة - فوق بقايا جسر فجرته يهود - بعد
أن ساروا في نفس المسارات التي قطعها اللاجئون من قبلهم منذ تسعة
عشرة عاماً.. نفس الطرق التي لا رجعة منها لمن قطعها..! وعظم الله
أجركم!

ومن المضحكات المبكيات في ذلك التشريد الفلسطيني البئيس.. أن
الآلاف منهم وهي تنزح نحو الشرق كانت تغني، تضج بالحداء
والأناشيد..

لقد غنت:

"أجراس العودة فلتقرع"

"مررت في الشوارع ... شوارع القدس العتيقة"

"سيف ليشهر الآن ... الآن وليس غداً"

"حيوا جنود الوطن ... حيوا جنود حسين"

"ربّع الكفاف الحمر ... والعقل ميّالة"

أغاني وأناشيد غنتها كل شوارع وساحات الوطن العربي وهي تبشر
بالنصر.. قبل أيام الكارثة.. ولكن غناها الخروج الكبير في أصوات
حزينة تحولت إلى تكبيرات جنائزية؟

أمام هذا الانكسار التاريخي الذي ما زال يلقي بظلاله القاتمة على
الشخصية العربية حتى الآن، أشار أبو عبد الله على ابنته أن تلحق بزوجها
- الموظف في جهاز الشرطة - الذي سبقها في أيام الهزيمة الأولى بالنزوح
إلى عمان! وطلب منها أن تصطحب معها والدتها، زوجته العجوز! وكان
قراره الثاني هو البقاء في قرية البستان، وعدم مغادرة داره إلى أي مكان
على الإطلاق.. فهو - على حد قناعته - في قرية فلسطينية، يعيش قريباً
من القدس، تفصله عن الحرم القدسي والصخرة المشرفة كيلو مترات
ثلاث. وإلى جانب ذلك فإن قرية البستان تبعد عن قريته المحتلة مسافة
ثمانى كيلو مترات فقط. فشلت كل محاولات الزوجة والإبنة مع بكائها
في إقناع أبي عبد الله بالعدول عما قرره! فخرجتا مكرهتان باكيتان..
واصلتا البكاء حتى انخرطتا داخل قطعان التيه الكبير..!

بقي أبو عبد الله في داره، وما في القرية من ديار.. لم يبق فيها أحد
سواه! وحيد كل شيء في المكان..

ما كان قرار أبي عبد الله بالبقاء في فلسطين قراراً يدعو للغرابة أو
حتى للتساؤل.. ولم يكن قراره يأساً من الدنيا وشؤونها.. بل كان
احتجاجاً بالبقاء.. احتجاجاً على الخوف والهروب اللذين تردى فيهما
الأكثر.. كان هروباً إلى الذات ليعلن الاحتجاج على الواقع، ويرفض
الاشتراك فيه، إنه يرفض، نوع من الرفض وهو أضعف الإيمان عنده..!
فالإنسان، أي إنسان، في أي بيئة، وفي أي مجتمع.. بدائياً كان أو
حضارياً، له معاناته الذاتية، وله أساليبه الخاصة بنفذها سلوكياً في
التعبير عن ذاته..!

مضت أربعة شهور على بقاء أبي عبد الله في القرية، تعرض فيها إلى
ضغوط ومضايقات لا حصر لها - وأقولها خجلاً من نفسي أولاً ومن
القارئ ثانياً - مارسها عليه أثناء تواجده بالخليج، فاضطر أخيراً إلى أن
يلتحق بزوجته وبناته الثلاث في عمان.. فيقع فريسة للمرض لأيام طوال
على أثر وصوله إلى بيت اشتراه في الوحدات، وكان يحدث أن مرضه
إنما كان بسبب رؤيته لجنود العدو الغزاة محفوفين بالهيبة التي يتمتع بها
المنتصرون وهم يديرون حركة العبور من فوق الجسر.

اتفق أبو عبد الله قبل مغادرة الدار، مع أحد أصدقاء الثورة في
الثلاثينيات، من الثوار القدامى، وكلاهما قد ناهز الثمانين من عمره..

كان الصديق من إحدى عوائل مدينة الخليل.. من عائلة "حلس".. ومن خلال المودة التي هي رائدة الأخوة، اتفقا معاً وتجارجا! تخارج أبو عبد الله عن ملكه.. عن داره إلى صديقه بالبيع.. وبعد خمسة شهور من اتفاق التخارج ذاك، لحق "حلس" الصديق بالصديق في عمان.. وسدد الدين مقابل العين في قدس الأقداس..!

المصيبة بالأمّة قد حلت، وعلى الفلسطينيين قد طمّت، فتم تمرير الكارثة، ولم تضيع فلسطين فحسب.. بل وكل الأوطان معها.. وهكذا تواصل يهود في التخفيف ما استطاعت، وبكل السبل، من سكان فلسطين الأصليين، لتقذف بهم سكاناً غير أصليين في المنايا والشتات..!!

دور هذه القيادة العربية أو تلك ووظيفة هذا العميل أو مهمة ذاك الجاسوس في التمهيد وفي تمرير الكارثة كلها مسائل لها وقتها حين يفرج فيه عن الملفات، وحين يجري كشف الوثائق وما حوته، وحين تبوح الصدور بما تخفيه، صدور الشرق والقرب ... وإن غداً لفضائحه ومخازيه لقريب !

(٧)

العمل الفدائي

قبل عودة الفتى من الإجازة الصيفية إلى وظيفته في الخليج في آب/ أغسطس ١٩٧٠م، جرى الحوار التالي حول العمل الفدائي الفلسطيني مع أبيه.. كان ذلك الحوار ساخناً بحرارة موضوعه.. وكنت قد وصلت إلى قناعة لا تهتز بأن العمل الفدائي سوف يجمع أمر الأمّة ومتفرق كلمتها علاوة على تحرير فلسطين.. أشرت إلى ذلك مبيناً قناعاتي وابتهاجي بها مما حدا بأبي عبد الله أن يرد معلقاً:

أبو عبد الله: أفرطت في الأمر.. وحملت العمل الفدائي فوق ما يطيق! الإبن: إن ما أراه في قبائل الخليج.. شعوباً وحكومات وهي تساند العمل الفدائي في حماس منقطع النظير؛ مالاً وسلاحاً وسيارات مختارة للعمل.. و.. هو مصدر قناعاتي بنجاح هذا العمل وابتهاجي به.. أبو عبد الله: لا تشطط في التفاؤل، فتبتعد عن الحقيقة والتاريخ وكلاهما قريب!

الإبن: أي حقائق..؟ وأي تاريخ؟

أبو عبد الله: أسألك عدداً بسيطاً من الأسئلة، فتجيبني إجابة واحدة.

• من أفضل الثورات الفلسطينية في ثلاثينيات القرن الماضي؟

• من أوقف نضال الهيئة العربية العليا وحاصر زعيمها الحاج محمد أمين الحسيني، وكانت القضية الفلسطينية مناط عملهما؟

• في قمة الخرطوم عام ١٩٦٧ - جرى منع أحمد الشقيري من الاشتراك مع الزعماء العرب في المؤتمر، فجرى تهमيش منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت مسؤولة عن العمل الفلسطيني السياسي والعسكري. من قام بالمنع وبذلك التهميش؟

• ومن قام بضرب الإخوان المسلمين عند عودتهم من الجهاد في فلسطين عام ١٩٤٨م وبزجهم في السجون والمعتقلات. حتى اليوم. نظير استبسالهم وشجاعتهم في الحرب والفداء؟

الإبن: الكل يعرف الملوك والزعماء العرب... وأنظمهم.

أبو عبد الله: هذه الأنظمة لا تزال باقية حتى الآن. جبارة على الشعوب. خوارة في الحروب. مصالحها التطرية لها الأولوية دائماً، وإذا ما تعارضت مع ما يسمى عندها أو يقال 'مصالح قومية'، لا تتوانى أبداً أن تضرب مدنها بطائراتها وبمدمقاتها وبدياباتها دون تمييز بين الناس حتى تجعل الأطفال يتساءلون: 'هل جاء اليهود؟'

الإبن: أراك يا أبي تتعاف العمل الفدائي (وتبعده كثيراً عن قبولك به) أبو عبد الله: انتبه، وثروتي في حكمك. لا تسيء الفهم. (فحاشا لله! فإن العمل الفدائي هو أشرف وأنبى ظواهر النضال الفلسطيني. بل هو

الجهاد في سبيل الله. الجهاد الذي أوقفته ومنعته الأنظمة... ما نخلت أمة عن الجهاد إلا ذلك. وهانت حتى على الدود واليهام.

أسألك: كم عدد المنظمات الفدائية الفلسطينية المتواجدة هذه الأيام على الساحة الأردنية؟

الإبن: أربعة عشرة منظمة تتراوح في إيديولوجياتها بين اليمين واليسار، تطرفاً واعتدالاً.

أبو عبد الله: كل هذه المنظمات على خلاف، وفي شقاق وتناحر وقتالاً شاتها في تقزيم وتخريب العمل الفدائي هو شأن الأحزاب الفلسطينية العميلة وليدة التنازع العشائري والعائلي في أول أضرار العمل الوطني الفلسطيني في أعوام العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات.

الإبن: (مقاطعاً) لقد ذهب أمس بما فيه!

أبو عبد الله: وهل يؤمننا هذا طيب مبارك؟ لقد غدا أمس من الأموس السابقة. على شاكلتها وفي الأسوأ درجة.

أبو عبد الله: أسألك مرة أخرى، نفس السؤال الذي طرحته على 'الحكيم' الشهر الماضي.

الإبن: الحكيم. جورج حبش؟

أبو عبد الله: هو بعينه.

الإبن: ماذا دار بينك وبينه من الحديث؟

(أ)

الرحلة الأخيرة

كان لهزيمة حزيران عام ١٩٦٧م الأثر المدمر على شخصية أبي عبد الله وقد جرى ذلك الأثر في جسده مجرى الدم، حتى وصل حد كسر الروح، وانكار العقل..!

في آب/ أغسطس عام ١٩٧٢م اغتتم فرصة للسفر إلى فلسطين بتصريح زيارة أهداه له ابن عمه أبو حسين من سكان القدس ومن هناك تيسر له زيارة قريته المدمرة بصحبة ولد عمه وزوجته.. حدثاني عن ذلك اليوم الشديد، يوم تلك الرحلة، وقد أدلى كل منهما بحصته من الحديث كل على حدة:

أبو حسين: كان عمي أبو عبد الله متوتراً ومتفعلاً حد الانصهار في بوتقة ما يراه لا يدري أي شيء ينظر أو يلمس أو يشم.. يحرك رأسه يمنة ويسرة، بدور حول نفسه وهو واقف على رسم لاصق بأرضية صحن الدار، كان ذات يوم على أحسن هيئة لمجلس أهله..! كان عمي يبدو وكأنه يريد التهام كل شيء..! كل ما في شخصه.. أعضاء جسمه كلها: مكوناتها، وأحاسيسه ومشاعره.. كلها تحولت إلى أفواه تلتهم الأرض والسما، والتراب والهواء، والنبات والماء..

أبو عبد الله: حدث أن اجتمع الحكيم مع رفاقه في منزل أخيك أكثر من مرة.. سألته مرة.. هل كل هذه الأشكال الداخلة والخارجة من الاجتماع فدائيون؟ (وعددت له عشرة أسماء منهم) فإن كانوا كذلك فعلى العمل الفدائي أنف سلام وسلام.. فلان.. وفلان.. وفلان.. وكلهم قد أعطوا مراكز حساسة في عمل الميليشيات الشعبية.. ثم سألت الحكيم: كيف يحدث ذلك.. "مائة بكى ما عمروا جامع" يا حكيم..! ولا كنيسة..!!

الابن (مقارناً): وماذا كان رد الفعل عند الحكيم يا أبي..؟

أبو عبد الله: كان رد الحكيم ابتسامة عريضة حكيمة..!

الابن: عجيب يا أبي.. ماذا رايت منهم..

أبو عبد الله: رأيت مالا يسرني أبداً.. ولا يليق بأي منظمة ثورية فدائية.. أنت تعرف فلان وفلان.. أعرف أنك تعرفهم كل المعرفة.. اختلفا - حد الحراة - على أيهما يقوم بتأهيل إحدى الرقيقات وقد تخرجت حديثاً من جامعتها، كمنشرة ناجحة تنشر إيديولوجية منظماتها بين الشباب.. وكانت فتاة أسرة الجمال ذات جاذبية طاغية.. فرست أخيراً على أحدهما لتأهيلها، وكان ذلك الأحدهما يقوم بتدريبها تحت رقابة زوجته التي كانت تحترق بغيرتها في داخلات النفس فيها.. بينما يقوم هو بنقح دخان غليونه المتزوج في أرجاء المكان حنقاً من تواجد زوجته! أين الثورة في ذلك..! وأين منه العمل الفدائي..! ١٩

م أم خليل: كان منظره في مشهده مؤلماً موجعاً، فقد كان يودع القرية،
لم يكن يصدق في تلك اللحظات أنه يطأ أرض قريته بيقين قدميه..
أبو حسين: (مقاطعاً ومتمماً حديث زوجته) كان في حالة ارتجاف
دائم.. لا يثبت في وقوفه.. أحداً ما.. معروف.. يسحب أرضه فتترلق من تحت
أ. قدميه على كل العيون التي لم يخالطها قذى.. يرى ذلك عياناً.. وعناء..
د وعند العودة إلى منزل ابن عمه، أحضر أبو حسين الطبيب للاطمئنان على
د صحة عمه. الطبيب نصح أبا عبد الله بالعودة في أقرب وقت إلى أهله في
عمان.. فعاد دون أن يتم أياماً أراد قضاءها في فلسطين!

عاش في بيته في عمان.. في أجواء الحسرة والفقدان.. أجواء ذهبته نفسه
فيها قهراً وحسرات! عانى فيها ذاتاً متشظية، اقتلعت من ماضيها،
وحوصرت في حاضرها! كان فيها يعيش (الفرق الأكبر عن كل وصف)
أز بين فلسطين القابعة في ذاكرته وفي ذاكرة باقي خلق الله المنكوبين من
أا اللاجئين ومن النازحين.. وأجيال أحفادهم، وبين فلسطين القابلة
م للمشاهدة المفجعة وللمعاينة الأليمة..!! بين فلسطين التجريدية وفلسطين
و الفيزيائية..! فقد الأمل في التحرير، وفي العودة فيما تبقى من أيامه على
لن الأقل..! وصار يطيل، ويكرر الحديث - عن زيارته لقريته - لأهله
د ولزواره ولعارفه.. حدثهم مراراً وتكراراً دون أن يميز بين من تحدث إليه
ه سابقاً في موضوع رحلته الأخيرة وبين من لم يتحدث إليه بعد: كان يقول

لهم: أنه قد قبل ترابها، واكتحلت عيناه بمشاهدة أرضها وسماؤها، وأنه
تتنفس هواءها، وتهنأ بشرب مائها الرواء!
رحلته الأخيرة أوقعته في الفند أو قرب من ذلك.. يهذي أكثر ما يهذي
بذكريات بلده.. وبذكرى الثورات الفلسطينية في الثلاثينيات..
يتذكرها ويذكر رجالها.. ثم تطور أمر اضطراب التذكر عنده أن بدأ
يخلط بينهم وبين فرسان العمل الفدائي الجدد! يتذكر الماضي ويحب
الحديث فيه، أما الحاضر فلم يكن على ود معه أبداً، كأنه يحاول
إبعاده عن حياته، بل إلغاءه كلية من وجوده..

لم تطل الحياة بأبي عبد الله

حتى قضى عام ١٩٧٤

كانت بلده آخر صورة للحياة تختزنها عيناه

الفهرس

الفصل الثالث:

١. الجذور القريبة ٧٤
٢. اللطيم ٨٢
٣. قارب الحُلم ٨٦
٤. بحر نوم لجي ٨٨
٥. جاهلية ٩٣

الفصل الرابع:

١. الخروج ٩٧
٢. والذي قدر فهدى ١٠١
٣. أريج الانسانية ١٠٥
٤. الزواج الأول ١١٠
٥. الزواج الثاني ١١٦

الفصل الخامس:

١. التتشه بن حبيب الجاري ١٢٠
٢. نُضْرَه ١٢٢
٣. في الجورة ١٢٤
٤. في الحظيرة ١٢٥

الجزء الأول

"حديث القريتين"

الفصل الأول:

١. حديث القريتين ١٦
٢. الكواكب ٢٢
٣. ذباح البارد ٢٤
٤. بؤم وغريان ٣٠
٥. صادوه ٣٤
٦. العودة إلى الكواكب ٣٩
٧. في بلاد بني معروف ٤٣

الفصل الثاني:

١. أمي.. لهجة أطرب لسماعها ٥٢
٢. قصة العم رشدان ٥٦
٣. أفند الكواكب ٦٢
٤. الفاجعة ٦٧
٥. غرماؤنا ٧١

الفصل السادس:

١. الدين ١٢٨
٢. أعاصير ١٣٠
٣. القضاء الشعبي ١٣٢
٤. في مقام النبي شعيب ١٣٥

الفصل السابع:

١. حبوس ١٣٧
٢. مهيرة ١٤٢
٣. في كل شيء إذا أمنت قلعة هيهات تفراها في أعظم الكتب ١٤٥
٤. في المعيشة فقه ١٥١
٥. لكل ناس في جملهم خير ١٥٤

الفصل الثامن:

١. حكومات العشائر ١٥٨
٢. العزم على الرحيل ١٦٠
٣. ودع في الوديع ١٦٤
٤. الرحيل ١٦٨
٥. الوصول ١٧١

٦. القرية ١٧٥

٧. اللقاء الكبير ١٨٢

الفصل التاسع:

١. فعل الحرية المثلث ١٩١
٢. مجتمع الرعاة ١٩٦
٣. ابن الخلفة ٢٠٠
٤. الانكفاء ٢٠٧
٥. خطيفة ٢١٦
٦. آمت ٢٣٥

الفصل العاشر:

١. فطرة القرين. وحديث النفس ٢٤٦
٢. الأرض ٢٥٥
٣. واقع البلد ٢٦٤
٤. أوزاق ٢٧٤
٥. البلاد. الأحزاب. الزعماء ٢٨٠
٦. سماسة وعملاء ٢٨٩

الجزء الثاني

"لَفْطُ المَدَائِنِ.. وَأَحَادِيثُهَا"

الفصل الأول:

١. بداية الصراع ١٠٠
٢. حديث الناس ١٨

الفصل الثاني:

١. أرزاق "٢" ٣٣
٢. مائت وميِّت ٤٤
٣. اللابشمانية ٥٠

الفصل الثالث:

١. حصر وقلق ٥٣
٢. العث.. أصلا في القضية ٦٥
٣. ارهاص للشقات واصرار على الضياع ٥٩
٤. عند الزعيم ٧٠
٥. امتلاء التجربة ٧٥

الفصل الرابع:

١. في لبنان ٣٨٠
٢. من قرية غَمَر ٣٨٥
٣. محكمة ٣٨٨
٤. البورناوي والغرباوي ٣٩١
٥. زعامة.. و.. طفولة ٣٩٣
٦. تقييم ٣٩٥

الفصل الخامس:

١. عصرنا اليوم كل ما فيه واضحا كالضحى دون طلاسم ٣٩٩
٢. وإلى قريته يعود ٤٠٢
٣. بغي الخطاء ٤٠٤
٤. ما للمدائن من سترومن حجر ٤٠٧
٥. قبس من نور ٤١٠
٦. حتى يتم الخراب ٤١٢
٧. فنذر قتله ٤١٨
٨. وقلب له ظهر المجن ٤٢٦
٩. عودة الزعيم ٤٣١

الفصل السادس:

١. سنة أولى مصر..... ٤٣٤
٢. فسوق الرجال وفساد السلاح..... ٤٤٠
٣. أغبياء..... ٤٤٣
٤. رغم أنوفنا هم الأذكياء..... ٤٥٠
٥. السقوط المدوي..... ٤٦٠
٦. خيبة الأمل يحملها لنا جمل..... ٤٦٤
٧. العظماء..... ٤٦٨
٨. بالله قولوا بأجمعكم يا ليت ما كان لم يكن..... ٤٧٣
٩. العشاء الأخير..... ٤٧٩

الفصل السابع:

١. أوطان.. وأعطان..... ٤٨٣
٢. نُزْلٌ جديد..... ٤٨٧
٣. عطنٌ جديد..... ٤٩١
٤. No Arabs Land..... ٤٩٥
٥. أم السن..... ٤٩٧
٦. خليلان..... ٥٠٤
٧. .. وحرب شطون..... ٥٠٧

٨. أخو غمرات علوا وشأننا..... ٥١٠
٩. انحنى إجلالا.. لأقبل يديك..... ٥١٤

الفصل الثامن:

١. إلى أين تذهب؟ وتلوذ وترحل..... ٥١٧
٢. الحركة.. بركة..... ٥٢١
٣. الرحلة الثانية..... ٥٢٩
٤. العودة إلى الشرق..... ٥٣٩
٥. سادوا.. ثم بادوا..... ٥٤٤
٦. Oxodus..... ٥٥٠
٧. الفدائيون..... ٥٥٧
٨. الرحلة الأخيرة..... ٥٦١

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩ / ٧ / ٣٣١٠)

٨١٣ .٩

سمرين، غالب محمد

حديث القريتين

غالب محمد عبد الله سمرين

عمان - ٢٠٠٩

المواصفات: /الرويات العربية// العصر الحديث/

© جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نشر أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته
بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي وجه، أو بأي طريقة أكانت
إلكترونية، أو ميكانيكية، أم بالتصوير، أم التسجيل، أم بخلاف ذلك،
دون الحصول على إذن الناشر الخطي، وبخلاف ذلك يتعرض الفاعل
للملاحقة القانونية.